

العصر المماليكي

في مصر والشام

تأليف

دكتور سعيد عبد الفتاح فايشور

أستاذ تاريخ العمور الوسطى المساعد
كلية الآداب — جامعة القاهرة

الطبعة الثانية

١٩٧٦

الناشر

دار النهضة العربية

٣٧ شارع عبد الحفيظ فروت — القاهرة

العصر المماليكي

في مصر والشام

تأليف

دكتور سعيد عبد الفتاح عايش

أستاذ التاريخ المعاصر والوسطى المساعد
كلية الآداب - جامعة القاهرة

الطبعة الثانية

١٩٧٦

الناشر

دار النهضة العربية

٣٢ شارع عبد الحفيظ روت - القاهرة

وزارة الشؤون الدينية
لصاحبها: محمد عبد الرزاق
١٩ كنيسة الأوربيين في الجديش
تشرين ١٩٤٠

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

التاريخ دول ؛ وتاريخ مصر العريق حافل بعديد الدول التي تعاقبت في حكمها . وبين هذه الدول العديدة التي زخر بها التاريخ المصري في العصور القديمة والوسطى والحديثة ، تحتل دولة المماليك مكانة خاصة بارزة تجعل من عصر سلاطين المماليك عصرًا جديرًا بمزيد من الدراسة والبحث والتحصيل . هذا بالإضافة إلى أن الأحداث الخارجية والداخلية التي ارتبطت بذلك العصر لا تعكس أهميتها على تاريخ مصر والشام فحسب ، بل على تاريخ الشرق الأدنى عامة في العصور الوسطى ؛ فضلاً عن التيارات العالمية الكبرى — اقتصادية وغير اقتصادية — التي ارتبطت ارتباطاً مباشراً بتاريخ المماليك في مصر والشام .

وإذا نحن ذكرنا تاريخ المماليك ، فإننا يجب أن نذكر تلك الأعداء من الجنسيات الأوروبية والآسيوية المتباينة الذين أتوا فرادى أو جماعات صغيرة ، بعضهم من الترك والجركس والتتار والصينيين ، والبعض الآخر من الصقالبة واليونانيين والأرمن والألمان . . . حملهم تهمار الرقيق صفاراً إلى بلاد غير بلادهم ليشتبوا في أرض جديدة وعلى ديانة جديدة ويصبحوا نواة الحكم وأداة الحكام وقوة المستقبل التي قدر لها أن تسيطر على مصائر البلاد والعباد أكثر من قرنين ونصف من الزمان .

وإذا نحن ذكرنا عصر المماليك في تاريخ الشرق الأدنى ، فإننا يجب أن نذكر آيات البطولة التي أبدتها تلك الدماء الجديدة في الدفاع عن الوطن العربي ضد الأخطار الكبرى التي هددهته من جانب التتار حينئذٍ ومن جانب

(٤)

العالميين والغرب الأوربي أحياناً . وما زالت أسماء مواقعهم جالوت ومرج الصفر من ناحية ، والمنصورة وفارسكور وأنطاكية وطرابلس وعكا وخبر وكيتا من ناحية أخرى ؛ ما زالت هذه الأسماء حية في التاريخ تنطق بالبطولة والشجاعة والفداء .

وإذا نحن ذكرنا عصر المماليك ، فإننا يجب ألا ننسى ذلك النشاط الديني والعلمي الحصب الذي صاحب انتقال الخلافة العباسية من بغداد إلى القاهرة ، والذي ظهر أثره وتردد صده في مصر والشام جميعاً ؛ فنحرص على المبالغة في إحياء شعائر الدين والاهتمام بإقامة المنشآت الدينية وإقبال منقطع النظر على حياة الزهد والتصوف ... إلى رغبة جامعة في التعليم والتعلم ونشاط ليس له مثيل في ميدان الكتابة والتأليف . حتى أننا مازلنا عاجزين حتى الآن عن نشر مئات الموسوعات والمخطوطات التي ألقت في عصر المماليك في مختلف ألوان المعرفة والتي تسكنظ بها دور المكتب في العالم أجمع ، مشرقة ومفربة .

وإذا نحن ذكرنا عصر المماليك ، فإننا يجب أن نذكر أنه العصر الذي غدت فيه مصر والشام قسبة التجارة العالمية ، والمعبر الرئيسي لتجارة الشرق في طريقها إلى الغرب ، الأمر الذي يجعلنا نفكر في ضوئه تلك الثروة الواسعة التي تمتع بها المماليك ، وذلك الأثر الضخم وما ارتبط به من مظاهر السعة والآبهة الذي اتصف به عصرهم . وما زالت مخلفات وآثار المماليك من جوامع شاهقة ، وقصور فخمة ، ومصنوعات فنية دقيقة ؛ فضلاً عما حفلت به مراجع العصر المماليكي من وصف لحياة المماليك ، وما فاض به مجتمعهم من ألوان البذخ والغنى العريض ... ما زال ذلك شاهداً على أن ثمة موارد مالية إضافية ضخمة تمتع بها الحكام في ذلك العصر وأصاب المحكومون بعضاً من فتاتها .

* * *

(هـ)

وهكذا يبدو أن عصر المماليك ليس عصرًا عاديًا من العصور الهادئة أو الحامدة في التاريخ ، وإنما هو عصر حركة دائمة ونشاط دائم : في الخارج حروب وتوسع وانتصارات ترتب عليها تأمين الوطن العربي في الشرق الأدنى . . . وفي الداخل حياة صاخبة حافلة بالتيارات الاقتصادية والدينية والعلمية والاجتماعية . فلا عجب إذا احتلت دولة المماليك مكانة هامة بارزة في التاريخ ، لا تاريخ مصر والشام والشرق الأدنى فحسب ، بل تاريخ العالم أجمع أواخر العصور الوسطى . وخير شاهد على ذلك ، تلك السفارات العديدة التي قصدت بلاط سلاطين المماليك في القاهرة من قبل ملوك الشرق والغرب جميعاً ، وذلك العدد الضخم من المراسلات والمكاتبات التي كان يتلقاها ديوان الإنشاء بالقاهرة في ذلك العصر من مختلف الحكام ، والتي كان يقوم بالرد عليها وفقاً لتقاليد وقواعد دقيقة معروفة .

والعجيب أنه مع ما لعصر المماليك من أهمية بالغة بالنسبة لتاريخ مصر والشام من ناحية ، وتاريخ الشرق الأدنى عامة من ناحية ثانية ، وتاريخ العالم في أواخر العصور الوسطى من ناحية ثالثة ؛ مع ذلك كله فإن المكتبة العربية ما زالت حتى اليوم خلوا من كتاب واحد يعالج تاريخ ذلك العصر في صورة وحدة مترابطة تبدو في إطارها العام مميزات ذلك العصر وخصائصه ومظاهره .

وقد حاولت في هذا الكتاب الجديد أن أسد تلك الثغرة الهامة التي تشكو منها المكتبة العربية ، فخرصت فيه على إعطاء القارئ العربي صورة متكاملة للعصر المماليكي بين سنتي ١٢٥٠ ، ١٥١٧ الميلاد ؛ وحاولت بقدر الإمكان أن يكون علاجي لتاريخ ذلك العصر الهام علاجاً موضوعياً شاملاً بعيداً عن التفصيلات الثانوية الصغيرة التي لا تخدم التاريخ بقدر ما تفسد عرضه .

ولما كانت المراجع الأولى الأساسية لعصر المماليك مليئة بالمصطلحات الغربية غير المألوفة ، التي لا نجد لكثير منها تفسيراً في القواميس العربية لأنها

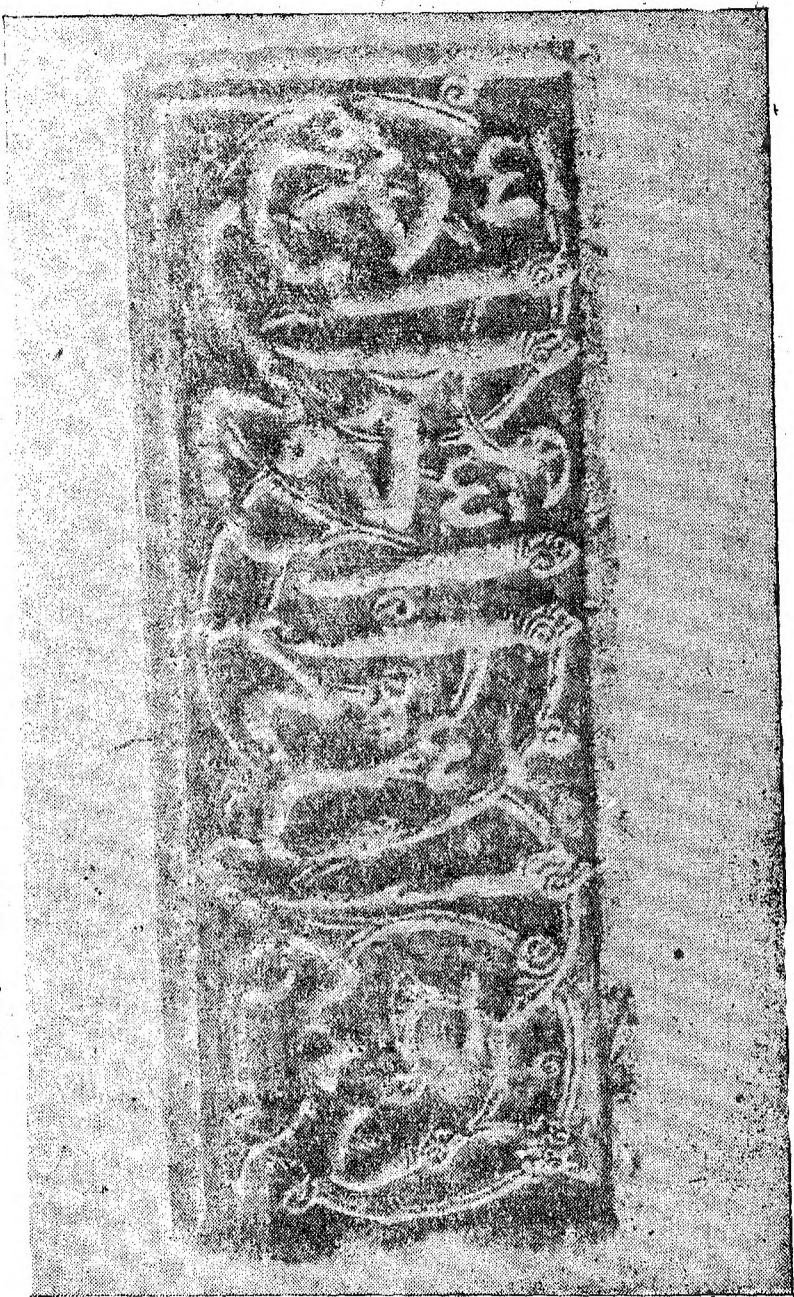
(و)

دخلت مع التيارات العديدة غير العربية التي تعرضت لها منطقة الشرق الأدنى في العصور الوسطى ؛ فإنني رأيت إنتماً للفائدة أن أورد في نهاية الكتاب كشافاً بأهم تلك المصطلحات مع شرحها شرحاً علياً ، مستعيناً في ذلك بجهود الأساتذة المتخصصين الذين سبق أن أسهموا في خدمة تاريخ الممالك .
والله أسأل أن يوفقنا فيما ذهبنا إليه من رغبة صادقة في استكمال نواحي النقص في مكتبتنا العربية .

سعيد عبد الفتاح عاشور

ضاحية المعادي في ٣٠ شعبان ١٣٨٤ هـ
٣ يناير ١٩٦٥ م

عجزة (بسم الله الرحمن الرحيم) محفورة على قطعة من الرخام. بالخط النسخ المائلي



الفصل الأول

قيام دولة المماليك في مصر

نشأة نظام المماليك في الدولة العثمانية:

المملوك وجمعه ممالك اسم مفعول مشتق من الفعل العربي «ملك» ؛ ويقال عبد مملوك بفتح اللام وضمها إذا سُبي ومملك دون أبويه . ويبدو أن هذا المعنى مأخوذ من القرآن الكريم ، حيث وردت عبارات « مملكت أيمانكم » و « مملكت أيمانهم » و « مملكت يمينك » أكثر من مرة (١) .

ولم يلبث اللفظ أن اتخذ معنى اصطلاحى خاص فى التاريخ الإسلامى ، فأصبح يقصد بالمماليك جموع الرقيق الأبيض الذين كانوا يصبحون رقيقاً إما نتيجة للأسر فى الحرب أو للشراء من التجار الذين يهلبونهم إلى البلاد الإسلامية حيث يطلبون أماناً من نفقة لبضاعتهن .

وكان الخلفاء العباسيون هم أول من استخدم المماليك — أو الرقيق الأبيض — واعتمدوا عليهم فى توطيد نفوذهم . والمعروف أن الدولة العباسية قامت على اكتاف الفرس ، ولم يكن الخلفاء العباسيين — وبخاصة منذ أيام الخليفة المأمون — أخذوا يخشون ازدياد نفوذ الفرس ويشككون فيهم ، فلجأوا إلى الإكثار من شراء ممالك من الترك ليعتمدوا عليهم فى دعم نفوذهم وسلطانهم .

(١) انظر مثلاً سورة النساء آيات ٣ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ٣٩ : وسورة النحل آية ٧١ .
وسورة النور آيات ٣١ ، ٣٣ ، ٥٨ . وسورة الروم آية ٢٨ . وسورة الأحزاب آية ٥٠ .
(١ — العصر المماليكى)

ولم يلبث أن شاع استخدام الماليك في كثير من أرجاء الدولة الإسلامية، فأدى ضعف الدولة العباسية من جهة ورغبة حكام الولايات في الاستقلال من جهة أخرى إلى اعتمادهم على ما يشترطونه من ماليك في تأليف جيوش يحفظون بها مصالحهم . وفي جميع الحالات كان التطور يسير في نفس الطريق تقريباً ؛ فالماليك الذين يحملون صفاراً يحفظون بهطف ساداتهم وأساندتهم فيتحاربون ويزداد نفوذهم حتى يستطيعون على مقاليد الأمور في البلاد التي استوطنوها .

وكانت مصر مثلاً بارزاً لولايات الدولة العباسية التي شهدت هذا التطور نحو ازدياد نفوذ الماليك حتى تملكوا البلاد . فطولون — الذي أسس ابنه أحمد الدولة الطولونية في مصر — كان مملوكاً تركياً آل إلى الخليفة المأمون العباسي . وعندما طمع أحمد بن طولون في الاستقلال بمصر رأى أن يدعم استقلاله بقوة ضاربة من الماليك الديلمية والأتراك ؛ حتى ذكر ابن أبياس أن ماليك أحمد بن طولون بلغوا أربعة وعشرين ألفاً^(١) . فلما دالت الدولة الطولونية وأسس محمد بن طغج الأحميد دولته في مصر سنة ٩٣٥ ، اعتمد هو الآخر على الماليك من الأتراك والديلم حتى بلغت عدة ماليكه ثمانية آلاف مملوك ، على قول أبي المحاسن^(٢) . وإذا كان الخلفاء الفاطميون الأوائل قد اعتمدوا على المغاربة والسودان في تأليف جيوشهم ؛ فإن الخلفاء الأواخر في الدولة الفاطمية — منذ عهد الخليفة المستنصر فصاعداً — أكثروا من الاعتماد على الماليك — الترك وغير الترك — وبذلك حافظوا على سياسة الطولونيين والأحميديين في الاعتماد على الماليك وهكذا حتى قامت الدولة الأيوبية لتفتتح صفحة جديدة في تاريخ الشرق الأدنى والماليك جميعاً .

(١) ابن أبياس : بسائغ الزهور ج ١ ص ٣٧ .

المقريزي : المواعظ ج ١ ص ٩٤ .

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٢٥٦ ، ٥٩٠ .

ازدياد نفوذ الماليك في عصر الطبريين :

والواقع إن العصر الذي أعقب وفاة صلاح الدين الأيوبي سنة ١١٩٣ شهد ازدياد أعداد الماليك في مصر والشام ازدياداً كبيراً يستوعب الالتباه . ذلك أن وريثة صلاح الدين - من أبنائه وأخوته وأبناء أخوته - اقتسموا فيما بينهم تلك الدولة الواسعة ، فصارت دمشق ومصر وحلب والكرج وبصرى وبعلبك وحمص وحماء ... وغيرهما مراكز لإمارات مهمة يحكمها بعض أبناء البيت الأيوبي (١) . ولم يلبث أن دب الخلاف والشقاق بين وريثة صلاح الدين فقامت الحروب فيما بينهم وبين بعض ، كقامت المنازعات فيما بينهم من ناحية وأبناء البيوت القديمة الأخرى التي ظلت تحكم أجزاء من الوطن الإسلامي في الشرق الأدنى ، مثل أبناء البيت الزنكي في الموصل وسنجار ، وكيفا وآمد وخرنبرت فضلاً عن بني مكان في خلاط ... من ناحية أخرى .

وفي وسط تلك الفوضى الضاربة التي عمّت العلاقات بين حكام مصر والشام عقب وفاة صلاح الدين ، كان لابد لكل أمير من الأمراء أن يكون لنفسه عصبية يعتمد عليها في الاحتفاظ بإمارته أو في تحقيق مطامعه على حساب أمير آخر قريب أو بعيد (٢) . ولم يجد أمراء المسلمين - من أيوبيين وغير أيوبيين - وسيلة يتقنون بها في أوجه خصومهم سوى الماليك - أو الرقيق الأبيض - ، فأكثروا من شرائهم وعنوا بتدريبهم وتلأشهم ليسكنوا عدة وسنداً لهم . وهكذا شهدت السنوات الأخيرة من القرن الثاني عشر والنصف الأول من

(١) عماد الدين الكاتب : المتج الذي ص ٣٥٨ - ٣٥٩ ،

ابن واصل : مغر الجروب ج ٢ ص ٣٧٨ - ٣٧٩ ،

أبو شامة : كتاب الروضين ج ٢ ص ٢٢٦ .

(٢) سعيد طهري : الحركة الصليبية ج ٢ ص ٩١٢ وما بعدها .

القرن الثالث عشر ازدياد نفوذ المماليك في مختلف الإمارات والدول الإسلامية في الشرق الأدنى ، ومنها مصر ، وسرعان ما غدا لأولئك المماليك كلمة مسموعة في الأحداث والحلقات التي تعرضت لها المنطقة . من ذلك ما تزويه المراجع من أنه عندما توفي الملك العزيز عثمان سلطان مصر في نوفمبر سنة ١١٩٨ ، وتعالج العادل أخو صلاح الدين الاستيلاء على مصر ، خشي المماليك الأسدية والصلاحية في مصر سطوة العادل ، فتدخلوا فوراً وامتعدهوا الملك الأفضل من حوران وسلموه مقاليد الأمور في مصر في يناير سنة ١١٩٩ (١) .

و خلاصة القول أن سلاطين الأيوبيين وملوكهم دأبوا على شراء ممالك صغار من الرقيق الأبيض وبخاصة من بلاد القفجاق وما وراء النهر ، واتخذوا منهم قوة يعتمدون عليها في تثبيت حكمهم والوقوف في وجه خصومهم . وقد ظل أولئك المماليك الأتراك أداة سهلة ليثة في أيدي ساداتهم الأيوبيين . طالما احتفظ أولئك السادة بقوتهم و هيبتهم . وإلى جموع المماليك بالذات يرجع الفضل في احتفاظ خلفاء صلاح الدين -- وبخاصة العادل والكمال بنفقهم الحربي في وجه خصومهم من الصليبيين ومنافسيهم من أسراء المسلمين . ولم يلبث أن أصبح المماليك الأداة التي لا غنى عنها للملوك الأيوبيين للاحتفاظ بسلطانهم ، مما أدى إلى تضخم نفوذهم السياسي نتيجة لشعورهم بأهميتهم .

المماليك البحريون :

وقد بلغ من ازدياد نفوذ المماليك السياسي في الدولة الأيوبية في النصف الأول من القرن الثالث عشر ، أنهم دبروا مؤامرة مكنتهم من خلع العادل الثاني

(١) الميرزى : السلوك ، ج ١ ص ١٤٦ - ١٤٧ .

أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ص ٢٣٥ .

ولاحلال الصالح أيوب محله في السلطنة^(١) وهكذا أحس السلطان الصالح نجم الدين أيوب (١٢٤٠ - ١٢٤٩) بفضل المماليك عليه ، وأهميتهم له في توطيد سلطانه والاحتفاظ بمملكته ؛ فأكثر من شراء المماليك وعفى بهم غنابة فائقة جعلت نفوذهم يتضح في صورة ملهوسة على أيامه . ويروي المؤرخ العيني أن الصالح نجم الدين أيوب « جمع من المماليك الترك ما لم يجمع غيره من أهل بيته ، حتى كان أكثر أمراء المسكر ممالكه ، ورتب جماعة من المماليك الترك حول دوايره ومخامهم البحرية »^(٢) .

وقد تعددت التفسيرات لاسم البحرية الذي أطلق على ممالك الصالح أيوب فالرأى القديم الشائع - وهو الأرجح في نظرنا - يقول إن هذه الطائفة سميت بالبحرية نسبة إلى بحر النيل ، حيث أن السلطان الصالح أيوب اختار لهم جزيرة الروضة وسط النيل لتكون مستقراً ومقاماً . وهناك رأى آخر رأى فيه البعض نوحاً من التجديد والرفعة في الخروج على المألوف ، ويقول إن تلك التسمية إنما مصدرها أن أولئك كانوا يهلبون عن طريق البحر صهبة تبحر الرقيق ، ومن ثم سموها بالبحرية .

ومهما يكن من أمر ، فقد ازداد نفوذ المماليك البحرية في عهد الصالح أيوب ازدياداً خطيراً ، بعد أن انفض عن الصالح أعوانه من الأكراد وغيرهم . ولم يلبس أن استغل المماليك البحرية سطوتهم في النهب بمصالح البلاد والعباد ، فأكثروا من الاعتداء على أموال الناس وأرزاقهم ، الأمر الذي دفع بعض الشعراء إلى التنديد بهم وإلى إلقاء تبعه أعمالهم على السلطان الصالح أيوب نفسه ، ومن ذلك قول الشاعر :-

(١) المقريزي : السلوك ج ١ ص ٢٩٥ .

(٢) العيني : عقد الجمان ، حوادث سنة ٦٤٧ هـ .

الصالح المرتضى أيوب أكثر من ترك بدولته يا شر مجلوب
قد أغضبت الله أيوباً بفعلته فالناس قد أصبحوا في ضرر أيوب (١)

على أن أولئك الممالك البحرية الذين أسرفوا في العبث بمصالح الناس واستثاروا غضب الأهل بعدوانهم وشرهم ، سرعان ما أثبتوا كفايتهم في التغلب على أكبر خطر من خارجيين واجها مصر . بل الوطن الإسلامي في الشرق الأدنى — حوالى منتصف القرن الثالث عشر ، وهما خطر الصليبيين وخطر التتار . ذلك أن استيلاء الخوارزمية على بيت المقدس سنة ١٢٤٤ واستثار الغرب الأوربي من جديد ، فخرج لويس التاسع ملك فرنسا سنة ١٢٤٨ على رأس حملة صليبية كبرى قاصداً مصر . ولم تكن هذه أول حملة صليبية تخرج من غرب أوروبا بنية الاستيلاء على مصر بالذات ، فقد سبق لمصر قبل ذلك بثلاثين سنة أن تعرضت لهجوم من جانب الحملة الصليبية الخامسة بزعامة حنابرين ولكن حملة لويس التاسع على مصر سنة ١٢٤٩ كانت أعظم خطراً ، لكونها أكثر عدداً ووفرة تنظيمياً ، فضلاً عن أنه كان على رأسها ملك من أعظم ملوك الغرب الأوربي وأشدهم تديناً وتحمساً للفكرة الصليبية .

ثم إن الظروف التي ظهرت فيها حملة لويس التاسع في الشرق ساعدت على إكساب تلك الحملة قصداً من التطورة بالنسبة لأوضاع مصر الداخلية . ذلك أن لويس التاسع ورجاله وصلوا إلى شواطئ مصر في الوقت الذي كان السلطان الصالح نجم الدين أيوب يعاني مرضاً خطيراً ؛ ولم تكن الأخبار تصل مسامعهم عن قرب تعرض مصر لخطر صليبي حتى حملوه في عجلة إلى مصر حيث نزل في

(١) ابن دياس : بدائع الزهور ج ١ ص ٨٣ ،

جمال الدين سري : الظاهر بيجرس ص ٣٨ . ولاحظ أن الشاعر يشير إلى الآية الكريمة « وأيوب إذ نادى ربه أنه مسني الضر وأنت أرحم الراحمين » .

اشتهر طناح ليرقب الموقف^(١) . وهكذا أتى الصليبيون مصر في وقت كان سلطانها مريضاً لا يقوى على الحركة لغزائهم ، فاستولى لويس التاسع على دمياط في يوفيه سنة ١٢٤٩ م وملكها الفرنج بغير قتال . ويقال إن السلطان الصالح أيوب حزن حزناً شديداً لسقوط دمياط في قبضة الصليبيين ووجع الممالك الأتراك وقائدهم فخر الدين لإهمالهم في الدفاع عنها وقال لهم دما قدرتم تقضون ساحة بين يدي الفرنج ؟ وقد تخوف الممالك عندئذ من نوايا الصالح أيوب ، وأرادوا قتله ، ولكن الأمير فخر الدين أفهمهم أن السلطان مريض وأشار عليهم بالتريث فقال لهم : اصبروا عليه فهو على شفا... فإن مات فقد استرحتم منه وإلا فهو بين أيديكم^(٢) .

ولم يلبث أن اشتد المرض على الصالح أيوب ، فحمل إلى قلعة المنصورة حيث ظل ينظم شئون الدفاع وهو على فراش الموت . وفي الوقت الذي شرع الصليبيون في الزحف من دمياط تجاه الجندوب ، توفي الصالح أيوب في المنصورة في ٢٣ نوفمبر سنة ١٢٤٩ م^(٣) .

الممالك الجبرية وإزال الهمزيم بالفرنسيين :

جاءت وفاة الصالح أيوب في تلك الظروف الحرجة خسارة جسيمة ، لعدم وجود من يملئ مكانه بسرعة في حكم البلاد وفي مواجهة الخطر الناجم عن الغزو الصليبي . وكان للصالح أيوب ابن واحد اسمه تورانشاه ، وهو شاب هديم الخبرة عينه أبوه نائباً عنه في حصن كيفا^(٤) . ولكن شامت الظروف أن تظهر في

(١) المقرئى : المواعظ والاعتبار ، ج ١ ص ٢١٩ (بولاق) .

(٢) العيني : عقد الجمان ، حوادث سنة ٦٤٧ هـ .

(٣) المقرئى : السلوك ، ج ١ ص ٣٤٦ .

(٤) أبو المحاسن : النجوم ، ج ٦ ص ٣٦٤ .

عنهم الصالح أيوب امرأة قوية هي أرملة شجر الدر ، التي قدرت خطورة الموقف فأخفت خبر موت زوجها ، وأرسلت تستدعي نور انشاء على عجل من حصن كيفا ، واستمرت المناشير تخرج كل يوم عليها علامة السلطان ، والأدوية والطعام تدخل غرفته كما لو كان حياً (١) .

وعلى الرغم من كافة الاحتياطات التي اتخذتها شجر الدر فإن خبر وفاة الصالح أيوب تسرب إلى لويس التاسع الذي رأى أن يصارع بتوجيه ضربه قبل أن يستكمل المسلمون استعداداتهم ويفيقوا من أثر الصدمة التي لحقت بهم نتيجة لوفاة الصالح أيوب . وعندما وصل الصليبيون إلى نقطة تفرع بصر أشموم من فرع دمياط ، وهي النقطة المواجهة للمنصورة ، صار على الصليبيين أن يعمروا بصر أشموم للوصول إلى المنصورة ومهاجمتها . ولم يعجز لويس عن عبور بصر أشموم ، وعندما اندفعت القوات الصليبية في اتجاه المنصورة وانتهزتها مقدمة الجيش الصليبي فعلا بقيادة روبرت دى أرتوا أخى لويس التاسع (٢) .

وفي تلك المرحلة الحرجة ظهرت الممالك البحرية على المسرح لينفذوا الموقف . ذلك أن الممالك تركوا الصليبيين يدخلون المنصورة ليقبوا في أرقها ، وعندما اندفعت الطائفة التركية من الجهادية والبحرية الصالحية وحملوا على الفرنجة حملة زهزعت وعدمت بليانهم وأفادوا عليهم حرباً ذاك وقتلاً وإهلاكاً ، فكانت عدة القتلى منهم ألفاً وخمسة مائة ورواهاهم من (٣) . وبذلك استطاع الممالك أن يحوّلوا انتصار الصليبيين إلى هزيمة وأن يبددوا مخاوف المسلمين ويحبوا فيهم روح الأمل والمقاومة . ثم إن الممالك لم تتركوا الصليبيين يعودون إلى دمياط سالمين ، وإنما طاردوهم حتى أنزلوا بهم هزيمة كبرى عند فارسكور ووقع الجيش الصليبي

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ورقة ٣٦٢ - - ٣٦٣ (مخطوط) .

(٢) محمد مصطفى زيادة : حملة لويس التاسع على مصر ١٢٥٣ - ١٢٥٤ .

(٣) العيني : عدد الجان حوادث سنة ٦٤٧ هـ .

بأحكامه تقريباً بين أسرى وقتلى . وكان من جملة الأسرى لوريس التاسع نفسه
الذى سبق مكابلاً بالأحلال إلى المنصورة حيث سجن في دار فخر الدين إبراهيم
ابن لقمان (١)

نهاية الدولة الأيوبية في مصر :-

وفي تلك الأثناء وصل المعظم تورانشاه ابن الصالح أيوب إلى مصر في
نهاية فبراير سنة ١٢٥٠ . أي بعد موقعة المنصورة مباشرة . وقد أعلن تورانشاه
سلطاناً في دمشق ، وهو في طريقه إلى مصر ، دثيماً الناس بطاعته ، وتركوا
خبراً على يديه ، ولكن المراجع أجمعيت على أن السلطان الجديد لم يكن
رجل الساعة ، وعلى أنه جمع بين سوء الخلق والجهل بشئون الحكم والسياسة ؛
حق ، لقد وصفه سبط بن الجوزي بأنه : كان سيئ التدين والسياسة ، ذا هوى
وسخفة ، (٢) .

وكان مفروضاً أن يقدر السلطان المعظم تورانشاه الموقف الجديد الذي نهم
عن انتصار المماليك على الصليبيين ، مما جعل المماليك يبدون في صورة أصحاب
الفضل في تخليص البلاد من ذلك الخطر الداهم . ولكن بدلاً من أن يصانع
تورانشاه المماليك ، حسدهم على ما حققوه لأنفسهم من مكانة وكلمة ، وسيطر
عليه شعور بأن المماليك يراحمونه بالحكم ويقاسمونهم سلطانه . ولم يلبث أن أضمر
تورانشاه للمماليك البحرية أمراً . من ذلك ما ترويه المراجع من أنه كان يشرب
الخمر ويضرب الشموع المصفوفة أمامه واحدة بعد أخرى حتى تنقطع وهو يردد

(١) المقريزي : السلوك ج ١ ص ٣٥٦ .

أبو الحسن : النجوم ، ج ٦ ص ٣٩٧ .

(٢) سبط بن الجوزي : مراة الزمان ؛ حوادث سنة ٥٦٤٨ .

هكذا أفعل بالبحرية ، ويسمى كل واحد من زعماء البحرية باسمه . (١)
وليت تورانشاه حفظ الجبل اروج أبيه شجر الدر ، بل نسي أنها حرسه
ملك أبيه وأنها أرسلت إليه تسديده على عمل من حصن كيفا بعد وفاة الصالح
أيوب ، فاتهمها بأنها أخفت ثروة أبيه وأرسل إليها يتهددها ويطلبها بما تحت
يدها من الجواهر فدأخلها منه خوف كثير ، وكانت الممالك البحرية ،
وهكذا استثار تورانشاه بسياسة الخفاء الممالك البحرية ، أصحاب القوة الفعلية
في البلاد وتمتد ، واكتفى بجموعة من الندماء كان قد أحضرهم معه من حصن
كيفا ، فوزع عليهم الإقطاعات والوظائف التي حرم منها الممالك .

وكان أن استقر رأى الممالك على التخلص من تورانشاه بالقتل ، واستحثهم
على ذلك روجة أبيه شجر الدر التي باتت تخشى على نفسها من غدر تورانشاه
فأرسلت إلى البحرية تقول : اقتلوا تورانشاه وعلى رضاكم ، وقد توهم
المؤامرة بجموعته من أمراء الممالك على رأسهم بيبرس البندقداري وقلادون الصالح
وأقطاي الجمار وأبيك التركاني . ولم يكذب تورانشاه ينزل بفارسكور في ٢ مايو
سنة ١٢٥٠ حتى يادره أولئك الأمراء بالسيوف ، ففر تورانشاه ليصتمي بكشك
خشي كان قد أعد لإقامته في فارسكور . ولما أغلق تورانشاه أبواب الكشك
عليه ، أشعل الممالك النار فيه ، وخذلوا ألقى تورانشاه بنفسه في النيل وقد
اشتعلت النار في ثيابه ، وأخذ يصيح طالباً النجاة ، ولكن الممالك لا حقوه
بالنشاب من كل ناحية وهو يصيح : ما أريد ملكاً اذهبني أرجع إلى الحصن
(كيفاً) ، يا مسلمين ! ما فيكم من يهطئني ويهجرني ؟ (٢) ، ولكن أحداً

(١) المقبري : السلوك ج ١ ص ٣٥٩ ،

أبو الحسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٧١ .

(٢) أبو الحسن : النجوم الزاهرة : ج ٧ ص ٣٧١ .

لم يتقدم لبعثة توران شاه ، فأتت جريماً غريباً عتقاً - على قول المقرئى - وتركى جنته ملقاة فى السراء على شاطئ النيل ثلاثة أيام لا يجرؤ أحد على دفنه ، حتى شفع فيه رسول الخليفة العباسى وهندى وورى فى التراب (١)

وبمقتل توران شاه انتهى حكم الأيوبيين فى مصر .

السلطنة شجر الدر :

خدا الممالك بعد مقتل توران شاه أصحاب الحكمة الأولى والأخيرة فى شئون البلاد . وقد اختار الممالك شجر الدر - أرملة أستاذ الصالح أيوب - لتكون سلطنة على البلاد . وكانت شجر الدر جارية تركية الجنس - وقيل بل أرمينية - اشتراها الملك الصالح أيوب وحظيت عنده ، حتى أعتقها وتزوجها ولذلك فهى من ناحية الأصل والنسب أقرب إلى الممالك ، حتى اعتبرها المقرئى أولى سلاطين الممالك فى مصر . وأول من ملك مصر من ملوك الترك الممالك (٢) .

وكانت أولى المشاكل التى واجهت شجر الدر فى سلطنتها هى مشكلة الصليبيين الذين مازالوا يحتلون دمياط . لذلك أخذت شجر الدر تسعى لحل هذه المشكلة ، فأرسلت الأمير حسام الدين محمد لمفاوضة الملك لويس التاسع - أسير المنصورة - وسمت تأثير التهديد تم الاتفاق بين الممالك والفرنسيين ، فوافق الطرف الأول على إطلاق سراح لويس التاسع وجميع أسرى الصليبيين منذ عهد العادل الأيوبي وذلك مقابل ثمانمائة ألف دينار يدفع الصليبيون نصفها

(١) أبو الفدا : المختصر فى أخبار البصر ، ج ٣ ص ١٨٩ ،

المقرئى : السلوك ، ج ١ ص ٣٥٨ - ٣٦٠ .

(٢) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٣٦١ .

عاجلاً ، والنصف الآخر بعد ذلك (١) أما الطرف الثاني وهم الفرنسيون فقد وافقوا على إخلاء دمياط والجلاء عن البلاد ، كما عهد لويس بعدم العودة إلى « سواحل الإسلام مرة أخرى » . وقد تحدد أجل الصالح بعشر سنوات . ولم يلبث أن قسّم المماليك دمياط في ٦ مايو سنة ١٢٥٠ ، وأطلقوا سراح الملك لويس التاسع بعد دفع مقدم الفدية المتفق عليها ، وبذلك كانت مدة استيلاء الصليبيين في تلك المرة على دمياط أحد عشر شهراً وتسعة أيام (٢) .

وعكذا نجحت السلطنة شجر الدر في تخليص البلاد من آثار الخطر الذي تعرضت له في أواخر أيام زوجها الصالح فهم الدين أيوب . على أن ذلك كله لم يكف لتدعيم مركز شجر الدر في أعين المعاصرين ، إذ لا يخفى علينا أن السلطنة الجديدة كانت قبل كل شيء امرأة ، والمسلمون لم يعتادوا في تاريخهم الطويل أن يسلبوا زمام حكمهم لامرأة . ويبدو أن شجر الدر نفسها أحسّت بوضعها الغريب ، الأمر الذي جعلها تسرف في التقرب إلى أهل الدولة ومنهجهم الزتب والإقطاعات فضلاً عن أنها خفضت الضرائب عن الرعية لتستميل قلوبهم ، وبالحكمة فقد ساءت الرعية أحسن سياسة (٣) .

ولا أدل على شعور المعاصرين بالحرج من قيام امرأة في حكمهم ، من أن السلطنة شجر الدر حرصت على ألا تبرز اسمها مكشوفاً ، فكانت المراسيم والمناشير تصدر من القلعة وعليها علامتها « أم خليل » ؛ ونقش اسمها على السكة والنقود في صيغة « المستعصمية الصالحية ، ملكة المسلمين ، والددة الملك المنصور خليل أمير المؤمنين » أما الخطباء فكانوا يقولون في دعاء يوم الجمعة بالمساجد اللهم وأدم سلطان المستر الرفيع والحجاب المنيع ، ملكة المسلمين والددة الملك خليل ، وبعض

(١) Joiuville, p. 194 &

أبو الهيثم : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٦٩ .

(٢) المرفى : السلوك ، ج ١ ص ٣٦٣ .

(٣) ابن لياس : بدائع الزهور ، ج ١ ص ٨٩ .

الخطباء كان يقول - بعد الدعاء للخليفة العباسي - « واحفظ اللهم الجهة الصالحية ، ملكة المسلمين ، عصمة الدنيا والدين ، أم خليل المستعصمية ، صاحبة الملك الصالح » . وفي جميع هذه الألقاب لانهى اسم شجر الدر الأمر الذي يعبر عن شعور الاستعجاب وحرص المرأة على عدم كشف اسمها مكتفية بأن تلتبس إلى ولدها أو زوجها أو مولاها .

وكانت شجر الدر قد أنجبت من الصالح أيوب ولداً اسمه خليل توفي في صغره ولكنها تمسكت في سلطنتها بلقب « أم خليل » لتجنب ذكر اسمها في عصر اعتبر اسم المرأة هورة من هوراتها . وربما أحست شجر الدر بأصلها غير الحر ، وبأنها لا تنحدر من شجرة البيت الأيوبي ، وبالتالي فإنها دخيلة على الحكم وليس لها حق شرعي فيه . لذلك حرصت السلطانة شجر الدر على التمسك بلقب « أم خليل الصالحية » ، تظهر صلتها القوية بالبيت الأيوبي عن طريق ولدها خليل من ناحية وزوجها الصالح أيوب من ناحية أخرى ، وبذلك تضفي على سلطنتها هالة من الشرعية تجعل المعاصرين يهرفون النظر عن الحقيقة الكبرى وهي أن مقاليد حكمهم خدت فعلاً في يدي امرأة .

ومع ذلك ، فإن جمع تلك الخيول لم تفلح في دعم موقف السلطانة الجديدة ؛ فرفض الأمير جمال الدين بن يغمور نائب السلطنة والأمراء القيمرية في دمشق أن يخلفوا يمين الولاء والطاعة للسلطانة أم خليل ، ونارت ثائرة الأمراء والملوك الأيوبيين في بلاد الشام عندما سمعوا بمقتل نورانشاه وقيام شجر الدر في الحكم لأنهم وجدوا في ذلك خروجاً للسلطانة من يديهم . ولم يلبث أن التهب الموقف في بلاد الشام وأصبح من الواضح أن ملوك الأيوبيين سيخذلون موقفاً حازماً هجوماً ضد مصر ، بعد أن استولى الملك السعيد حسن الأيوبي على غزة وقلعة الصليبية ،

ونار الطواشي بدر الدين لؤلؤ الصالحى نائب السكرك والغبوبك ، وملك الملك المغيب عمر الأيوبي على هذين الحصنين . فى الوقت الذى سلم الأمراء القيسرية مدينة دمشق إلى صاحب حلب الناصر يوسف بن العزيز الأيوبي (١) . وبذلك خرجت بلاد الشام بأكلها من قبضة شجر الدر ، وانقسمت الجبهة الإسلامية فى الشرق الأدنى مرة أخرى فحدث مصر فى قبضة المماليك وبلاد الشام فى قبضة الأيوبيين .

ولم يشفع لشجر الدر أنها حاولت عندئذ أن تتمسح فى الخلافة العباسية ، فتعسكت بقلب « المستعصمية » نسبة إلى الخليفة المستعصم العباسي ؛ بل على العكس وجد الخليفة العباسي فى بغداد نفسه لا يمكن أن يقر مبدأ قيام امرأة فى حكم المسلمين ، فبعث من بغداد كتاباً إلى مصر عاب فيه على الأمراء موقفيهم ، وقال لهم عبارته المشهورة « إن كانت الرجال قد خدمت عندكم فاهلونا حتى نسير إليكم رجلاً » (٢)

وهكذا وجدت شجر الدر نفسها فى موقف لا تحسد عليه بعد أن أحاطت بها مظاهر السكره فى الداخل والخارج ، وجاء قيامها فى الحكم مصحوباً بتمزيق الوحدة بين مصر والشام ، وهى الوحدة التى ظلت قائمة فى صورة أو أخرى منذ أيام نور الدين محمود بعد منتصف القرن الثانى عشر . هذا إلى أن المعارضين لشجر الدر انهموها بالتفريط مع الصليبيين وأنها المسئولة عن إطلاق سراح لويس التاسع ملك فرنسا ، وهو الذى خرج من مصر ليواصل نشاطه الصليبي فى بلاد الشام . وللتعويض من ذلك المأزق دخلت شجر الدر نفسها من مملكة مصر ، فوافقت على الزواج من الأمير عي الدين أيك - أتابك العسكر - على أن تترك له وظيفة السلطنة . وكان أن تمت هذه الخطوة فى يوليو سنة ١٢٥٠

(١) المقرئى : السكرك ، ج ١ ص ٣٦٦ - ٣٦٧ .

(٢) المقرئى : السكرك ج ١ ص ٣٦٨ .

وبذلك انتهى عهد شجر الدر بعد أن ظلت في الحكم ثمانين يوماً أثبتت فيها
مهارة فائقة وكفاية ممتازة (١) .

السلطنة المصرية : (١٢٥٠ - ١٢٥٧)

كان عز الدين أيبك أحد المماليك الصالحية ، ولما كنهه لم يكن من طائفة
المماليك البحرية ؛ ترقى في خدمة السلطان الطالح أيوب حتى أصبح من الأمراء
وتولى وظيفة الجاشنكير في بلاط السلطان .

وعندما تولت شجر الدر السلطنة صار أيبك أتابك الحسكر أى قائد
الجيش ، حتى تخرج موقف شجر الدر في الداخل والخارج كما ذكرنا ، وعندئذ
وافق الأمراء على زواج أيبك من شجر الدر على أن تصير له السلطنة وكان
أيبك معروفاً بين المماليك بدين وكرم وجودة رأى ، ولكن يبدو أن هذا
لم يكن الصوب الرئيسى الذى جعل المماليك - ومنهم طائفة البحرية - يجمعون
على اختياره للسلطنة ، إذ الواقع أنه وجد عندئذ مجموعة من الأمراء الأقوياء
وهؤلاء كانوا يخشون بعضهم بعضاً ، ويخشاهم الناس جميعاً ، فالناس إلى
أيبك دلالة من أوسط الأمراء ولم يكن من أعيانهم ؛ فى حين أبدى عماد
البحرية - مثل إقطاعى وبيرس وقلاون - اختياره للسلطنة لاعتقادهم
أنه سهل ومتى أردنا صرفه أمكننا ذلك لعدم شؤكته (٢) ١

على أن الصعاب لم تلبث أن أحاطت بالسلطان الجديد في الداخل والخارج .
وكان أول خطرين تعرض لهما خطر الأيوبيين في الشام وخطر البحرية في مصر .
أما ملوك الأيوبيين في بلاد الشام فقد ظفروا في حالة نقمة وثورة ، وأخذوا

(١) ابن دباس : بدائع الزهور ، ج ١ ص ٩٥ ، الميرزى : السلوك ص ٣٦٧ -

٣٦٨ .

(٢) أبو الحسن : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٤ .

يجمعون قواهم لغزو مصر والقضاء على دولة المماليك الناشئة. وأما المماليك البحرية، فقد هن عليهم أن يتولى أيك السلطنة وهو ليس بحرياً، فزاروا بعد خمسة أيام من إعلان أيك سلطاناً وقالوا « لا بد لنا من سلطان يكون من بني أيوب يجمع الكل على طاعته »^(١). ومن الواضح أن الهدف الحقيقي للبحرية كان استئثارهم لأنفسهم بالحكم، ولم تكن الدعوة لبني أيوب إلا ستاراً يخفون وراءه أطماعهم الحقيقية.

وكان أن وقع الاختيار على صبي صغير من بني أيوب - هو الملك الأشرف موسى - فجعلوه شريكاً للسلطان الممن أيك في السلطنة « ليجتمع الكل على طاعته ويطيعه الملوك من أمته ». وهكذا بدت ظاهرة غريبة هي اشتراك سلطانين - الممن أيك التركاني والأشرف موسى الأيوبي - في حكم مصر فكانت المراسيم والمناشير تخرج عن المملكين الأشرف والممن، إلا أن الأشرف ليس له سوى الاسم في الشركة لا غير وجميع الأمور بيد الممن أيك^(٢). وكان الأشرف موسى في السادسة من عمره، الأمر الذي جعل زعماء البحرية - مثل أقباق الجدار وبيبرس البندقداري وبلبان الرشيد وسنقر الرومي - يرحبون بذلك الطفل، حتى يدبرونه كيفما شاءوا وبأكلون الدنيا به^(٣)، على قول أبي المحاسن^(٤). أما الممن أيك فقد رأى في إشراك ذلك الصبي معه وسيلة طيبة لتخدير بني أيوب وتسكين ثورتهم.

ولكن ملوك الأيوبيين بالشام لم تنطل الحيلة عليهم، فقرر المصريون صف الأيوبي صاحب حلب ودمشق الزحف على الديار المصرية للقضاء على ثورة المماليك (سبتمبر ١٢٥٠) وفي تلك الأثناء أثبت السلطان الممن أيك أنه أقوى

(١) أبو المحاسن : النجوم ج ٧ ص ٥٠.

(٢) المقرئ : السلوك ج ١ ص ٣٦٩.

(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٥٠.

بما ظنه عليه البعض ، فقبض على بعض أمراء المماليك المعروفين بميلهم
للأيوبيين ، وأعلن في القاهرة أن البلاد للخليفة المستعصم بالله العباسي وأن
الملك المعز نائبه فيما ١٤ (١) . هذا إلى أن أيك خشي حدوث تفاهم بين
الأيوبيين في الشام ولويس التاسع زعيم الصليبيين الذي كان عندئذ قابلاً في
حكا يرقب الموقف ، ولذلك حاول أيك أن يتقرب من الملك الفرنسي بأن
أطلق سراح بعض أسرى الصليبيين الفرنسيين من السجنون المصرية . وفي
الوقت نفسه أراد أيك أن يأمن شر هجوم غادر يقوم به لويس التاسع على
مصر ليتأثر بما حل به من هزيمة في المنصورة ، فأمر أيك بدم تحصينات
مدينة دمياط حتى خربت كلها وحيث آثارها ، وبذلك لا يتمكن الصليبيون
من اتخاذها مرة أخرى قاعدة لهم يهددون منها داخلية البلاد .

أما زعماء البحرية فقد نسوا في تلك الأونة مصيبتهم الصغيرة الضيقة ،
وتذكروا العصبية المماليكية الكبيرة التي تجعل منهم ومن أيك وبقية المماليك
كلمة واحدة أمام الخطر الأيوبي الذي هدد مستقبل المماليك جميعاً . وهكذا
خرج المعز أيك ومعه المماليك البحرية لدفع الغزاة ، خلت الهزيمة برجال
المعز أيك ولصالحهم هادوا وانتصروا على الأيوبيين عند العباسية في فبراير
سنة ١٢٥١ ففر الناصر يوسف الأيوبي إلى الشام وعاد المماليك ظافرين
ومعهم الأسرى إلى القاهرة (٢) .

ولم تلبث الخلافة العباسية أن أخذت تحس بفطر التتار الذين اقتربوا
بزحامة هولاكو من العراق . وقد رأى الخليفة المستعصم العباسي أن يعمل
بسرعة لتوحيد صفوف المسلمين في الشرق الأدنى ليقفوا صفاً واحداً أمام
خطر المغول الوثنيين ، ولذلك أرسل رسولا إلى الملك الناصر (يوسف)
صاحب دمشق يأمره بمصالحة الملك المعز (أيك) وأن يتفقا على حرب

(١) الماريزي : السلوك ج ١ ص ٣٧٠ .

(٢) أبو الفدا : المختصر ، ج ٣ ص ١٨٤ - ١٨٥ .

(٣ - مصر المماليكية)

التتار^(١) . وبفضل هذه الوساطة أمكن الوصول إلى اتفاق بين الأيوبيين في الشام والمماليك في مصر ، فمقدت اتفاقية بين الطرفين في إبريل سنة ١٢٥٣ وبمقتضاها صار للمماليك مصر وفلسطين حتى نهر الأردن بما في ذلك غزة والقدس والساحل ، على أن تكون بقية بلاد الشام للأيوبيين^(٢) . ومن الواضح أن هذه الاتفاقية لها أهميتها في التاريخ لأنها بمثابة الوثيقة التي اعترف فيها بنو أيوب بشرعية سلطنة المماليك في مصر . وكان ذلك في الوقت الذي استغل أيك فرصة انتصاره على الناصر يوسف الأيوبي عند العباسية من جهة ، وفرصة المخاوف التي عمت نتيجة لخطر التتار من جهة أخرى ، وتخلص من شريكه الصغير الملك الأشرف موسى الأيوبي ؛ لحذف اسمه من الخطبة وقبض عليه وسجنه^(٣) .

على أن الأمور لم تهدأ لأيك في الداخل بسبب ثورة الأعراب الذين احتقروا المماليك لأصلهم غير الحر ، وأنفوا أن يخضعوا لحكمهم وناادوا بأنهم « أحق بالملك من المماليك وقد كفى أننا خدمنا بني أيوب ؛ وهم خوارج خرجوا على البلاد ، وقد اتخذتمرد الأعراب شكل ثورة جماعية ، فاختاروا شخصاً زعموا أنه من ذرية علي بن أبي طالب اسمه حصن الدين بن ثعلب ليكون زعيماً لحركتهم . ولكن السلطان المماليك استعان بالبحرية وزعيمهم أقطاي في القضاء على ثورة الأعراب في الشرقية والغربية والمنوفية وغيرها من الجهات ، وقبض على حصن الدين بن ثعلب وقتل كثيراً من أتباعه^(٤) .

ولكن إذا كان أيك قد نجح في التغلب على الأخطار الخارجية والداخلية

(١) السبكي : طبقات الشافعية ج ٥ ص ١١٣ .

(٢) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٣٨٥ .

(٣) أبو الحسن : النجوم ج ٧ ص ١٢ .

(٤) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٣٨٦ - ٣٨٨ .

التي واجهته بمساعدة المماليك البحرية ، فإن النتيجة الحتمية لذلك الوضع هي ازدياد نفوذ البحرية وزعيمهم أقطاي حتى أصبح لا مفر من وقوع صدام بينهم وبين أيك وقد سبق أن أشرنا إلى أن البحرية لم يمانعوا في تولية أيك السلطنة لاعتقادهم في ضعفه وأنه من الممكن إزالته من طريقهم في سهولة . ولكن الأيام أثبتت خلاف ذلك ، وأظهرت أيك في صورة السلطان القوي الذي نهض في التغلب على الأخطار الخارجية والداخلية التي واجهته خطراً بعد آخر . وأخيراً أفاق أيك ليجد أن جميع الانتصارات التي كسبها مطلوب منه ومن شعب مصر أن يدفع ثمناً هائلياً لها ، هو تحمل بطش المماليك البحرية الذين اهتموا بأنفسهم وقوتهم ، وساروا إلى القاهرة ومصر أنجس سيرة من العسف بالناس والجور . أما أقطاي زعيم البحرية فقد بلغ درجة من السطوة والنفوذ فاقت سطوة السلطان أيك ونفوذه ، فطغى وتجبهر وبغى وتمكبر ... وأمره مطاع في الحقيرة والكبيرة لا يرد له مرسوم ، والملك المعز (أيك) معه باسم الملك لا غير ، ^(١) وقد بالغ أقطاي في احتقار السلطان أيك فصار لا يسميه إلا أيكا . كما أخذ أقطاي يلتحل لنفسه في مواكبه ومجالسه بعض الشعائر التي كانت من اختصاص السلطان وحده بل إن أصحابه أسموه د الملك الجواد ، ^(٢) .

وأخيراً خطب أقطاي ابنة الملك المظفر تقي الدين محمود صاحب حماء ، ثم طلب من المعز أيك أن يسكنها قلعة الجبل ، لتكونها من بنات الملوك ولا يابق سكانها بالبلد ، وعندئذ أدرك أيك ما يؤول بنفس أقطاي ، لأن قلعة الجبل في ذلك العصر كانت المقر الرسمي للحكم ، فكان معنى طلب أقطاي أن نفسه د حديثه بالملك . هذا إلى أن زواج أقطاي من أميرة من أميرات البيت الأيوبي كان كفيلاً بأن يجعل له سنداً شرعياً في الحكم ، وهو أمر

(١) ابن أيك : كنز الدرر ج ٨ ق ١ ص ٢٢ (مخطوط) .

(٢) أبو الحسن : النجوم ج ٧ ص ١١ .

لما يتوفر لأبيك . لذلك قرر أليك التخلص من أقطاي بالقتل ، فاستدعاه إلى القلعة بحجة استشارته في بعض أموره ، وهناك هاجمه بعض أتباع أليك وهبوه بالسيوف حتى مات ، (١) .

وسرعان ما انتشر خبر مقتل أقطاي في القاهرة ، فاجتمع بيبرس البندقدارى وقبلاون الألفى وسنقر الأشقر ويسرى ... وغيرهم من أمراء البحرية تحت أسوار القلعة ومعهم أتباعهم في محاولة يائسة لإنقاذ أقطاي ، ظناً منهم أنه لم يقتل . ولكن أليك ألقى إليهم رأس زعيمهم أقطاي من القلعة وعندئذ أدرك أمراء البحرية أن دورهم آت عن قريب فقرروا الفرار إلى الشام . وعندما علم أليك بنيتهم أغلق أبواب القاهرة في وجوههم ، ولكنهم أحرقوا باب القراطين — الذى عرف بعد ذلك باسم الباب المحروق — وبذلك استطاعوا الفرار إلى الشام (٢) .

وقد بدت تلك الحركة التى اتخذها أليك ضد البحرية وقد خلاصته من خطر جسيم ، إذ استطاع أليك أن يقبض على من تبقى من البحرية في القاهرة فقتل بعضهم وحبس البعض الآخر ، وصادر أموالهم ونساءهم وأتباعهم ، ونودى في القاهرة بتهديد كل من أخفى أحداً من البحرية (٣) . على أن الأمر كان في حقيقة أمته أعمق بكثير من ذلك الانتصار الظاهرى ، لأن زعماء البحرية الذين فروا إلى الشام لم ينسوا نارهم وظلوا يسببون المتاعب لأبيك ومن خلفه من السلاطين في مصر ، حتى انتهى الأمر باستئثارهم بالحكم . وكان أن اتصل أمراء البحرية الذين فروا إلى الشام بالناصر يوسف الأيوبي صاحب حلب .

(١) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٣٩٠ . ويذكر المقرئى أن قطز . الذى ولى السلطنة فيما بعد كان ممن شاركوا في قتل أقطاي .

(٢) ابن خلدون : المعبر وديوان المبتدأ والخبر ج ٥ ص ٣٧٥ - ٣٧٦

(٣) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٢٩٢ .

وأغروه بفتح مصر ، وفعلًا ساء الموقف بين الناصر يوسف والمعز أيك .
سنة ١٢٥٦ ، ولكن الأمر انتهى بالصلح بين الطرفين بفضل وساطة
الخليفة العباسي (١)

والغريب أن أيك الذي ثبت ذلك الثبات في وجه خصومه في الداخل
والخارج ، واستطاع أن يتغلب على جميع ما واجهه من مشا كل متعددة ، جاءت
نهايته أخيرًا على يد زوجته شجر الدر التي ذقت طعم السلطان وتولت السلطنة
فعلًا ثمانين يومًا ، عز عليها بعدها أن تتخلى عن نفوذها وأن يخرج الأمر والنهي
من يديها . وقد وصف المؤرخ ابن إياس شجر الدر بأنها د صعبة الخلق قوية
البأس ، كما وصفها المؤرخ نفسه بأنها كانت د تكبراة من خمرة العجب
والتيه (٢) وهذا النوع من النساء إذا ذاق طعم السلطان مرة من الصعب أن
يتخلى عنه بعد ذلك . ومن الواضح أن شجر الدر عندما قررت الزواج من عز
الدين أيك إنما أرادت أن تتظاهر بالتخلي عن السلطنة لترضى شعور المسلمين
ولكنها صممت منذ اللحظة الأولى على أن تحتفظ بسلطانها وتتحكم في أيك
وشئون الدولة جميعًا . وفعلًا أحكمت شجر الدر سيطرتها على زوجها الجديد
السلطان المعز أيك ، فأرغمته على هجر زوجته الأولى أم ولده علي ، وحرمت
عليه زيارتها هي وابنها ، وبالجملة فقد كانت شجر الدر د مستولية على أيك
في جميع أحواله ليس له معها كلام (٣)

ولم يلبث أن ستم المعز أيك الحياة مع شجر الدر ، وخاف على نفسه من
غائلتها لا سيما بعد أن أخبره أعدا المنجمين أن نهايته ستكون على يد امرأة . وكان

(١) أبو الحسن : النجوم ج ٧ ص ١٢ ،

المقرئى : السلوك ج ١ ص ٣٩٨ .

(٢) ابن إياس : بدائع الزهور ج ١ ص ٩١ .

(٣) أبو الحسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٧٤ .

أن خطب المعز أيك ابنة بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل ليتزوجها ، ففضيت شجر الدر لذلك وكانت شديدة الغيرة ، وقد أسرع شجر الدر في تدبير مؤامرتها ، فأرسلت إلى أيك - الذي كان قد غادر القلعة في منازار اللوق - تسترضيه وتطلب عفوّه ، فخدع أيك واستجاب لدعوتها وعاد إلى القلعة حيث احتفت به حفافة بالغة . ولم يكد أيك يدخل الحمام في الليل ، حتى انقض عليه خمسة رجال أشداء أهدتهم شجر الدر ، فقتلوه سنة ١٢٥٧ (١) .

وقد أشاعت شجر الدر أن المعز أيك مات فجأة أثناء الليل ، ولكن بمالك أيك لم يصدقها وهبوا للنار لاستأذهم فقبضوا على شجر وبعض أهوانها . ويقال إنه بلغ من صلابه شجر الدر أنها عندما وجدت نفسها أوشكت على الوقوع في أيدي أعدائها جمعت معظم مالديها من جواهر ولآلىء وألقتها بأن كسرتها في الهاون ، حتى لا تتمتع بها ضررتها أم علي بن أيك من بعدها (٢) . ولكن ذلك كله لم ينجها من سوء المصير ، فقتلها بمالك أيك وألقوا بجثتها من سور القلعة إلى الخندق وليس عليها سوى سراويل وقيص ، إلى أن دسملت في قفّة ، ودفنت بعد عدة أيام . وعلى ذلك الوجه انتهت حياة أيك وشجر الدر جميعاً (٣) .

السلطان المنصور علي بن أيك : (١٢٥٧ — ١٢٥٩)

لم يؤمن المماليك بنظام ورائة العرش . ولم يتبعوا هذا النظام عن قصد كقاعدة ثابتة طوال تاريخهم ، الأمر الذي جعل منصب السلطنة دائماً موضعاً

(١) القرينى : السلوك ج ١ ص ٤٠٣ .

(٢) أبو الحسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٧٨ .

(٣) القرينى : السلوك ج ١ ص ٤٠٤ .

للتنافس والمنازعات بين كبار امراء الممالك عقب وفاة كل سلطان. وكان الذى يحدث عادة عند وفاة سلطان من سلاطين الممالك هو أن يجتمع كبار الامراء ويعينوا ابن السلطان المتوفى فى منصب السلطنة بدلا من أبيه ، لا إيماناً منهم بمبدأ الوراثة ، ولكن كحل مؤقت إلى أن ينجلي الموقف بين الامراء ويظهر الأمير القوى الذى يستطيع أن يثبت تفوقه على بقية الامراء ، وهذا يؤخذ منصب السلطنة لنفسه بعد عزل من عساه يكون موجوداً من سلالة السلطان الراحل.

وكان هذا هو الموقف فى مصر بعد مقتل السلطان أيبك ، إذ اجتمع كبار الامراء واختاروا ابنة نور الدين على - الذى تلقب بالمنصور - سلطاناً ، وكان فى الخامسة عشرة من عمره . ولم يكن منتظراً من هذا الصبي أن يهزم فى وجه كبار الامراء أو أن يتمكن من مواجهة الاخطار الخارجية التى هددت الوطن العربى فى الشرق الأدنى عندئذ ، وحسب المنصور على بن أيبك أنه كان يقضى وقته فى التلهى بركوب الخيل والطواف بها داخل أسوار القلعة .

وسر هان مظهر التنافس بين كبار الامراء فى الدولة ، فقبض الأمير قطز - الذى كان نائب السلطنة وأقوى الامراء نفوذاً فى شئون الدولة - على الأمير علم الدين سنجر الحلبي أنابك المسكر ، وعين بدله فى ذلك المنصب الأمير فارس الدين أقطاي . ثم انتشرت الشائعات بعد ذلك بأن السلطان المنصور على قد تغير على نائبه الأمير قطز وأنه ينوى عزله مع بقية الممالك المعزلة ، ولكن بعض الامراء توسلوا بين الطرفين حتى صلح الأمر بين السلطان المنصور على من ناحية والأمير سيف الدين قطز المعزى من ناحية أخرى^(١) وهكذا عاشت القاهرة فى تلك الفترة عيشة قلق وعدم استقرار ، وهى المظاهر التى نشأت عن قيام صبي قاصر فى السلطنة

(١) أبو الحسن : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٤٢ - ٤٣ .

ومجموعة من الأمراء الأقوياء المتربصين لبعضهم البعض حول كرسى
السلطنة .

وفي ذلك الوقت كان الممالك البحرية الذين فروا إلى الشام في عهد المعز
أبيك بعد مقتل كبيرهم أقطاي ، ما زالوا يتحينون الفرص للتأثر لأنفسهم . ولم
ينس زعماء البحرية بالشام أن السلطان المنصور على إنما هو ابن المعز أبيك الذي
انسحب في تشريدهم ومقتل زعيمهم ، كذلك لم ينسوا أن الأمير قطز نائب
السلطنة في مصر إنما كان أحد الأمراء الذين هربوا بسيفهم على رقبة أقطاي
تنفيذا لأوامر المعز أبيك ، وكانت العلاقة قد ساءت بين الناصريوسف الأيوبي
صاحب حلب ودمشق من ناحية وأمراء البحرية بالشام من ناحية أخرى ، فاتجه
البحرية إلى الكرك حيث أطمعوا المغيث عمر الأيوبي في ملكه مصر^(١) . وفعلا
استجاب المغيث عمر لدعوة البحرية فأمدهم بالمال والسلاح وخرج البحرية
متجهين صوب مصر لغزوها . وقد أسرع قطز على رأس الجيش المصري لصد
خطر البحرية ، واستطاع أن ينزل بهم هزيمة عند الصالحية ، حيث أسر منهم
بعض الأمراء مثل قلاون الألفي وبلبان الرشيدى ، وإن كان قد أطلق سراح
معظم الأسرى بعد ذلك فعاد قلاون إلى الكرك ليلاحق بأصحابه^(٢) .

على أن البحرية لم يكفوا عن محاولة أخذ مصر بعد ذلك ، فانتهروا فرصة
الغوضى التي حمت بلاد الشام نتيجة للأخبار المتواترة عن اقتراب خطر المغول ،
وزينوا للمغيث عمر مرة أخرى الخروج معهم لأخذ مصر . وفي تلك المرة
— سنة ١٢٥٨ — خرج المغيث عمر بنفسه صهبة البحرية ، ولكن الأمير قطز
تصدى لغزاة من جديد وأنزل بهم هزيمة أخرى عند الصالحية ، ففر المغيث عمر

(١) أبو القدا : المختصر ج ٣ ص ١٩٢ — ١٩٣ .

(٢) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٤٠٦ .

إلى الكرك في حين اتجه البحرية إلى الطور حيث اتصلوا بالأكراد الفارين من وجه التتار^(١). ويبدو أن حركات البحرية في ذلك الدور أخافت الناصر يوسف الأيوبي فتصدى لهم وأخذ يطاردهم، وهدد المغيب عمر بتسليم من لديه منهم، وكان ذلك في الوقت الذي اشتد خطر التتار ليهدد الأيوبيين والمماليك جميعاً في الشام ومصر.

ذلك أن الأخبار أخذت تترى - سنة ١٢٥٩ - بوصول التتار بزعامته هولاكو إلى الشام بعد أن أسقطوا الخلافة العباسية في بغداد، ومن ثم عم القلق أهل مصر بعد أن أحسوا باقتراب الخطر منهم. وفي ذلك الموقف الحرج وجد قطز فرصته سانحة لعزل الصبي المنصور على بن أيك والجلوس محله على كرسي السلطنة، فجمع د الأعيان والأمراء بالديار المصرية، وهر فهم أن الملك المنصور هذا صبي لا يحسن التدبير في مثل هذا الوقت الصعب، ولا بد أن يقوم بأمر الملك رجل شهم بطيعة كل أحد، وينتصب للجهاد في التقار. فأجابه الجميع: ليس لها غيرك^(٢)،

وهكذا تم الأمر لقطز، فقبض على المنصور على بن أيك وأخيه قاتان ابن أيك وأمهما، واعتقلهم جميعاً في برج بالقاهرة؛ وتولى هو السلطنة بالقب المظفر في أبريل سنة ١٢٥٩.

(١) أبو الفدا: المختصر ج ٣ ص ١٩٥ .
(٢) أبو المصنف: النجوم الزاهرة، ج ٧ ص ٥٥ .

الفصل الثاني

الممالك والتتار

سقوط الحضارة الصينية في بغداد :

عرفت قارة آسيا في التاريخ بأنها المخزن البشري الضخم الذي خرجت منه غزوات كثيرة في العصور الوسطى لتؤثر سياسياً واجتماعياً واقتصادياً وسياسياً في أوضاع بلدان الشرق الأدنى حينئذ ، وبلدان شرق أوروبا ووسطها أحياناً . ويفسر الباحثون تلك الغزوات التي تدفقت من جوف القارة الآسيوية في العصور الوسطى في ضوء العامل الاقتصادي ، وما يرتبط بهذا العامل من ازدياد السكان وزيادة منعمة وتناقص الأمطار في بعض الأوقات ، مما يدفع الشعوب الرهوية الآسيوية إلى الهجرة في صورة غزوات هدامة منعمة ، فتدمر الزرع والضرع وتحرق في طريقها المدن والقرى ، ولا يعنيها في كل ذلك سوى أن تنجو من ألم الجوع وخطر الموت .

ومن تلك الغزوات التي تركت أثراً خطيراً في تاريخ الشرق الأدنى بوجه خاص غزوات التتار ، الذين نهج زعيمهم جنكيز خان في توحيد قبائلهم ثم في الاستيلاء على الصين في أوائل القرن الثالث عشر ، ومن ثم غداً التتار قوة رهيبة لم تقنع بالاقليم الوسطى من القارة الآسيوية ، وإنما انطلقت غرباً نحو شرق أوروبا من جهة وغرب آسيا والشرق الأدنى من جهة أخرى ، لتنفس عن طاقتها المكبوتة تعبيراً حروباً عنيفاً واسع النطاق .

وبمنها من أمر تلك الغزوات المغولية التي شهدتها النصف الأولى من القرن الثالث عشر ، أن منكوك خان - خاقان التتار الأعظم - أوفد أخاه هولاكو

لفتح إيران والشام ومصر وبلاد الروم (السلاجقة) والأرمن . وفعلوا لم يكذب
ينتصف القرن الثالث عشر إلا كان التتار قد قهضوا على الدولة الخوارزمية
وسيطروا على إيران ، كما استولوا بعد قليل على قلاع الباطنية في فارس ، وبذلك
جاء دور الخلافة العباسية في بغداد^(١) . وكانت الخلافة العباسية هندية متصف
القرن الثالث عشر — في عهد الخليفة المستعصم بالله — تعاني آلام الموت ، بعد
أن اعتراها الضعف الشديد بسبب الانقسامات المذهبية والفتن الداخلية وسيطرة
الأمراء على الخلافة وشؤونها ، ولذلك لم تستطع الخلافة العباسية الصمود في وجه
الغزو المغولي للعراق سنة ١٢٥٧ . في الوقت الذي فشلت جهود الخليفة المستعصم
العباسي في توحيد جهود الأيوبيين والمماليك في الشام ومصر لهذا ذلك
الخطر^(٢) .

وهكذا انتهم التتار بغداد في فبراير سنة ١٢٥٨ ليقتلوا ثمانمائة ألف من أهلها
في مذبحه وهية استمرت أربعين يوما ، ثم أشعلوا النار في المدينة بعد ذلك
فأنت على كثير من تراث العباسيين — بل تراث الحضارة الإسلامية — في
الأدب والعلوم والفنون . أما الخليفة المستعصم بالله العباسي فقد قتلته التتار في ٣٠
فبراير بعد أن حصلوا منه على كل دما كان الخلفاء العباسيون قد جمهوه خلال
خمسة قرون ،^(٣) ولم يكف التتار بقتل الخليفة العباسي نفسه بل أرادوا
أن يحدثوا مذبحه لاستئصال جذور البيت العباسي كله وفقضوا على كل شخص
وجده حيا من العباسيين ،^(٤)

(١) رشيد الدين الحمذاني : جامع التواريخ ج ٢ ص ٢٣٦ وما بعدها .

(٢) السبكي : طبقات الشافعية ج ٥ ص ١١٣ ، المقرئ : السلوك ج ١ ص ٣٨٥ .

(٣) أبو الفدا : المختصر ، حوادث سنة ٦٥٦ هـ .

(٤) رشيد الدين الحمذاني : جامع التواريخ ص ٢٩٤ .

التتار في الشام

ولا شك في أن وصول التتار إلى العراق واستيلائهم عليه ، وإسقاطهم الخلافة العباسية في بغداد... كل ذلك أحدث هزة عنيفة في العالم الإسلامي بوجه عام والوطن العربي بوجه خاص . وقد أخذ حكام المسلمين وأمرؤهم في البلاد المجاورة يعملون حساباً لليوم المرتقب ، لأنه لم يكن منتظراً أن يمنع المغول بالاستيلاء على العراق وأن تقف غزواتهم وقفة تلقائية عند ذلك الحد ، وهم الذين خرجوا من جوف القارة الآسيوية واستمروا - كلها استولوا على بلاد يتطلعون إلى ما بعده من بلاد .

ويبدو أن أخبار قسوة التتار ووحشيتهم وعنهم كانت تسبقهم دائماً إلى البلاد التي لم يصلوا إليها بعد ، فأسرع الأمراء والحكام إلى استرضائهم والاستسلام لهم طلباً للسلامة وتجنباً لسوء العواقب . وهكذا أسرع أهالي الحلة والكوفة وواسط في العراق إلى استقبال جندهم ولا كورسله وأقاموا الأفراح ابتهاجاً بقدمهم^(١) وفعل مثل ذلك حاكم الموصل وسلطان سلاجقة الروم . وغيرهما من حكام البلدان الإسلامية المجاورة .

أما ملوك الأيوبيين وأمرؤهم بالشام فلم يكونوا أحسن حالا ، إذ أسرع الناصر يوسف الأيوبي صاحب حلب ودمشق إلى إعلان خضوعه للتتار فأرسل ابنه العزيز سنة ١٢٥٨ م بتحف وتقدم إلى هولاكو ملك التتر وصانعه له له بعجزه عن التتقى التتر^(٢) .

على أن تلك المظاهرات من جانب ملوك الأيوبيين جاءت بعد فوات الأوان

(١) رشيد الدين الحمصاني : جامع التواريخ م ٢ ج ١ ص ٢٩٦ .

(٢) أبو القدا : المختصر ، حوادث سنة ٦٠٧ هـ .

إذ لم يكن إعلان ولاتهم بعد سقوط بغداد ليصرف نظر هولاء عن الشام. وقد بدأ التتار هجماتهم ضد بني أيوب بالاستيلاء على ميا فارقين في ديار بكر، وكان يحكمها أحد أمراء الأيوبيين واسمه الكامل دحمه، وعندما استولى التتار على تلك المدينة ذهبوا من فيها من المسلمين، في حين قطعوا جسد الكامل محمد الأيوبي إرباً وحملوا رأسه على حربة ليظاف بها في جميع أنحاء الشام من حلب إلى دمشق (١).

أما الناصر يوسف الأيوبي صاحب حلب ودمشق فلم يشفع له أنه أرسل ابنه العزيز إلى هولاء، لأن الأخير فحجج بأن هدم حضور الناصر يوسف بنفسه إليه واكتفائه بإرسال ابنه يعتبر إهانة شخصية بالنسبة له. ويروى المقرئ أن العزيز هاد إلى أبيه ومعه رسالة من هولاء، كويصف له فيها ما حل ببغداد على أيدي التتار ويذره بسوء العاقبة إن لم يستسلم للتتار فوراً دون قيد أو شرط (٢). وفي تلك الأزمة لم يجد الناصر يوسف الأيوبي أمامه سوى المماليك في مصر، فأرسل إليهم الصاحب كمال الدين بن العديم ليطلب معونتهم لمواجهة خطر التتار، فوعده المماليك بالمساعدة (٣).

وهنا يصبح أن تشير إلى أن غزو التتار لبلاد المسلمين في الشام اتخذ طابعاً صليبياً ذلك أن زوجة هولاء وأمه كانتا مسيحيتين على المذهب النسطوري، الأمر الذي جعل هولاء كوي بطف على المسيحيين بقدر ما قسا على المسلمين في الشرق الأدنى. وفي الوقت نفسه وجدت بعض القوى الصليبية في الشرق الأدنى وفي الغرب الأوربي فرصة طيبة في إمكان تحويل التتار إلى المسيحية فانصلوا بهم واستأثروهم ضد المسلمين. وهناك في المراجع الصليبية المعاصرة

(١) D' Ohsson : Hist. des Mongols, IU, P. 307 .

(٢) المقرئ : السالك س ٤١٥ - ٤١٦ .

(٣) أبو الحسن : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٧٢ - ٧٣ .

ما ثبت أن ملك أرمينية الصغرى المسيحي اتصل بهولاكو ورسم معه خطة غزو بلاد الشام وانتزاع بيت المقدس من المسلمين ليتسلمها المسيحيون (١).

ومهما يكن من أمر ، فإن غزو التتار لبلاد الشام بدأ فعلا سنة ١٢٥٩ ، فتدفقت قواتهم من أذربيجان وكردستان على الجزيرة ، واستولى هولاكو على آمد ونصيبين وحران والرها والبيرو ، ومن هناك اتجهت صوب حلب . وقدر رفض نائب حلب الاستسلام للتتار ، فاقبضوه المدينة في يناير سنة ١٢٦٠ واستولوا عليها عنوة ليعملوا في أهلها قتلا وأسرا (٢) . وسرعان ما انتشرت أخبار ما فعله التتار بحلب في بقية أنحاء الشام ، فأسرع ملوك الأيوبيين إلى الدخول في طاعة هولاكو ، ففي حين فر الناصر يوسف من دمشق إلى غزة وترك دمشق تلقى مصيرها على أيدي التتار . ولا شك في أن تحاذل ملوك الأيوبيين أمام التتار واستسلامهم لهم ، وفرارهم أمام ذلك الخطر ، جاء بمثابة تنازل منهم عن ملكهم بعد أن صجزوا عن الدفاع عن ذلك الملك (٣) .

ولم يصعب على هولاكو بعد ذلك الاستيلاء على دمشق في مارس سنة ١٢٦٠ ، ثم استولى التتار على بقية بلاد الشام في الأسابيع التالية ، بحيث وصلوا إلى غزة ، وبذلك جاء دور مصر .

السلطان المظفر قطز : (١٢٥٩ - ١٢٦٠)

وفي تلك الأوقات التي شهدت سقوط بلاد الشام في أيدي التتار ، استغل الأمير قطز خطورة الموقف لعزل على بن أيوب وإعلان نفسه سلطانا ، كما سبق أن أوضحنا وقد وصف المؤرخون للسلطان المظفر قطز بأنه « كان بطلا شجاعا

(١) سعيه عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ١١٧٣ .

(٢) أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر ، حوادث سنة ٦٥٨ هـ .

(٣) Greasset : Hist. des Croisades, Tome III, p587.

مقدماً حازماً حسن التدبير، يرجع إلى دين وإسلام وخير، وله اليد البيضاء في جهاد التتار. (١)

والواقع أن قطار تولى منصب السلطة في ظروف لا يحسد عليها حاكم، إذ كان مطالباً منه أن يصد الخطر الذي لم تستطع قوة في الشرق الأدنى الصمود في وجهه. ولم يكبد قطار يمتلي عرش السلطنة حتى حضر إليه رسل هولاكو يطلبون منه الاستسلام ويدكرونه بما فعله المغول وينذرونه سوء العاقبة إذا حدثته نفسه بالمقاومة؛... فلم يجمع البلاد معتبر وهن عز منا مزدجر، فاقطعوا بغيركم واسلموا إلينا أمركم، قبل أن ينكشف الغطاء فتندموا ويعود عليكم الخطأ. فنهجن ما نرحم من بكى ولا نرق لمن شكى. وقد سمعتم أننا قد فتحنا البلاد وطهرنا الأرض من الفساد وقتلنا معظم العباد، فعليكم بالهرب وعلينا بالطلب... (٢).

ولكن قطار لم يهتز لحرب الأعصاب التي دأب التتار على شنها والإفادة منها. وكان أن جمع السلطان قطار الأمراء واستشارهم في الأمر فقرروا المقاومة وعدم الاستسلام، وعندئذ أمر قطار بتوسيط رسل التتار— وكانوا أربعة— فوسط أحدهم بسوق الخيل، والثاني عند باب زويلة، والثالث عند باب النصر والرابع بالريداية، ثم علق رؤوسهم جميعاً على باب زويلة (٣).

وفي تلك الأزمة أظهر المماليك البحرية— الذين كانوا مازالوا هائمين على وجوههم بالشام— روحاً طيبة وحماة نادرة مما كان له أثر كبير في التغلب على التتار. وذلك أنه منذ أن دخل التتار بلاد الشام، وأمراء البحرية يصرون على مقاومتهم وعدم الاستسلام لهم. ويقال إن أحد أمراء دمشق— وهو زين الدين

(١) أبو الحسن: النجم الزاهرة ج ٧ ص ٨٤.

(٢) الميرزى: السلوك ج ١ ص ٤٢٧— ٤٢٨.

(٣) الميرزى: السلوك ج ١ ص ٤٢٩.

الحافظي - أظهر تخوفه عندما سمع بزحف التتار على حلب ، وأشار بالاستسلام
لهولاكو والدخول في عاقته ، ولم يكن الأمير بيبرس البندقداري - وهو أحد
زعهاء البحرية - لم يجبه ذلك القول ، فقام وصنع الأمير الحافظي على وجهه
قائلاً : أنتم سبب هلاك المسلمين ،^(١) وبمثل هذه الروح سار الأمير بيبرس
البندقداري ومعه جملة من أمراء البحرية إلى غزة ، ومن هناك أرسل بيبرس
إلى السلطان المظفر قطز يطلب منه الأمان وتوحيد الكلمة لمواجهة خطر التتار
وقدر حب قطز بتلك الدعوة وطلب من بيبرس الحضور إليه ، وأحسن استقباله
وأقطعهم قلوب وأعمالها^(٢) . وبذلك تماسك المماليك جميعاً بحرية وغير بحرية -
وأظهروا روحاً طيبة لمواجهة ألدح خطر هدد العالم الإسلامي في الشرق الأدنى
في القرن الثالث عشر .

موقعة عين جالوت سنة ١٢٦٠ :

وفي الوقت الذي أظهر المماليك جميعاً تماسكاً عظيماً في صد خطر التتار ،
إذا بالظروف نفسها تساعدهم في التغلب على ذلك الخطر ، ذلك أن منكوخان
خاقان المغول العظيم توفي في أغسطس سنة ١٢٥٩ ، مما أثار نزاعاً بين أخوته
حول اقتسام إمبراطورية المغول الواسعة . وعندما سمع هولاكو بوفاة أخيه ،
رأى أن يسرع إلى قراقورم حاضرة التتار في جوف آسيا ، فعاد إليها تاركاً قيادة
جيوشه بالشام لقائده كتبغا . ولا شك في أن عودة هولاكو إلى قراقورم ومعه
جزء كبير من جيشه كان لها أثر كبير في إضعاف قوة التتار بالشام في الوقت الذي
أخذ السلطان قطز يعددته لمواجهة خطرهم^(٣) .

(١) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٤١٩ - ٤٢٠ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ورقة ٣٩٤ (مخطوط) .

(٣) رشيد الدين الهذلي : جامع التواريخ ، ج ١ ص ٣٠٨ .

وعندما اكتملت استعدادات السلطان المظفر قطز خرج على رأس جيوشه قاصداً الشام للاقامة التتار. وقرب الصالحية تردد بعض الأمراء في السير بعد أن تذكروا ما أحاط تحركات التتار من قصص مخيف جعل مقاومتهم ضرباً من العبث في نظر كثير من المعاصرين . ولكن السلطان المظفر قطز هب في أسرته صائحاً دياً أمراء المسلمين : لكم زمان تأكلون أموال بيت المال وأنتم للعزاة كارهون . أنا متوجه ، فمن اختار الجهاد يصحبنى ومن لم يفت ذلك يرجع إلى بيته ، فإن الله مطلع عليه وخطيئة المسلمين في رقاب المتأخرين (١) ١٠٠٠

وبمثل هذه الروح واصل الجيش المماليكي زحفه في اتجاه الشام في يولية سنة ١٢٦٠ . وكانت مقدمة جيش المماليك بقيادة الأمير بيبرس البندقدارى الذى اتجه إلى غزة ، في الوقت الذى كان كتبغا قد أقام قوة من التتار عند غزة تحت قيادة بيدرا . وقد أرسل بيدرا إلى كتبغا - الذى كان عندئذ فى بعلبك - يعلمه بوصول مقدمة الجيش المماليكي ويطلب منه النجدة ، ولكن كتبغا رد عليه قائلا : قف مكانك وانتظر ، وأمره بالاحتفاظ بغزة وعدم التدخل عنها لحين وصول الإمدادات إليه . على أن المماليك فوتوا على التتار فرفضهم ، فبادروهم بالهجوم وهزموا بيدرا واحتلوا غزة وطاردوا المغول حتى نهر العاصي (٢) .

وكان لوصول المماليك إلى فلسطين واحتلالهم غزة رد فعل قوى عند المسلمين في كافة مدن الشام ، إذ أروا في ذلك النصر بادرة أمل ، وتشجعوا على مقاومة التتار (٣) . وفي الوقت نفسه أظهر المماليك كياسة وبعد نظر فلم يحاولوا استئثار الصليبيين وحرسوا على مصالحهم حتى لا يجاربروا خصمين في وقت واحد وكان أن أرسل المماليك إلى حكومة عكا الصليبية يستأذنونها في السماح لجيوشهم

(١) المقرئى : السلوك ج ٤٢٠ .

(٢) رشيد الدين الحمزانى : جامع التواريخ ، ج ١ ص ٣١٣ .

(٣) أبو الفدا : المختصر ، حوادث سنة ٦٥٨ هـ .

بعبور الأراضى الصليبية لمحاربة التتار ؛ فوافق الصليبيون على ذلك الطلب (١).

وهكذا سار قطز على رأس الجيش المماليكى بحذاء الساحل، وصر المماليك بسلام فى أراضى الصليبيين بحذاء عكا ؛ بل إن الصليبيين فى عكا خرجوا إلى السلطان قطز ومعهم التقادم والهدايا وأرادوا أن يسيروا معه نجدة، فمكرهم وأخلى عليهم واستحلفهم أن يكونوا لاله ولا عليه (٢). وبعد أن حصل المماليك فى الأراضى الصليبية على مالزمهم من ميرة ومؤن، اتجهوا شرقاً عبر الجليل إلى الأردن عن طريق الناصرة. لاسترداد دمشق من التتار وقد لجأ قطز إلى خدعة حربية ناجحة، فأخفى معظم جيشه بين الأحراش والأشجار المحيطة بعين جالوت - بين يسان ونا بلس - وترك مقدمة الجيش بقيادة بيبرس تتابع سيرها وحدها تجاه التتار. وفى تلك الأثناء كان كتبغا قد وصل د وكأنه بحر من اللهب بسبب الغيرة والغضب، فالتقى بالمماليك عند قرية عين جالوت فى ٣ سبتمبر سنة ١٢٦٠ (٣). وقد أظهر المماليك شجاعة كبيرة فى عين جالوت ؛ حتى يقال إنه حدث عندما اضطربت صفوفهم أن ألقى السلطان قطز خوذته عن رأسه إلى الأرض وصرخ بأعلى صوته والإسلاماء، وحمل بنفسه على العدو حتى تم القضاء على التتار قضاء تاماً وولوا الأدبار لابلون على شئ. أما كتبغا فقد ظل يقاتل فى شجاعة وعناد حتى سقط قتيلاً (٤).

ولا شك فى أن موقعة عين جالوت تعتبر من المواقع الفاصلة فى التاريخ، نظراً لما ترتب عليها من نتائج خطيرة. فلوانتهصر التتار فى تلك الموقعة لفعلوا

(١) سعيد عاشور: الحركة الصليبية ج ٢ ص ١١٣ - ١١٣٦.

(٢) المقرئى: السلوك ج ١ ص ٤٣٠.

(٣) رشيد الدين الهمداني: جامع التواريخ، ج ١ ص ٣١٣.

(٤) المقرئى: السلوك، ج ١ ص ٤٣١، أبو المحاسن: النجوم ج ٧ ص ٧٩.

بمصر وأهلها مثلما فعلوا بالعراق وأهله ، أو على الأقل لأقاموا واستقروا بالشام مثلما أقاموا واستقروا بالعراق ؛ ولمرت بقية البلدان العربية بالشرق الأدنى في دور مظلم حالك طويل تحت حكم التتار مما يترك أثراً بعيداً في تاريخها . ولكن انتصار المماليك في عين جالوت لم ينقذ مصر لحساب من همجية التتار ، بل أنقذ الشام أيضاً ، لأنهم غدوا ولا مقام لهم بالشام بعد تلك الضربة القاصمة التي نزلت بهم في عين جالوت^(١).

ولكن مع اعترافنا بحسن بلاء المماليك وشجاعتهم في موقعة عين جالوت ، إلا أنه ينبغي ألا نسقط من حسابنا العوامل المساعدة على تحقيق ذلك النصر ، وهي العوامل التي تستر عادة في التاريخ وتحتاج إلى نوع من التقصي لكشف الستار عنها ، ومن هذه العوامل موقف جمهرة الصليبيين بالشام من التتار موقفاً سلمياً ، وعدم محاولتهم استغلال تلك القوة الجديدة لإزالة ضربة قاصمة بالعدو المشترك ممثلاً في المسلمين . كذلك كانت عودة هولاكو ومعه معظم جيشه إلى قراقورم ذات أثر كبير في إضعاف قوة التتار بالشام ، ولا يخفى علينا أن وجود هولاكو نفسه في المعركة ضد المماليك كان من الممكن أن يؤثر تأثيراً معنوياً خطيراً في نفوس رجاله من التتار وأعدائه من المماليك جميعاً . وأخيراً فإن ثمة حقيقة كثيراً ما يغفلها المشتغلون بالتاريخ . هي أن لكل غزوة أو هجرة - مهما يبلغ عنفها وقوتها - نهاية حتمية ؛ وأن حركات الغزو كالسكرة التي تنطلق في أول أسرها في سرعة وقوة ولكن لا تلبث أن تفترق قوة اندفاعها تدريجياً حتى تتوقف تلقائياً ، ولا توجد غزوة في التاريخ استمرت في حالة انطلاق دائم ، وإنما هناك نقطة معينة يجب أن تتوقف عندها نتيجة لظروف عديدة طبيعية وبشرية تفرض عليها ذلك التوقف .

(١) صميد عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ١١٣٧

ولا شك أنه بوصول التتار إلى بلاد الشام كانت حركتهم الضخمة قد بلغت نهايتها في ذلك الاتجاه الجنوبي الغربي ، بعد أن طالت خطوط مواصلاتهم وبعثوا كثيراً عن مركزهم الأصلي في جوف القارة الآسيوية ، فضلاً عما استنفدوه من جهد وطاقة نتيجة لاجتياحهم تلك البلدان الفسيحة والمساحات الواسعة حتى وصلوا إلى الشرق الأدنى . وجميع هذه الاعتبارات يجب أن نضعها أمام أعيننا - إلى جانب شجاعة المماليك وحسن بلائهم - عندما نفخر بانتصار عين جالوت .

نور محمد مهمر والشام :

وثمة أهمية خطيرة لانتصار المماليك على التتار في عين جالوت هي إعادة الوحدة بين مهمر والشام ، بعد أن أدى قيام دولة المماليك في مصر وغضب الأيوبيين بالشام ، إلى تمزيق رباط الوحدة التي أجهد كل من نور الدين محمود وإصلاح الدين نفسه في بنائها في القرن الثاني عشر ، والتي كان لابد منها لمواجهة الأخطار التي واجهت المسلمين جميعاً في الشرق الأدنى . ولكن تقاعس ملوك البيت الأيوبي عن صد التتار وفورهم من الجهاد ، بل نواطؤ بعض أبناء البيت الأيوبي مع التتار واشتراكهم معهم في عين جالوت ضد إخوانهم المسلمين ، أفقد بني أيوب أي حق شرعي في الملك وجعلهم يبدون في نظر المعاصرين في صورة القوة المتداعية حين الجديرة بحكم المسلمين .

وفي الوقت نفسه كانت دولة المماليك الناشئة في حاجة إلى دعامة تعتمد عليها في البقاء في الحكم . ولا يخفى علينا أن المماليك الذين استأثروا بحكم مهمر في منتصف القرن الثالث عشر كانوا قبل كل شيء مقتصبين للعرش من أصحابه الشرعيين ، فضلاً عن كونهم يجر حين بسبب أصلهم غير الحر . وكان المماليك عند قيام دولتهم في حاجة ماسة إلى القيام بعمل كبير يضمن عليهم نوعاً من

التشريف ويكسب حكمهم قسماً من الأهمية والشرعية ويجعل حكمهم مستمراً لدى جماهير المسلمين . وهنا تبدو أهمية انتصار المماليك في عين جالوت ، لأن هذا الانتصار أظهرهم ، في صورة الدرع الواقي لوطن الإسلام في الشرق الأدنى ، والقوة الوحيدة التي استطاعت الصمود في وجه خطر التتار ، بل كسر شوكتهم وإنقاذ الشام ومصر من براثنهم .

وهكذا يمكننا القول أنه بانتصار المماليك في عين جالوت حصلوا على ما كان ينقصهم من مجد لا بد منه لتثبيت أركان دولتهم ؛ فلم يبق للناس أصلهم غير الحر ، وتناموا أنهم في حقيقة أمرهم مفتضون العرش من ساداتهم الأيوبيين . ولم يعد الناس يذكرهم إلا شيئاً واحداً ، هو أن المماليك أنقذوهم من التتار ؛ وأن بقاء المماليك في الحكم إنما هو ضرورة لا بد منها للمحافظة على كيان المسلمين في الشرق الأدنى ، وفي ضوء هذه الحقيقة يمكننا أن نقرر إن موقعة عين جالوت كانت بمثابة الحد الفاصل للصراع بين الأيوبيين والمماليك ، فجاءت هذه الموقعة ليداناً بغروب شمس دولة بني أيوب وارتفاع نجم دولة المماليك .

والواقع أن السلطان المظفر قطز صار خدأة موقعة عين جالوت سيد الموقف في د بلاد الشام كلها من الفرات إلى حدود مصر ؛ فلم يبق أمامه من بقايا البيت الأيوبي سوى بعض الشخصيات العجاف التي كانت لا تستطيع الصمود في وجه قاهر التتار . وكان أن عفا قطز عن الأشرف موسى الأيوبي صاحب حمص وأمنه ، وكذلك فعل مع الملك المنصور الثاني صاحب حماة وأقره على حماة وبعرين ، كما أعطاه المعرة وكانت بيد الحلبيين^(١) . أما الملك السعيد حسن أمير باناس والصبية — وهو الذي توأماً مع التتار وانضم

اليوم يوم عين جالوت في محاربة المسلمين — فلم يقبل قطز غدره وأمر
بضرب عنقه فضربت في الحال^(١).

ولم يكن يتم انتصار المسلمين على التتار في عين جالوت حتى انتشر
الخبر في سرعة مذهلة ، فحملت رأس كتبغا إلى مصر حيث أقيمت الاحتفالات
بالنصر في حين فر د نواب التتار من دمشق وتبعهم أصحابهم^(٢) ثم دخل
قطز دمشق دخول الفاتح المظفر ، فاستقبل استقبالاً حافلاً ، وتضاعف شكر
المسلمين لله تعالى على هذا النصر العظيم ، فإن القلوب كانت قد يئست من
النصرة على التتار لاستيلائهم على معظم بلاد الإسلام ، ولأنهم ما قصدوا إقليماً
إلا فتحوه ولا عسكرياً إلا هزموه^(٣).

السلطان الظاهر بيبرس (١٢٦٠ - ١٢٧٧)

وفي الوقت الذي استعدت القاهرة لاستقبال بطل عين جالوت وأقيمت
الزيارات في الطرقات والأسواق والحوانيت تحية له وتكريماً لبطولته إذا
بالأمور تتهاور بسرعة حتى انتهت بمقتل قطز وقيام بيبرس في السلطنة .

ذلك أن الأمير بيبرس كان يأمل أن يجد من قطز حظاً من التقدير بعدما
أبداه من شجاعة في محاربة التتار ، فطلب من قطز أن يوليّه نيابة حلب التي
كان السلطان قد وعد فعلاً بمنحها إياه^(٤) . ولكن قطز امتنع وتكرّر للجمل ،
وبذلك أظهر قصر نظر واضح لأن المكانة التي أحرزها بيبرس في ذلك
الوقت كانت أعظم من أن يتجاهلها إنسان ، ولو كان قطز حكيماً لآلهى بيبرس

(١) أبو الحسن : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٨٠

(٢) القرينى : السلوك ج ١ ص ٤٣٢

(٣) أبو الفدا : المختصر ، حوادث سنة ٦٥٨ هـ

(٤) أبو الحسن : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ١٠١

يقية بة حلب ، وبذلك يأمن منافسته له في مصر^(١) . ولا يخفى علينا أن البحرية -
وهمهم يبرس - لم ينسوا قطز أنه شارك في قتل كبيرهم أنطاي زمن أبيك ،
ويعنى آخر فإن البحرية أحسوا دائماً أن لهم ثأراً في عنق قطز ، ولذا
لم يكونوا في حاجة إلى مزيد من التعريض والاستثارة ضد قطز .

وكان أن صمم يبرس على الانتقام من قطز ، فدبر مؤامرة مع زملائه
من زعماء البحرية لقتل قطز في أول فرصة مناسبة . وسرعان ما حانت الفرصة
عندما وصل ركب السلطان إلى الصالحية في طريقه إلى القاهرة . ذلك أن
قطز أظهر رغبته في الصيد ، فلما فرغ من رياضته تقدم منه الأمير يبرس
وطلب امرأة من سبي التتار ، فأجابه السلطان إلى طلبه وأنعم عليه بما أراد .
وقد تظاهر يبرس برغبته في تقبيل يد السلطان ، وكانت إشارة بينه وبين
شركائه المتآمرين ، فقبض يبرس على يد قطز لينزله من المركبة في حين انهمال
عليه بقية أمراء البحرية بسيفهم ورمحهم والقوه من فرسه حتى أجهزوا
عليه . ومقتل قطز على ذلك الوجه في أواخر أكتوبر سنة ١٢٦٠ ، خلا
البحر للبحرية وزعيمهم يبرس^(٢) .

وكان طبيعياً أن تؤول السلطنة بعد مقتل قطز إلى قاتله الأمير ركن
الدين يبرس ، بوصفه أقوى الأمراء البحرية من ناحية وصاحب الفكرة
في قتل قطز من ناحية ثانية ، فضلاً عن موافقه المشرفة في محاربة المغول
من جهة ثالثة . وتروى المراجع أن الأمراء البحرية الذين قتلوا قطز ساروا
بعد تنفيذ مؤامرتهم إلى الدهليز السلطاني بالصالحية ، وقد أجمعوا أمرهم على
سلطنة يبرس . وعندما قابلهم الأمير فارس الدين أنطاي الأنابك عند
باب الدهليز ، أخبروه بما فعلوا من قتل السلطان قطز ، وعندئذ سألهم

(١) سعيد عاشور : الظاهر يبرس ص ٣٣ - ٣٤

(٢) أبو الفدا : ج ٣ ص ٢٠٧

الأنابك « من قتله منكم ؟ » فقال بيبرس « أنا » فنظر إليه الأنابك وقال « يا خوند ، اجلس في مرتبة السلطنة ! »^(١) وبمثل هذه السهولة والبساطة حل القاتل محل القتيل ، فاستدعى العسكر في الحال ليحلفوا السلطان الجديد قبل أن نجف دماء ضحيته ، وكان القاضي برهان الدين قد وصل من القاهرة ليستقبل قطار وبهمنته بانتصاره في عين جالوت ، فاستدعى القاضي نفسه ليقوم بتحايف العسكر للملك بيبرس الذي تلقب بالملك القاهر .

وبعد أن تمت تلك الإجراءات المبدئية في الصالحية . قال الأمير أقطاي لبيبرس « لا تتم السلطنة إلا بدخولك قلعة الجبل » لذلك أمر بيبرس ومعه صحبه من الأمراء إلى القاهرة التي كانت قد زينت لاستقبال المظفر قطان بطل عين جالوت ، فإذا بالمنادى ينادى في طرقات القاهرة « ترحموا على الملك المظفر وادعوا اسلطانكم الملك القاهر ركن الدين بيبرس ! » وهكذا شق بيبرس طريقه إلى قلعة الجبل ، فلقية الأمير عز الدين أيمن نائب السلطنة وكان قد خرج للقاء قطان ، فأخبره بيبرس بما حدث ، وعندئذ حلف نائب السلطنة للسلطان الجديد ونقدمه إلى القلعة حيث أعلن الأراء ولا هم لبيبرس ، واستقر السلطان الجديد في قلعة الجبل قاعدة الحكم في البلاد^(٢).

ويروى المؤرخ أبو المحاسن أن الوزير زين الدين يعقوب - وكان فاضلا في الأدب وعلم التاريخ - دخل على السلطان بيبرس بالقلعة فأشار عليه بتغيير لقبه « القاهر » وقال له « ما لقب به أحد فأفلح ، لقب به القاهر ابن المعتضد فلم تطل مدته وخلع من الخلافة وسحل ، ولقب به القاهر ابن صاحب الموصل فسم ، لذلك أشاءم بيبرس من لقب القاهر وأبطله واتخذ لقباً جديداً هو « الملك الظاهر »^(٣).

(١) المبريزي : السلوك ج ١ ص ٤٣٦

(٢) المبريزي : السلوك ج ١ ص ٤٣٧ .

(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ص ١٠٣ - ١٠٤ .

وبدخول بيبرس قلعة الجبل يوم ٢٣ أكتوبر سنة ١٢٦٠ بدأت صفحة جديدة في تاريخ دولة المماليك ، ذلك أن السلطان الظاهر بيبرس أثبت بأعماله وإصلاحاته وحروبه أنه المؤسس الحقيقي لدولة المماليك في مصر والشام . ومن يتأمل دولة المماليك في الدور الأول من نشأتها يجد أنه تعاقب على عرشها في السنوات العشر الأولى من عمرها خمسة سلاطين ، مما يدل على حالة الفلق وعدم الاستقرار التي تعرضت لها دولة المماليك في ذلك الدور . أما بيبرس فيكفيه أنه شغل كرسي السلطنة سبعة عشر عاماً ، وهي مدة طويلة لم يبلغها أحد من سلاطين دولة المماليك البحرية ، عدا السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، وإذا كان السلطان الظاهر بيبرس قد بق مدة طويلة في الحكم ، فإن ذلك جاء دليلاً على قوته ونجاح سياسته في الحكم من ناحية ، فضلاً عن استقرار الأمور له من ناحية أخرى (١) .

ولم يلبث السلطان الظاهر بيبرس أن وضع لنفسه سياسة واسعة الأفق استهدفت في الخارج صد أخطار التتار والصليبيين من بلاد الشام ونشر نفوذه على شبه الجزيرة العربية والنوبة ؛ وفي الداخل توطيد الأمن والقضاء على الثوار والمناوئين وتخفيف الأعباء الملقاة على كواهل الأهالي ثم وضع قواعد النظام الإداري في مصر والشام في العصر المماليكي ، فضلاً عن القيام بقدر ضخم من الإصلاحات المتنوعة . وهكذا قضى السلطان بيبرس حكمه في حركة دائبة بين مصر والشام يصلح ويجهاد ويثبت أركان دولته ، حتى قال فيه أحد المعاصرين :

يوماً بمصر ويوماً بالحجاز وبالشام يوماً ويوماً في قرى حلب
وفي سبيل تنفيذ سياسته الواسعة النطاق البعيدة الأهداف ؛ لجأ بيبرس إلى

(١) سعيد عاشور : الظاهر بيبرس ص ٣٧ .

عدة لإجراءات سياسية تدل على ذكائه وفطنته ؛ فهو يحالف مغول القفجاق ليتخذ منهم ستاراً ضد مغول فارس ؛ ويحالف الدولة البيزنطية أو امبراطورية الروم ليجعل منها عضداً له في سياسته ضد الصليبيين بالشام ؛ ويحيي الخلافة العباسية في مصر لتكون دعامة له ولحكم المماليك في مصر والشام ، وستتكمم عن مختلف أعمال الظاهر بيبرس الداخلية والخارجية حسب ترتيبها الموضوعي في فصول هذا الكتاب ؛ وانكتفى في هذا الموضوع بالكلام عن موقف بيبرس من تتار فارس بالذات .

والواقع أنه إذا كان التتار قد انسحبوا من الشام عقب هين جالوت ، فإنهم لم ينسوا أبداً تلك الهزيمة الفاصلة التي حملت بهم ، فظلوا يداومون الإغارة على بلاد الشام بين حين وآخر كلما سمحت لهم فرصة لذلك . ومن الواضح أن الصراع بين المماليك والتتار كان أمراً طبيعياً بين جارين آمن كل منهما بفكرة الحرب ومبدأ الغزو ، واتخذ هذه الفكرة وذلك المبدأ محوراً لنشاطه وبجالاته لحياته (١) . وإذا كان هناك عامل ديني واضح جعل المسلمين يكرهون تتار فارس بوصفهم وثنيين أولاً ومسؤولين عن إسقاط الخلافة العباسية في بغداد ثانياً ، فإننا يجب أن نذكر بالإضافة إلى هذا العامل الديني أثر صغار أمراء المسلمين الذين استولى التتار على مدنهم وبلادهم في العراق والشام ، والذين احتتموا بسلاطين المماليك في مصر وظلوا يحرضونهم ضد المغول ؛ حتى أن يكون في ذلك التحريض تنقيساً عما نكته صدورهم من حقد على المغول ، وسأولى المالحقهم من خساسة على أيديهم . وإذا كان المماليك قد اتخذوا لأنفسهم لقب سلاطين الإسلام ، وبذلك اكتسبوا صفة حماة العالم الإسلامي المدافعين عنه وعن أهله ؛ فلا أقل من أن يسهروا على دفع الأخطار التي هددت العالم الإسلامي من جانب الصليبيين والتتار جميعاً (٢) .

(1) Wiet : ' Egypte Arabe, p. 481.

(٢) سعيد عاشور : الظاهر بيبرس : ص ٨٩ .

ومهما يكن من أمر، فإن تتار فارس كانوا هم البادئون بالعدوان فأغاروا سنة ١٢٦٥ على البيرة - وهي قلعة هامة على نهر الفرات - وحاصروها بغية الاستيلاء عليها . وكان أن أظهر بيبرس همة كبيرة لصد ذلك الخطر فأرسل الجيوش إلى الشام على دفعات ، ثم سافر بنفسه على رأس الفوج الأخير في نهاية يناير سنة ١٢٦٥ ، فوصل غزة في ٩ فبراير . ولما شكوا بعضهم إلى السلطان قلة الدواب قال : ما أنا في قيد الجمال ، أنا في قيد نصر الإسلام^(١) . على أن بيبرس لم يصل إلى البيرة؛ إذ وافته الأخبار وهو في دمشق بأن التتار ولوا مدبرين أمام الإمدادات التي أرسلها بيبرس إلى البيرة صحبة الملك المنصور صاحب حماة^(٢) . ولما أدرك بيبرس أن التتار في فارس يتخذون البيرة مركزاً للمعبور إلى بلاد الشام ؛ أمر بتحصينها وتزويدها بالسلاح والمؤن التي تمكنها من تحمل حصار طويل . هذا إلى أن الظاهر بيبرس استخدم شيوخ العرب في العراق ليسكنوا هيوناً له على التتار فيخبرونه بتحركاتهم وأحوالهم^(٣) .

ولم تؤد وفاة هولاكو خان التتار في فارس سنة ١٢٦٥ إلى تهدئة الموقف بين التتار وسلطنة المماليك ، لأن أبغا بن هولاكو كان مسيحياً لسطورياً ، فتزوج من ابنة الامبراطور البين نطلي ميخائيل باليولوجس ، وحرص على أن يدعم هلاقاته بالقوى المسيحية في الشرق والغرب للانتقام من المسلمين في بلاد الشام ومصر . على أنه يبدو أن أحوال دولة مغول فارس الداخلية والحارجية عند قيام أبغا في الحكم كانت لا تساعد على الاستمرار في معاداة المسلمين في مصر والشام ، بدليل أنه سارع بإرسال الرسل سنة ١٢٦٥ إلى السلطان بيبرس تحمل الهدايا وتطلب الصلح . ولم يكن بيبرس لم يرتض لنفسه أن يصلح التتار ، وهم الذين

(١) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٥٢٤ .

(٢) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة ج ٩ ورقة ٩٠ .

(٣) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٤٧٦ .

مزقوا العالم الإسلامي وقتلوا خليفة المسلمين وحالفوا أعداء الإسلام^(١). ولما أهمل بيبرس تلك الدعوة إلى الصلح ، هاد أبغا بعد عدة سنوات وأرسل سنة ١٢٦٨ رسولا إلى بيبرس يكرر الطلب إلى الصلح . وفي تلك المرة وسط أبغا ملك أرمينية الصغرى في طلب الصلح ، كما لجأ إلى مزيج من التهديد والترغيب ، بجاء في كتابه إلى بيبرس بأن الملك أبغا لما خرج إلى الشرق تملك جميع العالم وما خالفه أحد . ومن خالفه هلك وقتل . فأنت لو صعدت إلى السماء أو هبطت إلى الأرض ما خلصت منا ؛ فالصلحة أن تجعل بيننا صلحا . ثم إن أبغا لم يكتف بذلك التهديد الصريح ؛ بل عمد على لسان رسوله — إلى تهريج بيبرس بأصله المملوكي غير الحر ، والخط من قدره وقيمته بين الملوك ؛ فقال الرسول للسلطان أثناء الحديث : أنت مملوك وأبعت في سيواس ، فكيف لشاقي المملوك ، ملوك الأرض ؟^(٢) .

ولكن بيبرس لم يضعف أمام حرب الأهصاب التي حاول أبغا أن يهبطها عليه ، فرفض مبدأ الصلح ، ورد على رسول التتار قائلا : « أعلم أني وراءه بالمطالبة ولا أزال أنتزع من يده جميع البلاد التي استعوز عليها من بلاد الخليفة وسائر أقطار الأرض^(٣) » وهكذا يثس أبغا من مصالحة بيبرس ، فلم يبق أمامه إلا مواصلة العدوان على بلاد الشام بمخالفة الصليبيين . وكان الظاهر بيبرس بالإسكندرية سنة ١٢٦٩ عندما بلغه أن التتار أغاروا على الساحر — قرب حلب — وأنهم واعدوا فرنج الساجل ، أي اتفقوا مع الصليبيين على القيام بهجوم مشترك على المسلمين في بلاد الشام . وفي الحال أرسل السلطان بيبرس الأمير علاء الدين البندقدار على رأس قوة من الجند ، وأمره أن يقيم في أطراف بلاد الشام على أهبة

(١) سعيد عاشور : الظاهر بيبرس ص ٩٦ .

(٢) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٥٧٤ .

(٣) المينى : عهد الجلائ ج ٢٠ المجلد الثالث ورقة ٥٤٩ (مخطوط) .

لهد التتار . ولم يكتف بيبرس بذلك وإنما خرج بنفسه إلى الشام ، ولكنه لم يكمل يصل إلى دمشق حتى سمع بانضمام التتار وارتدادهم عن بلاد الشام .

ولم يقنع أبغا بذلك الفشل الذي منى به في هجماته على بلاد المسلمين بالشام فعاود الهجوم سنة ١٢٧١ على عين تاب وعمق الحارم . ولكن بيبرس خرج على رأس جيشه إلى حلب ، وأرسل فرقاً من جنده إلى أطراف الشام والعراق ، فحلت الهزيمة بالتتار عند حران ، وعندئذ تدخل الصليبيون للتخفيف عن حلفائهم فأغاروا على قاقون ولكن المسلمين هزمهم هم الآخرون^(١) .

ومرة أخرى يذس أبغا من محاربة المماليك ، وبخاصة بعد أن تم عقد الصلح بين بيبرس والصليبيين مما حرم التتار من حليف يعتمدون عليه في مناوأة المسلمين ببلاد الشام ، فأرسل أبغا بعض الرسل إلى بيبرس لتحسين العلاقات بين الطرفين والتحديد لعقد الصلح بين التتار والمماليك . وفي تلك المرة أكرم بيبرس رسل التتار وأرسل بدوره اثنين من كبار أمرائه إلى أبغا ومعهما الهدايا والخلع^(٢) . ويبدو أن أبغا أراد أن يستعمل الصلح ، فقام ببعض حركات عسكرية على حدود الشام سنة ١٢٧٢ في الوقت الذي أرسل رسله لطلب الصلح . ولكن بيبرس أهمل رسل التتار ولم يحتفل بهم ، وبخاصة عندما طلب أولئك الرسل أن يسير السلطان بيبرس بنفسه إلى بلاط أبغا لعقد الصلح ، وعندئذ رد بيبرس على رسل التتار قائلاً : بل أبغا إذا قصد الصلح يمشى هو فيه أو أحد من إخوته .

وكان أن عادت جيوش أبغا إلى الإغارة من جديد على البيرة فنصبوا المحانيق لهاجهتها ، واتخذوا كافة الاحتياطات لمنع المسلمين من الوصول إليها

(١) المقرئى : السلوك - ج ١ ص ٥٨٤ .

(٢) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ج ٩ ورقة ١٠٤ - ١٠٥ .

مفضل ابن أبي الفضائل : المنتهج السديد ص ٢٠٤ - ٢٠٦ .

(٣) المقرئى : السلوك : ج ١ ص ٦٠٢ .

الفرات وقد أسرع بيبرس إلى تعبئة قوائمه لإفقاذ البيرة ، وعبر بيبرس ورجاله
الفرات عوماً ، وعندئذ فر التتار تاركين خلفهم جميع ما أعدوه من عدد
وأسلحة^(١) .

على أن سياسة الظاهر بيبرس لإزاء تتار فارس لم تقتصر على الدفاع ، وإنما
تعدت ذلك إلى الهجوم أحياناً للانتقام من التتار من ناحية وإشعارهم بقوة
سلطنة المماليك من ناحية أخرى . من ذلك أن بيبرس قام بحملة سنة ١٢٧٧
على بلاد سلاجقة الروم التي كانت مشغولة بحماية التتار في فارس ، واستطاع
بيبرس أن يمزق الجيش التتاري في الأناضول عند أبلستين في ١٨ أبريل سنة ١٢٧٧ ،
دون أن يستطاع كينغسرو الثالث - الذي كان صغيراً - أو وزيره معين
الدين سليمان البرواناه وقف ذلك الخطر^(٢) . وبعد عودة بيبرس إلى الشام
أسرع أبناً إلى أبلستين حيث « شاهد عسكر مصرى ولم يشاهد أحداً من عسكر
الروم مقتولاً ، فاستشاط غضباً وأمر بنهب الروم وقتل من مر به من المسلمين »^(٣) ،
ويروى رشيد الدين الحمذاني أن أبناً بكى عندما شاهد قتلى التتار مكدمين
وحزن على رجاله حزناً شديداً^(٤) .

علاقات المماليك بتتار فارس عهد بيبرس :

وهكذا استمر العداء بين التتار في فارس والعراق من ناحية والمماليك في
مصر والشام من ناحية أخرى قائماً طوال عهد بيبرس ، ولا شك أن الحرب بين
الطرفين تهدأ حيناً إلا لتتور أحياناً . وإذا كان السلطان الظاهر بيبرس قد توفي

(١) النويري : نهاية الأرب ، ج ٢٨ ورقة ٣٣٤ .

(٢) مفضل بن أبيه الفضائل : كتاب التهج السديد ص ٢٥٩ وما بعدها .

(٣) أبو الفدا : المختصر ، حوادث سنة ٦٧٥ هـ .

(٤) رشيد الدين الحمذاني : جوامع التواريخ م ٢ ج ٢ ص ٦٢ - ٦٣ .

١٢٧٧ ، فليس معنى ذلك أن العداء توقف بين المماليك والتتار ، لأن ذلك العداء حقيقة أمره لم يكن أمراً شخصياً ، وإنما رجعت أصوله وأسبابه إلى عدوان ر على المسلمين وبلادهم واحتلالهم العراق وفارس وغيرهما من أرض الإسلام وقتلهم الخليفة العباسي وأهل بيته ، وتدميرهم بغداد وغيرها من المدن وحرى الإسلامية ... هذه الأعمال وغيرها أثارت لعنة المسلمين جميعاً على ر في فارس والعراق وجعلت المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها يترقبون بمرارة قاسية كلما تذكروا ما حل بالإسلام والمسلمين على أيدي تلك المشركين .

وهكذا لم يكن منتظراً أن يتوقف العداء بين المماليك وتتار فارس بمجرد اقحامكم وقيام آخر بدله . وربما أراد التتار أن يستغلوا فترة القلق وعدم استقرار التي تعرضت لها دولة المماليك بين وفاة الظاهر بيبرس سنة ١٢٧٧ وقيام السلطان المنصور قلاوون في الحكم سنة ١٢٧٩ ، فأغاروا على بلاد الشام ، حيث يد بنفس الوحمية والهمجية التي عرفوا بها من قبل ولسكن السلطان منصور قلاوون أظهر أنه لا يقل ثباتاً في وجه التتار عن سلفه بيبرس وقطوعه ، يكيد يعلم أنهم اقتربوا من حلب واستولوا على بعض أعمالها ، حتى أرسل ضددهم حملة سنة ١٢٨٠ ، وعندئذ ولّى التتار الأدبار^(١) ، وعندما طرد أبغا الهجوم إلى الشام سنة ١٢٨١ ، ووصلت جيوشه حماة ، تصدت لهم جيوش السلطان المنصور قلاوون التي استطاعت إنزال الهزيمة بالتتار قرب حمص ، فقتل كثير منهم ، وأسرع أبغا بالعودة إلى بغداد ومعه فلول جيشه ، ولم يلبث أبغا أن وقي بعد ذلك بقليل سنة ١٢٨٢^(٢) .

وبوفاة أبغا تبدلت العلاقات فجأة بين سلطنة المماليك وتتار فارس . ذلك

(١) المقريزي : السلوك ج ١ ص ٦٨٠ .

(٢) بيبرس الدوادار : زبدة الفسكرة ج ٩ ورقة ١١٣ ،

المقريزي : نهاية الأرب ج ٢٩ ورقة ٨ - ٩ .

أن تكردار الذى خلف أخاه أبنا فى الحكم كان قد اعتنق الإسلام قبل اعتقاله
عرش تمار فارس ، فأرسل إلى السلطان المنصور قلاون يظهر رغبته فى أن
يظل فى سلام ومودة مع جيرانه المسلمين ، ويعبر عن حرصه على حماية
الإسلام والدفاع عن أراضيه . ولم يخف أحمد تكودار فى رسالته إلى المنصور
قلاون رغبته فى توحيد كلمة المسلمين وإنهاء حالة الحرب والقتال القائمة بين
التتار والمماليك . فقد ظهر بفضل الله تعالى فى دولتنا النور المبين ، وإن كانت
للمسبوق من الأسباب فمن يتجرى الآن طريق الصواب فإن له عندنا لزنى
وحسن مأب . وقد رفعنا الحجاب وأتبنا بفصل الخطاب وعرفناهم طريقتنا
وما عن منا بنية خالصة لله تعالى على استئنافها وحرماننا على جميع العساكر
العمل بخلافها ، انرضى الله والرسول ويأوح على صفحتها آثار الإقبال
والقبول ، وتسترى من اختلاف الكلمة هذه الأمة وتنجلى بنور الاتفاق
ظلمة الاختلاف والغممة^(١) . وكان من الطيبى أن يرحب السلطان قلاون
بدخول لإيمان القتال فى الإسلام ، وبإحلال السلام محل الحروب والعدوان
بين التتار والمماليك^(٢) .

ولكن شامت الظروف ألا يستمر أحمد تكودار فى حكم تمار فارس ،
إذا نقم عليه قومه لإسلامه وقتلوه ليحل محله ابن أخيه أرغون سنة ١٢٨٤ . وقد
اتبع أرغون سياسة عنيفة مع المسلمين فى بلاده ، الأمر الذى أساء إلى العلاقة بين
تتار فارس وسلطنة المماليك مرة أخرى مما أدى إلى اشتداد الشعور فى دولة المماليك
بضرورة إرجاء التتار عن العراق^(٣) . على أن سلاطين المماليك كانوا لا يستطيعون
القيام بذلك بلشروع الضخم فى الوقت الذى استنفدت الحروب ضد الصليبيين كثيراً

(١) الفقهندى : صبح الأعشى ج ٨ ص ٦٥ - ٦٨ .

(٢) هبى الدين بن عبد الظاهر : تهرىف الأيام والمصور فى سيرة الملك المنصور

ص ١٠ - ١٢ .

(٣) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٧٧٤ .

من جهودهم ؛ فاكتمى السلطان الأشرف خليل بن قلاوون بالاستيلاء على قلعة الروم سنة ١٢٩٢ ، وهي قلعة غربى الفرات كان التتار يتخذونها قاعدة لقوتوب منها على بلاد الشام (١) .

ويبدو أن دولة تتار فارس تطرق إليها الضعف بعد عهد أرغون بسبب الخلافات الداخلية . وقد آل حكم تلك الدولة سنة ١٢٩٥ إلى غازان بن أرغون الذى أشهر إسلامه وأظهر حماسة كبيرة فى نصرته المسلمين ببلاده واضطهاد العناصر المسيحية والبوذية (٢) على أن حماسة غازان للإسلام لم تعزبه من سلطنة المماليك ، لأنه أبى إلا أن يتمسك بسياسة أسلافه التوسعية على حساب حيرانه المسلمين . من ذلك أن غازان أعد حملة كبرى سنة ١٢٩٩ لغزو بلاد الشام فحاول الناصر محمد بن قلاوون — سلطان المماليك عندئذ — أن يتصدى له . فخير أن الناصر محمد لم يستطع أن يصمد فى وجه التتار الذين أنزلوا الحرمة بجيوش المماليك عند مجمع المروج بين حمص وحماه (٣) . وقد فر السلطان الناصر محمد عقب تلك الحرمة إلى دمشق حيث عم الأهالى الذعر والقلق . ولم يلبث أن أرسل غازان أمانا لأهل دمشق ، قرأه أحد رجال التتار على الناس فى المسجد الأموى (٤) ؛ فدفع فيه غازان بالمماليك وحكمهم ، ووعد أهالى دمشق بأنه لن يتعرض أحد من العساكر المذكورة على اختلاف طبقاتها لدمشق وأعمالها وسائر البلاد الشامية الإسلامية ، وأن يكفوا إظهار النعدي عن أنفسهم وأموالهم وحريةهم .

ولكن غازان لم يحفظ وعده ، إذ لم يكف رجاله يصلون إلى دمشق حتى عاثوا فساداً فى المدينة وأهلها ، ثم اقتشروا التتار بعد ذلك حتى وصلوا إلى بيت المقدس

(١) مفضل بن أبى الفضائل : كتاب النهج السديد ج ٢ ص ٣٨٩ — ٣٩٠ .

(٢) Howorth : Hist of Mongols, vol. 3, p. 396

(٣) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٨٨٧ — ٨٨٨ .

(٤) الذويرى : نهاية الأرب ج ٢٩ ورقة ٣٢٥ «مخطوط» .

(٤ — العصر المماليكى)

والكرك في جنوب فلسطين ، في الوقت الذي عاد السلطان الناصر محمد بن قلاوون إلى مصر . على أن سلطنة المماليك كانت لا يمكن أن ترضى بذلك الوضع وتترك التتار يعيشون فساداً في أرجاء الشام ، ولذلك عاد الناصر محمد إلى مصر ليعد جيشاً كبيراً خرج به إلى الشام حيث دارت بينه وبين التتار عدة مناوشات ومراسلات (١) وفي موقعة مرج الصفر قرب دمشق دارت الدوائر على التتار سنة ١٣٠٢ ، فولوا الأدبار عبر الفرات وبذلك طادت بلاد الشام إلى أحضان دولة المماليك ، ويبدو أن النصر الذي أحرزته السلطان الناصر محمد في موقعة مرج الصفر جعله يعتمد بنفسه ، فأرسل إلى غازان يحقّر آيائه ، طالباً منه الجلاء عن العراق فوراً لإعادتها إلى الخلافة العباسية ، وإن سولت لك نفسك خلاف ذلك فأنت لآحالة هالك ، وعن قريب يخلو منك العراق والعجم وتبدل وجودك بالعدم .. فاختار لنفسك إما الدخول إلى خراسان سريعاً وإما الخروج عن الروم والعراق جميعاً (٢) . . ويقال إن غازان لم يستعمل مراوغة الهزيمة فأت من الفيظ في ١٧ مايو سنة ١٣٠٥ وخلفه أوجلاتيو بن أرفون .

وعلى الرغم من أن أوجلاتيو حاول في بداية عهده مصالحة المماليك حتى أنه أرسل إلى القاهرة يطلب الصلح ويقول « عفا الله عما سلف ومن عاد فينتقم منه الله » (٣) ، إلا أن اعتناق أوجلاتيو المذهب الشيعي جعله ينفرد عن المماليك السنيين ، فعاد إلى التفكير في مهاجمة بلاد الشام . وربما شجع أوجلاتيو على اتباع هذه السياسة الجديدة فرار لثنيين من كبار أمراء المماليك هم القراستقرو والافرم - إليه حيث زينا له الهجوم على الشام . وقد شرع التتار فعلاً في مهاجمة بلاد الشام سنة ١٣١٢ ، ولكنهم لم يلبثوا أن عادوا أدراجهم بعد أن ضمهموا بأقارب الناصر محمد

(١) محمد جمال الدين سرور : دولة بني قلاوون في مصر ص ١٨٩ — ١٩٧ هـ

(٢) زهير عتيت : تاريخ سلاطين المماليك ص ١١٨ — ١٢١ .

(٣) المقرئزي : السلوك ج ٢ ص ٦ .

على رأس جيوشه الجرارة^(١) وإذا كان الصدام بين التتار والمماليك قد تكرر سنة ١٣١٥ حول ماردین ، فإن الهزيمة حلت عندئذ بالتتار ، وسبق أسراهم إلى حلب^(٢) .

وأخيراً استقرت العلاقات الطيبة بين المماليك وتتار فارس بعد موت أولجانيو وولاية ابنه بوسعيد سنة ١٣١٦ ، مما أدى إلى عقد صلح بين الطرفين سنة ١٣٢٠ ويعتبر هذا الصلح نقطة تحول في العلاقات بين دولتي المماليك وتتار فارس ، إذ هدأت الأمور بين الدولتين بعد ذلك ولم نعد نسمع عن حروب طاحنة بين المماليك والتتار من نوع الحروب التي شهدتها القرن الثالث عشر . وربما ساعد على ذلك الوضع الجديد أن دولة تتار فارس تعرضت لكثير من عوامل الضعف والانحلال منذ عهد بوسعيد في القرن الرابع عشر ؛ في الوقت الذي أخذت دولة المماليك البحرية تعاني كثيراً من مظاهر التفكك في عصر أولاد الناصر محمد وأحفاده .

(١) محمد جمال الدين سرور : دولة بني فلان في مصر ص ٢٠٥ .

(٢) المقرئزي السلوك ج ٢ ص ١٤٧ .

الفصل الثالث

المماليك والصليبيون

الشرق الأدنى بين خطريه :

إذا كان المماليك قد واجهوا في فجر دولتهم التي أكلوها عند منتصف القرن الثالث عشر خطر التتار ونجحوا في مواجهة هذا الخطر والتغلب عليه وحماية مصر والشام من شره ؛ فإن ثمة خطراً آخر كان على المماليك مواجهته بنفس روح الشجاعة وقوة التصميم التي واجهوا بها الخطر الأول ، وأعلى هذا الخطر الثاني خطر الصليبيين . ومع أن التشابه بين الخطرين التتري والصليبي يبدو واضحاً في بعض النواحي ، إلا أن أوجه الاختلاف لا تقل وضوحاً ، في نواح أخرى . فنحن نرى أن الخطرين التتري والصليبي متفقان في أن لهما عدو مشترك واحد كبير هو الإسلام والمسلمين في الشرق الأدنى . ومهما يقال من أن التتار في دولة فارس والعراق كانوا في الدور الأول من تاريخهم وثنيين بوزيين ؛ إلا أن الميول المسيحية المستوردة لا يمكن إخفاؤها في سياسة تلك الدولة منذ ذلك الدور بالذات . وحسبنا أن دوقوز خاتون زوجة هولاكو والمرأة ذات الكلمة المسموعة في بلاطه كانت مسيحية ، مستوردة (١) ، فضلاً عن أن بعض القوى الصليبية في الشرق الأدنى — وبخاصة مملكة أرمينية الصغرى — حرصت على استغلال قوة التتار في القضاء على الكيان الإسلامي ، ولذلك تحالف الأرمن مع التتار واشترك الطرفان في وضع خطة غزو هولاكو لبلاد الشام . فإذا أضفنا إلى ذلك ما كان هناك من إتصالات بين تتار فارس من ناحية والقوى المسيحية في غرب أوروبا

(١) رشيد الدين الممناي : جامع التواريخ ص ٢٢٠ (٢٢٠ ج ١) .

وعلى رأسها البابوية من ناحية أخرى ، أدركنا مدى ذلك التقارب بين التنازل والمسيحية في القرنين الثالث عشر والرابع عشر بالذات. لذلك لا عجب إذا همل المسيحيون الشرقيون - في الجزيرة والشام وأطراف آسيا الصغرى - الحركة التوسعية التي ، ولا عجب إذا سمعنا في المراجع أن رجال هولاء كانوا كلوا استولوا على مدينة من مدن الشام الإسلامية - مثل حلب أو دمشق - أسرفوا في اضطهاد أهلها المسلمين وامتحان مساجدهم ، بقدر ما أسرفوا في تأمين العناصر المسيحية واحترام كنائسها ودورها (١).

ونمة وجه آخر من أوجه التشابه بين الخطرين الصليبي والتتري هو أن كلاهما كان خطرا خارجيا لم ينبع من منطقة الشرق الأدنى وإنما أتى على شكل غزوات خطيرة ليدهم المسلمين والوطن الإسلامي في تلك المنطقة. فالتتار وفدوا من أقصى الشرق والصليبيون وفدوا من أقصى الغرب ، والجميع أرادوا أن يتخذوا من الوطن الإسلامي في الشرق الأدنى مستقرا ومقاما ، مما جعل المسلمين في القرن الثالث عشر يحسون بمرارة قاسية عندما رأوا أنفسهم بين شقي رحى ضخمة تريد أن تسحقهم وتقضي على كياناتهم. وقد صهر المؤرخ ابن الأثير تعبيراً صادقا عن ذلك الشعور في زفرة عميقة أرسلها قلبه إذ يقول : لم يزل المسلمون أذى وشدة منذ جاء النبي صلى الله عليه وسلم إلى هذا الوقت مثل ما دفعوه إليه الآن. هذا العدو الكافر التتري قد وطئوا بلاد ما وراء النهر وملكوها وخرابوها. والعدو الآخر الفرنج قد ظهر في بلادهم في أقصى بلاد الروم بين الغرب والشمال ووصلوا إلى مصر ، فملكوا مثل دمياط وأقاموا فيها .. فإن الله وإننا إليه راجعون ! ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم (٢) ، ١٠٠٠.

(١) سعيد هاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ١١٣٠ - ١١٣١ .

(٢) ابن الأثير : الكامل في التاريخ حوادث سنة ٦١٧ هـ .

هذا عن أوجه التشابه بين الخطرين التتري والصليبي، أما عن أوجه الخلاف فيلاحظ أن الخطر الصليبي أعمق جذورا وأقدم عمرا من الخطر التتري. فبينما كان خطر التتار من النوع الدائم المفاجيء الذي لا يرتبط إلا بالرغبة في التوسع والنهب والسلب، ولا يتصف إلا بسفك الدماء والتدمير الحضارى الشامل، إذ الخطر الصليبي على الشرق الأدنى يرتبط بأصول قديمة ترجع إلى أيام حركة التوسع الإسلامى فى القرن السابع الميلادى، ويتخذ مسحة دينية - ولوظاهرية - يظن وراءها أغراضا أخرى اقتصادية وسياسية وغيرها. وليس معنى هذا أن الصليبيين كانوا أقل خطورا على المسلمين فى الشرق الأدنى من التتار. حقيقة إن غزوات التتار كانت أشد عنفا وبدمية أكثر قسوة ووحشية، ولكن ينبغى أن نذكر أن الخطر الصليبي كان أقرب إلى قلب العالم الإسلامى فى الشرق الأدنى من الخطر المغولى. فالمركز الرئيسى الذى خرجت منه الحملات الصليبية كان غرب أوروبا، وشتان بين المسافة بين غرب أوروبا والشام، والمسافة بين قراقورم - قاعدة التتار فى جوف آسيا - وبلاد الشام. ولعل قرب مركز الحركة الصليبية من بلاد المسلمين فى الشرق الأدنى هو الذى جعل الخطر الصليبي يتخذ شكل حملات مستقلة تخرج بين حين وآخر من الغرب قاصدة بلاد المسلمين، فتكون هذه الحملات أشبه بالدماء الجديدة التى تخرج من القلب لتغذى الأطراف وتبعث فيها الحياة. وطالما استمر جبهه الحجاج والصليبيين من غرب أوروبا إلى بلاد الشام، ضمنى الإمارات الصليبية فى بلاد الشام قوة تغذيها بين حين وآخر وتحقق لها البقاء. أما التتار فى فارس والعراق فهما يقال عن قوتهم، فإنهم باستقرارهم فى تلك البلدان البعيدة فى الشرق الأدنى ضعفت الصلات بينهم وبين مراكزهم الأولى، ولم يجدوا غذاء بشريا مستمرا يهيى فيهم أصولهم الأولى، فتعرضوا تدريجيا للذبول والانحلال والذوبان البطيء.

وعلى هذا الأساس لا ينبغي أن نقسّم من خطر الصليبيين بالقياس إلى الخطر التتري، فقد ولدت دولة المماليك والصليبيون يحتلون جزءاً من أراضي مصر فضلاً عن إمارات ومستعمرات قروية أسسوها في الشام، ودول مسيحية مستقلة تجاوبت معهم في أرمينية وقبرص. وكانت الإمارات الصليبية في بلاد الشام صورة دائمة تعبر عن الخطر الأوروبي الغربي، وتعتمد في تهديدها الدائم لبلاد المسلمين في الشرق الأدنى على قواعد قريبة ثابتة.

وهنا أظهر المماليك ثباتاً كبيراً في مواجهة الخطر الصليبي لا يقل عن ثباتهم في مواجهة الخطر التتري، ونجحوا في التغلب على الخطر الصليبي نجاحاً لا يقل عن نجاحهم في التغلب على الخطر التتري بل ربما فاقه، لأن المماليك هم أصحاب الفضل في اقتلاع جذور الخطر الصليبي من بلاد الشام وطرده الصليبيين نهائياً من تلك البلاد. وربما اضطر المماليك إلى مقابلة الصليبيين في نفس الوقت الذي قاتلوا فيه التتار، ولكن كان يحدث غالباً أن يحرص المماليك على عدم محاربة الخصمين في وقت واحد إلا إذا اضطرتهم الظروف إلى ذلك.

لويس التاسع في بروز الشام :

وكان أول نجاح أحرزه المماليك على الصليبيين هو إنقاذ المنصورة ثم إزال العنزة القاصمة بالجيش الصليبي قرب فارسكور سنة ١٢٥٠ كما سبق أن رأينا. وأعقب ذلك مباشرة قيام دولة المماليك في حكم مصر، فسكان على الدولة الجديدة أن تقوم بمجهود سريع لتصفية آثار الحملة الصليبية السابعة على مصر. حقيقة إن لويس التاسع زعيم تلك الحملة كان أميراً في دار ابن لقمان بالمنصورة، ولكن الصليبيين كانوا ما زالوا يحتلون دمياط الأمر الذي شكل خطراً جسيماً على مصر ودولة المماليك الناشئة. ومن يدري، فإنه طالما ظلت دمياط في أيدي الصليبيين، فإن ذلك كان كفيلاً بأن يجعل منها قاعدة للصليبيين في الأراضي المصرية يمكن أن

تأتى إليها الوفود الصليبية من الغرب الأوربي للقيام بمحاولة أخرى لغزو مصر وفك أسر لويس التاسع . لذلك حرصت شجر الدر - أولى سلاطين المماليك في مصر - على إبرام الصلح مع الصليبيين وفك أسر لويس التاسع ، كما سبق أن أوضحنا .

وقد تعهد لويس التاسع في تلك الاتفاقية بالابتعاد شواطئه الإسلام مرة أخرى ، إلا أنه شق عليه عقب إطلاق سراحه في مايو سنة ١٢٥٠ أن يعود إلى بلاده مباشرة وقد اضطرت سمعته فضيحة الخزيمة وعار الأسر ، واختار أن يقصد بلاد الشام أولاً حتى أن يتمكن من القيام ببعض الأعمال الصليبية التي تعيد إليه ماء وجهه . وكان الصليبيون في بلاد الشام وقتئذ أسوأ حالاً من أن يكونوا إلى زعيم قوى ينظم صفوفهم ويحل مشاكلهم ويثبت فيهم روح الأمل والثبات ، ولذلك فرحوا بمقدم لويس التاسع اليهم ورحبوا به ترحيباً كبيراً^(١) . وقد قضى لويس التاسع بالشام أربع سنوات (مايو ١٢٥٠ - أبريل ١٢٦٤) عمل فيها جاهداً لتصفية الخلافات بين أمراء الصليبيين بعضهم وبعض من ناحية ، والاحتفاظ بكيان الصليبيين وسط الخلافات التي تاجعت بين بني أيوب في الشام والمماليك في مصر من ناحية ثانية ، ثم القيام بمباحثات هامة مع التتار من ناحية ثالثة .

وكان أن أغاد لويس التاسع في الشام من النزاع بين الأيوبيين والمماليك ، لأن كل فريق أخذ يحطب وده ويحاول مخالفته عند الطرف الآخر . ومن ذلك أن المعز أيك سلطان المماليك في مصر حرص على استرضاء لويس التاسع فأفرج عن دفعات من أسرى الصليبيين بلغت نحواً من ثلاثة آلاف أسير ، كما أرسل هدية إلى لويس التاسع^(٢) . أما الناصر يوسف - كبير الأيوبيين بالشام -

(١) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ١٠٨٤ - ١٠٨٥ .

(٢) Joinville, p 254-256 .

فقد يادر هو الآخر بإرسال سفارة إلى الملك لويس التاسع في هكا يعرض عليه محالته ويعدده بإعطائه بيت المقدس^(١) وقد أدرك لويس التاسع أنه لا يمكنه أن يقبل العرض الأيوبي ويضحي بأرواح أكثر من عشرة آلاف صليبي ما زالوا أسرى في مصر. كذلك فضل لويس التاسع أن يعقد اتفاقية مع المماليك في مايو سنة ١٢٥٢ ، وافق المماليك فيها على إطلاق سراح جميع أسرى الصليبيين وإلغاء لويس التاسع من مؤخر القدية المستحق عليه ، فضلاً عن إعطاء بيت المقدس للصليبيين^(٢) إن نهروهم على الشاميين^(٣) . وفي مقابل ذلك كله وافق لويس التاسع على مساعدة المماليك في القيام بحملة ضد الناصر يوسف الأيوبي ، على أن تلتقي جيوش الحلفاء عند ياقا في مايو سنة ١٢٥٢ . على أنه حدث في تلك المرحلة أن توسط الخليفة العباسي في الصلح بين الأيوبيين والمماليك — كما سبق أن ذكرنا — وبذلك ضاعت على لويس التاسع والصليبيين فرصة الحصول على بيت المقدس عن طريق استغلال حالة النزاع بين الأيوبيين والمماليك^(٤) . ولم يجد لويس التاسع بعد ذلك وسيلة لتدعيم مركز الصليبيين بالشام سوى الاتصال بالتمار لمحالتهم ضد المسلمين جميعاً من أيوبيين ومماليك. ولكن يبدو أن هذه الاتصالات لم تؤدي إلى نتيجة ناجحة ، مما جعل لويس التاسع يغادر بلاد الشام عائداً إلى فرنسا في إبريل سنة ١٢٥٤ .

وعلى الرغم من حدوث صدام بين المماليك والصليبيين سنة ١٢٥٦ ، إلا أن هذا الصدام لم يستمر طويلاً ولم يلبث أن انتهى بالصلح السريع بين الطرفين^(٥) ولعل السبب في ذلك هو أن كلا من الطرفين لم يكن مستعداً للدخول في حرب

(١) Runciman: A Hist. of the Crusades, III p. 275.

(٢) البقي : هذه الجناح حوادث سنة ٦٥١ هـ (ج ١٨ قسم ٢ ورقة ٢٤٤) .

(٣) مسيد ماشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ١٠٩٧ .

(٤) Setton : A Hist. of the Crusades, II, p. 568.

طويلة مع الطرف الآخر، فالصليبيون كانوا منقسمين على أنفسهم في خلافات داخلية خطيرة. والمماليك كانوا يقيمون دولة في دور التأسيس ولم تستطع أن تقف على قدميها بعد أمام الأخطار الداخلية والخارجية التي واجهتها.

وبانتصار المماليك على التتار في عين جالوت، أمكن للمماليك أن يتغلبوا على أكبر خطرين واجهادولتهم الناشئة، وهما خطر التتار وخطر الأيوبيين. وبذلك أصبح المماليك سادة مصر والشام، وحققوا لأنفسهم من المجد ما أضفى عليهم قسطاً من الأهمية ونوعاً من الشرعية. وما دام المماليك قد ورثوا الأيوبيين في ملكهم في مصر والشام، فإنه كان من الطبيعي أن يرثوا عن الأيوبيين سياستهم الخاصة بجهاد الصليبيين وتقويض دعائم ملكهم بالشام. وإذا كان القدر لم يعمل قطر بطل عين جالوت لوضع قواعد هذه السياسة، فإن خليفته السلطان الظاهر بيبرس، استطاع أن يصمم بهمهم وافر في جهاد الصليبيين والتبديد لطردهم كلية من بلاد الشام.

الظاهر بيبرس والخدمة بجهاد على أنطاكية:

وقد رأينا كيف أن السلطان الظاهر بيبرس الذي تولى سلطنة المماليك في أواخر سنة ١٢٦٠، استطاع أن يثبت أنه من أقدر الحكام وأقواهم وأبدرهم نظراً. فأخذ يتغلب على المشاكل الداخلية والخارجية التي واجهته واحدة بعد أخرى ليتفرغ بعد ذلك لحرب الصليبيين. (١) والواقع أن الحقيقة الكبرى التي تواجهنا في نشاط بيبرس الحربي ضد أعداء الوطن الإسلامي في تلك الحقبة هي أنه يصمم وضع خط فاصل بين حروبه ضد التتار وحروبه ضد الصليبيين فكثيراً ما كان بيبرس يخرج على رأس جيوشه من مصر لمحاربة أحد الخصمين، فيحارب

(١) سعيد عاشور: الظاهر بيبرس ص ٣٨ وما بعدها.

الآخر، أو يحارب الاثنين معاً. وإذا كنا لاحظنا أن حروب بيبرس ضد التتار امتازت بالقوة والشجاعة والمهارة، فإننا يجب أن نذكر في نفس الوقت أن حروبه ضد الصليبيين كانت أكثر استمراراً وأوسع نطاقاً وأشد عنفاً من حروبه ضد التتار. ذلك أنه يلاحظ دائماً على حروب سلاطين المماليك ضد التتار أن تلك الحروب كانت مؤقتة منقطعة تأتي في أوقات متباعدة نسبياً، أي عندما يجرؤ التتار على مهاجمة بلاد الشام. وطالما ظل التتار قابعين في العراق وفارس لا يبدؤون بالهجوم على أطراف دولة المماليك في الشام، لم يحاول سلاطين المماليك غالباً أن يهاجموهم. أما الخطر الصليبي فكان من نوع آخر، لأن الصليبيين كانوا عند قيام دولة المماليك منقشرين في بلاد الشام شماليها وجنوبيها - عن طريق عديد حصونهم ومعقلهم التي أسسوها داخل البلاد وقرب الساحل، أو عن طريق المدن الشامية التي ظلوا يسيطرون عليها ويتحكمون فيها. وهكذا صار الاحتكاك بين المسلمين والصليبيين بالشام يمكن أن يكون مباشراً ومتصل الحلقات كما كان سلاطين المماليك أكثر إحساساً بالخطر الصليبي منهم بالخطر التتاري الذي لم يحسوا به إلا وقت خروج التتار من العراق لمهاجمة أطراف الشام.

وإذا كان الظاهر بيبرس هو الشخصية الكبرى في صدر دولة المماليك البحرية، والرجل الذي أراد أن يجعل من نفسه صلاح الدين الثاني، فإن ذلك دفعه إلى أن يضع لنفسه برنامجاً حرجياً ضخماً كانت أبرز أركانه حماية بلاد الشام من خطر التتار والقضاء على الصليبيين وطردهم من الشام^(١). وقد بدأت هجمات بيبرس على الصليبيين في وقت مبكر، أي في نوفمبر سنة ١٢٦١ عند ما هاجم بيبرس إمارة أنطاكية لعقاب أميرها بوهيموند السادس على مخالفته التتار، ثم كرر الهجوم عليها في صيف سنة ١٢٦٢، وفي تلك المرة حاصر الجيش المماليكي

(١) سعيد عاشور: الحركة الصليبية ج ٢ ص ١١٤٢٢.

مدينة أنطاكية ذاتها وأوشك على الاستيلاء عليها لولا تدخل هيثوم الأول ملك أرمينية الصغرى الذى استنجد بالمفول ، مما أدى إلى جلاء المماليك عن أنطاكية فعادوا ومعههم أكثر من ثلاثمائة أسير (١) .

على أن يبرس رأى قبل أن يتوجه بكميته إلى الفرنج ، — على قول المقرئى — (٢) أن يدعم مركزهم باتخاذ خطوتين على جانب كبير من الأهمية ، الأولى هى إحياء الخلافة العباسية فى مصر سنة ١٢٦٢ ليطهر سلطنة المماليك فى صورة القوة الحامية للخلافة المنتهكة بيعتها مما يدعم دولته الناشئة ويكسبها أهمية فى نظر المسلمين كافة . والثانية هى معالجة تثار القفجاق فى القوقاز وجنوب روسيا — وهم الذين اهتفوا بالإسلام فأراد يبرس أن يتخذ منهم حونا على هولاكو وتثار وفارس .

وقد بدأت الحرب الشاملة التى شنها يبرس على الصليبيين بعدة محاولات من جانبهم لطلب الصلح ، وبعض مناشات من جانب يبرس لسهر فورهم حتى إذا ما كانت سنة ١٢٦٥ بدأ يبرس حربه الشاملة ضدهم . وفى أوائل فبراير من تلك السنة خرج السلطان يبرس على رأس جيش ضخم إلى غزة فاستولى على قيسارية ويافا وحلب وأرسوف التى استسلمت بعد مقاومة شديدة أبدتها حاميتها من الاسبتارية (٣) . وبعد استيلاء يبرس على أرسوف جاء دور هكا ، ولكن هيو الثالث الوصفى على عرش قبرس قام عندئذ بالوصاية على عكا أيضا ، فحضر على رأس جيش قوى من جزيرة قبرس فى ابريل سنة ١٢٦٥ للدفاع عن هكا ، مما جعل يبرس ينصرف إلى مصر (٤) .

-
- (١) أبو الفدا : المختصر ، حوادث سنة ٦٦٠ هـ .
 (٢) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٤٨٣ .
 (٣) أبو الفدا : المختصر ، حوادث سنة ٦٦٣ هـ .
 (٤) سعيد هاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ١١٤١ .

ثم عاد بيبرس في العام التالي - مايو سنة ١٢٦٦ - لاستئناف الحرب ضد المسلمين ، فبدأ بمهاجمة عكا ، ولما وجدها قوية التحصين انصرف إلى قلعة القرين فوجدتها هي الأخرى صعبة المنال ، فقصده صفد واستولى عليها في صيف سنة ١٢٦٦ ، وبعدها استسلمت هونين وتبينين ومدينة الرملة^(١) . وبعد ذلك استولى بيبرس على بعض المراكز القريبة من طرابلس مثل القليعات وحلباء وعرة .

ولم يلبس السلطان بيبرس لأرمينية الصغرى موقفها وموقف ملكها هيثوم الأول في موازنة التتار وحطم على غزو الشام سنة ١٢٥٩ - ١٢٦٠ . لذلك أرسل بيبرس جيشاً كبيراً في صيف سنة ١٢٦٦ تحت قيادة الأمير قلاوون والملك المنصور الثاني الأيوبي صاحب حماء لمهاجمة أرمينية الصغرى واستطاع المماليك أن ينزلوا مريجة كبرى بالأرمن وحلفائهم قرب دريساك في ٢٤ أغسطس سنة ١٢٦٦ . وقد قتل في الموقعة أحد أبناء الملك هيثوم وأسر ابنه الثاني ، في حين كان هيثوم نفسه متخفياً عن بلاده في تبريز يستجدي مساعدة التتار^(٢) . وبعد أن أغار المماليك على مدن أرمينية الرئيسية - وهي أذنه والمصيصة وطرسوس - وأشعلوا النار في عاصمتها سيس ، عادوا معهم قدر كبير من الغنائم وعدد ضخم من الأسرى^(٣) . والواقع إن ملكة أرمينية الصغرى لم تفق مطلقاً من تلك الكارثة وصار دورها سلبياً بعد ذلك في الأحداث الجارية على مسرح الشرق الأدنى ، أما الملك هيثوم فإن الصدمة جعلته يتنازل عن العرش سنة ١٢٦٩ لابنه ليون الثالث^(٤) .

(١) المقرئى : السلوك ، ج ١ ص ٥٥٠ .

(٢) أبو الحسن : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ١٤٠ .

أبو الفدا : المختصر حوادث ٦٦٤ هـ .

(٣) مقفل بن أبي الفضائل : كتاب النهج السديد ص ١٥٢ .

(٤) Runciman : op. cit; III p. 223.

ويبدو أن السلطان الظاهر بيبرس استغل فرصة الخلافات الداخلية بين الصليبيين بعضهم وبعض وأغار على منطقة طابرية وعكا سنة ١٢٦٧ كما استولى على باقا والشقيف أرفون في العام التالي (١). أخيراً توج بيبرس أحماله الحربية ضد الصليبيين بالاستيلاء على أنطاكية ، فوصل إليها قرب منتصف مايو سنة ١٢٦٨ وهناك قسم جيشه إلى ثلاث فرق لإحداها اتجهت إلى ميناء السويدية لتقطع الصلة بين أنطاكية والبحر ، والثانية سدت الممرات بين قيليقية والشام لمنع وصول أية مساعدة إلى أنطاكية من أرمينية الصغرى ، في حين أخذت القوة الرئيسية تحت قيادة بيبرس نفسه تهاجم المدينة . ولم تلبث أن سقطت أنطاكية فدخلها المماليك وغنموا منها غنائم طائلة ، بلغ من كثرتها أن « قسمت النقود بالاطاسات » . كذلك بلغ من كثرة الأسرى أنه « لم يبق غلام إلا وله غلام ، وأبيع الصنوبر بانيق عشر درهما والجارية بمخمصة دراهم » (٢) وقدرت بعض المراجع الصليبية عدد أسرى أنطاكية بمائة ألف أسير .

ولا تخفى علينا أهمية سقوط أنطاكية بالذات في قبضة المسلمين سنة ١٢٦٨ . إذ كانت ثاني إمارة - بعد الرها - أسسها الصليبيون في الشرق سنة ١٠٩٧ ، نجاء استيلاء المسلمين عليها دليلاً جديداً على انهيار ذلك البناء الضخم الذي أقامه الصليبيون في الشام في أواخر القرن الحادي عشر .

وفي سنة ١٢٦٩ توج هيو الثالث ملك قبرس ملكاً على مملكة بيت المقدس الصليبية ، فأخذ يعمل على تقوية جبهة الصليبيين بالشام . ولكن بيبرس لم يحترم الهدنة التي كان يعقدها مع الصليبيين بين حين وآخر ، وإنما هاجم إمارة طرابلس سنة ١٢٧١ واستولى على صافيتا من الداوية ، وعلى حصن الأكراد وحصن

(١) أبو الحسن : النجوم الزاهرة ، ج ٧ من ١٤٢

العيني : عقد الجمان سنة ٦٦٦ هـ .

(٢) المقرئى : السلوك ، ج ١ ص ٥٦٨ .

عكار من الاستتارية^(١)، وفي طريق عودة بيبس من طرابلس استولى على حصن القرين - إلى الشمال الشرقي من عكا - في يونية سنة ١٢٧١، وكان من الحصون المنيعات التي احتفظ بها الفرسان التيونون حتى ذلك الوقت^(٢).

وفي تلك الأثناء كان السلطان بيبس ناقماً على قبرس لجهود ملكها هيون الثالث في توحيد قوى الصليبيين بالشام من ناحية ولاعتداء القبارصة على السفن الإسلامية في شرق البحر المتوسط من ناحية أخرى. لذلك أرسل بيبس أسطولاً سنة ١٢٧٠ لغزو جزيرة قبرس، ولكن ريحاً عاصفة هبت على سفن ذلك الأسطول وحطمت عدداً كبيراً منها قرب شاطئ الجزيرة، مما جعل حملة بيبس تنتهي بالفشل^(٣).

ويلاحظ أن جهود بيبس في ذلك الدور لم تقتصر على محاربة الصليبيين، وإنما امتدت إلى تقليص أخطار الباطنية، وهي الطائفة الهدامة التي قامت بدور خطير في تاريخ الشام على عصر الحروب الصليبية، ولم يقنع الظاهر بيبس بأن يجعل الباطنية يدفعون الأموال له منذ سنة ١٢٦٧ بدلا من دفعها للصليبيين، وإنما أخذ يستولى على معاقليهم بالشام، وأقطعهم بدلا منها أراضي في مصر^(٤).

وفي سنة ١٢٧١ وصلت إلى عكا حملة صليبية صغيرة بقيادة الأمير إدوارد الإنجليزي، ولكنها لم تستطع أن تفعل شيئاً مذكوراً لمساعدة الصليبيين بالشام مما أدى إلى عقد هدنة لمدة عشر سنوات بين الصليبيين من ناحية والسلطان

(١) أبو الفدا : المختصر ، حوادث سنة ٦٦٩ هـ .

(٢) مفضل بن أبي الفضائل : النج السديد ص ١٩٨ — ١٩٩ هـ .

(٣) سعيد عاشور : قبرس والحروب الصليبية ص ٤٧ — ٤٨ .

(٤) المقرئى : السلوك ، ج ١ ص ٥٥٧ .

سعيد عاشور : الظاهر بيبس ص ٨٢ — ٨٣ .

(٥ - العصر المملوكي)

بيبرس من ناحية أخرى . ولم يستطع بيبرس أن يظل ساكناً طوالت مدة تلك الهدنة ، وإنما قام سنة ١٢٧٥ بغزو مملكة أرمينية الصغرى ، فأغار على المصيصية وسيس وأذنة وطرشوس وإياس . هذا إلى أنه أغار على بلاد سلاجقة الروم التي كانت مشغولة بحماية التتار ، واستطاع أن يمزق الجيش التتارى عند أبلستين في أبريل سنة ١٢٧٧ ، كما سبق أن ذكرنا (١) . وهكذا قضى السلطان الظاهر بيبرس حكمه الطويل في جهاد الصليبيين من ناحية والتتار من ناحية أخرى ، حتى كانت وفاته سنة ١٢٧٧ .

أبناء الظاهر بيبرس : (١٢٧٧ - ١٢٧٩)

على الرغم من أن الظاهر بيبرس كان أحد المماليك الذين لم يؤمنوا بنظام وراثته الملك ، وعلى الرغم من أنه عاصر الأحداث التي أدت إلى عزل على ابن أيبك وقيام قطز في السلطنة ، إلى أن فريزة الأبوة غلبت على بيبرس فأراد أن يورث سلطنة المماليك لابنه السعيد . وربما افتر بيبرس بما حققه من أعمال ، وبما وصل إليه من نفوذ واسع لم يدركه أحد قبله من سلاطين المماليك ، فظن أنه حقق لنفسه ولبيته من المجد ما يكفل لابنه الملك السعيد القيام في الحكم من بعده دون اعتراض من كبار الأمراء .

وكان أن استغل بيبرس فرصة حركة التتار على شمال الشام سنة ١٢٧٤ لتنفيذ فرضه . ويروى المقرئ أن الأمراء أشاروا على بيبرس عندئذ بسلطنة ولده ليقم بديار مصر أثناء غيبة أبيه في حرب التتار بالشام . هذا وإن كانت نية بيبرس في تمليك ابنه من بعده قد ظهرت قبل ذلك بعامين

(1) D'O Hsson : op. cit; III, pp. 481—488.

هذه ماهر بن بيبرس عساكرهم لولى عهده الملك السعيد ناصر الدين
خاقان بركة خان» (١).

ولم يلبث السلطان بيبرس أن احتفل سنة ١٢٦٤ بسلطنة ابنه الملك السعيد
احتفالا كبيرا فأركبه بشمار السلطنة وخرج السلطان بنفسه في ركابه ماشيا على
قدميه وقد زينت له القاهرة أحسن زينة . وبعد ثلاثة أيام جمع بيبرس الأمراء
والقضاة والفقهاء وقرىء تفويض عهد السلطنة للملك السعيد وجاء فيه « كانت
شجرتنا المباركة قد امتد منها فرع نفوسنا فيه الزيادة والنمو وتوسعا منه حسن
الجنات المرجو .. فليقتل الولد ما قلناه من أمور العباد ، وليشركنا فيما نياشره
من مصالح الثغور والقلاع والبلاد » (٢).

ثم كان أن توفي السلطان الظاهر بيبرس في دمشق سنة ١٢٧٧ ؛ فكتب
الأمير بدر الدين بيلبك الخاندار إلى الملك السعيد في القاهرة يخبره بوفاة
أبيه ، وعندئذ سدد الأمراء البيعة للملك السعيد ، كما بايعه سائر المماليك
والقضاة والأعيان ودعاه له الخطباء في الجوامع (٣) .

على أن الملك السعيد اتبع سياسة في الحكم أغضبت الأمراء ، فحرب إليه
جماعة من المماليك الأحداث الذين ازداد نفوذهم في شئون الدولة ، الأمر الذي
أغضب كبار الأمراء وعلى رأسهم نائب السلطنة الأمير سيف الدين كوندك
الساق . وهذا ما ازداد العداء بين السلطان السعيد وكبار الأمراء حول على
التخلص منهم ، فسيح بعضهم ، الأمر الذي أثار الخواطر ضده ، وتزعيم شحنة
المقاومة مجموعة من كبار الأمراء البحرية مثل الأمير سيف الدين قلاوون والأمير
شمس الدين سنقر الأشقر . وأخيرا اجتمع هؤلاء الأمراء وأرسلوا إنذارا إلى

(١) المقرئى : السلوك ، ج ١ ص ٤٦٨ .

(٢) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ج ٩ ورقة ٨١ - ٨٥ .

(٣) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٦٤٢ .

السلطان السعيد بركة بن بيبرس جاء فيه : إنك قد أفسدت الخواطر وتعرضت إلى أكابر الأمراء ، فلما أن ترجع عما أنت عليه وإلا كان لنا ولك شأن^(١) .

وهكذا ظلت العلاقة بين الملك السعيد وكبار الأمراء تهدأ حيناً وتسوء أحياناً ، حتى انتهى الأمر بأن حاصر الأمراء القلعة سنة ١٢٧٩ وقطعوا عنه الماء وأصروا على أن يطلع نفسه من السلطنة^(٢) . وعندما لمس السلطان السعيد خطورة موقفه طلب من الأمراء أن يعطوه السكر ، فأجابوه إلى ذلك .

وقد عرض كبار الأمراء السلطنة بعد ذلك على الأمير سيف الدين قلاوون ، فتظاهر بالزهد وتمنع قائلاً : أنا لم أخلع السعيد شهرها إلى السلطنة وحرصاً على الممالك ، ولكن حفظاً للنظام وأتفة للجيوش الاسلام أن يتقدم عليها الأصاغر ، والاولى ألا يخرج الأمر من ذرية الملك الظاهر ؛^(٣) ومن الواضح أن ادعاء الأمير قلاوون الرغبة في الاحتفاظ بالسلطنة لذرية السلطان للظاهر إنما كان ادعاء باطلاً لعدم إيمان المماليك بمبدأ توريث الملك ؛ وكل ما هنالك هو أن قلاوون أدرك أن الأمور لم تنضج بعد فاختار أن يتريث لأممياً وأن غالبية الجيش كانت من المماليك الظاهرية — أتباع الظاهر — نفثى أن ينوروا عنده .

وهكذا استقر رأى الأمراء على تعيين بدر الدين سلامش بن بيبرس سلطاناً ، وكان عمره سبع سنوات . فتلقب بالملك العادل واختير الأمير قلاوون أتباعاً له . وكانت هذه هي فرصة الأمير قلاوون ، فاستغل صغر سن السلطان الجديد وأخذ يمكن لنفسه من وراء ستار ، فقبض على زمام الأمور وتخلص من بعض الأمراء الظاهرية بالسجن ؛ بل لقد جعل نفسه شريكاً للسلطان العادل

(١) المرجع السابق ص ٦٤٥ .

(٢) أبو الحسن : النجوم ج ٧ ص ٢٦٦ — ٢٦٩ .

(٣) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٦٥٧ .

بدر الدين سلامش فأجبر الأمراء على أن يقسموا له يمين الطاعة وضربت
السكة باسميهما ، كما خطب لهما على المنابر (١).

ولما أدرك الأمير قلاون أن السكرى قد فضحت ، جمع الأمراء ، وتحدث
معهم في صغر سن السلطان العادل وقال لهم : قد علمتم أن المملكة لا تقوم
إلا برجل كامل ، فاتفقوا على خلعه ونفيه إلى السكرى وتولية قلاون سلطنة
مصر (٢).

السلطان المنصور قلاوون والصلبيين (١٢٧٩ - ١٢٩٠)

تولى السلطان المنصور قلاوون عرش سلطنة المماليك سنة ١٢٧٩ ، ولكنه
لم يلبث أن تعرض في أوائل حكمه لنفس النوع من العقبات التي تعرض لها
غيره من سلاطين المماليك. ونقص هذه العقبات خروج بعض كبار الأمراء على
السلطان الجديد لأنهم يأنفوا الخنوع لواحد منهم أو لاعتقادهم أنهم أجدر منه
بالسلطنة. من ذلك أن الأمير شمس الدين سنقر نائب الشام رفض الاعتراف
بالمنصور قلاوون سلطاناً سنة ١٢٨٠ ، وأعلن نفسه حاكماً على الشام وتلقب
بالمملك الكامل ودعى له في المسجد الأموي (٣). على أن السلطان المنصور
قلاوون استطاع أن يقضى على الفتنة فأرسل أكثر من حملة ضد سنقر الأشقر
الذي اتصل بالتمتار وأغرام على غزو الشام. وأخيراً خضع سنقر الأشقر
وطلب الأمان سنة ١٢٨٧ وبذلك دانت بلاد الشام للسلطان قلاوون.

وقد اتبع السلطان المنصور قلاوون سياسة سلفه بيبرس من حيث الوقوف

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٢٨٦ .

(٢) المقرئى : السلوك ، ج ٢ ص ٦٥٥ - ٦٥٨ .

أبو المحاسن النجوم ج ٧ ص ٢٧٠ - ٢٧١ .

(٣) المقرئى : السلوك ، ج ١ ص ٦٧٢ - ٦٧٤ .

بالمحصن للتنازل ومحاولاتهم للتسرب إلى بلاد الشام ، وفي الوقت نفسه العمل على
تقويض بناء الصليبيين بالشام . ويبدو أن السلطان قلاوون كان في الدور الأول
من حكمه - أي حتى سنة ١٢٨٤ - أكثر انشغالا بثورة سنقر الأشقر في
الشام ، فضلا عن هجمات التتار الذين أغاروا على بلاد الشام سنة ١٢٨٠ ثم
سنة ١٢٨١ ، الأمر الذي جعل قلاوون يحرص في ذلك الدور على مساندة الصليبيين
فبعد هجوم صلاح الدين على مصر سنة ١٢٨١ (١) . على أن الأمور لم
تتهدأ للسلطان المنصور قلاوون حتى لجأ إلى خرق ذلك الصالح الذي سعى
إليه بنفسه مع الصليبيين ، فشرع في مهاجمة الإسماعيلية واستولى منهم على
حصن المرقب سنة ١٢٨٥ (٢) .

والواقع إن جميع الشواهد دلت عندئذ على أن الصليبيين بالشام كانوا
يمرون بدور الاحتضار ، بعد أن فترت معونة الغرب الأوربي من جهة
وازدادت الخلافات الداخلية بين القوى الصليبية في بلاد الشام من جهة
أخرى (٣) . وقد استغل المماليك تلك الأوضاع للإجهاز على البقايا الصليبية
بالشام إجهازا تاما ، فأرسل السلطان المنصور قلاوون حملة بقيادة الأمير
حسام الدين طرطاي استولت على اللاذقية في أبريل سنة ١٢٨٧ ، وكانت
آخر ما تبقى من إمارة أنطاكية الصليبية (٤) .

وشاءت الظروف أن يهتد الخلاف عندئذ داخل إمارة طرابلس الصليبية بعد
وفاة أميرها بوهيموند السابع ، ويقال إن بعض الأحزاب داخل طرابلس
استنجدت بالسلطان قلاوون طالبة تأييده فوجد قلاوون في ذلك فرصة سانحة

(١) King : The Knights Hospitallers. 282.

(٢) محيي الدين بن عبد الظاهر : تهريف الأيام والعصور ص ٧٧ .

(٣) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ١١٦٧ - ١١٧٠ .

(٤) أبو الفدا : المختصر حوادث سنة ٦٨٦ هـ .

محيي الدين بن عبد الظاهر : تهريف الأيام والعصور ص ١٠١ .

وتحجج بأن أهل طرابلس من الصليبيين نقضوا الهدنة واعتدوا على التجار المسلمين وقطعوا الطريق على المسافرين . وهكذا أهد قلاون عدته ، وتحجز لأخذ طرابلس^(١) ، وخرج فعلا من مصر إلى الشام في فبراير سنة ١٢٨٩ . وكان جيش قلاون مؤلف من أربعين ألف فارس ومائة ألف من المقاتلة ، وبهذه القوة الضاربة شمرح قلاون يحاصر طرابلس في ٢٤ فبراير سنة ١٢٨٩ ووضايقها مضايقة شديدة ، بعد أن نصب حولها آلات الحصار وأخذ النصابون ينقبون أسوارها حتى سقطت المدينة في يد قلاون في أواخر إبريل سنة ١٢٨٩^(٢) . ويرى أبو الفدا أن بعض أهالي طرابلس من الصليبيين حاولوا النجاة عن طريق البحر ، فنجح أقلام في المراكب وقتل غالب وجا طسا وسبيت طرايرهم وغنم منها المسلمون غنيمة عظيمة ، وكان أمام طرابلس وعلى مقربة منها في البحر جزيرة القديس نيقولا ، ففر إليها كثير من الصليبيين ، ولكن الممالك لحقوا بهم فقتلوا وسبوا وأسروا منهم أعدادا كبيرة . وقد زار المؤرخ أبو الفدا تلك الجزيرة بعد المذبحة السابقة ، لكنه لم يستطع البقاء فيها « من تن القتل »^(٣) . وبعد أن تم تدمير مدينة طرابلس القديمة ، بنى السلطان قلاون طرابلس الجديدة في الداخل بعيدا عن شاطئ البحر ، وذلك خوفا من تهديد الأساطيل الصليبية^(٤) .

ولم يلبث الصليبيون أن أخذوا ما لهم من مراكز ومدن في إمارة طرابلس - مثل بيروت وجبلية - فاحتلها الممالك في سهولة . وإذا كانت جبلية قد ظلت في أيدي الصليبيين بضعة سنوات آخر ، فإن ذلك جاء مشروطا بإعلان تبعيتها وخضوعها التام لسلطنة الممالك ، كما تعهد صاحبها الصليبي بدفع أموالها

(١) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٧٤٦ .

(٢) أبو المعاسن : الهجوم القاهرة ج ٧ ص ٣٢١ .

(٣) أبو الفدا : المختصر ، حوادث سنة ٦٨٨ هـ .

(٤) المقرئى : السلوك ، ج ١ ص ٧٤٨ .

للسلطان (١) وبذلك لم يبق للصليبيين من ملكهم العريض ببلاد الشام سوى عاصمتهم عكا ، فضلا عن صيدا وصور وعكا.

ويبدو أنه لم يكن في نية السلطان قلاون أن يقوم بهجوم على عكا عقب استيلائه على طرابلس مباشرة ، بدليل أنه اتجه إلى دمشق حيث استجاب لرغبة الصليبيين في عقد الصلح وتحديد الهدنة القديمة لمدة عشر سنوات (٢). ولكن لم تكمل المياه تعود إلى مجاريها بين المسلمين والصليبيين في بلاد الشام بعد إبرام الصلح المشار إليه ، حتى وصلت عكا في صيف سنة ١٢٩٠ حملة صليبية إيطالية الطابع . وقد أراد هؤلاء الصليبيون الجدد أن يعبروا عن حماسهم الدينية فور وصولهم إلى الشام ، فاعتدوا على المسلمين في إقليم عكا وقتلوا عددا من تجار المسلمين داخل عكا ذاتها ، الأمر الذي قطع حبل السلام بين دولة المماليك والصليبيين (٣) .

ذلك أن أخبار العدوان الصليبي لم تسد تصل إلى مسامع السلطان قلاون حتى استشاط غضبا ، ورفض الأعذار الواهية التي تتهجج بها الصليبيون القدامى من أهل عكا . وفي الوقت الذي أخذ السلطان قلاون يعد جيوشه بالقاهرة للانتقام من الصليبيين ، أمر الأمير شمس الدين سنقر الأهرس بالاستعداد للحرب في الشام (٤) . على أنه لم يكن السلطان قلاون يفرغ من كافة استعداداته الحربية ويغادر القاهرة فعلا لحرب الصليبيين بالشام ، حتى دهمه الموت في ١٠ نوفمبر سنة ١٢٩٠ (٥) .

(١) أبو الحسن : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٣٢١ .

(٢) Stevenson : The Crusaders in the East p. 351.

(٣) مفضل بن أبي الفضائل : النهج السديد ، ج ٢ ص ٣٨٦ .

(٤) الماريزي : السلوك ج ١ ص ٧٥٤ .

(٥) محمد بن عبد الظاهر : تعريف الأيام ص ١٧٨ .

السلطان المنصور خليل بن قلاوون : (١٢٩٠ - ١٢٩٣)

لم يكتف السلطان المنصور قلاوون بحمل ولاية العهد لابنه علاء الدين ، بل أراد أن يجعل ابنه سلطانا في حياته ، فمرض فكرته على كبار الأمراء الذين أقروه على رأيه . وكان أن قرىء تقليد علاء الدين بالقلم سنة ١٢٨٠ . وتلقب بالملك الصالح ، وركب علاء الدين بشعار السلطنة في حياة أبيه (١) .

على أن الملك الصالح علاء الدين لم يلبث أن توفي في حياة أبيه المنصور قلاوون سنة ١٢٨٨ . ويقال إن قلاوون حزن حزنا شديدا لوفاة ، لأنه كان يضع كل ثقته في ذلك الابن بالذات . وكان المنطق يحتم أن يعهد قلاوون بولاية العهد لابنه الثاني خليل ، وفعلا كتب القاضي يحيى الدين بن عبد الظاهر تقليدا بولاية العهد لخليل الذي لقب بالاشرف (٢) .

ومن الثابت أن المنصور قلاوون كان لا يثق في ابنه خليل ولا يميل إليه ولا يرضى عن تصرفاته وسلوكه الشخصي ، فاعتقد أنه غير كفؤ للسلطنة ، وقال - عندما عرض عليه القاضي ابن عبد الظاهر تقليد ولاية العهد لخليل - « أنا ما أولى خليلا على المسلمين » (٣) . ويقال إن المنصور قلاوون كان يعلم أن ابنه خليل مكروه من الأمراء لاستهانتهم بهم ، فضلا عن اتهمائه بفساد السم لآخيه الملك الصالح علاء الدين (٤) . ولهذا الأسباب توفي السلطان المنصور قلاوون دون أن يوقع كتاب ولاية العهد لابنه خليل .

(١) بيريوس الدوادار : زبدة الفسكرة ، ج ٩ ص ١٠٥ - ١٠٨ .

القلشندى : صبح الأعشى ج ١٠ ص ١٧٣ - ١٧٧ .

(٢) القلشندى : صبح الأعشى ج ١٠ ص ١٦٦ - ١٧٣ .

(٣) المقرئى : السواك ج ١ ص ٧٤٥ - ٧٥٦ .

(٤) المرجع السابق ص ٧٩٢ - ٧٩٣ .

ولما سمع الأشرف خليل بوفاة والده السلطان المنصور قلاوون ، استدعى القاضي ابن عبد الظاهر صاحب ديوان الإنشاء وسأله : أين تقليدي ؟ فأحضر القاضي التقليد إليه وهو خلو من توقيع والده ، وعندئذ قال الملك الأشرف : إن السلطان امتنع أن يعطيني فأعطاني الله ، (١) ولم يلبث أن أقسم الأمراء الأيمان للسلطان الجديد الأشرف خليل بن قلاوون .

وقد تعرض السلطان خليل في أول كلمة للمؤامرات التقليدية التي تعرض لها بقية سلاطين المماليك ، فحاول الأمير حسام الدين طر نطاي نائب السلطنة إقصاء خليل عن العرش واسكن السلطان الجديد نجح في القضاء على المؤامرة وقتل الأمير طر نطاي وبذلك هدأت الأمور ولم يبق أمامه سوى أن ينفذ مشروع أبيه الخاص بالاستيلاء على عكا من الصليبيين (٢) .

طرد البقايا الصليبية من العكا :

وكان الصليبيون قد هلكوا لوفاة المنصور قلاوون ، وظنوا أن تلك الوفاة جاءت بإرادة الله لا نقاذ عكا من مصيرها المحتوم . واسكن سرعان ما خاب ظنهم عندما سمعوا أن السلطان خليل قد سار فعلا على رأس الجيوش التي أعدها أبوه إلى الشام ، في الوقت الذي أرسل إلى كافة القوات الإسلامية في مختلف المدن الشامية بمقاومته أمام عكا (٣) . وقد قدر عدد الجيوش الإسلامية التي اشتركت في حصار عكا بستين ألفا من الفرسان ومائة وستين ألفا من المشاة مجهزين بقدر كبير من الأسلحة وعدد ضخم من آلات الحصار (٤) .

ولم يكف السلطان الأشرف خليل يهمل إلى عكا ويفرض حصاره عليها

(١) النويري : نهاية الأرب ج ٢٩ ورقة ٢٩٣ .

(٢) بيبس الدواغر : زبدة الفكرة ، ج ٩ ورقة ١٦٧ .

المقريزي : المواعظ ج ١ ص ٧٥٧ .

(٣) أبو القدا : المختصر ، حوادث سنة ٦٩٠ .

(٤) Setton : op. cit. II, p. 595.

في خامس إبريل سنة ١٢٩١ ، حتى أخذت قواته في مهاجمة أسوار المدينة وضربها بالهجانيق الكبير التي كان منها ما يرمى بقنطار دمشق وأكبر ، وبذلك أمكن إحداث عدة ثغوب في سور المدينة^(١) . وكان على الصليبيين عندئذ أن يبذلوا محاولة أخيرة للدفاع عن عكا وإنقاذها من السقوط ، فجمعوا كل قواتهم في الشام وعكا ، فضلا عن البحارة الإيطاليين والصليبيين الجدد الوافدين ، حتى اجتمع في عكا عدد يتراوح بين ثلاثين ألفاً وأربعين ألفاً ، منهم ثمانمائة فارس وأربعة عشر ألف من المشاة ، والبقية من عامة الحجاج . وأخيراً أدرك الصليبيون بالشام خطورة الموقف ، لحاولات الهجمات والجلاليات الصليبية أن تتناسى ما بينها من حزازات قديمة ، وتقاسموا جميعاً الدفاع عن أسوار عكا وقلاعها^(٢) .

وفي ٤ مايو وصل هنري الثاني ملك قبرس إلى عكا على رأس مائتين من الفرسان وخمسمائة من المشاة وقدر كبير من المؤن والإمدادات ، ففرح الصليبيون في عكا بقدومه فرحاً كبيراً وتوجهوا على الثبات والمقاومة^(٣) . ولكن هنري الثاني لم يلبث أن فشل في التفاهم مع المسلمين من ناحية . كما قنط من جمع كلمة الصليبيين وإزالة ما بينهم وبين بعض من خلافت من ناحية ثانية . ولذلك عاد هنري الثاني إلى قبرس ومعه جميع قواته وفرسانه ، فكان لذلك أسوأ الأثر في نفوس المدافعين^(٤) .

وكان أن اشتدت هجمات المسلمين على عكا يوم ١٨ مايو حتى نجحوا فعلاً في اقتحام المدينة ، رغم المقاومة العنيدة التي أبدتها مقدم الداوية وقائد الاسبتارية ، حتى خسر كلاهما قتيلاً في المعركة^(٥) . ولم يلبث أن وجد الصليبيون

(١) أبو الحسن : النجوم الزاهرة ، ج ٨ ص ٥ - ٨ .

(2) King : op. cit., pp, 291-292

(3) Sehlmberger : Prise de Saint-Jean d'Acre, pp. 23-36.

(٤) أبو الحسن : النجوم ، ج ٨ ص ٦ .

Crousset : Hist. des. Croisades, III, pp. 755-758.

(5) Setton : op. cit., II, p. 595

أنفهم لا عاصم لهم . فالمسلمون أمامهم والبحر خلفهم ؛ فهرعوا إلى السفن
فأرسلوا أحدهم ولكن السفن الباقية في ميناء عكا لم تكن كافية ، فغرق بعضهم
في البحر بسبب ثقل حملاتها وكثرة من اكتظ فيها من طلاب النجاة وكانت
النتيجة أن نسبة من الصليبيين في عكا وقعوا بين قتلى وغرقى وأسرى .

ولم يكن منتظرا من بقية المعاقل الصليبية الباقية بالشام أن تظل قائمة ،
فاحتل المماليك مدينة صور دون مقاومة في ١٩ مايو ، واستولى المماليك على
صيدا ودمروا قلعتها في ١٤ يوليو سنة ١٢٩١ ، كما احتلوا حيفا وهدموها .
وبذلك لم يبق للصليبيين في الشام سوى موضعين هما انطراطوس وعثليث ،
فاستسلمت الأولى في ٣ أغسطس والثانية في ١٤ أغسطس سنة ١٢٩١ ، وبذلك
تكملت بهذه الفتوح جميع البلاد الساحلية للإسلام (١) .

وهكذا دالت دولة الصليبيين بالشام ، وانتهى أمر تلك المجموع من الغزاة
الفرجين إلى بحيث لا رجعة ، وهاضمت البلاد الشام من قيليقية شمالا حتى غزة
والحدود المصرية جنوبا لا يقطنها إلا أبناءها الحقيقيون من العرب واسكن
طرد آخر البقايا الصليبية من الشام في أواخر القرن الثالث عشر لا يعني
نهاية قصة الحروب الصليبية ، إذ استمرت بقية فصول تلك القصة في القرنين
الثالث عشر والرابع عشر : وظلت دولة المماليك تنهض بدورها كاملا في
ذلك الدور الأخير من أدوار الحركة الصليبية ، كما سيلى فيما بعد .

(١) أبو الفداء : المختصر ، حوادث سنة ٦٩٠ هـ
المغربي : السلوك ج ١ ص ٧٦٥ - ٧٦٦ .

الفصل الرابع

الممالك والنوبة

مصر والنوبة قبل قيام دولة المماليك :

تربط النوبة بمصر روابط قوية متميزة منذ أقدم عصور التاريخ، وكان من الطبيعي أن تتأثر النوبة — بحكم هذه الروابط — بما تعرض له مصر من تيارات متنوعة . وإذا كانت مصر قد تعرضت في النصف الأول من القرن السابع الميلادي لحركة الفتح العربي ، فإنه كان من المتعذر أن تظل النوبة بعيدا عن ذلك التيار الجديد .

والمعروف في التاريخ أنه لم يكبد يتم فتح مصر على يد عمرو بن العاص ، حتى أرسل عمرو أخاه لأمه — وهو عقبة بن نافع الفهري — على رأس جيش لفتح النوبة سنة ٦٤٢ . وكانت النوبة عندئذ مركزا لمملكة مسيحية هي ملكة دنقلة التي امتدت من أسوان حتى كورتى ، فأظهر النوبيون مقاومة شديدة للمسلمين ، واضطر الجيش الإسلامي إلى التراجع بعد أن يتحمل خسائر كثيرة (١)

ولم يقنع العرب بتلك النتيجة ، فقام عهد الله بن سعد بن أبي سرح أثناء ولايته على مصر بغزو بلاد النوبة سنة ٦٥١ . وفي تلك المرة أفاد عهد الله بن سعد من التجربة المريرة التي مرت بها حملة عمرو بن العاص ، فعنى بإعداد حملته إعدادا محكما ، وبذلك تمكنت جيوشه من التوغل داخل مملكة النوبة جنوبا حتى وصلت عاصمتها دنقلة وحاصرتها (٢) . على أنه بوصول الجيش العربي

(١) البلاذري : فتوح البلدان ، ص ٢٣٧ .

(٢) المسعودي : مروج الذهب ج ٢ ص ٢٩٠ .

الإسلامى إلى ذلك الحد ، كان قد استنفذ قواه وعجز عن القيام بأى جهد جديد ، الأمر الذى أدى إلى عقد اتفاقية البقظ الشهيرة بين عبد الله بن سعد ابن أبى مرثد من ناحية وملك النوبة المسيحية من ناحية أخرى (١) . وبمقتضى هذه الاتفاقية كان على صاحب النوبة أن يقدم إلى بيت المال فى مصر خمسة وستين وثلاثمائة رأيا من الرقيق كل عام ، مقابل ألف أردب من الغلال وقدر آخر من البقول والأقمشة تقدمها مصر للنوبة . ومن هذا يبدو أن اتفاقية البقظ كانت أقرب إلى معاهدة تبادل اقتصادى بين مصر والنوبة ، منها إلى جزية يدفعها النوبيون رمزا للخضوع ، الأمر الذى جعل ابن خردادبه يقول عن البقظ إنه ليس « بجزية ولا خراج » (٢) ، كما قال البلاذرى « ليس بيننا وبين الأسود عهد ولا ميثاق ، إنما هى هدنة بيننا » (٣) .

ومهما يكن من أمر ، فإن اتفاقية البقظ لم تحقق لمصر الإسلامية أية سيطرة سياسية على بلاد النوبة المسيحية وهى فى الوقت نفسه لم تضع حدا للعلاقات المضطربة بين مملكة النوبة المسيحية ومصر العربية الإسلامية فى العصور الوسطى . وقد حدث أكثر من مرة أن حاولت مملكة النوبة التحمل من مشروط اتفاقية البقظ ، كما لجأ النوبيون فى سنوات الشدة إلى الإغارة على حدود مصر الجنوبية بغية السلب والنهب ومن الواضح أن تلك الإغارات النوبية على مصر كانت تشتهد فى أوقات عدم الاستقرار فى مصر ، مما كان يشجع النوبيين على الإغارة والعدوان ، كما حدث ذلك فى أواخر الدولة الإخشيدية وفى أواخر الدولة

(١) اختلف الباحثون فى تفسير أصل لفظ « البقظ » فالبعض قال إنه تحريف من قبظ غير أن رأى الأرجح أن هذا اللفظ مشتق من كلمة balah وهى كلمة مصرية قديمة بمعنى الضريبة التى كانت تجب عادة من بلاد النوبة والسودان . وربما كان لفظ بقظ مشتق أيضاً من اللفظ اليونانى Pactum ومعناه عهد أو ميثاق .

(٢) ابن خردادبه : المسالك والممالك ص ٩٢ .

(٣) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢٣٧ .

الفاطمية . وربما أحس النوبيون بأن اتفاقية البقطة فيها غرم فادح لهم أو فمهاقة ومساح بكرامتهم ، بدليل أنهم أرسلوا مبعوثاً - هو ابن ملك النوبة - إلى الخليفة المعتصم العباسي يشكون إليه فداحة البقطة ويطلبون إلغاؤه ، فنظر المعتصم إلى ما كان يدفعه المسلمون فوجده أكثر من البقطة ، وعندئذ وافق المعتصم على ألا يكون البقطة سنوياً وإنما يدفع كل ثلاث سنوات (١) .

على أن أحكام مصر الإسلامية أظهرها من جانبهم تمسكاً كبيراً بالبقطة ، فبدأوا على مهاجمة النوبة كلما تأخر ملوكها عن دفع البقطة المفروض عليهم ومن تلك الحملات التي شنها حكم مصر على النوبة الحملة التي أرسلها صلاح الدين بقيادة أخيه توران شاه سنة ١١٧٢ ، والتي أوغلت في تلك البلاد حتى أبريم (٢) على أنه يبدو في تفسير حملة صلاح الدين على النوبة أنه من الصعب إرجاع سبب تلك الحملة إلى رغبة صلاح الدين في إجبار النوبيين على دفع البقطة وربما كان أقرب إلى الصواب أن صلاح الدين استهدف من وراء حملته على النوبة مطاردة بقايا أنصار الفاطميين ، أو إيهام سيده نور الدين بهرد بأنه يسعى لمد نفوذه جنوباً على حساب قوة مسيحية مجاورة . وهذا وإن كان هناك رأى يقول بأن صلاح الدين أراد بتلك الحملة أن يختبر مدى صلاحية النوبة لتسكون مأوى لأبناء البيت الأيوبي في حالة تفاقم الحرقف بينه وبين نور الدين وبأن تقرير توران شاه عن أحوال النوبة جعل صلاح الدين يبدد تلك الفكرة ويوجه أنظاره إلى اليمن (٣) .

(١) المقرئى : المواظ ، ج ١ ص ٣٠١

Mac Michael : Hist of the Arabs in the Sudan vol. p. 158,

(٢) المصنف : صبح الأعشى ج ٥ ص ٢٧٦ ج ٦ ص ٥٠٦ - ٥١٦ .

(3) Lane-Poole : A Hist of Egypt, p. 197.

السلطان الظاهر بيبرس والنوبة :

ثم كان أن قامت دولة المماليك في مصر ، وأخذ سلاطين المماليك - بعد أن استقرت لهم الأمور في الداخل - يهضمون القوى غير الإسلامية المحيطة بهم - من تتر وصليبيين - لحماية الوطن الإسلامي في الشرق الأدنى من ناحية والتسكين لأنفسهم من طريق الظهور في صورة حماة المسلمين من الأخطار التي تهددتهم من ناحية أخرى . وإذا كان المماليك قد وجهوا جزءا كبيرا من طاقتهم لمحاربة الصليبيين ، فإنه كان من الصعب أن تمر موجة الحماسة الدينية التي عمت عصر الحروب الصليبية دون أن يلمح ملك النوبة بهضم من رذاذها وإذا كان الصليبيون في بلاد الشام مسيحيين يهددون الكيان الإسلامي فإن النوبيين كانوا عندئذ أيضاً مسيحيين لا يقلون إخلاصاً لعمليدهم وتهديداً للمسلمين في جنوب مصر عن الصليبيين في الشام .

ثم إن ملوك النوبة من جانبهم لم يراعوا حرمة الجيرة ، واستمروا بين حين وآخر يستفزون بحكام مصر بإغاراتهم العدوانية . من ذلك ما سمعنا من أن داود ملك النوبة اتهم فرصة انشغال السلطان الظاهر بيبرس بهروبه في الشمال ضد التتار والصليبيين والأرمن ، وقام بحملة كبيرة على جنوب مصر سنة ١٢٧٢ ، فذهب أسوان وأسر منها جمعا كبيرا من المسلمين ، كما اعتدى على ميناء عيذاب ، ودون من موانئ مصر الكبرى على شاطئ البحر الأحمر في ذلك العصر (١) .

ويبدو أن مشاغل بيبرس في ذلك الوقت حالت بينه وبين إرسال حملة كبرى لتأديب ملك النوبة ، فاكتمل إرسال تهريده العسكرية سنة ١٢٧٢

(١) النوبى : نهاية الأرب ، ج ٢٨ ص ١٠٩
ابن القرات : تاريخ الدول والملوك ج ٧ ص ٤٥ - ٤٦ .

مهمتها دفاعية أكثر منها هجومية وقد نهضت هذه الحملة الصغيرة في حماية حدود مصر الجنوبية من عدوان ملك النوبة ، وقبض الممالك على صاحب الجبل وفيره من النوبيين فأحضروهم أسرى إلى القاهرة .

ولم تلبث أن أتت فرصة طيبة لبيبرس الانتقام من داود ملك النوبة عندما حضر إلى مصر شكند ملك النوبة الأسبق الذى عزله ابن أخيه داود وحل محله فى الحكم ، فجاء شكند يطلب مساعدة السلطان بيبرس فى استرداد عرشه (١) . وكان أن أعد الظاهر بيبرس حملة كبرى بقيادة الأمير شمس الدين أقمقير الفارقانى وهو الدين الأفرم ، وصحبتهما شكند الذى أمر بيبرس بتسليمه ما يتم فتحه من بلاد النوبة وتنهض لنا تفاصيل أخبار تلك الحملة من مكاتبات الأمير شمس الدين أقمقير للسلطان بيبرس ، خلاصة المكاتبات عن أخبار تلك الحملة ، أن الممالك أغاروا على قلعة الدرح حيث قتلوا وسبوا كثير من الأعداء ، ثم تقدموا بعد ذلك إلى جزائريكا نيل عند شلال وادى حلفا ، حتى اضطرب الملك داود إلى الفرار بنفسه بعد أن وقع معظم رجاله قتلى وأسرى ، ومن جملة الأسرى كان أخوه شنكو وأمه وأخته . وقد حاول صاحب الجبل قر الدولة الهرب ولكن قبض عليه ، ثم أفرج عنه بعد أن تعهد بالدخول فى طاعة الملك شكند وكان أن أظهر قر الدولة هذا همه كبيرة بعد ذلك فى معاونته الحملة المماليكية وإمدادها برجال كلما احتاج الأمر إلى ذلك ، وبعد أن أقام الممالك شكند فى الملك بدلا من داود والبسوه التاج ، نظم القائدان أسس العلاقة الجديدة بين دولة الممالك ومملكة النوبة على الوجه الآتى :-

١ - تعهد شكند بإرسال البعثة السنوية المعتادة إلى سلطان الممالك فى مصر

(١) القلة شندى : صبح الأعشى ج ٦ ص ٢٧٦

المريزى : السالك ج ٦ ص ٦٢٦ .

مضافا إليه بعض الهدايا من القهود والفيلة والزراف: على أن يقوم سلطان الممالك بإرسال الغلال إلى ملكة النوبة .

- ٢ — يستولى شكندره على أموال الملك السابق داود ويرسلها إلى مصر
- ٣ — تفرض دولة الممالك سيادتها على الجزء الشمالي من بلاد النوبة، أي بلاد العلى وبلاد الجبل ، ومعنى ذلك أن سيادة مصر امتدت لأول مرة بصورة فعلية على جزء كبير من بلاد النوبة يبلغ ربعها ، أما ما بقي من ملكة النوبة فيصبح مناصفة بين سلطان الممالك وملك النوبة ، فتذهب نصف خيرات الإقليم إلى السلطان يبرس والنصف الآخر يبقى للملك النوبة لهارة البلاد^(١).
- ٤ — خير ملك النوبة بين اختيار واحد من الأساليب الثلاثة التي هامل بها المسلمون المغلوب — وعلى الإسلام أو الجزية أو القتل — فاختار الجزية، وتعهد بدفع دينار سنوياً عن كل فرد عاقل بالغ في ملكته ولذلك أنعم السلطان يبرس ديونا للنوبة يشرف عليه الصاحب بهاء الدين بن حنا الوزير، للإشراف على جزية النوبة وخراجها .

ه — أخذ عشرون أميراً من أسراء النوبة ليكنوا رهاثن تحت يد السلطان يبرس، وكذلك أطلق سراح جميع أسرى المسلمين الذين أسرهم داود في لغارته السابقة على أسوان وعيذاب .

وبعد كتابة جميع الشروط السابقة ، أقسم شكندره على احترامها. وذكر في قسمه ما نصه : ... أنني أخلصت نيتي وطوبى من روقي هذا وسأبقى هذه لمولانا السلطان الأعظم الملك الظاهر ركن الدنيا والدين يبرس خلد الله ملكه، وأنى أبذل جهدى وطاقتي في تحصيل مرضاته ، وأنى ما دمت نائبه لا أنطع ما قرر على في كل سنة تمضى ...^(٢)

(١) المقرئى : السلوك ، ج ١ ص ٦٢٢

(٢) مقفل بن أبى الفضائل : كتاب التهج السديد ص ٢٣٦ — ٢٣٨ .

وعلى هذا الوجه استطاع يبيرس أن يبسط سيطرته على مملكة النوبة المسيحية في العصور الوسطى . ولا أدل على حرص يبيرس على ضمان إشرافه على النوبة من أنه في تنظيمه للهريد أنشأ طريقاً هاماً يبدأ من قوص ثم يشعب شعبتين إحداهما إلى أسوان والنوبة والثانية إلى عيذاب (١) .

وأخيراً عادت حملة يبيرس من بلاد النوبة سنة ١٢٧٦ حيث احتفل السلطان يبيرس بقعودهما في القاهرة احتفالاً كبيراً ؛ فخلع على الأميين القاندين ؛ واستعرض الأسرى والغنائم الذهبية والفضية التي استولى عليها الغزاة ؛ هذا فضلاً عن الرقيق الذين بلغ من كثيرهم أن يبيع الواحد منهم بثلاثة دراهم . وقد اشترط السلطان في بيع الأسرى ألا يفرق بين المرأة وغلالمها وألا يباع منهم شيء لغير المسلمين (٢) .

وقد اعترف جمهور المؤرخين بأن حملة يبيرس على النوبة حققت ما لم تحققه أية حملة أخرى على تلك البلاد منذ أيام الفتح العربي لمصر . من ذلك ما يقوله مفضل بن أبي الفضائل من أن ما قام به يبيرس من فتوحات في بلاد النوبة يعتبر دماً يفوق به على كل ملك تقدمه (٣) . أما ابن الفرات فيقارن بين الغزوات التي قام بهاحكام مصر في بلاد النوبة منذ أيام عمرو بن العاص وبين ما قام به الظاهر يبيرس فيقول : كل هذه غزوات وإنها الفتح الذي وقع في زمن الملك الظاهر (٤) .

على أن قصة النوبة في عهد يبيرس لم تقف عند ذلك الحد ، إذ لم يلبث أن وقع داود — ملك النوبة السابق الذي أغار على أسوان وحيذاب — أسيراً في قبضة بعض خصومه ، فأرسلوه إلى السلطان يبيرس الذي أمر بحبسهم مع أمه

(١) اللافندي : صبح الاحق ج ١٤ ص ٣٧٤ .

(٢) ابن شاكر السكتي : عيون النوارين ج ٢١ ص ١ ورقة ٥٢ (مخطوط) .

(٣) مفضل بن أبي الفضائل : كتاب النهج السديد ، ص ٢٣٦ .

(٤) تاريخ ابن الفرات ج ٧ ص ٤٥ .

وأخيه حتى مات في سجنه^(١).

والواقع إن ببيرس لم يستطع أن يفسى ما حل ببلاده على أيدي النوبيين ، فظل يراقب أحوال النوبة عن كثب . ويبدو أنه لم يطمئن إلى شككده ، فهد إلى أحد الباطنية القدائية — واسمه إسماعيل — بالتردد على النوبة سرّاً ومراقبة شككده وأحواله ، خوفاً من أن يغدر بالهد ويفعل بأسوان وعيذاب مثلاً فعل داود . وكان لإسماعيل هذا زميل رافقه في بعض سفرياته إلى النوبة ، فافقه ذلك الزميل على شككده وقتك به بغاء ذلك ختاماً لصنعة مثيرة في تاريخ العلاقات بين مصر والنوبة — على عهد الظاهر ببيرس^(٢).

السلطان المنصور قهوجي والنوبة :

ولم تقف علاقة سلاطين المماليك بالنوبة عند حد جهود ببيرس ، وإنما استمر تدخل المماليك في شئون تلك البلاد لرغبة سلاطين مصر في تأمين أطراف دولتهم الجنوبية ، بعد أن قاست الكثير من لغارات النوبيين واعتداءاتهم على الأهالي الأمنين . هذا فضلاً عن أن اهتمام المماليك بأمر النوبة كان جزءاً من سياستهم التجارية في البحر الأحمر . وساعد على ازدياد تدخل المماليك في شئون ملكة النوبة — تدهور أحوال تلك المملكة المسيحية تدهوراً سريعاً بسبب ظهور بعض الدول الإسلامية في غرب السودان مثل الكانم والبرنو ، وهي الدول التي بدأت تربطها بدولة المماليك في مصر علاقات طيبة ، مما جعل النوبة المسيحية تصبح شبه محصورة وسط نطاق من الدول الإسلامية المتفاهمة^(٣).

(١) مفضل بن أبي الفضائل : النهج السديد ص ٢٣٦ .

(٢) سعيد عاشور : الظاهر ببيرس ص ١٢٤ .

(٣) سعيد عاشور : مصر في عصر دولة المماليك البحرية ص ٨٢ . ٨٣ .

وكان السلطان المنصور قلاوون الذى اعتلى عرش سلطنة المماليك سنة ١٣٧٩
حرباً على اقتفاء أثر سياسة بيبرس الخارجية ، سواء فى دفع خطر التتار
أو قطع دابر المسلمين أو تثبيت سيادة السلطنة المماليكية على النوبة^(١) .
ولا يخفى علينا أن شككته عقد الاتفاقية السابقة مع المماليك كارهاً تحت
ضغط المماليك العسكري من ناحية ولشعوره بأنه يدين فى استرداد عرشه
للسلطان الظاهر بيبرس من ناحية أخرى . ولذلك ظل خلفاء شككته من
ملوك النوبة يتهززون الفرص لنقض شروط تلك الاتفاقية والخروج عن طاعة
سلطنة المماليك فى مصر . ولكن خلفاء بيبرس من ناحية أخرى ظلوا
بالمصر ضد لكل محاولة قام بها النوبيون للتخلص من سيطرة المماليك . من ذلك
أن الملك برك — خليفة شككته — قام بمحاولة من هذا النوع ولكن
الأمير علم الدين سنجر المسمورى والى القاهرة أحبط تلك المحاولة ، وانتهى
الامر بقتل برك^(٢) .

وقد خلف برك فى حكم النوبة الملك سمامون الذى وصفته المراجع بأنه
كان « ذا دهاء ومكر وبأس » فسمى للتخلص من قيود الاتفاقية التى عقدها
شككته مع سلطنة المماليك ، وأتم هذه الشروط مداومة إرسال البعثات إلى مصر .
وصادف فى ذلك الوقت أن دب النزاع بين سمامون ملك دنقلة والنوبة ،
وآدور ملك ملكة الأبواب المجاورة ، فأرسل آدور سفراءه إلى السلطان المنصور
قلاوون سنة ١٢٨٧ حاملين إليه هدايا من جملتها ذرافة وفيل . وقد أكد
آدور فى رسالته ولاده وخضوعه التام للسلطان ، وشكا إليه سوء المعاملة التى
يلقاها من سمامون ملك دنقلة والنوبة^(٣) . ولما علم سمامون أن ملك الأبواب أرسل

Wiet : L'Egypte Arabe. p. 435

(١)

(٢) يحيى الدين بن عبد الظاهر : تشرىف الايام والعصور فى سيرة الملك المنصور

ص ١٥٤ .

(٣) مصطفى محمد مسعد : الإسلام والنوبة فى العصور الوسطى ص ١٥٣ .

سفارة إلى مصر، بأمره الآخر بإرسال سفارة من قبله لتشرح وجهة نظره للسلطان المنصور قلاوون وتوضح له ظروف النزاع بينه وبين ملك الأبواب، ووصلت سفارته بعد وصول سفارة آدور بقليل. ويقال إن سفارة سيامون حملت معها إلى السلطان قلاوون هدية ضخمة مقدارها مائة وتسعون رأساً من الرقيق ومائتا بقرة^(١).

وقد رأى السلطان بعد أن استمع إلى جميع كل من الطرفين المتنازعين أن يرسل مبعوثاً إلى كل من الدولتين ليدرس أسباب النزاع على الطبيعة، واختار الأمير علم الدين سنجر المعظمي مبعوثاً إلى ملك الأبواب والأمير علم الدين الحصني رسولاً إلى ملك دنقلة بالنوبة. وكان أن سلك الرسول الأول طريق قوص وعيذاب والبحر الأحمر، مخافة أن يقع في قبضة سيامون فيعذبه. وفعلاً استطاع الأمير سنجر المعظمي أن يتم مهمته بنجاح، ولكنه في طريق عودته إلى مصر ألقى سيامون القبض عليه وفكرك في قتله لولا أن حذره بعض رجاله فاقبضه ذلك، وقالوا له: تريد أن تخرب ديارنا وأعمارنا؟ وعندئذ أطلق سراحه^(٢). أما الأمير علم الدين الحصني الذي قصد ملك دنقلة فلا توجد في المراجع إشارة عن عودته؛ وإن كان يبدو أنه هادئاً سالماً وأنه أقنع السلطان الظاهر بأن سيامون هو المعتدى.

ومهما يكن من أمر، فقد قرر السلطان قلاوون غزو النوبة وأعد لذلك حملة سنة ١٢٨٧م وفيهم من أخبار تلك الحملة في المراجع أن السلطان قلاوون أهتم بإعدادها اهتماماً كبيراً وحشد لها قوة ضخمة على رأسها الأمير سنجر المسروري المعروف بالخياط متولى القاهرة، والأمير عز الدين الكوراني كذلك كتب السلطان

(١) Quatreware. Memoire sur l'Egypte, Tome 2, pp 109-112

(٢) محيي الدين عبد الظاهر: تشریف الأيام والمنصور من ١٤٤٠.

قلاون إلى الأمير عز الدين أيدير السيفي متولى قوص بأن يشارك في تلك الحملة بكل ما يستطيع من ممالك وأجناد وعربان (١) .

وعندما وصلت الحملة المماليكية إلى أطراف النوبة الشمالية انقسمت إلى قسمين ، قسم بقيادة الأمير سنجر الخياط زحف على امتداد الشاطئ الغربي لنهر النيل ، والقسم الثاني بقيادة الأمير عز الدين أيدير سار بجنداء الشاطئ الشرقي للنيل . وكان معظم القتال من نصيب أيدير ، حيث أن المدن الهامة في مملكة النوبة ... ومنها العاصمة دنقلة ذاتها — تقع على الضفة الشرقية للنيل . على أن سمامون — وهو الرجل الذي انصف بالدهاء وسعة الحيلة كما سبق أن ذكرنا — وضع خطة مكيدة استهدفت استدراج المماليك إلى داخلية البلاد ، وعدم الاشتباك معهم في معركة فاصلة إلا عند العاصمة دنقلة حيث يكون المماليك قد أدركهم السكل والتعب من طول الطريق ومشقة . لذلك كتب سمامون إلى جريس صاحب الجبل يأمره بعدم الاشتباك مع الجيوش الغازية وإخلاء البلاد في وجهها ، « فكانوا يرحلون والعسكر (المماليك) وراءهم منزلة بمنزلة » (٢) .

وعند دنقلة دارت الواقعة بين المماليك وسمامون ، وكانت معركة عنيفة ذهب ضحيتها عدد كبير من النوبيين والمسلمين سواء (٣) . أما سمامون فقد فر جنوباً ، وعندئذ تبعه الأمير أيدير حتى ابتعد عن دنقلة مسارب خمسة عشر يوماً ، ولكنه لم يستطع أن يظفر بملك النوبة ، وإن كان قد ظفر بأبن خالة سمامون وجريس صاحب الجبل (٤) . ولما فشل أيدير في القبض على سمامون عاد إلى دنقلة ، حيث تم تهين ابن أخت سمامون ملكاً على مملكة النوبة ، كما أفرج عن جريس

(١) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٧٣٦ — ٧٣٧ .

(٢) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٧٣٧ .

(٣) Quatremere : Memoires. p. 113.

(٤) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٧٣٧ .

وأعيد إلى منصبه بولاية الجبل ، وأقيمت إلى جانبها حامية عسكرية^(١). كذلك تعهد ملك النوبة الجديد بدفع البقعة القديم وكافة الالتزامات الأخرى التي تعهد بها أسلافه . وكان اليمين الذي أقسمه ملك النوبة الجديد — والذي أورده الفلقشندي — مطابقاً إلى حد كبير لليمين الذي سبق أن أقسمه أسلافه من قبل (٢) .

وفي سنة ١٢٨٨ وردت إلى السلطان المنصورة قلاون كتب الأمير علم الدين منبجر الخياط ، تبشره بما قام به من فتح البلاد ، وما العقد له من نصر ؛ فخلع السلطان على الرسول وأعادته إلى النوبة بكتاب إلى الأمير منبجر الخياط يطلب منه العودة إلى مصر على أن يترك الأمير أي دمر بدفلة مع حامية ليكون أميراً مقيماً من قبل السلطان إلى جانب ملك النوبة الجديد . ثم جهز السلطان مع البريدية سعد الدين سعد — ابن أخت الملك داود الذي أسر أيام بيبرس — والذي يبدو من اسمه الجديد أنه اعتنق الإسلام — ليعاون أي دمر في حكم النوبة بحكم خبرته بأحوال البلاد . على أنه لم يقدر لسعد الدين أن يصل إلى النوبة هذندئذ بسبب تطور الأمور تطوراً سريعاً — كما سيلى فيما بعد — الأمر الذي جعل سعد الدين يستقر في قوص (٣) .

ولم يلبث أن وصل الأمير علم الدين منبجر المصري إلى القاهرة ، ومعه « ملوك النوبة ونسائهم وبناتهم وعدة أسرى كثيرة » ، فقهر السلطان الأسرى ونهادهم الناس « ويبيعوا بالثمن اليسير لسكرتهم » (٤) .

غير أن قلاون يكذبنا بذلك النهر حتى جاءت الأخبار بأن سماون

(١) محب الدين بن عبد الظاهر : تشریف الأيام والمصور من ١٥٤ .

(٢) الفلقشندي : صبح الأعشى ج ١٣ من ٢٩٠ — ٢٩١ .

(٣) المقرئى : السلوك ج ١ من ٧٤٣ .

(٤) المقرئى : السلوك ج ١ من ٧٤٣ .

ظهر مرة أخرى ساعياً لاسترداد مملكته ، وأنه نجح في إنزال الهزيمة بالحامية المماليكية وسيطر على دنقلة ، في حين فر ملك النوبة الجديد - بمدمه - وجريس صاحب الجبل إلى القاهرة . وقد غضب السلطان المنصور قلاوون لهذه الأخبار وأمر فوراً بإعداد حملة كبيرة لتأديب سهامون (١) .

وفي تلك المرة أراد قلاوون أن تكون سيطرته على النوبة نهائية فعنى بإعداد الحملة إعداداً فائقاً ، فامتازت عن سابقتها بوفرة عدد السفن - من حرايق وغيرها - ، كما امتازت بوفرة عدد الأمراء المشتركين فيها ، وإلى جانب الأمير عز الدين أيك الأفرم الذى عقدت له القيادة العليا ، ذهب مع الجيش الأمير قبجاق المنصورى والأمير بكتمر الجوكندار والأمير أيدير والى قوص ، فضلاً عن ملك النوبة الطريد وجريس صاحب الجبل (٢) .

وفي سنة ١٢٨٩ غادرت تلك الحملة - التى زاد عدد أفرادها عن أربعين ألفاً - القاهرة . فانضم إليها بالوجه القبلى كثير من أجناد الأمراء فضلاً عن العربان . ولكن لم تسلك الحملة لصل إلى نهر أسوان حتى توفى ملك النوبة فدفن هناك ، وأرسل الأمير الأفرم إلى السلطان يعلمه بذلك ويستشيريه فيما يفعله ، فأرسل السلطان إليه ابن أخت آخر للملك داود - كان معتقلاً بقلعة الجبل - لتعيينه ملكاً فى دنقلة (٣) .

ويروى المقرئى أن تلك الحملة الجديدة التى أرسلها السلطان قلاوون إلى النوبة اتبعت نفس الخطة التى اتبعتها الحملة السابقة ، فانقسمت إلى نصفين : نصف سار على البر الغربى للنيل وعلى رأسه الأمير عز الدين الأفرم والأمير قبجاق ، والنصف الآخر سار بحذاء البر الشرقى تحت قيادة أيدير والى قوص

(١) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٧٤٣ .

(٢) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ج ٨ ص ٨٢ .

(٣) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٧٤٩ .

وبسكتهم . أما جريس الذى لقبه المقريرى بلقب « نائب ملك النوبة » فقد تقدم الجند معه أولا كثر د ليؤمن أهل البلاد ويجهز الإقامات » (١) . ويبدو أن حملة الممالك لم تصادف مقاومة في ذلك الجزء الشمالى من بلاد النوبة - أى من بلد الدالى - جزائريكا نيل - لأن هذا الجزء كان ولاية جريس « فسان العسكر إذا قدم إلى بلد خرج إليه المشايخ والأعيان وقبلوا الأرض وأخذوا الأمان وحادوا » . ومن جهة أخرى فإن الممالك احترموا أرواح الأهالى وممتلكاتهم في تلك الجهات ، رهاية لجريس .

على أن سياسة الممالك لم تلبث أن تبدلت عندما دخلوا نطاق نفوذ ملك النوبة ، إذ وجدوا الأهالى قد جعلوا عن البلاد طاعة لملك النوبة ، فأخذ الممالك يهيجون ويقتلون من يصادفونه من الناس و فرعوا الزروع و خربوا السواقي » (٢) . ويفهم من ذلك أن سمامون هاد إلى خطته القديمة فجلا عن البلاد وتحاشى أن يصطدم مع الممالك في معركة فاصلة . وعندما وصل الممالك إلى دنقلة - عاصمة مملكة النوبة - وجدوا المدينة خالية ، إلا من شيخ واحد وعجوز ، أخبرا الممالك أن سمامون فر إلى جزيرة في النيل تبعد عن دنقلة خمسة عشر يوما (٣) .

وكان أن اتجه أيدير والى قوص بمن معه من جنود إلى تلك الجزيرة لمطاردة سمامون ، حتى وصلوا إلى تجاشهما فطلبوا منه الدخول في الطاعة وأمنوه فلم يقبل . ويبدو أن سمامون خشى أن تحاصره سفن الممالك في تلك الجزيرة ، فهرب منها جنوباً إلى جهة الأبواب هلى بعد ثلاثة أيام ، وعندئذ فارقه معظم جنده وأمراته فغلا هن الأسقف والقساوسة ومعهم الصليب الفضى الذى يحمل على رأس الملك

(١) المرجع السابق ونفس الصفحة .

(٢) المقريرى : السلوك ، ج ١ ص ٧٥٠ .

(٣) المرجع السابق ص ٧٥٠ .

وتاج الملك^(١) ، وقد استسلم هؤلاء جميعا لأيدمر ، نخلع عليهم وعاد بهم إلى دنقلة ، وهناك في دنقلة توج^١ الممالك الملك الجديد — الذى كان قلاون قد أرسله لهم — ملكا على النوبة ، بعد أن تعهد بالولاء لسلطان الممالك والوفاء بالالتزامات التى تعهد بها شكندره من قبل ، وبعد أن أحى الممالك في دنقلة انتصارهم بأن أدوا ألعاب الفروسية وزيّنوا الخرايق والسفن فى النيل حيث لعب الزرقون بالنفط ، قفلوا راجعين إلى مصر ، واكتفوا بترك حامية صغيرة فى دنقلة لمساندة الملك الجديد^(٢).

أما سمّامون ، فإنه لم يكذب يعلم بعودة الممالك ، حتى خرج من حجره مرة أخرى ، وعاد إلى دنقلة ليطرد الأمير بيبرس العزى قائد الحامية المماليكية ، فى حين قبض على الملك الذى عينه الممالك وعراه من ثيابه وألبسه جلد ثور ... وتركه حتى مات ، كما قتل جريس^(٣).

وكان سمّامون يعرف أن سلطنة الممالك فى مصر لن تسكت عن ذلك الوضع ، ولن تغفر له عمله ؛ فأرسل رسالة إلى السلطان المنصور قلاون « يسأله العفو ، وأنه يقوم بالبقاء المقرر وزيادة ، وبعث رقيقا وغيره مقدمة » . ويبدو أن المنصور قلاون كان فى ذلك الوقت قد ملّ حرب النوبة واستنفدت مشاكلة الداخلية وحروبه ضد التتار والصليبيين كثيرا من جهوده ، فرضى بما عرضه سمّامون وقبل تعهداته ، وأقره على ما بيده من بلاد^(٤) ، وذلك بعد أن حلفه على عيّن مشابهة لليمين التى حلف عليها شكندره^(٥). وقد ذكر النويرى

-
- (١) النويرى : نهاية الأرب ج ٢٩ ورقة ٢٧٤ .
 (٢) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٧٥٢ .
 (٣) المرجع السابق ص ٧٥٣ .
 (٤) ابن خلدون : العبر ، ج ٥ ص ٤٠٠ .
 (٥) القلاشندى : ج ١٣ ص ٢٩٠ — ٢٩١ .

أن السبب الذى دفع قلاون إلى قبول سياسة الأمر الواقع فى النوبة . وإقرار سماون على وضعه ، هو أن المنصور قلاون كان فى ذلك الوقت يتأهب للاستيلاء على عكا بعد أن استولى على طرابلس ، ولذلك لم يكن لدى السلطان متسع من الوقت أو الجهد لإرسال حملة جديدة إلى النوبة (١) .

وخلاصة القول أن السلطان قلاون — مثل الظاهر بيبرس — اعتبر النوبة جزءاً من مملكته الواسع ، ودليل ذلك أن كتاب ولاية العهد الذى كتب للملك الصالح علاء الدين ابن المنصور قلاون نص على سائر أقاليم الدولة ، « ومن جملتها مملكة النوبة وما احتوت عليه » (٢) .

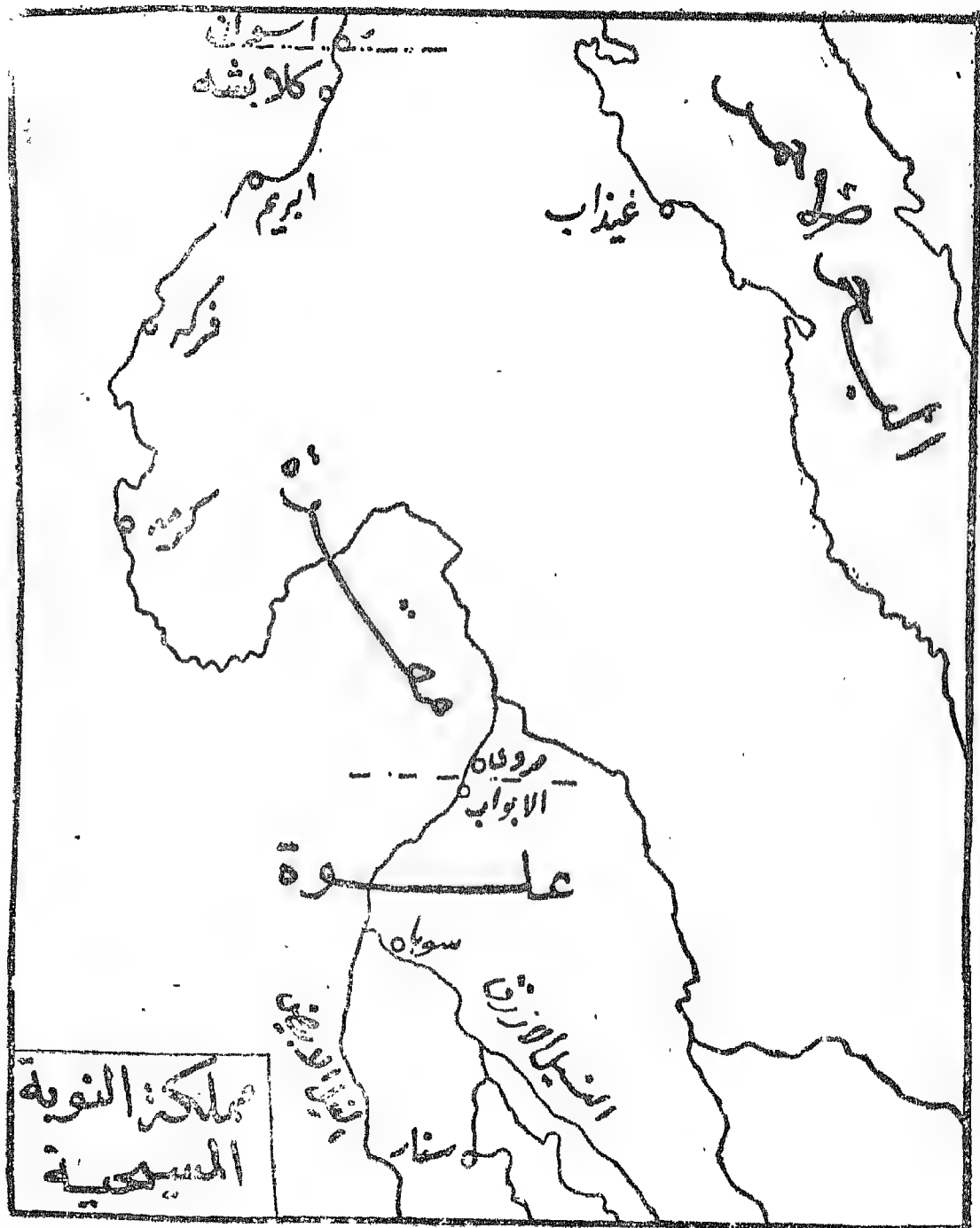
السلطان الأشرف خليل والعربة :

على أن سماون لم يف بالمعهد الذى قطعه على نفسه إذ لم يكمل يعلم بوفاة السلطان المنصور قلاون حتى قطع البقط المستحق عن سنة ١٢٩١ ، وبعث إلى السلطان الأشرف خليل يعتذر بما أصاب بلاده من التخريب نتيجة « دخول العساكر الإسلامية إليها كربة بعد كربة » ، وبأن إغارات الملك آدر صاحب الأبواب قد « زادت البلاد خراباً إلى خرابها » (٣) . لكن السلطان خليل لم يقبل تلك الأعذار ، فأرسل الرسل إلى سماون مهدة منذرة ، حتى سأل الأمان وعندئذ أجابه السلطان خليل بن قلاون إلى طلبه ، كما شمل أم سماون وعمته وبعض أهله بعطفه بوصفهم رهاًن وأنزلهم فى دور الضيافة بالقاهرة وبعد ذلك بقليل أرسل سماون أخاه جريس — وهو غير جريس الذى سبقت الإشارة إليه — برسالة إلى السلطان خليل يستعطفه لإرسال أمه إليه .

(١) الزبيرى : نهاية الأرب ج ٢٩ ورقة ٢٧٤ .

(٢) الفقهى : صبح الأعشى ج ١٠ ص ١٧٥ .

(٣) ابن عبد الظاهر : الألفاظ الخفية ص ٢٩ — ٣١ .



وقد ذكر سمامون في رسالته د إن ملوك النوبة ما يدبرهم غير النساء ، إشارة إلى مكانة المرأة عند أهل النوبة ، كما أرسل بعض الهدايا إلى السلطان (١) . ويظهر أن الممداء كان مستحقا في ذلك الوقت بين ملك دنقلة وصاحب الأبواب ، لأن سمامون أفرط في الشكوى من صاحب الأبواب ، وزعم أنه اعتدى على الهدية التي أرسلها للسلطان ، كما طلب من السلطان خليل ألا يفسح صدره لأي رسول يرسله ملك الأبواب (٢) .

ومهما يكن من أمر ، فإن السلطان خليل لم يندفع بكلام سمامون المسؤول ، بل ضاق ذرعا بمطامته ، وقرر استخدام القوة لردعه ، وكان أن أنفذ السلطان الأشرف خليل بن قلاوون حملة كبرى إلى بلاد النوبة للقبض على سمامون من ناحية وأمير آخر اسمه آني من ناحية أخرى . وقد ذكر يحيى الدين بن عبد الظاهر أخبار هذه الحملة في اقتضاب ؛ فقال إن الأمير الأقرم أوغل في عاصمة النوبة مسيرة ثلاثة وثلاثين يوما جنوبا ونقله في مطاردة الملك آني الذي فر ومعه سبعة أنفار إلى جهة الإنج (٣) . ولكن الممالك لم يستطيعوا الاستمرار في مطاردة آني بسبب د شدة العطش ، ولأن البلاد التي وصلوا إليها خراب ، مأوى الفيلة والقرود والخنازير والزرافات والنعام ، مما يشير إلى أن الممالك وصلوا إلى جنوب السودان . وقد اكتفى الممالك بتأديب تلك الجهات د ورجعوا بغنيمة ، إلى دنقلة (٤) . أما سمامون فلا تذكر عنه المراجع شيء ، ويغلب على الظن أنه هلك أثناء مطاردة الممالك له .

وفي تلك الأثناء وصلت تعليمات من السلطان الأشرف خليل بالقاهرة

(١) المرجع السابق ص ٣٩ — ٤٠

مصطفى مسعد : الإسلام والنوبة ص ١٦٠

(٢) ابن عبد الظاهر : الألفاظ الخفية ، ص ٣١ .

(٣) يحيى الدين بن عبد الظاهر : تشریف الأيام والصور ص ١٥٢ .

(٤) المرجع السابق ، ص ١٥٣

إلى الأمير الأفرم بأن يعين أميراً نوبياً اسمه بدمه ملكاً على دنقلة ، وفي الحال جمع الأمير عز الدين الأفرم مقدمى الممالك وأكابر مملكة النوبة ، واحتفل بتتويج بدمه ، وحلف الرعية بمين الولاء له ، ولكن ذلك اليقين جاء مشروطاً بطاعته لسلطان الممالك « ولولا مولانا السلطان ما أطعناك ومتى تغيرت أمسكتناك ؛ ونحن نرضى أن يقيم مولانا السلطان لنا ملكاً فلاحاً أو جليلاً ، فإن بلاد النوبة ما لها ملك إلا مولانا السلطان ونحن رعيته » (١) . وبعد ذلك حلف الممالك جريس — الذى كان نائباً للملك النوبة فى جزائر ميكانيل وعمل الدرس — وبذلك تعهد كل من بدمه وجريس بطاعة سلطان الممالك « وأن أى من خرج عن الطاعة كان الآخر عوناً عليه لمولانا السلطان » .

وبعد ذلك شرع الأمير عز الدين الأفرم فى العودة بمن معه من جنود إلى القاهرة ، وبعد رحيله بثمانية أيام وصل كتاب من بدمه ملك دنقلة يفيد أن أهل المملكة عادوا إلى بلادهم وأنهم أخذوا فى عمارتها . كذلك وصل كتاب آخر من ملك الأبواب فى الجنوب يعتذر عن تأخره فى الحضور بنفسه والمثول بين يدي الأمير الأفرم لأنه كان مشغولاً بمطاردة آفى ؛ وأنه يسعى للسيطرة على بلاد الأنج ، فإذا تم له ذلك « صار جميع بلاد السودان فى قبضة مولانا السلطان وطاعته » (٢) .

وهكذا حققت حملة السلطان الأشرف خليل على النوبة نجاحاً كبيراً ولأنها وصلت إلى أمكنة ما وصلها جيش قط . وكان الأمير عز الدين الأفرم وهو فى طريقه إلى القاهرة قد طلب ثمانمائة رجل لركوب الأسرى ، فأرسلت إليه ، فدخل القاهرة وصحبته عساكره « متجدة فى أحسن دى » ؛ ومعه أحمال عديدة من غلات النوبة (٣) .

(١) محبى الدين بن عبد الظاهر : تشرىف الايام والمصور ص ١٥٣ .

(٢) محبى الدين بن عبد الظاهر : تشرىف الايام ص ١٥٤ — ١٥٥ .

(٣) محبى الدين بن عبد الظاهر : تشرىف الايام ص ١٥٥ .

السلطان الناصر محمد والنوبة:

ويبدو أن الحملات التي أرسلها سلاطين المماليك في مصر إلى النوبة منذ عهد السلطان الظاهر بيبرس أفلحت في جعل ملوك النوبة يعملون حساباً لسلطنة المماليك في القاهرة ويخشون بأسهم وسطوتهم. وهكذا ظل ملوك دنقلة يعبرون عن ولائهم بين حين وآخر لسلاطين المماليك، ويحتكمون إليهم فيما ينشعب بينهم وبين بعض من خلاف. من ذلك أن الملك أُمَاي ملك النوبة أتى بنفسه إلى القاهرة سنة ١٣٠٤ يحمل الهدايا للسلطان الناصر محمد بن قلاوون ويطلب معونته ضد منافسيه وأعدائه. وقد استجاب الناصر محمد لنداء ملك النوبة، فأرسل معه تجريدة بقيادة والي قوص الأمير سيف الدين طقصبا، وبعد أن أتمت هذه الحملة مهمتها في مساعدة ملك النوبة عادت إلى مصر سنة ١٣٠٥^(١).

على أنه يبدو أن الأمور لم تستقر تماماً لأُمَاي ملك النوبة، بدليل أن أخاه كر نيس قتله سنة ١٣١١ ليحل محله في عرش دنقلة، وقد أحس الملك الجديد بحاجة إلى تأييد سلطنة المماليك، فأتى إلى القاهرة معلناً ولاءه للسلطان الناصر محمد حاملاً الجزية والضرائب المقرضة على بلاده^(٢).

ولكن كر نيس سرعان ما تنكر لسلطنة المماليك بمجرد استقرار الأمور بالنسبة له، وامتنع سنة ١٣١٦ عن إرسال البقطة إلى مصر. وكان أن أعد السلطان الناصر محمد حملة كبرى لتأديب كر نيس ووضع حد للمشكلة النوبية^(٣) وحشد لهذه الحملة عدداً كبيراً من الأمراء بقيادة الأمير عز الدين أيوب جهازكس عبد الملك^(٤). واصططحت هذه الحملة معها أحد النوبيين - هو سيف الدين عبد الله

(١) المقرئى : السلوك ج ٢ ص ٢٩ .

(٢) ابن حجر : الدرر الكامنة ج ١ ص ٤٢١ .

(٣) القلقشندي : صبح الاعشى ج ٥ ص ٢٧٧ .

(٤) المقرئى : السلوك ج ٢ ص ١٦٦ .

برشنبو ابن أخت داود ملك النوبة الأسبق - لتتويجه ملكاً على النوبة بدلاً من كرنبس وكان برشنبو قد أسر في إحدى الحملات السابقة التي أرسلها سلاطين الممالك إلى النوبة وتربى نشأاً في الطباقة السلطانية ضمن حملة ممالك السلطان واعتنق الإسلام^(١). والواقع إن تفكير سلاطين الممالك في تعيين بعض أبناء النوبة - الذين عاشوا وشبوا في مصر وتشرّبوا كثيراً من مظاهر الحضارة المماليكية الإسلامية - ملوكاً على مملكتهم دفقة ، ليدل على اتجاه جديد جدير بالتأمل والعناية. وترجع أهمية هذا الاتجاه في التاريخ إلى أن اختيار حامليهم للنوبة كان كفيلاً بسرعة تحويل تلك البلاد إلى الإسلام ، وبالتالي إلى زيادة نفوذ العنصر العربي فيها ؛ وكل هذه أدت في نهاية الأمر إلى إسقاط مملكة النوبة المسيحية^(٢) . ذلك أن بنى كنز - وم من عرب ربيعة الذين تطرقوا إلى بلاد النوبة في العصور الوسطى - أخذوا يتطلعون في ظل الاتجاه الجديد إلى ملك النوبة لأنهم مسلمون فضلاً عن أنهم تزوجوا من بنات البيت المالك في النوبة ، حتى أن الملك كرنبس كان خال كنز الدولة أمير بنى كنز . ولما كان العرف عند ملوك النوبة قد جرى بتوريث أبناء الأخت ، فإن الملك كرنبس عندما علم برغبة السلطان الناصر محمد بن قلاوون بتعيين ملك مسلم في عرش دفقة فإنه أرسل ابن أخته كنز الدولة بن شجاع الدين ... إلى الأبواب السلطانية وسأل شموله بالإععام السلطاني في توليته الملك . وقد جاء في رسالة كرنبس إلى السلطان الناصر محمد ما نصه : « إذا كان يقصد ولانا السلطان بأن يولى البلاد مسلم ، فهذا مسلم ، وهو ابن أختي . والملك ينتقل إليه من بعدى »^(٣) .

ولكن السلطان الناصر محمد لم يستجب لتلك الرغبة ، ومضت حملته بقيادة

(١) النويرى : نهاية الأرب ، ج ٣٠ ورقة ٩٥ .

اللقيندى : صبح الأعشى ج ٥ ص ٢٧٧ .

(٢) مصطفى مسعد : الإسلام والنوبة ص ١٦٥ - ١٦٦ .

(٣) النويرى : نهاية الأرب ج ٣٠ ورقة ٩٥ - ٩٦ .

الأمير عز الدين أيوب وصحبتهما عبد الله برشلوبو إلى النوبة . وقد فر كرئيس إلى الجنوب من وجه جيوش المماليك ، ولكن ملك الأبواب قبض عليه وعلى أخيه أبرام وسلمهما لقائد الحملة المماليكية ، الذي هاد بهما إلى مصر سنة ١٣١٧ بعد أن تم تتويج عبد الله برشلوبو أول ملك مسلم على مملكة النوبة^(١) .

أما كنز الدولة ، فقد أخذ من وصول ملك النوبة وأخيه إلى القاهرة سبباً للمطالبة بالإفراج عنه ، فأذن له السلطان الناصر محمد بالسفر إلى أسوان ، ولكن ملك النوبة استهواه ، فواصل كنز الدولة سفره حتى دنقلة . وعندئذ رحب به الناس وحيوه كعادتهم في تهيئة الملوك بلفظ « موشاي ! ... موشاي »^(٢) وفي ذلك الوقت كان استقياء الأهل في النوبة من ملكهم الجديد الذي عينه السلطان الناصر محمد . وهو عبد الله برشلوبو . قد بلغ أشده لأنه « غير قواعد البلاد وتعاظم نوعاً من الكبر لم يجر عليه عادة ملك النوبة بمثله ، وحامل أهل البلاد بغلظة وشدّة »^(٣) وهكذا استطاع كنز الدولة أن ينزل الهزيمة بالملك برشلوبو وأن يقتله ؛ وجلس كنز الدولة على عرش دنقلة . وقد ذكر النويري أن كنز الدولة رفض أن يضع تاج الملك على رأسه « رعاية لحق أخواله وتعظيماً لهم وحفظاً لحرمتهم »^(٤) ولكن يبدو أن السبب الرئيسي الذي جعل كنز الدولة يرفض وضع التاج على رأسه ، هو أن ذلك التاج كان يحمل علامة الصليب ، وهو أمر لا يتفق وديانة كنز الدولة الإسلامية^(٥) .

وقد وجد السلطان الناصر محمد بن قلاوون في مصر أن مافعله كنز الدولة

(١) النويري: نهاية الأرب ج ٣٠ ورقة ٩٦ .

(٢) المرجع السابق .

(٣) المرجع السابق .

(٤) النويري: نهاية الأرب ج ٣٠ ورقة ٩٦ .

(٥) مصطفى مسعد: الإسلام والنوبة ، ص ١٦٩ .

يعتبر تحدياً لمهنية السلطنة المالكية وإخلالاً بمهبتها ومكانتها . لذلك رفض السلطان الناصر الاعتراف بكنز الدولة وأطلق سراح أبرام أخى كرئيس وأرسل إلى النوبة ليقبض على ابن أخته كنز الدولة . ولم يكذب أبرام يصل إلى النوبة حتى دخل كنز الدولة في طاعته وتنازل له عن الملك غير أن أبرام غدر بابن أخته وقبض عليه لإرساله إلى القاهرة ، لولا وفاة أبرام المفاجئة التي أوقفت ذلك الإجراء (١) .

وهكذا تكررت القصة مرة أخرى ، إذ مات أبرام ليحتل كنز الدولة عرش النوبة من جديد سنة ١٣١٧ ، أما السلطان الناصر محمد فلم يقف مكتوف اليدين أمام تحدى كنز الدولة له ولرجالها ، وإنما بادى بإرسال حملة إلى النوبة سنة ١٣٢٣ بقيادة الأمير علاء الدين بن على قراسنقر . وقد أرسل الناصر محمد رسالة إلى كرئيس ليحتل عرش النوبة ، لا سيما أنه ورد في المراجع أن كرئيس اعتنق الإسلام هقب هيمته إلى مصر (٢) بدلا من كنز الدولة . وكان أن انتهت تلك الحملة في تحقيق أغراضها فهرب كنز الدولة من دنقلة واعتلى كرئيس العرش ، ولكن لم تكد الحملة لتسحب من النوبة عائداً إلى مصر ، حتى ظهر كنز الدولة من جديد واسترد عرشه (٣) .

العلاقة بين دولة المماليك والنوبة في أواخر العصور الوسطى :

كانت حملة السلطان الناصر محمد على بلاد النوبة سنة ١٣٢٣ آخر حملة نسمع عنها في التاريخ أرسلها سلاطين المماليك لإخضاع النوبة . والواقع إن السبب

(١) المقرئى : السلوك ج ٢ ص ١١٦ ،

النورى : نهاية الأرب ج ٣٠ ورقة ٩٦ .

(٢) المقلاشندى : صبح الأعشى ج ٥ ص ٢٧٧ .

(٣) المقرئى : السلوك ج ٢ ص ٢٥٠ .

في ذلك واضح ، هو أن سلاطين المماليك دأبوا منذ أيام بيبرس على إرسال حملات إلى النوبة للدفاع عن حدود مصر الجنوبية من جانب النوبيين . وكان لسلاطين المماليك سند قوى في تلك الحملات لأن ملكة النوبة كانت مسيحية ، يحكمها ملوك مسيحيون ، الأمر الذي جعل سلاطين المماليك ينظرون إلى بلاد النوبة بوصفها ميداناً جديداً للجهاد إلى جانب الميدان الصليبي القديم في حوض البحر المتوسط .

ولكن الأمر انتهى في عصر الناصر محمد بن قلاوون بقيام كنز الدولة في حكمه ونقله ، ولم يكن كنز الدولة مسيحياً وإنما كان مسلماً انحدر من أصل عربي صريح . ثم إن الأمر لم يقف عند حد أن بلاد النوبة صار يحكمها ملك مسلم ، وإنما تعدى ذلك إلى أن تلك البلاد أخذت عندئذ - منذ أوائل القرن الرابع عشر - تهبط بالصبغة العربية الواضحة نتيجة طهجرة بعض القبائل العربية - عدا بني كنز - إلى النوبة واستقرارهم فيها (١) . وهكذا لم يعد هناك مبرر واضح لأن يقوم سلاطين المماليك بالتدخل في شئون دولة مجاورة ذات صبغة عربية ويحكمها ملوك مسلمون ، لاسيما إذا كانت هذه الدولة في عهد الجديده جندحت إلى السلم ولم تعد مصدر خطر على حدود مصر الجنوبية . وإذا كان سلاطين المماليك قد تمسكوا فيما مضى بضرورة قيام ملوك النوبة بإرسال البقعة ، فإن هذه الضريبة صار لا مبرر لها أيضاً بعد أن غلب الطابع العربي الإسلامي على بلاد النوبة . ونستدل على هذا المعنى من عبارة ذكرها القلقشندي نصها : « فبعث السلطان كرنبس إليهم فليحكمهم ، وانقطعت الجزية عنهم من حين أسلم ملوكهم » (٢) .

(١) حسن أحمد محمود : الإسلام والثقافة العربية في أفريقيا من ٣٢٤ - ٣٢٦ .

(٢) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٥ ص ٣٧٧ .

- ١٠٢ -

وكيفما كان الأمر ، فإن مملكتي النوبة المسيحية سقطت في النصف الأول من القرن الرابع عشر ، وقامت على أنقاضها وحدات عديدة صغيرة ذات صبغة إسلامية عربية ، ومنذ ذلك الوقت حتى سقوط سلطنة المماليك سنة ١٥١٧ صارت العلاقة بين مصر والنوبة لا تتمدى بهض المبادلات التجارية المحدودة .

الفصل الخامس

بيت قلاون

أشرنا من قبل إلى أن المماليك لم يؤمنوا مطلقاً بمبدأ الوراثة في الملك ؛ فالأمراء جميعاً سواء والملك للأقوى والأكثر أنباءً والأوفر ذكاءً . وربما حاول المماليك أن يظهرُوا قسماً من الوفاء للسلطان الراحل فيعينون ابنه بعده سلطاناً ؛ ولكن لا تلبث أن تنقشع الغيوم وتزول صدمة الموت وعندئذ يدرك كبار الأمراء أن ذلك الوضع غير طبيعي ، وأنهم لا يقولون أحقية في الملك عن السلطان الراحل ؛ ويكفي أنهم رضوا بحكمة حيناً من الدهر ، فلا مبرر لأن يخفوهوا لابنه من بعده . أو ربما اشتد التنافس بين كبار الأمراء عقب موت السلطان ، فيتظاهرون - خجلاً للنزاع - بموافقتهم على تعيين ابن السلطان الراحل ، حتى تنكشف الأمور ويظهر بين صفوف الأمراء الرجل القوي الذي يبدؤ زمامه في سطوته وعصبيته المماليكية ، وعندئذ يسهل عليه عزل ذلك الابن وإحلال نفسه محله .

وهكذا نلحس في دراستنا لعصر المماليك عدم استمرار بيت واحد في الحكم مدة طويلة ، وإذا استطاع رجل مثل بيبرس أن يمكن لنفسه ويخلف الأمراء على احترام ولاية العهد لابنه من بعده - فإن تلك الأيمان كانت سرعان ما تنكث بعد وفاته لعدم إيمان المماليك بمبدأ الوراثة . ولم يحدث طوال القرنين ونصف القرن التي حكم فيها سلاطين المماليك مصر أن ظلت السلطنة في بيت واحد مدة طويلة . باستثناء بيت قلاون الذي حطمت تلك القاعدة والذي يعتبر مثلاً فريداً في تاريخ المماليك لبقاء الحكم في بيت واحد أكثر من قرن (١٢٧٩ - ١٣٨٢) . ولا يمكن إرجاع هذه الظاهرة إلى إيمان المماليك

في حقبة معينة بمبدأ وراثته الملك ، وإنما هي مجرد الصدف والظروف التي أحاطت بذلك البيت وبعض أفراده فضلاً عن أحوال البلاد عندئذ والدليل على ذلك أن أمراء المماليك لم ينتقدوا لبيت قلاوون طوال ذلك القرن ، وإنما قامت محاولات لعزل بعض السلاطين بنى قلاوون من الحكم ، ونجح بعض الأمراء في تولي السلطنة فعلا في تلك الأثناء ، ولكن التيار القلاووني كان لا يلبث أن يتغلب بعد قليل .

ولاشك في أن بقاء منصب السلطنة في بيت قلاوون تلك المدة الطويلة ، جعل عصر تلك الأسرة يكتسب طابعاً خاصاً يميز في تاريخ المماليك ، وربما كان في بقاء اسم الجد قلاوون ، في سلسلة طويلة من أسماء السلاطين منذ أواخر القرن الثالث عشر حتى أواخر القرن الرابع عشر ، ما أضفى على ذلك العصر جواً خاصاً يميز . هذا بالإضافة إلى أن جميع عيزات وخصائص العصر المماليكي اكتملت ونضجت في ذلك العصر ، فاستقر الحكم للمماليك تماماً في مصر والشام بعد فترة الاضطرابات الأولى التي أنهارا ببرس بتثبيت أوتاد الدولة ، وأخذت تتطور النظم والقواعد التي سارت عليها سلطنة المماليك حتى أواخر أيامها ؛ وبدأت تظهر بشائر النشاط التجاري الذي قاد على المماليك بالثروة الواسعة ومكنهم من إقامة تلك المنشآت الرائعة التي ما زالت بقاياها في مدن مصر والشام تنطق بمجدهم . فإذا أضفنا إلى ذلك أن عصر أسرة قلاوون شهد حلقات بارزة في قصة الجهاد ضد التتار من ناحية والصليبيين من ناحية ثانية وفي أرض النوبة من ناحية ثالثة ؛ فضلاً عن النشاط الدبلوماسي والمعاهدات السياسية والاتفاقيات الاقتصادية مع كثير من القوى المعاصرة في إفريقية وأوروبا وآسيا ... أدركنا في نهاية الأمر أهمية عصر بيت قلاوون في تاريخ دولة المماليك .

السلطان الأشرف خليل بن قلاوون : (١٢٩٠ - ١٢٩٣)

والواقع إن السلطان المنصور قلاوون نفسه لم يكن يتصور بأن السلطنة ستظل في أعقابيه أكثر من قرن، لأنه كان مملوكاً قبل أن يكون سلطاناً، وحطم بنفسه مبدأ الوراثة عندما عزل صلاح الدين - ابن الظاهر بيبرس - من السلطنة ليتولى هو الحكم بدلاً منه . وإذا كانت عاطفة الأبوة قد غلبت على المنصور قلاوون فأعلن ابنه الصالح علاء الدين سلطاناً في حياة أبيه ، فإن هذا الابن لم يلبث أن توفي في حياة أبيه أيضاً سنة ١٢٨٨ . وقد سبق أن أوضحنا كيف أن السلطان قلاوون رفض أن يوقع كتاب ولاية العهد لابنه الثاني خليل لاعتقاده في سوء خلقه وعدم أهليته لتولى الملك، ومع ذلك فقد شامت الظروف أن يتولى خليل السلطنة سنة ١٢٩٠

وسرعان ما أثبتت الأيام صدق نظرة الأب قلاوون وسبب شغوفه من ابنه خليل . حقيقة إن خليلاً عرف بالشجاعة والبأس، وله مواقف مشهودة في محاربة الصليبيين والتتار والنوبيين ، وهو فوق هذا وذاك السلطان الذي اقترن اسمه في التاريخ بمحو آفة الصليبيين من الشام - كما سبق أن أشرنا - ولكنه ذلك كله جاء مصحوباً بنزعة تصفية في أخلاقه ، فقدر بالأمراء وعظماء عليهم واستخف بهم ؛ مما عجل بنهايته . وفي ذلك يقول المؤرخ ابن إياس « كان الأشرف بطالاً لا بكل من الحروب ليلاً ونهاراً . وكان مسعوداً في حركاته ولا يعرف في أبناء الملوك من كان ينافره في العزم والشجاعة والإقدام . . . ولكنه كان يسمع الكلام في الناس بالباطل من وزيره ابن السلجوس ، وكان ذلك سبباً لروال ملكه . . . » (١)

وتفصيل ذلك أن السلطان الأشرف خليل لم يكديتولى السلطنة سنة ١٢٩٠

(١) ابن إياس : بدائع الزهور ج ١ ص ١٢٦ .

حتى أخذ يغدر برجال الدولة وكبار الأمراء الذين كانت لهم الحكمة والنفوذ في عهد أبيه . ومنذ أن كان خليل ولياً للعهد ظهرت خلافات بينه وبين نائب السلطنة الأمير حسام الدين طر نطاي ، فخرض بعض الأمراء نائب السلطنة على التخلص من السلطان الجديد ، ولكن طر نطاي رفض الاستجابة لهم . وكانت النتيجة أن السلطان خليل بأمر بعد توليه السلطنة بأيام معدودات إلى القبض على طر نطاي وقتله غدراً ، الأمر الذي أثار استياء الأمراء ومخاوفهم (١) . ولم يدرك السلطان خليل أنه بعمله إنما سعى إلى حثفه بظلفه ، لأنه عين الأمير بدر الدين بيدراً نائباً للسلطنة بدلاً من طر نطاي ، ومنحه انقطاع الأمير طر نطاي نفسه . وكان أن ازداد نفوذ بيدرا في الدولة ، فأخذ يتطلع بدووه إلى السلطنة وازداد العداء بينه وبين خليل ، وهو العداء الذي انتهى بالقضاء على السلطان خليل نفسه .

ثم إن السلطان الأشرف خليل عزل الأمير علم الدين سنجر الشجاعى من الوزارة وعين بدله شمس الدين محمد بن السلجوس . وقد ازدادت مكانة ابن السلجوس في الدولة بعد أن فوض إليه السلطان خليل الإشراف على شئون الأمراء . وهكذا ظهر التنافس بين بيدرا نائب السلطنة وابن السلجوس الوزير ، فأخذ الأخير يوشر قلب السلطان على بيدرا وأوصيه أن أملاكه اتسعت ونفوذه ازداد حتى غدا خطراً على السلطان نفسه (٢) .

وقد أحس بيدرا ببلية السلطان الأشرف خليل للقدر به ، ولكنه كان أقوى من أن يستطيع السلطان القضاء عليه في سهولة . ثم إن بيدرا لم يكتف بالحيلة والتحرز على نفسه . وإنما أخذ يدبر مؤامرة الإيقاع بالسلطان قبل أن يوقع السلطان به . وكان أن اغتم بيدرا فرصة ركوب السلطان خليل للصيد

(١) بيمرس الهوادار : زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة ج ٩ ورقة ١٦٧ .

(٢) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٧٨٢ — ٧٨٣ .

في ناحية تروجه - قرب أبي المطامير بمديرية البحيرة - وانقضى عليه بالسيف ثم تبعه بقية الأمراء المتآمرين مثل حسام الدين لاجين المنصوري وشمس الدين قراسنقر وسيف الدين بهادر المنصوري . . . حتى خر السلطان قتيلًا بين أيديهم سنة ١٢٩٣^(١). ويقال إن جيشان السلطان خليل ظل ملقى في العراء يومين كاملين ، حتى حمل بعد ذلك إلى القاهرة ودفن فيها^(٢).

السلطان الناصر محمد بن قلاوون : (السلطنة الأولى ١٢٩٣ - ١٢٩٤)

وبمقتل السلطان خليل تكررت نفس التثيلية التي حدثت عقب مقتل قطز من قبل ، إذا اجتمع الأمراء المتآمرون في مسرح الجريمة وقبل أن تجف دماء ضحيتهم لينشاوروا في مصير السلطنة. وكان أن استقر رأيهم على تولية بيدرا سلطانًا خلفوا له وقبلوا الأرض بين يديه ، ولقبوه «الملك الرحيم» ؛ وقيل «الملك الأجد» ، أو «الملك القاهر» ، أو «الملك الأوحده»^(٣).

ولكن الممالك الأشرفية - بمالك الأشرف خليل - لم يرضوا عن ذلك الوضع ، فهبوا برعاية الأمير زين الدين كتبغا للنار لأمتادهم ، وطاردوا بيدرا وأعوانه حتى طغوا بهم في الطرائف من قرى كوم حمادة بالبحيرة^(٤). وهناك دارت معركة بين الطرفين انتهت بمقتل بيدرا وفرار معظم أعوانه ، وبذلك يكون بيدرا قد أراد السلطنة لنفسه ولكن المقادير قهرته والدنيا الغرور خدرته^(٥).

(١) مفضل بن أبي الفضائل : كتاب النهج السديد ج ٢ ص ٤٠٥ - ٤٠٦ .

(٢) أبو الحسن : النجوم الزاهرة ج ٨ ص ٣٤ - ٣٥ .

(٣) ابن لمي : بدائع الزهور ج ١ ص ١٢٧ .

أبو الفدا : المختصر ج ١ ص ٣٠ .

(٤) أبو الحسن : النجوم الزاهرة ج ٨ ص ١٦ .

(٥) مفضل بن أبي الفضائل : النهج السديد ، ص ٥٧٤ .

وكان المنتظر أن يحاول الأمير زين الدين كتبغا بعد ذلك أخذ العرش لنفسه ، ولكن الأمير علم الدين سنجر الشجاعى الذى كان السلطان خليل قد أنابه عنه بقلعة الجبل حال بينه وبين الوصول إلى القاهرة . ومن الواضح أن كلام هذين الأميرين كان يطمع فى الاستئثار بالسلطنة لنفسه ، ولما وجد كل منهما أنه أمام خصم قوى عنيد ، اتفق الطرفان على مبايعة محمد بن قلاون — أخى خليل (١)

والواقع إن السلطان الناصر محمد بن قلاون يتمتع بأهمية كبيرة فى تاريخ دولة المماليك ، نظراً لطول حكمه ولما حدث فى عهده من أحداث وتطورات هامة ، فضلاً عن شخصيته التى جعلت الناس يتمسكون به ويرون فى بقائه تحقيقاً للاستقرار والأمن والرخاء . ولا نكون مباغين إذا قررنا إن أهمية بيت قلاون لا تنبع من شخص السلطان المنصور قلاون مؤسس تلك الأسرة ، بقدر ما ترتبط بالسلطان الناصر محمد بالذات .

غير أن الناصر محمد بن قلاون كان صغير السن — لم يتجاوز التاسعة من عمره — وقت اعتلائه العرش . وكان من الصعب على ذلك الغلام أن يتحمل إدارة شئون تلك الدولة الواسعة ، لذلك يمكن القول أن سلطنته الأولى — التى امتدت من ١٢٩٣ حتى ١٢٩٤ كانت اسمية وأن السلطة الفعلية تركزت فى أيدي مجموعة من الأمراء أهمهم زين الدين كتبغا نائب السلطنة وعلم الدين سنجر الشجاعى الوزير (٢) .

وتمشياً مع التطور المألوف فى عصر المماليك كان المفروض أن يسمى كل من هذين الأميرين لانتزاع العرش لنفسه من السلطان الصغير . وفعلاً

(١) المفريزى : السكوك ج ١ ص ٧٩٣

(٢) أبو الحسن : النجوم ج ٨ ص ١٩٩ — ٢٠٠

تركز النزاع بين الأمير كتبغا والأمير الشجاعى ، وانضم إلى كل منهما عدد كبير من الانصار والأتباع . ويقال إن الأمير الشجاعى بدأ بالعدوان وسعى للتخلص من كتبغا ، ولكنه لم يوفق في تحقيق هدفه . ولكن كتبغا كان أوفر قوة ، فأرسل إلى السلطان الناصر محمد يقول له ما نصه « إن الشجاعى قد انفرد برأيه في القبض على الأمراء ولا بد من حضوره . فإنه بلغنا عنه ما أنكراه » . ولما امتنع الشجاعى عن الحضور ، زحف كتبغا على رأس رجاله إلى القلعة وحاصروها وفيها السلطان الناصر والأمير الشجاعى ، وقطعوا عنها الماء يوما كاملا . ويبدو أن أم السلطان الناصر محمد خديجة هند قد علمت ذلك ، وأدركت أن حقيقة النزاع بين الأميرين كتبغا والشجاعى هي الوصول إلى العرش ، فأرسلت إلى كتبغا تقول : إيش قصدك حتى نفعله ؟ إن كان قصدك أن تخلع ابنى من السلطنة فافعل ! ، ولكن كتبغا رد - على طريقة أمراء المماليك - متظاهرا بالزهد في السلطنة وبالرغبة في إقرار الأمور لا أكثر ، فقال « أعوذ بالله السميع العليم ! والله لو بقي من أولاد أستاذنا (المنصور فلان) بنت عمياء ما أخرجنا الملك عنها ، ولا سبنا ابن أستاذنا رجل وفيه كفاءة لذلك ، وإنما قصدنا الشجاعى لإخماد الفتنة » (١) .

وقد حاولت أم الناصر محمد التوسط بين الأميرين الثائرين لإخماد الفتنة ، فأوحى إلى ابنها بأن يعرض على الأمير الشجاعى نياية حلب ، ولكن الشجاعى لم يعجبه الاقتراح ، وأغلظ على السلطان في القول ، فقبض عليه المماليك الذين كانوا في حضرة السلطان وقتلوه (٢) .

وبذلك أصبح كتبغا صاحب الكلمة الأولى في شئون الدولة ، ولا حيلة للسلطان الصغير الناصر محمد معه ، ولم ينقص كتبغا سوى لقب السلطنة وشعارها . وصادف أن ظهر بالقاهرة عندئذ الأمير حسام الدين لاجين ، فآذى ظهوره إلى

(١) المقريزى : السلوك ؛ ج ١ ص ٨٠١

(٢) ابن أبياس : بدائع الزهور ج ١ ص ١٣١ .

ثورة المماليك الأشرفية - ممالك الأشرف خليل - واضطراب الأحوال في القاهرة . وكان لاجين ما كراً ، فبادر بالانصال بالأمير كتبغا وزين له إعلانه سلطاناً بعد خلع الناصر محمد ، لأن الأشرفية مادام الملك الناصر في الملك شوكتهم قائمة ، (١) . لذلك استغل كتبغا اضطراب الأحوال في القاهرة نتيجة لثورة الأشرفية وجمع الأمراء للنشاور في الموقف ، فقال بعضهم : « لقد فسدت الأحوال ليكون السلطان صغير السن وطمع المماليك في حق الرعية ، ومن رأى أن نولي سلطاناً كبيراً يجمع المماليك عن هذه الأفعال » (٢) . وهكذا تم عزل السلطان الناصر محمد بعد سنة واحدة من توليه الحكم ، وأعلن كتبغا سلطاناً سنة ١٢٩٤ . على أن يكون حسام الدين لاجين نائباً للسلطنة .

السلطان عادل كتبغا : (١٢٩٤ - ١٢٩٦)

اعتلى كتبغا عرش سلطنة المماليك ، فأخذ يتقرب إلى أمراء المماليك بالقول والعمل ، أما السلطان الناصر محمد فقد عزله كتبغا في بعض قاعات القلعة ومعه أمه وحجبه عن الناس . وقد اختار كتبغا الأمير حسام الدين لاجين نائباً للسلطنة وفوض إليه جميع أمور الدولة ، كما عين الصاحب نقر الدين الخليل وزيراً (٣) .

على أن الظروف شاءت أن تتجمع عدة عوامل لتجعل الناس يكرهون كتبغا ويتمنون زوال ملكه . وأول هذه العوامل أن اعتلاء كتبغا عرش السلطنة جاء مصحوباً بانخفاض النيل واشتداد الغلاء نتيجة للجذب ، حتى انتشرت المجاعة وفشت

(١) أبو الحسن : النجوم الزاهرة ج ٨ ص ٤٨ - ٤٩ .

(٢) ابن مياس : بدائع الزهور ، ج ١ ص ١٣٢

(٣) المقرئى : السلوك ، ج ١ ص ٨٠٧ - ٨٠٨

الأمراض وحصار الناس يسقطون صرعى في الطرقات . ويروى المؤرخون أنه بلغ من حدة الأزمة التي نتجت عن الجوع والمرض أنه كان يموت في القاهرة كل يوم بضعة ألوف ، ويبقى الميت مطروحاً في الأذقة والشوارع ملقى في الممرات اليوم واليومين لا يوجد من يدفنه ، لاشتغال الأصحاء بأموالهم والسقاء بأمرضهم^(١) ولم تقتصر الطامة على مهر وحدها ، بل امتدت إلى الشام حيث توقف نزول المطر ، وخرج النائب وسائر الناس مشاة للاستسقاء^(٢).

وإذا كانت المجاعة التي صحبت اعتلاء كتبغا عرش السلطنة قد جعلت الناس يتشاءمون من حكمه وسوء طامعه ، فإن ثمة عاملاً آخر كان له أثره في ازدياد كراهية الناس لكتبغا . ذلك أن كتبغا كان مغولى الأصل أسره السلطان المنصور قلاوون في واقعة مهس الأولى وجعله في زمرة عماليكه حتى شب وتقرر ووصل إلى مرتبة الإمارة ومن ثم شق طريقه إلى السلطنة^(٣). ولكن وصول كتبغا إلى منصب السلطنة لم ينسأ أصله وعشيرته ، فلم يكن يعلم أن طائفة كبيرة من التتار الوثنيين فروا صوب مصر خوفاً على أنفسهم من غازان محمود أيلخان مغول فارس الذي اعتنق الإسلام ، حتى رحب كتبغا بهم وقد أطلق على تلك الطائفة من المغول اسم العويرانية أو الأويرانية ، وما كادوا يصلون إلى القاهرة حتى أمر كتبغا الأمراء والجند بالخروج لاستقبالهم ، ثم رحب بهم السلطان وأقطعهم الاقطاعات الوفيرة وأجرى عليهم الأوزاق السخية وأنزلهم بالحسينية^(٤).

ولاشك في أن ترحيب كتبغا بذلك العدد الضخم من التتار الذين زادوا

(١) بيبس الدوادار : زبدة الفكرة ج ٩ ورقة ١٨٩

(٢) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٨٠٨

(٣) أبو الهاسن : المنهل الصافي ج ٣ ورقة ٤٧

(٤) المقرئى : المواظ والاعتبار ج ٢ ص ٢١ - ٢٣ .

عن عشرة آلاف ، واستضافته لهم في الوقت الذي اشتد الغلاء في البلاد وندرت الأقوات ومات الناس بسبب الجوع ، كل ذلك أدى إلى استيلاء الناس من كتبغا . وزاد سمعة كتبغا سوءاً بين الجنود والشعب أن أولئك الأويرانية كان معظمهم وثنيين مما أظهر كتبغا في صورة حامى الوثنيين . ولا يخفى علينا أن المسلمين في مصر والشام لم ينسوا للتنازع دوانهم على الوطن الإسلامي منذ أيام هولاء ، لاسيما وأن خطر مغول فارس على بلاد الشام كان لا يزال ماثلاً حتى أيام كتبغا (١)

ثم كان أن زار كتبغا بلاد الشام سنة ١٢٩٥ لإقرار الأمور فيها ؛ وعندئذ اشتد غضب الأمراء عندما عزل السلطان كتبغا نائب السلطنة بالشام أغرلو العادلى (٢) هذا إلى أن كتبغا لم ينعم على أمراء الشام بالخلع والإعامات والهدايا ، كما جرت به عادة السلاطين من قبله فإن عادة الملوك إذا دخلوا مدينة مثل دمشق أن يهدقوا الهدايا والصلوات على الأمراء ، (٣)

ولا يخفى علينا أن الأمير حسام الدين لاجين كان من وراء جميع مظاهر الاستياء ضد كتبغا . حسام الدين هو الذى حرص كتبغا على عزل السلطان الناصر محمد ، وهو شريكه في المؤامرات التي انتهت بعزل الناصر ، ولذا فإنه كان يعتقد أن حقه في الملك لا يقل عن حق كتبغا نفسه . وإذا كان حسام الدين لاجين قد تظاهر بالانحطاف والزهد في منصب السلطنة ورضى بأن يكون نائبا للسلطان ، فإن ذلك جاء نتيجة لإحساس لاجين عندئذ بحرج موقفه بوصفه من المتآمرين على قتل الأشرف خليل . ولكن مع مضي الأيام نهى لاجين مركزه وضعف نفوذ المالك الأشرفية الذين كان لاجين يتشمى سيطرتهم ، فلم يعد هناك

(1) Wiet : L, Egypte Arabe, p. 464.

(٢) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٨١٧

(٣) مؤيد بن أبي الفضائل : التهج السديد ٥٩٢ - ٥٩٤ .

مانع من أن يكشف لاجين عن وجهه الحقيقي ويكيد للسلطان كتبغا لانزاع السلطنة منه .

وفعلا أخذ لاجين يحرك عوامل البخض ضد كتبغا ، بل إنه رسم الخطة مع بعض أعوانه لقتله أثناء عودته من الشام إلى مصر ؛ مثلما فعل بيبرس مع قطز . ولما وصل كتبغا إلى اللجون — قرب طبرية — سنة ١٢٩٦ ، أحس بالؤامرة ، ففر إلى دمشق ، ولم يتمكن المتآمرون إلا من قتل الأميرين بتنهاص وبكتوت الأزرق ، وهما من أقرب أعوان كتبغا .

السلطان المنصور للمجدين : (١٢٩٦ — ١٢٩٨)

فر كتبغا ليحتمي بقلعة دمشق ، فانضم رجال الجيش إلى حسام الدين لاجين الذي استولى على خزائن السلطان ؛ ثم حاول أن يسترضى الأمراء ليبايعوه بالسلطنة ؛ فجمعهم وقال لهم : أنا واحد منكم ولا أخير نفسي عنكم ولست موليا عليكم من ماليكي أحدا ولا أسمع فيكم كلاما أبدا ، ولا يصيبكم ما أصابكم من ماليك العادل (كتبغا) وأنتم خوشداشيني (زملائي) ومحل لإخوتي (١) . وبمثل هذه النغمة والعبارات المعسولة استطاع لاجين أن يسكت سب تأييد الأمراء الذين تعودوا سماع تلك الأقوال من كل سلطان مقبض جديد ، ثم عدم الارتباط بها بعد وصوله إلى السلطنة ، فاشتروا على لاجين عدم الاستبداد برأيه أو تسليط ماليكه — وخاصة منكوتمر — عليهم (٢) .

وهكذا بايع الأمراء لاجين بالسلطنة سنة ١٢٩٦ ، فركب بشعار السلطنة

(١) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ج ٩ ورقة ١٦٥ .

(٢) أبو الفدا : المختصر ج ٤ ص ٣٤٨ .

(٨ — العصر المماليكي)

قاصداً مصر حيث خف أمره مصر للقائه قرب بلبيس وحلفوا له يمين الولاء ،
ثم دخل القاهرة واستقر في القلعة بعد أن تلقب بالسلطان الملك المنصور^(١).

أما في بلاد الشام فقد خطب أولاً للمنصور لاجين في غزة والقدس
وصدد والسكر و نابلس ؛ لأن كتبنا كان لا يزال مقيماً في قلعة دمشق .
ولكن لم تلبث أن جاءت الأخبار بسلطنة المنصور لاجين ، وعندئذ انفض
الناس والأمراء في شمال الشام عن كتبنا الذي لم يسمعه سوى أن يتنازل عن
السلطنة طائفاً مختاراً ؛ وأعلن أنه يرضى بالمكان الذي عينه السلطان
الملك المنصور حسام الدين لاجين^(٢) . وقد حدد له السلطان لاجين الإقامة
في صرخد - من أعمال دمشق - فذهب إليها معزراً - ولعله رأى ذلك
الحل أوفق بكثير ، وأسلم عاقبة من المقاومة .

على أن مشكلة كتبنا لم تكن المشكلة الوحيدة التي واجهت لاجين في
مستهل حكمه ، إذ كانت أمامه مشكلة الناصر محمد الذي ظل مقيماً في القاهرة
ينظر إليه الناس بوصفه صاحب الحق الشرعي الأول في السلطنة . لذلك
فكر لاجين في إبعاد الناصر محمد إلى السكر بعد أن أمنه على حياته وتعهد
له بأنه سيعيده إلى السلطنة متى يبلغ سن الرشد^(٣) .

وبعد أن استراح لاجين نسبياً من خطري كتبنا والناصر محمد ، أخذ
ينظم شئون الحكم ، فاختار الأمير شمس الدين قراسنقر المنصوري نائباً للسلطنة
ولكن لم يلبث أن عزل له وعين بذلك الأمير سيف الدين منكوتر^(٤) ولا يخفى علينا
أن كبار الأمراء كانوا يخشون من أول الأمر أن يؤثر لاجين الأمير منكوتر

(١) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٨٢٢ - ٨٢٣ .

(٢) أبو الحسن : النجوم الزاهرة ج ٨ ص ٦٧ .

(٣) النويرى : نهاية الأرب ، ج ٩ ورقة ٣١٥ .

(٤) مفصل بن أبى الفضائل : كتاب النجم السديد ص ٥٩٩ .

عليهم وأنهم اشترطوا - كما سبق أن رأينا - على لاجين ألا يدخلوا
ملوكك منكوتمر في التحكم والتدبير ، فتضل ،^(١) . لذلك استاء الأمراء مما
فعله لاجين وأخذوا يكيدون له . وزاد من سخطهم أن السلطان حسام الدين
لاجين رآك البلاد - وهو الروك المعروف باسم الروك الحسامي -
وبمقتضاه قل نصيب الأمراء والجند من أرض مصر . أما هامة الناس فقد
غضبوا من لاجين لإهماله و تمنى كل أحد زواله وكثر الدعا عليه ا ،^(٢) .

وفي ذلك الوقت كان ممالك الأشرف خليل يتعينون الفرصة للثأر من
لاجين الذي تأمر على قتل أستاذهم ، وبذلك تكاملت عناصر المؤامرة .
ولم يلبث المتآمرون - بزعامة الأمير كرجي مقدم البرجية - أن نجحوا
في قتل لاجين ومنكوتمر جميعاً سنة ١٢٩٨ ، وبذلك تجددت مشكلة ملء
العرش مرة أخرى^(٣) .

سلطنة الناصر محمد الثانية : (١٢٩٨ - ١٣٠٨)

انجبت الأفكار عقب قتل لاجين إلى إحضار الناصر محمد وتنصيبه سلطاناً
مرة أخرى ولكن نمة ظاهرة لمسناها في تاريخ دولة المماليك منذ مولدها ، هي
أن قاتل السلطان يعتبر نفسه دائماً أحق الأمراء بمنصب السلطنة . لذلك حدث
عندما اجتمع الأمراء - عقب مقتل لاجين - لبحث الموقف واختيار سلطان
أن نهض الأمير كرجي وقال : يا أمراء ! أنا الذي قتلت السلطان وأخذت
ثأر أستاذي . والمالك الناصر صغير ما يصلح . ولا يكون السلطان إلا هذا
- وأشار للأمير طنجي - وأنا نائبه ا ،^(٤) . ولم يلبث أن كثر الطامعون واشتد

(١) بيبس الدوادار : زبدة الفكرة ج ٩ ورقة ١٧٢ .

(٢) ابن لباس : بدائع الدهور ، ج ١ ص ٣٧ .

(٣) أبو المحاسن : المهمل الصافي ج ٣ ورقة ٦٥ - ٦٨ (مخطوط) .

(٤) المقرئى : السلوك ، ج ١ ص ٨٦٦ .

الشقاق . وكما هي العادة دائماً في تاريخ المماليك - رؤى حسماً للخلاف - اختيار السلطان الناصر محمد بن قلاوون سلطاناً من جديد ، لا إيماناً من الأمراء بأحقية ، ولكن حتى ينجلى الموقف ويظهر بين صفوف الأمراء الرجل القوى الذى يسهل عليه عزل الناصر محمد وفرض نفسه سلطاناً .

وكان أن استدعى الناصر محمد من السكر سنة ١٢٩٨ ، فاستقبل في القاهرة إستقبالا حماسياً رائعاً ، ورحب به أهالى مصر أجمع ترحيب ، ولا يحفى علينا أن عامة الناس رأوا في حكم أسرة قلاوون نوعاً من الاستقرار وحسماً للمنازعات بين الأمراء .

ومهما يكن من أمر ، فقد جددت أيمان الولاء للناصر محمد بالقلعة ، وعين الأمير سيف الدين سلار نائباً للسلطنة والأمير بيبرس الجاشنكير استاداراً . وقد استغل هذان الأميران بالذات صغر سن السلطان واستغدا بالأمور ، واضيقا على الناصر محمد ، حتى أنهما تدخلتا في أبسط أموره الشخصية مثل المهروف والمأكل والمشرب^(١) .

وفي ذلك الوقت ظهر التنافس واضحاً بين الأمير بيبرس وسلار ، الأمر الذى أدى إلى عدم استقرار الأمور في البلاد . وزاد من سوء الأحوال في تلك الفترة إحتدام الصدام بين طوائف المماليك البرجية الذين أخذ نفوذهم يزداد تدريجياً ، في حين كان الأمير سلار يشرف على أمور المماليك الصالحية والمنصورية . وهكذا اضطربت أحوال البلاد نتيجة لقيام سلطان قاصر في الحكم ، وانشغال أمراء المماليك وطوائفهم بالمنافسات فيما بينهم وبين بعض ، في الوقت الذى اشتد عبث العربان في الداخل ، وتجدد خطر التتار على بلاد الشام .

وقد تكلمنا عما دار من حروب بين المماليك والتتار في ذلك الدور .

(١) أبو الحسن : النجوم الزاهرة ج ٨ ص ١٧٠ .

أما العربان ، فقد اتهموا فرصة انشغال الحكام في العاصمة وأكثروا الفساد في البلاد، وبخاصة في الوجه القبلي، فقطعوا الطرق على التجار وفرضوا عليهم إتاوات؛ بل إنهم امتنعوا عن أداء الخراج واختاروا اثنين منهم سموا أحدهما بيبرس والآخر سلار^(١). وكان أن أفتى العلماء والقضاة بقتالهم، ونفجج إليهم الأمراء، « وضربوا على الوجه القبلي حلقة كحلقة الصيد »، أي أحاطوا بالأعراب من جميع النواحي حتى أخضعوهم وقتلوا كثيراً منهم فضلاً عن الأسرى^(٢).

أما السلطان الصغير الناصر محمد فقد عيل صبره من تضيق الأمراء عليه، فاتصل بالأمير بكتمر الجوكندار وطلب منه مساعدته في التخلص من الأميرين بيبرس وسلار. ولكن هذين الأميرين عرفا خبر المؤامرة، فأحاطوا بالسلطان في القلعة وعذت أن أرسل السلطان الناصر محمد إلى الأمراء يقول « ما سبب هذا الركوب على باب استبلى؟ إن كان غرضكم في الملك فما أنا متطلع إليه، خذوه وأبعثوني أي موضع أردتم! » فرد الأمراء عليه قائلين: « إن السبب هو من عند السلطان ومن المماليك الذين يحرضونه على الأمراء! »^(٣)

وجدير بالذكر أن عامة الناس أظهروا عطفاً كبيراً على السلطان الناصر محمد في تلك الأزمة فتجمعوا وأخذوا يصيحون « يا ناصر يا مذهبور الله يخون من يخون ابن قلاون! » الأمر الذي أدى إلى عدة اشتباكات بين المماليك والعامه^(٤).

وأخيراً فقد صبر الناصر محمد بعد أن شكّا ضيق يده وحرمانه من أبسط الحقوق الشخصية دون أن يجد مغيثاً، لذلك تظاهر برغبته في الحج حتى

(١) المقريزي : السلوك ج ١ ص ٩٢٠ .

(٢) المرجع السابق ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٨ ص ١٤٩ — ١٥٢ .

(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٨ ص ١٧٢ .

(٤) المرجع السابق ص ١٧٣ .

يسمح له بمغادرة البلاد ؛ ولكنه لم يكده يصل إلى قلعة السكر حتى أعلن عزمه على اتخاذ ذلك المكان محلاً لإقامته وكتب إلى الأميرين بيبرس وسلار باعتزاله الحكم سنة ١٣٠٨ (١)، وبذلك انتهت سلطنة الناصر محمد الثانية التي استمرت نحو عشر سنين ونصف .

السلطان المظفر بيبرس الجاشنكير (١٣٠٨ - ١٣٠٩)

ولم يتوقع كبار الأمراء في الدولة أن يقرر بهم الناصر محمد ، فغضبوا عندما تسلموا رسالته لأهم فيما يبدو كانوا لا يستطيعون العثور على أداة سهلة في أيديهم مثل الناصر محمد الصغير . لذلك بادروا بالكتابة إليه يطلبون منه العودة فوراً إلى مصر ومعهم عماليكه ، وإلا طردوه من السكر وحرموه من حقه في العرش . ثقل عندك الصبي وقم واحضر إلينا ، وإلا بعد ذلك نطلب الحضور ولا يصح لك ، وتقدم ولا ينفعلك الندم (٢) . ولكن الناصر محمد أصر على موقفه وأبى العودة وكتب إلى الأسراء يقول لهم ما نصه « دعوني أنا في هذه القلعة منعزلاً عنكم إلى أن يفرج الله تعالى إما بالموت وإما بغيره » .

وهكذا نجمت مشكلة شغل العرش من جديد ، فعرض الأمراء منصب السلطنة على الأمير سلار بوصفه نائب السلطنة ، ولكنه امتنع عن قبول المنصب وعاف أن يحل به ما حل بكشفا ولاجين ، فأشار سلار إلى زميله الأمير بيبرس الجاشنكير وقال « والله يا أمراء أنا ما أصلح للملك ولا يصلح له إلا أخى هذا » ، وكان أن بايع الأمراء بيبرس الجاشنكير - الذي تلقب بالمظفر سنة ١٣٠٨ ، واختير الأمير سلار نائباً للسلطنة « على عادته » (٣) .

(١) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ، ج ٨ ص ١٧٩ - ١٨٠ .

(٢) المرجع السابق .

(٣) المقرئى : الملوك ج ٢ ص ٤٦ .

ومن الواضح أن المشكلة الأولى التي واجهت السلطان الجديد كانت مشكلة الناصر محمد الذي مازال يتمتع بعطف كثير من الناس داخل مصر وخارجها. وقد بادر السلطان المظفر بيبرس (الثاني) بكتابة تقليد بمنح الكرك للناصر محمد، ظناً منه أن ذلك الحل فيه ترصية كافية للناصر وأشياعه. ولكن عدداً كبيراً من كبار الأمراء بالشام — وبخاصة قراسنقر نائب حلب وقبجق نائب حماء وأسندمر نائب طرابلس — رفضوا الاعتراف بسلطنة بيبرس الجاشنكير وأصروا على ولائهم للناصر محمد بن قلاوون، الأمر الذي أثار مشكلة خطيرة في وجه المظفر بيبرس. ثم إن هؤلاء الأمراء الثلاثة عقدوا اجتماعاً في حلب وقرروا مكتابة الناصر محمد في الكرك ليعرضوا عليه مساعدتهم. فإما أن تأخذ له الملك وإما أن نموت على خيرنا. ولكن الناصر محمد أشار عليهم بالتريث والصبر، لأن هذا الأمر ما يقال بالعجلة^(١). ومن هذا يبدو لنا أن الناصر محمد عندما استقال من السلطنة لم يكن زاهداً فيها، ولكنه آثر الانتظار في الكرك إلى أن تنضج الأمور وعقدت يستطيع أن يسترد سلطانه بسهولة. هذا وإن كانت رغبة الناصر في التريث قد دفعت قراسنقر وقبجق وأسندمر إلى التظاهر بالدخول في طاعة المظفر بيبرس الذي اطمأن بعد ذلك على مصير عرشه وقال: «الآن تم لي الملك»^(٢).

على أن السلطان الناصر محمد لم يظل ساكناً في الكرك؛ إذ كان الصبي الصغير قد شب وأصبح قوي يافعاً؛ فأخذ ينشط في معاملاته مع الناس بالشام وأكثر من الركوب للصيد ومعه مماليكته^(٣). ويبدو أن ذلك النشاط أقلق مضاجع المظفر بيبرس، ففكر في الحد من نشاط الناصر، وأرسل إليه يطالبه بإرسال

(١) أبو الحسن: النجوم الزاهرة ج ٨ ص ٢٣٨ — ٢٤٢.

(٢) المرجع السابق، ص ٢٤٢.

(٣) المقرئ: السلوك ج ٢ ص ٥٢.

ما عنده من الخيل والمال بك وما استولى عليه من أموال الكرك ، « وإلا جرى عليك ماجرى على أولاد الملك الظاهر بيبرس البندقدارى ونفيهم إلى القسطنطينية » (١) ، وعندئذ أخذ يظهر دهاء الناصر محمد الذى اشتهر به فى التاريخ ؛ فرأى « أن المغالطة أولى ، وحاول أن يستر نياته فكتب إلى المظفر بيبرس فى مصر يسترضيه ويقول له « المملوك محمد بن قلاون يقبل الأرض . . . وإن مولانا السلطان هو الذى ربانى وما أعرف لى والدا غيره ، وكل ما أنا فيه ففنه وعلى يديه » (٢) ؛ وفى الوقت نفسه أرسل الناصر محمد إلى أمراء الشام -- أعنى نواب حلب وطرابلس وحماه -- يشكوا لهم سوء وضعه وتهديد السلطان بيبرس الجاشنكير له ويستدر عطفهم عليه ويطلب مساعدتهم له ؛ فقال لهم مانصه « لما اشتد على الضنك من الأمراء خرجت لهم من مصر وتركتم لهم الملك ورضيت من الدنيا بأحقر المساكن وأضيق الأماكن ليستريح خاطرى من التعب ؛ فما تراجعوا عني وأرسل المظفر يهددنى بالنفى إلى القسطنطينية . مثل أولاد الظاهر بيبرس ، وأرسل يطلب منى ما لا أقدر عليه ، وأنتم تعلمون ما لوالدى المنصور (قلاون) عليكم من حق العتق والتربية ، وما أظنكم ترضون لى بهذا الحال » (٣) .

• ولم يكن أمراء حلب وطرابلس وحماه فى حاجة إلى مزيد من التحريض ضد المظفر بيبرس ، فقد كان غرضهم الوئوب عليه وإعادة الناصر محمد إلى عرشه منذ إعلان المظفر بيبرس سلطاناً ، ولكن الناصر محمد هو الذى أشار عليهم بالتريث حتى يحين الوقت المناسب ، وهاهو الوقت المناسب قد حان ، فلم يبق إلا أن توجه ضربة قاصمة ضد بيبرس الثانى لإعادة الحق إلى صاحبه .

(١) ابن لياس : بدائع الزهور ج ١ ص ١٥١ .

(٢) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٥٢ .

(٣) ابن لياس : بدائع الزهور ، ج ١ ، ص ١٥١ .

وكان أن انضم عدد كبير من أمراء الشام إلى الناصر محمد الذى أخذ يعد
العدة لحذف على مصر . ولم يكبد أهل مصر يعلمون بنية الناصر محمد فى
الحضور لإيهم حتى أظهروا سرورهم ، وانفض معظم الأمراء فى مصر ذاتها
عن المظفر بيبرس ؛ وغادر بعضهم - مثل نوغاي - البلاد قاصدا الناصر
محمد لمؤازرته فى استرداد عرشه . وقد أطلع هؤلاء الأمراء الناصر محمد
على حقيقة الحال فى مصر وشجعوه على دخول البلاد حيث سيرحب به عامة
الناس والجند ؛ الأمر الذى شجعه على اتخاذ تلك الخطوة (١) .

أما السلطان المظفر بيبرس ، فبدلاً من أن يتدارك أموره ويرضى بالامر
الواقع ، حاول أن يبذل محاولة أخيرة للاحتفاظ بعرشه ، فطلب من الخليفة
العباسى المستكفى بالله أن يجدد له عهد البيعة سنة ١٣٠٩ ، فتم ذلك وكان
المنادون فى القاهرة يصيحون : سلطانكم الملك المظفر وطيبوا قلوبكم ومن
تكلم فيما لايعنيه قتل (٢) ، ولكن كل هذه الإجراءات لم تفلح فى تغيير مجرى
الأمور . وأخيراً وجد بيبرس الجاشنكير نفسه فى موقف لايمسده عليه ،
بعد أن انفض عنه الشعب ومعظم الأمراء وصار وحيداً أمام الأخبار التى
أخذت تترى عن قرب تحرك الناصر محمد . ويقال إن الأمير سلاار نائب
السلطنة رأى من واجبه أن يبصر السلطان بحقائق الأمور ، فدخل عليه
وقال له : يا مولانا السلطان ؛ إن غالب الأمراء والمماليك السلطانية قد
تسحبوا من القاهرة وتوجهوا إلى الملك الناصر بالسكر ، وقد وقع الاختيار
على عوده ، ومن رأى أن ترسل إلى الملك الناصر لتسأله فى مكان تتوجه
إليه أنت وعيالك . فاعله يحييك إلى ذلك ؛ وإن لم تبادر لى هذا دهمتك
العساكر وهجموا علينا وأنت هنا (٣) .

(١) المقريزى : السلوك ج ٢ ص ٥٩ .

(٢) زهرهتين : تاريخ المماليك ص ١٣٩ .

(٣) ابن لياس : بدائع الزهور ، ج ١ ص ١٥٢ .

وفي تلك الأثناء جاءت الأخبار بأن الناصر محمد خرج من الكرك قاصداً دمشق حيث استقبله أهلها استقبالا حاراً وأقيمت له الحظبة وقدم له أمراء الشام فروض الولاء^(١). ولم يسع السلطان المظفر بيبرس إزاء تلك الأخبار سوى أن يعلن تنازله عن العرش، فأرسل إلى الناصر محمد يسترضيه ويطلب منه العفو ويقول له ما نصه « إن حبستني عددت ذلك خلوة وإن نفيته عددت ذلك سياحة وإن قتلتني كان ذلك لي شهادة »^(٢)؛ وطالب من الناصر أن يمنحه الإقامة في الكرك أو صهيون أو حماء. ريدو أن يبرس الجاشنكير أحس فعلا بأن بقاءه في القاهرة صار متعذرا، فقرر الخروج إلى أطمح بعد أن استولى على مافي خزائن الدولة من أموال. وعندما سمع العامة خبر هروبه تبعوه وهم يصيحون ورايه بهتافات عدائية ورجوه بالحجارة^(٣).

سلطنة الناصر محمد الثالثة : (١٣٠٩ — ١٣٤٠)

وأخيراً خرج الناصر محمد من دمشق قاصداً القاهرة فوصلها في سلام واستقبل في جميع البلاد التي مر بها بالترحاب والسرور، حتى دخل قلعة الجبل وبذلك بدأت سلطته الثالثة.

وتعتبر هذه السلطنة الثالثة للناصر محمد على جانب كبير من الأهمية، إذ ظهرت فيها شخصيته بعد أن أصبح شابا يافعا، فعزم من أول الأمر على القبض على زمام الأمور في الدولة بنفسه وعدم الاستسلام لسكبار الأمراء يتحكمون فيه كما حدث في المرتين السابقتين. هذا إلى أن حكم الناصر محمد في تلك المرة استمر مدة طويلة بلغت إحدى وثلاثين سنة (١٣٠٩ — ١٣٤٠) وهي مدة لم يتمتع

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٨ ص ٢٦٠ — ٢٦٥ .

(٢) المرجع السابق ج ٨ ص ٢٧٠ — ٢٧١ .

(٣) العيني : عقد الجمان ، ج ٢٢ ق ١ ص ١٦٨ (غطارم) .

بها سلطان واحد من سلاطين المماليك السابقين أو اللاحقين ؛ الأمر الذي أعطى عصر الناصر محمد طابعاً خاصاً فريداً ، والذي جعل اسم الناصر محمد يحتل مكانة خاصة في قلوب الناس . وساعد على يريق تلك الهالة التي أحاطت بعصر السلطان الناصر محمد ، أن دولة المماليك بلغت عندئذ أقصى درجات الاتساع والعظمة بعد أن نجحت في قهر التتار وطرد الصليبيين من الشام وبدأت في صورة القوة العظمى في الشرق الأدنى بوجه خاص والعالم الإسلامي بوجه عام . وأخيراً فإنه لا يخفى علينا أن شخصية الناصر محمد نفسه كان لها أثرها في رسم صورة الإطار العام لعصره ؛ فقد وصف المؤرخون ذلك السلطان بأنه كان « ملكاً عظيماً ، محظوظاً ، مطاعاً ، مهاباً ، ذا بطش ودهاء ، وحزم شديد وكيد مديد ... » (١) .

وقد بدأ الناصر محمد سلطنته الثالثة بالانتقام من كبار الأمراء الذين أذلوه ، فألقى القبض على بيبرس الجاشنكير قرب غزة وهو يحاول الفرار إلى الشام ، واستحضر الناصر محمد غريمه ليؤنبه على سوء أفعاله ويذكره بمواقفه ، فقال له مانصه : « دأذك وقد صحت على وقت كذا بسبب فلان ، ورددت شفاعة في حق فلان ، واستدعيت نفقة في وقت كذا من الخزانة ففعتها ، وطلبت في وقت حلوى بلوز وسكر ففعتها ... يا ركن الدين أنا اليوم أستاذك وأمس تقول لما طلبت أوز مشوى ما يعمل به » (٢) وبعد ذلك أمر السلطان الناصر محمد بقتله فقتل ؛ في حين ألقى الأمير سالار في السجن إلى أن مات (٣) .

وقد ظن بعض أمراء المماليك أن الناصر محمد في ذلك الدور هو الناصر محمد الذي عهدوه في الأدوار السابقة ، فحاول الأمير بكتمر الجوكندار نائب السلطنة

(١) أبو المحاسن : المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي ج ٣ ورقة ٢٥٠ .

(٢) المقريزي : السلوك ، ج ٢ ص ٨٠ - ٨١ .

(٣) ابن إياس : بدائع الزهور ج ١ ص ١٥٦ .

تدبير مؤامرة لخالع الناصر محمد وإقامة ابن أخيه الأمير مظفر الدين موسى محله في السلطنة ؛ كما حاول المماليك الأشرفية إشعال نار الثورة من جديد . ولكن السلطان الناصر محمد قبض في تلك المرة بيد من حديد على شئون الحكم فأمسك بالأمير مظفر الدين موسى وزجه في السجن ، وقلم أظفار المماليك الأشرفية ، ولم يتساهل مع أى أمير - في مصر أو الشام - شك في ولائه وإخلاصه له^(١).

وهكذا أثبت الناصر محمد كفاية نادرة ومقدرة في تصريف شئون الدولة بما أضفى عليه وعلى حكمه مهابة كبيرة في الداخل والخارج ، فكانت به سائر الملوك وهادوء وهابره ، وصار جميع عسكر مصر في قبضته^(٢) ، ولا أدل على موجة الرخاء التي عمت مصر في ظل حكم الناصر محمد من المنشآت العديدة والعمائر الضخمة التي أقامها ذلك السلطان من مدارس ومساجد وخانات وسبل وقصور ، وما زالت بقايا بعض هذه المنشآت قائمة في مصر والشام . وقد وصف المقرئى السلطان الناصر محمد بأنه كان « محباً للمهارة » كما ذكر أنه كان ينفق في كل يوم على المهارة سبعة آلاف درهم فضة ، أى ما يساوى ثلثمائة وخمسين ديناراً ، وهو مبلغ ضخم بالنسبة لمستوى الأسعار في ذاك العصر^(٣).

هذا كله بالإضافة إلى انضوج النظم المماليكية في عصر السلطان الناصر محمد ، فاستقرت دواوين الحكومة واستجدت كثير من التطورات في نظم الحكم ، وألغيت بعض الوظائف الكبرى - مثل وظيفة نائب السلطنة ووظيفة الوزير - واستجدت بدلها وظائف أخرى مثل وظيفة ناظر الخاص واهتم كذلك السلطان الناصر محمد بتنظيم الموارد المالية وزيادة الدخل عن طريق

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٩ ص ٢٤ - ٢٥ .

المقرئى : السلوك ج ٢ ص ٩٩ - ١٠٠ .

(٢) ابن لياس : بدائع الزهور ج ١ ص ١٧٣ .

(٣) المقرئى : المواعظ والاعتبار ج ٢ ص ٣٠٦ .

الإعاش الاقتصادي ؛ مما سنشير إليه في مواضع معينة من هذا الكتاب .

وفي جميع هذه الأعمال ، استعان السلطان الناصر محمد بن قلاوون بمجموعة طيبة من أمراءه المخلصين . غير أنه يبدو أن الناصر محمد كانت لديه دائماً عقدة من ناحية الأمراء ، فظلت علاقته بهم تنصف بالشك والريبة ، واشتهر عنه في التأريخ أنه كان يقرب الأمير منه ويزيد من ألقابه ويضفى عليه الكثير من ألوان التشريف ، حتى إذا ما أحس بازدياد نفوذه غدر به فجأة وتخلص منه بطريقة أو أخرى . وتبدو تلك السياسة التي اتبعها السلطان الناصر محمد تجاه الأمراء بوضوح في علاقته بالأمير شمس الدين قر استقر المنصوري الذي ولاه الناصر نيابة بالشام ثم غدر به بعد قليل ، وفي علاقته بالأمير تنكز الحسامي المنصوري الذي ولاه السلطان الناصر جميع بلاد الشام وزاد في ألقابه الكثير وصاهره ، ثم أبعده عن مناصبه وتخلص منه في نهاية الأمر (١) .

عصر أولاد الناصر محمد : (١٣٤٠ - ١٣٦١)

لم يكن السلطان الناصر محمد بن قلاوون من شاكاة أولئك السلاطين الذين نسمع عنهم في عصر المماليك والذين حكم الواحد منهم عاماً أو بضعة أعوام وإنما استطاع الناصر محمد أن يحتفظ بالحكم سنين طويلة ، مما مكن لأولاده وأحفاده في قلوب الناس . ثم إن الظروف التي أحاطت بعصر الناصر محمد وكيفية عزله مرتين وتولييه الحكم على ثلاث دفعات ، وما انتاب البلاد والعباد أثناء الفترات التي اعتزل فيها الحكم من مجاعات وشدائد وخوف ونقص في الأموال والأقوات .. كل ذلك جعل المعاصرين يزددون تعلقاً بالناصر محمد وبيت قلاوون ويرون في بقائهم في الحكم ضماناً كافياً للاستقرار والرخاء .

(١) أبو الحسن : النجوم الزاهرة ج ٩ ص ٢٧٣ ، ٣٢٦ ، ٣٢٧ .

ولعل هذا هو السر في بقاء السلطنة سنين طويلة في ذرية الناصر محمد - من أولاد وأحفاد - وهو أمر ليس له شبيه في تاريخ سلطنة المماليك .

ولم يكن السلطان الناصر محمد نفسه أقل رغبة في الاحتفاظ لذريته بالملك من بعده ؛ من ذلك أنه عهد بالملك لابنه الأمير ناصر الدين آتوك سنة ١٣٣١ فأقره الأمراء على ذلك « وأذعنوا لذلك كلهم » . وكان أن ركب آتوك بشعار السلطنة ووزعت الخلع على كبار الأمراء وكبار الموظفين . ولكن لم يلبث أن خير السلطان الناصر محمد رأيه « ورسم أن يلبس آتوك شمساً للأمراء » ؛ وربما كان السبب في ذلك صغير سنه إذ كان عندئذ في التاسعة من عمره (١) . وكيفما كان الأمر ، فإن آتوك لم يلبث أن توفي بعد بضعة سنوات في حياة أبيه سنة ١٣٤٠ ، في الوقت الذي اشتد المرض بالناصر محمد نفسه . فجمع كبار الأمراء وأوعاهم باختيار ابنه سيف الدين أبي بكر سلطاناً من بعده ، فعهدوا له بذلك (١) .

وبوفاة السلطان الناصر محمد سنة ١٣٤٠ دخلت دولة المماليك مرحلة جديدة في تاريخها ، يمكن تسميتها عصر أبناء الناصر محمد وأحفاده . وأهم ما يلاحظ على هذه المرحلة - التي استمرت حتى سقوط دولة المماليك البحرية وقيام دولة المماليك البرجية أو الشراكسة سنة ١٣٨٢ - هو ازدياد نفوذ الأمراء وتعاقب عدد كبير من أبناء السلطان الناصر محمد ثم أحفاده في منصب السلطنة ومعظمهم كانوا صغاراً أو أحداثاً مما جعلهم ألعوبة في أيدي كبار الأمراء .

أما أبناء الناصر محمد الذين ولوا منصب السلطنة على التوالي من بعده فعددهم ثمانية حكموا إحدى وعشرين سنة (١٣٤٠ - ١٣٦١) وبذلك يكون

(١) المقريزي : السلوك ج ٢ ص ٣٤٣ .

(٢) تاريخ ابن الوردي ج ٢ ص ٣٢٠ .

متوسط حكم الواحد منهم عامين ونصف تقريباً ، مما يشهد على مدى عدم
الاستقرار الذى شهدته البلاد فى ذلك العصر .

وكان أول أولئك السلاطين من أولاد الناصر محمد السلطان سيف الدين
أبو بكر الذى تلقب بالمنصور (١٣٤٠ - ١٤٣١) . ولم يكد هذا السلطان
بلى السلطنة بعد وفاة أبيه حتى دب الخلاف بينه وبين الأمير قوصون أنابك
العسكر . وكان سيف الدين أبو بكر شاباً فى العشرين من عمره ، ليست له
خبرة بأخلاق كبار الأمراء والأعيمة ، فاستثار قوصون بقية الأمراء ضده ،
وقال لهم ما نصه : هذا السلطان يريد أن يقتلكم ولا يخل أحدكم منكم (١)
وعندئذ استجاب الأمراء لقوصون الذى قبض على السلطان ونفاه إلى قوص
حيث قتل بعد قليل ، قبل أن تمر ثلاثة أشهر على اعتلائه عرش السلطنة (٢) .

وبعد قتل السلطان أبي بكر ، استحضرت قوصون أخاه علاء الدين كجك
وولاه السلطنة بلقب الأشرف (سنة ١٣٤١) . وكان السلطان الأشرف
كجك فى الخامسة من عمره ، ولذا لم يكن منتظراً أنه أن يكون له رأى مسموع
فى إدارة شؤون البلاد ، فظل فى السلطنة خمسة أشهر وعشرة أيام د لم يكن له
فيها أمر ولا نهى . وتدير أمور الدولة كلها إلى قوصون ، (٣) .

وكان أن خلع الأمراء كجك وعينوا بدله أخاه أحمد الذى لقب بالناصر
(١٣٤٢) . وكان أحمد وقت تعيينه سلطاناً مقيماً بالكرك . فلم يكد يحضر إلى
مصر حتى رغب فى العودة إلى الكرك مرة أخرى ؛ فعملاً انتقل إليها وترك
الدواوين فى مصر . وهكذا ساءت أوضاع البلاد بعد أن صار السلطان مقيماً فى
الكرك فى جوف الصحراء ناركاً مصر والشام الأمراء الذين د شق عليهم غيبة

(١) المقرئى : السلوك ج ٢ ص ٦٦٨ - ٦٧٠ .

(٢) ابن أبياس : بدائع الزهور ج ١ ص ١٧٧ .

(٣) المقرئى : السلوك ، ج ٢ ص ٥٩٣ .

السلطان منها، واضطربت أحوال القاهرة وصارت غرغاء .. وعند ما طلب
الأمراء من السلطان الخضوع إلى قاعدة مملكتهم بالقاهرة ، رد عليهم قائلاً :
د إننى قاعد فى موضع أشتى ، وأى وقت أردت حضرت إليكم ،^(١) .

ولم يرض الأمراء عن ذلك الوضع فخلعوا الناصر أحمد من السلطنة - ثم
قتلوه فيما بعد - وأحلوا محله أخاه اسماعيل الذى لقب بالصالح (١٣٤٢-١٣٤٥) .
وقد وصف المقرئى السلطان الصالح اسماعيل بأنه « أعرض عن تدبير الملك
بإقباله على النساء المطربين » . ومع انخفاض إيرادات الدولة وقتئذ فإن العمار
والمنهآت ظلت تستأثر بمبالغ ضخمة من المال^(٢) . وليست هناك أهمية خاصة
لعهد الصالح اسماعيل سوى أنه شارك فى قتل أخيه السلطان السابق الناصر أحمد
بعد أن ساءت سيرته فى السكر . ولم يلبث الصالح اسماعيل نفسه أن مرض
وتوفى سنة ١٣٤٥ .

أما السلطان الكامل شعبان (١٣٤٥ - ١٣٤٦) ابن الناصر محمد الذى
تولى السلطنة بعد أخيه الصالح اسماعيل ، فلم يكن أقل من أخيه عبثاً وجوراً
واستهتاراً بمصالح الحكم ، فأغضب الأمراء ، وحاول قتل أخويه حاجى وحسين
ولكن الأمر انتهى بالقبض عليه وعندئذ قتله أخوه حاجى الذى تولى السلطنة
وتلقب بالمظفر (١٣٤٦-١٣٤٧)^(٣) .

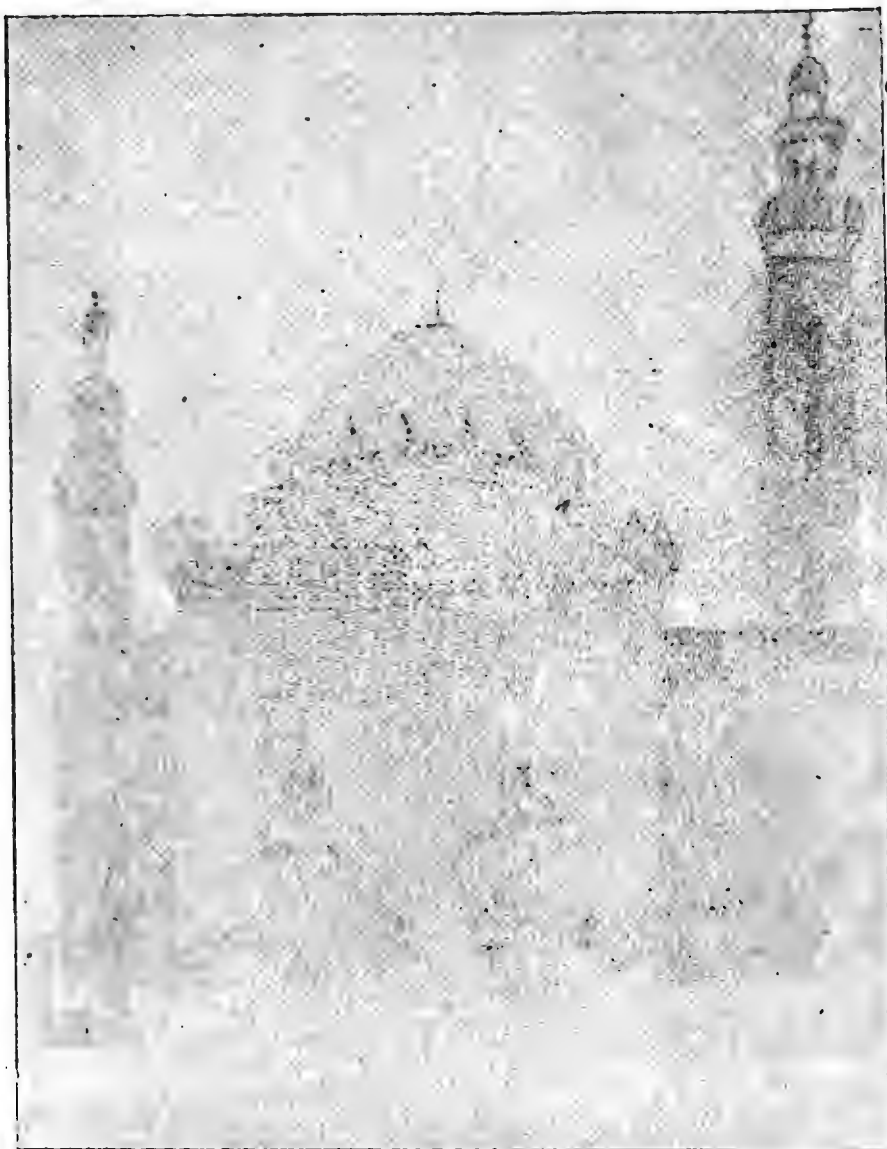
وكان المظفر زين الدين حاجى فى الحادية عشر من عمره عندما اعتلى عرش
السلطنة ، فانشغل باللعب واللهو ، وتشاغل بلعب الحمام مع « الأوباش » الأمر
الذى أغضب الأمراء فقتلوه قبل أن تمر سنة على اعتلائه العرش^(٤) .

(١) أبو المحاسن : النجوم ج ١٠ ص ٦٩ .

(٢) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٦٧٩ .

(٣) ابن لياس : بدائع الزهور ج ١ ص ١٨٦ - ١٨٨ .

(٤) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ١٠ ص ١٥٨ ، ١٧٢ ، ١٧٣ .



جامع السلطان حسن بالقاهرة

ولم يكن السلطان الناصر حسن (١٣٤٧ - ١٣٥١) الذي ولي السلطنة بعد ذلك أفضل حالا من إخوته ، إذ تولى السلطنة وهو في الحادية عشرة من عمره ، فظل العوبة في يد كبار الأمراء الذين رتبوا المصروف اليومي للسلطان بحيث لا يتعداه ، ولم يسمع بمثل ذلك أن يكون ملك يجلس على تخت الملك ، ويصرف الأمور بالعزل والولاية ، وتحمل إليه أموال مصر والقمام ولا يتصرف منها في شيء^(١) ، وعندما حدث خلاف بين السلطان الناصر حسن والأمراء ، لم يصعب على الأمراء إلقاء القبض على السلطان وحبسه ، وتعيين أخيه الصالح صلاح الدين بدله سلطاناً (١٣٥١ - ١٣٥٤) . وقد وصف المؤرخ أبو المحاسن السلطان الصالح بأنه « لم يكن له في سلطنته إلا مجرد الاسم فقط ، لثقلته (الأمراء) شيوخون وطاوع وصرقة مش على الأمر ، لأنهم كانوا هم حل المملكة وعقدها وإلهم أمورهم لا غيرهم »^(٢) . وسرعان ما انتهى أمر السلطان الصالح إلى العزل والحبس بالقلعة ، وعندئذ أعاد الأمراء الناصر حسن إلى السلطنة^(٣) .

وقد قضى السلطان الناصر حسن في سلطنته الثانية أكثر من ست سنوات (١٣٥٤ - ١٣٦٠) باشر فيها شئون الحكم بنفسه لأنه كان قد بلغ من الرشد . وقد أجمع المؤرخون على وصف السلطان الناصر حسن بالشجاعة والكرم والعقل فـ « سكان د محباً للرعية ، وفيه لين جانب ، حدث سائر خصاله » . كما اهتم بالعمارة وأنشأ كثير من المباني الفاخرة . ومع ذلك فإن الناصر حسن لم يكن بمنجاة من تدخل كبار الأمراء في شؤونه وبطشهم به ، حتى انتهى الأمر بأن قبض عليه الأمير يلبغا . وقد اختلفت الأقوال فيما حدث للناصر حسن بعد ذلك ، وإن كان الغالب أن عماليك يلبغا « قتلوه من غير مشاورة بعضهم لبعض »^(٤) .

(١) المقرئى : السلوك ج ٢ ص ٧٥١ .

(٢) أبو المحاسن : النجوم ج ١٠ ص ٢٨٧ .

(٣) ابن دباس : بدائع الزهور ج ١ ص ١٩٤ .

(٤) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ١٠ ص ٣١٤ .

وبمقتل الناصر حسن انتهى عصر أولاد السلطان الناصر محمد بن قلاوون، وانتقل الحكم إلى أحفاد الناصر محمد منذ سنة ١٣٦١ .

الوباء الأسود :

ومن هذه الصورة القائمة التي يرسمها التاريخ لعصر أباد الناصر محمد، يتضح لنا أن البلاد غدت نهياً لمجموعة من أمراء المماليك، يتلاعبون بالسلطانين الأحداث حسبما يحلو لهم. أما طامة الأهلالي في مصر فكانوا يقفون غالباً موقف المتفرج، ليكون لمقتل سلطان ليعقيموا الأفراح والزينات للسلطان الجديد. وهكذا عاش طامة أهل مصر والشام من الفلاحين والتجار وغيرهم في تلك الفترة بين تيارات داخلية متصارعة ومؤامرات بين الأمراء متعاقبة. وليس هناك ما يستحق الإشارة في تلك الفترة بالنسبة لأحوال البلاد الداخلية سوى انتشار الوباء الأسود في أنحاء الدولة سنة ١٣٤٩م (٧٤٩هـ).

والمعروف أن العالم - مشرقه ومغربيه - شهد في العصور الوسطى كثيرًا من الأزمات الاقتصادية التي جاءت مصحوبة بانتشار الأوبئة نتيجة لعبور الإنسان عن التحكم في قوى الطبيعة من ناحية ولا انتشار الجمل وضئف وسائل العناية الصحية من ناحية أخرى. على أن وباء من الأوبئة لم يستأثر باهتمام المؤرخين مثلما استأثر الوباء الأسود، نظراً لقسوته وخطورته وتأثيره واسع الانتشار في بلاد الشرق والغرب جميعاً^(١). ويصف المؤرخ المقرئزي كيفية انتشار هذا الوباء فيقول ما نصه « ولم يكن هذا الوباء كما عهد في إقليم دون إقليم، بل عم أقاليم الأرض شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً، جميع أجناس بني آدم وغيرهم حتى حيتان

(١) من الوباء الأسود وأثره في أوروبا، انظر للدؤلف:

أوروبا العصور الوسطى ج ١ ص ٦٠٩.

البحر وطير السماء ووحش البر؛ ثم يشرح بعد ذلك كيف أصيبت بلاد المغول بالوباء الأسود حتى دامت خيولهم وصاروا كلهم جيفاً مرمية، ثم أخذ الوباء يزحف شرقاً عن طريق بلاد المغول وغرباً عن طريق القسطنطينية، حتى وصل إلى الشام ومنها إلى مصر. أما أعراض ذلك الوباء، فكانت ظهور خراج صغير خلف أذن الإنسان وتحت إبطه، ولا يلبث بعد ذلك أن يصبغ المصاب دماً ثم يموت بعد عدة ساعات.

وقد انتشر ذلك الوباء في مصر والشام انتشاراً فتاكاً فصار الناس يموتون كل يوم بالآلاف، وغدت الأرض لا يوجد من يزورها دوزهد أبواب الأموال في أموالهم وبذلوا للفقراء، وكان انتشار هذا الوباء في سلطنة الناصر حسن الأولى، فبادر السلطان والأمراء إلى النجاة بأنفسهم وخرجوا جهة سرىاقوس ولا تحفى علينا الآثار الخطيرة التي ترتبت على انتشار ذلك الوباء، إذ أفقرت الأرض لعدم وجود من يفلحها، وأفقرت الأسواق من البائعين والمشترين وانحلت إقطاعات كثيرة لوفاة أصحابها وتوقفت الأحوال بالقاهرة ومصر... وأبطل كثير من الناس صناعاتهم وانتدبوا للقراءة أمام الجنائز... وبطلت الأفراس والأعراس من بين الناس. وفي ذلك قال بعض الشعراء (١):

فهذا يوصى بأولاده	وهذا يودع إخوانه
وهذا يبني أشغاله	وهذا يجهن أكفانه
وهذا يصالح أعداءه	وهذا يلاطف جيرانه

وخلاصة القول أن انتشار الوباء الأسود في عصر أبناء السلطان الناصر محمد جاء ليزيد أحوال البلاد سوءاً فوق سوء.

عصر أمجاد الناصر محمد (١٣٦١ - ١٣٨٢) :

لم يكد الأمير بلبنغا يعزل السلطان الناصر حسن ابن الناصر محمد ويقتله حتى اختار صلاح الدين محمد ابن المظفر حاجي ابن الناصر محمد سلطاناً سنة ١٣٦١ . وبذلك بدأ عصر أحفاد الناصر محمد ، وهم أربعة تعاقبوا في منصب السلطنة بين سنتي ١٣٦١ ، ١٣٨٢ . ولم يختلف عصر أحفاد الناصر عن عصر أولاده في صفاته العامة التي يمكن تلخيصها فيما يلي :-

١ - عصر من السلاطين الذين تعاقبوا على دامت السلطنة ، وهي الحقيقة التي تتضح إذا عرفنا أن السلطان المنصور صلاح الدين محمد (١٣٦١ - ١٣٦٣) تولى السلطنة وسنه ١٤ سنة ، والسلطان الأشرف زين الدين أبوالمعالى شعبان (١٣٦٣ - ١٣٧٦) تولى السلطنة وسنه عشر سنوات والسلطان المنصور علاء الدين علي (١٣٧٦ - ١٣٨١) تولى السلطنة وسنه ست سنوات والسلطان الصالح زين الدين أمير حاج (١٣٨١ - ١٣٨٢) تولى السلطنة وسنه إحدى عشر سنة .

٢ - كانت النتيجة الطبيعية لصغر سن السلاطين هي ازدياد نفوذ كبار الأمراء واشتداد سطوتهم ، وتحكمهم في مصالح البلاد والعباد ، وتلاعبهم بالسلاطين الصغار - إما بال عزل أو بالتميين - وفق أهوائهم .

٣ - اشتد الصراع بين كبار الأمراء بعضهم وبعض وازداد التنافر والعداء بين طوائف المماليك الذين انقسموا شيعاً وأحزاباً يتقاتلون في شوارع القاهرة بين حين وآخر ، مما أغرق البلاد في حالة شديدة من الفوضى .

٤ - ازداد نفوذ طائفة المماليك الهرجية ، أو الجراكسة ازدياداً مضطرباً وهو الأمر الذي سنتعرض له بالتفصيل فيما بعد . وتكفي الإشارة الآن إلى أن طائفة الهرجية هي التي استطاعت أن تكسب الجولة النهائية في الصراع الذي

احتدم بين طوائف المماليك ، حتى تم لها انتزاع السلطنة سنة ١٣٨٢ وتأسيس دولة المماليك البرجية أو الجراكسة ؛ وبذلك انتهت دولة المماليك البحرية وانتهت أسرة قلاون .

- اشتد الانحلال الخلقي في ذلك العصر - عصر أحفاد الناصر محمد - بشكل واضح ؛ وكان السلاطين وكبار الأمراء هم مصدر البلاد فاشتهر سلاطين ذلك العصر بالإدمان في شرب الخمر ، حتى قيل عن السلطان المنصور صلاح الدين محمد (١٣٦١ - ١٣٦٣) إنه كان لا يفيق من السكر ساعة وعنده جوقة مغنيات نحو عشرة من الجواري يدقون بالطارات عند الصباح والمساء ، كما أنه كان يفسق في حريم الناس ويخل بالصلوات .. (١) .

مقدمة بطرسى لونه زمانه على الإسكندرية سنة ١٣٦٥ :

وإذا كانت البلاد قد ابتليت في عصر أولاد الناصر محمد بانتشار الوباء الأسود - كما سبق أن أشرنا ، فإن عصر أحفاد الناصر محمد ابتليت فيه مصر بحملة صليبية كبرى خربت الإسكندرية سنة ١٣٦٥ ، وتعتبر هذه الحملة من الحلقات الأخيرة في سلسلة الحروب الصليبية .

والواقع إن الحروب الصليبية - كما سبق أن أشرنا - لم تنته بطرد الصليبيين نهائياً من الشام سنة ١٢٩١ ؛ وإنما استمرت في تلك الحروب أمدا طويلا في القرنين الرابع عشر والخامس عشر . وفي ذلك الدور الختامى من أدوار الحروب الصليبية ، استمرت دولة المماليك تنهض بدورها كاملا في تلقى ضربات الصليبية من ناحية وفي الدفاع عن الوطن الإسلامي في الشرق الأدنى ضد هجمات الصليبيين من ناحية ثانية ، ثم في التآمر من المعتدين وتأديبهم من ناحية ثالثة .

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ١١ ص ٧٠

وكان لطرد الصليبيين كلية من الشام رد فعل عنيف في الغرب الأوربي ،
فنادى المتحمسون للحروب الصليبية — وعلى رأسهم البابوية — بأن دولة
المماليك هي السبب وأنه لا سبيل لاستعادة بلاد الشام إلا بإضعاف دولة المماليك
أولاً . ولما كان معروفاً أن دولة المماليك تستمد ثروتها وقوتها من احتكار
التجارة بين الشرق والغرب فقد نادى أصحاب المشاريع الصليبية في القرنين
الرابع عشر والخامس عشر بضرورة فرض حصار اقتصادي شديد على شواطئ
مصر والشام لمنع التجار الأوربيين من الوصول بسفنهم إليها والمتاجرة مع
دولة المماليك ، فتصاب تجارة المماليك بالكساد والبوار ، وبالتالي يفقدون
الأساس الأول لثروتهم وقوتهم (٢) .

وقد أصدرت البابوية عدة مراسيم تحرم على التجار الأوربيين الذهاب
بسفنهم إلى شواطئ دولة المماليك والمتاجرة مع المسلمين . ولكن كثيراً من
التجار الإيطاليين بصفة خاصة رفضوا تنفيذ الأوامر البابوية حرصاً على
مصالحهم الاقتصادية ، ومن ثم لم يعد هناك مفر أمام البابوية من إنشاء قوة
بوليسية بحرية في شرق البحر المتوسط لتصيد ذلك الغريم من التجار الأوربيين
الذين استمروا ينفذون دولة المماليك بأموالهم ، ضاربين عرض الحائط
بنداءات البابوية وأوامرها (٣) .

ولم يكن هناك في شرق حوض البحر المتوسط أفضل من جزيرة قبرص
يتخذها الغرب الأوربي مركز المراقبة الشواطئ الإسلامية في مصر والشام من
جهة ، ولضرب المسلمين وشن إغارات على مواضعهم من جهة أخرى . والمعروف
أن جزيرة قبرص دخلت دائرة الحروب الصليبية في أواخر القرن الثاني عشر

(١) سعيد عاشور . الحركة الصليبية ج ٢ ص ٩١٩٩ - ١٢٠٨ .

(2) Heyd : Hist du Commerce, II, p. 580 & I p. 26 .

عندما استولى عليها ريتشارد قلب الأسد في الحملة الصليبية الثالثة . ومنذ ذلك الوقت وجزيرة قبرس — تحت حكم ملوكها الصليبيين من آل لوزجنان — تقوم بدور بارز في النشاط الصليبي في شرق حوض البحر المتوسط ، وهو الدور الذي ازداد قوة وبروزا عقب طرد الصليبيين من الشام في أواخر القرن الثالث عشر ، إذ غدت قبرس منذئذ أكبر قاعدة صليبية في شرق البحر المتوسط (١).

ذلك أن ملوك قبرس من آل لوزجنان لم يكتفوا بتقديم المشاريع الصليبية التي استهدفت خنق دولة المماليك، ولم يقنعوا بجعل جزيرتهم مركزاً لتهديد التجارة المماليكية عن طريق إيواء القراصنة الذين دأبوا على مهاجمة السفن والموانئ الإسلامية من ناحية ، وفرض رقابة على السفن الأوروبية لمنعها من الوصول من موانئ مهسر والشام من ناحية أخرى .. لم يكتف ملوك قبرس من آل لوزجنان بكل ذلك ، وإنما شرعوا يهاجمون بأنفسهم المسلمين حيثما وجدوهم في آسيا الصغرى والشام ومهسر ، وبذلك بدأوا صفحة جديدة في تاريخ الحروب الصليبية أو آخر العصور الوسطى (٢) .

ومن أبرز الهجمات الصليبية التي شنّها ملوك قبرس على بلاد الإسلام في القرن الرابع عشر، تلك الحملة الجريئة التي قام بها بطرس الأول لوزجنان ضد مدينة الإسكندرية سنة ١٣٦٥ . وقد مهد الملك بطرس لخطته برحلة واسعة زار فيها كثيراً من بلدان الغرب الأوربي فضلا عن البابوية ، وحصل على مساعدات وإمدادات بشرية وحرارية وعادية كبيرة وأخير اجتمعت تلك الجهود في جزيرة رودس تمهيدا لاختيار أصلح نقطة في دولة المماليك يمكن أن يوجه إليها الصليبيون ضرباتهم . وكان أن أشار أحد الصليبيين على ملك قبرس بأن تتجه الحملة ضد

(١) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ١٢٠٥ .

(٢) سعيد عاشور : قبرس والحروب الصليبية ص ٤٦ .

الإسكندرية على أيهاهما الصليبيون يوم الجمعة والمسلمون في المساجد^(١) .

وكان أن وصلت السفن الصليبية إلى الإسكندرية بقيادة بطرس لورجنان ملك قبرس في أكتوبر سنة ١٣٦٥ ؛ في وقت كانت دولة المماليك تعاني خلافا واضحا واضطرابا كبيرا نتيجة لقيام سلطان قاصر — هو السلطان الأشرف شعبان حفيد الناصر محمد بن قلاوون — ووصى جائر متفطر من عسوف هو الأمير يلبغا الخاصكي^(٢) . هذا في حين كان نائب الإسكندرية ، وهو الأمير خليل صلاح الدين بن عرام ، متغيبا في أداء فريضة الحج . وفي مثل تلك الظروف لم يصعب على الصليبيين إزال قوائهم إلى القسطنطينية ، فاحتلوا الإسكندرية يوم الجمعة ١٠ أكتوبر وانسابت قواتهم في شوارع المدينة بحر قون المساجد ويضربون الخانات ويدمرون المنازل ويعتدون على كل من صادفهم من النساء والأطفال والشيوخ ، وينهبون كل ما وصلت إليه أيديهم من بضائع وأموال^(٣) .

وهكذا قضى الصليبيون في الإسكندرية نحو من ثلاثة أيام كانت من أسود الأيام في تاريخ الثغر ، ولم يغادروها إلى سفنهم إلا بعد أن أحسوا بقرب جيوش المماليك التي أسرع من القاهرة لإنقاذ الإسكندرية . ويقال إن السفن الصليبية حملت معها عند خيلها خمسة آلاف أسير منهم المسلم والمسلمة واليهودى واليهودية والنصراني والنصرانية ...^(٤) . هذا فضلا عن المنهوبات والبضائع المسروقة ، حتى ضاقت السفن بما فيها وثقلت بما عليها فاضطر الصليبيون إلى إلقاء بعض حمولتها في البحر لتخفف من كثرة الوسق^(٥) .

(١) Machaut : La Prise de l' Alexandrie P. 91.

(٢) سعيد عاشور : قبرس والحروب الصليبية ص ٦٢ .

(٣) الزيرى السكندري : الإمام بالأعلام ج ١ ص ٢٢٦ — ٢٣٥ (مخطوط) ٩

ابن حبيب : درة الأسلاك في دولة الأتراك ج ٣ ورقة ١٣ وما بعدها .

(٤) المقرئى : السالك ج ٤ ورقة ٤٧ (مخطوط) .

(٥) الزيرى : الإمام ج ١ ص ٢٣٣ (مخطوط) .

وأخيراً وصل يلبغا الحاصبي إلى الإسكندرية في جنح كنيف د كالجراد المنتشر ، بعد أن أخلاها الصليبيون ، فشهد ما حل بها من دمار وخراب . ورأى جيش القتل وقد انتفخت وجافت ، فأمر بدفن من استشهد من المسلمين وترميم ما حارب وأحرق (١) . وقد عاب المؤرخون المسلمون المعاصرون على ملك قبرس سرعة جلالاته وعدم ثباته ودفاعه فوصفوه بأنه دخلها لها وخرج منها لصاً ، (٢) .

ثم إن بطرس لوزجنان لم يكتف بما فعله بالإسكندرية وإنما أثار على طرابلس بالشام سنة ١٣٦٧ ، وإن كانت تلك الإغارة قد منبت بالفصل (٣) . وهكذا تذكر عدوان الصليبيين على موانئ مصر والشام وسفن المسلمين في البحر المتوسط ، مما يدل على ضعف هيبة دولة المماليك في عصر أحفاد الناصر محمد بن قلاوون ، وعدم وجود قوة كبرى في ذلك الوقت تزود عن البلاد وتبارك لأمجاد .

(١) سعيد عاشور : قبرس والحروب الصليبية ص ٦٩ .

(٢) النويري : الإسلام ج ١ ورقة ٥١٦ (مخطوط) .

(٣) المقرئزي : السلوك ج ٤ ورقة ٦٠ (مخطوط) .

الفصل السادس

دولة المماليك الجراكسة

أصل المماليك البرجية ونسبهم :

إذا أردنا أن نختار صفة بارزة شاملة لعصر سلاطين المماليك، فلن نجد أبرز من صفة العصبية . فعصر المماليك كان عصر عصبية، تقاسمت النفوذ والسلطان فيه عصبية شتى، لكل سلطان عصبية من المماليك السلطانية واسكل أمير عصبية من المماليك الذين ارتبطوا به ودانوا له بالفضل واعتبروه أستاذهم وولي نعمتهم . وبقدر ما تقوى عصبية السلطان ويزداد عدد مماليكه بقدر ما يستطيع الهمود في وجه منافسات الأمرأه ومؤامراتهم وكذلك بقدر ما تقوى عصبية الأمير بقدر ما يتمكن من مقابلة زملائه وأقرانه من الأمرأه ، بل من مقابلة السلطان نفسه وانتزاع دامت السلطنة منه ، كما حدث في كثير من الحالات .

لذلك لا عجب إذا كثرت أسماء طوائف المماليك وعصبياتهم، فنسمع هن الصالحية والظاهرية والمنصورية والأشرفية . ثم تعدد الأسماء في كتب التاريخ بتكرار ألقاب السلاطين فنسمع عن الأشرفية خليل والأشرفية برسباى . وهكذا . وإذا كان السلطان شديد البأس كثير المماليك ، فإنه يستطيع أن يكتم أنفاس طوائف المماليك الأخرى المنسوبة إلى السلاطين السابقين أو الأمرأه القائمين، أما إذا كان السلطان ضعيفاً قليل الخيلة ، فعنى ذلك احتدام المنافسات بين طوائف المماليك بعضهم وبعض من ناحية ، أو بين بعضهم والمماليك السلطانية من ناحية أخرى ، وبذلك تستمر البلاد خارقة في حالة من الفوضى حتى يقضى الله أمراً كان مفعولاً . ولعل هذا هو السر في أن كل سلطان بعيد النظر، وكل

أمير حريص على تحقيق مطامعه كان يدأب دائماً على الإكثار من شراء الممالك الصغار وتربيتهم والحنو عليهم ليصيروا في المستقبل عدته وأمله في البقاء والوصول .

ومن أولئك السلاطين الذين قدروا تلك الناحية وحسبوا لها حساباً ، السلطان المنصور قلاوون ، الذي سبق أن تكلمنا بالتفصيل عن قوة شخصيته وطموحه قبل أن يلي السلطنة وبعد أن ولها ، كما شرحنا أعماله الحربية الضخمة ضد التتار والصليبيين وفي النوبة . ويهمننا الآن أن نشير إلى أن السلطان المنصور قلاوون أراد أن يكون طائفة جديدة من الممالك ، تختصه بولائها وترتبط به دون غيره من الأمراء المنافسين ، وتختلف في أصفها عن الطوائف المائيسكية الأخرى القائمة . وكان أن اختار قلاوون أن ينشأ فرقته الجديدة من عنصر الجركس - الذين كانوا ينتشرون شمالي بحرقزوین وشرقي البحر الأسود - حتى لا تربطهم روابط القربى والعصبية بغيرهم من طوائف الممالك السابقة ، والذين كان معظمهم من الخوارزمية والأتراك (١) .

ولاندري بالضبط الدوافع التي دفعت السلطان المنصور قلاوون إلى اختيار ممالك فرقته الجديدة من الجركس بالذات ؛ فهل يرجع ذلك إلى توافرهم في أسواق الرقيق بعد أن شردهم المغول من بلادهم ، أم أن السبب هو ما اشتهروا به من شجاعة وقوة جعلت السلطان قلاوون يتوسم فيهم الأداة الصالحة لتحقيق أغراضه ؟ وسواء كان السبب الذي دفع قلاوون إلى اختيار ممالك الجدد من عنصر الجركس هو هذا أو ذلك من الأسباب ، فإن ثمة حقيقة هامة يجب ألا نستهين بها من اعتبارنا هي أن الرقيق الجركس كانوا عندئذ - بسبب كثرتهم وتحكم قانون العرض والطلب - أرخص سعراً من عناصر الرقيق الأبيض الأخرى ،

(١) الذويرى : نهاية الأرب ج ١ ورقة ٢٤٧ .

حتى قرر بعض الباحثين أن متوسط ثمن الرأس من الجراكسة بلغ وقتذاك ١١٥ ديناراً في حين أن متوسط ثمن الرأس من عنصر الترك بلغ ١٣٥ ديناراً (١).

ومهما يكن من أمر، فإن السلطان المنصور قلاوون بدأ في تنفيذ مشروعه حوالى سنة ١٢٨١، فأخذ يشتري أعداداً كبيرة من الجركس ليسكنوا مثل الحصون المأمنة لى ولأولادى وللمسلمين (٢)، وأسكنهم بجواره فى أبراج القلعة، ومن ثم أخصف بهذه الطائفة فى التاريخ تسمية المماليك البرجية (٣). ولم يلبث أن أكثرفلاوون من شراء الجراكسة حتى بلغوا فى أواخر عهده أكثر من ثلاثة آلاف مملوك (٤)، حرص على الفصل بينهم وبين غيرهم من طوائف المماليك الأتراك، وأشرف بنفسه على تدريبهم على استخدام الرماح ورعى اللباس، كما حباهم بمطقة ولم يعن عليهم بالمال الوفير والاهتمام الشئى والملبس الجميل، فضلاً عن أنه - هو وأبنائه من بعده - اختصهم بالترقية إلى بعض الوظائف الكبرى فى البلاط (٥).

وإذا كان السلطان المنصور قلاوون قد أعلنها فى صراحة أنه كون فرقة المماليك البرجية لتكون حصناً مانعاً له ولأولاده، فإنه كان طبيعياً أن يتم أولاد السلطان المنصور بتملك الطائفة التى أنشأها أبوهم لتكون حصناً لهم، وساعد على ذلك أن المنصور قلاوون لم ينبج فقط فى تأسيس فرقة جديدة من المماليك، وإنما نجح أيضاً فى تأسيس بيت مستمر يتوارث السلطنة نحو قرن من الزمان، وهو أمر فريد فى تاريخ المماليك، ولو كان الملك انقرض فى ذرية المنصور قلاوون لضعف

(١) Heyd : Hist. du Commerce, 2, p. 569.

(٢) المقرئى : المواقظ والاعتبار ج ٢ ص ٢١٢.

(٣) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٧٥٦.

(٤) المقرئى : المواقظ والاعتبار، ج ٢ ص ٢١٤.

(٥) ابن لياس : بدائع الزهور ج ١ ص ١٢٠.

المقرئى : المواقظ والاعتبار ج ٢ ص ٢١٤.

شأن المماليك البرجية ، ولسمعنا في التاريخ أن الأمير الذي اعتلى دست السلطنة بعد المنصور قلاوون أهمل طائفة البرجية وكون لنفسه فرقة جديدة ولكن الذي حدث هو أن المنصور قلاوون توفي ليخلفه ابنه الأشرف خليل فآتم بناء القوة التي أقامها أبوه المنصور — قوة المماليك البرجية — حتى أنه اشترى في حكمه القصير (١٢٨٩ — ١٢٩٣) ما يقرب من ألفي مملوك جرعى . وهكذا أضفى المماليك البرجية أو الجراكسة على درجة من وفرة العدد وحسن التدريب وشدة التماسك ، مما جعلهم يشقون طريقهم في غير صعوبة كبيرة نحو السلطان .

ظهور المماليك البرجية على مسرح الحوادث :

والواقع أنه كان من المتعذر الاحتفاظ بالمماليك البرجية — بعد أن تكاثرت أعدادهم — بعيدين عن الحياة العامة . ونسمع أن السلطان خليل بن قلاوون سمح لهم — لأول مرة — بمخادرة أبراجهم وطباقتهم بالقاعة والنزول إلى القاهرة ومصر بشرط أن يتم ذلك أثناء النهار وأن يعودوا قبل الليل ليبيتوا في القلعة (١) وقد ترتبت على ذلك تهييجتان هامتان : الأولى انغماس المماليك البرجية في الحياة العامة ومشاكلها بعد أن خرجوا من عزلتهم واختلطوا بغيرهم من طوائف المماليك فضلا عن عامة الناس . والثانية أن المماليك البرجية أو الجراكسة لم يلبثوا أن استثاروا حقد بقية طوائف المماليك الأتراك ، بسبب ما عدا فيه المماليك البرجية من نعمة وما حظوا به عند السلطان قلاوون وابنه خليل من مكانة .

وكيفما كان الأمر ، فإن هذين العاملين ترتب عليهما دخول المماليك البرجية دائرة الصراع والمنازعات التي كانت لا تهدأ لها فائز في ذلك العصر . وأول ما نسمعه من المماليك البرجية في ذلك الشأن ، غضبهم لمقتل أستاذهم وابن أستاذهم

الأشرف خليل، فثاروا بالقلعة عندما سمعوا الخبر ولم تهدأ تأثرتهم إلا عندما انتقموا لمقتل خليل بقتل بيدرا وغيره من زعماء المؤامرة؛ ثم بإعلان الناصر محمد بن قلاوون سلطانا سنة ١٢٩٣ رغم صغر سنه (١).

ولم يكن في استطاعة الناصر محمد في سلطنته الأولى أن يصمد في وجه كبار الأمراء، فغدت البلاد مسرحا لنزاع عميق بين الأميرين كتبغا وسنجر الشجاعى، وهو نزاع هدفه الحقيقي رغبة كل أمير في الاستئثار بالسلطنة وعزل الناصر محمد. وفي ذلك النزاع ظهرت الطائفية المالكية على أشدها، فاستعان كتبغا بالماليك الأتراك واستعان سنجر الشجاعى بالماليك البرجية أو الجراكسة، الذين أطلق عليهم أحيانا في بعض المراجع اسم الأشرفية نسبة إلى الأشرف خليل (٢).

وقد سبق أن ذكرنا كيف حاصر كتبغا القلعة وقطع عنها الماء، وعندئذ نزل البرجية من القلعة وأزلقوا الهزيمة بالأمير كتبغا وأعوانه من الأتراك الذين فروا من وجوههم؛ وبذلك حقق البرجية نصرا جديدا أضفى عليهم أهمية خاصة ومهد لازدياد تدخلهم في مشاكل السياسة الداخلية في ذلك العصر (٣).

على أن أمراء البرجية لم يلبثوا أن اكتشفوا نوايا سنجر الشجاعى، وأنه لا يعمل من أجل ابن أستاذهم وإنما يعمل من أجل نفسه، فانفضوا عنه، الأمر الذى أدى إلى رجوعان كفة كتبغا مرة أخرى ومقتل الأمير سنجر الشجاعى. ويبدو أن كتبغا أحس عندئذ بخطور البرجية بعد أن أخذ درساً على أيديهم، فعمل على تشييت شملهم وتفريق صفوفهم، وأنزل جماعات منهم من أبراج القلعة ووزعهم

(١) أبو المحاسن : التيجون الزاهرة ، ج ٨ ص ١٩ - ٢٠ .

(٢) الكتبى : عيون التواريخ ج ٥ ورقة ٩٩ - ١٠١ .

(٣) ابن القرات : تاريخ الدول والملوك ج ٨ ص ١٨١ .

المقريزى : السلوك ج ١ ص ٨٠٠ .

في نواحي متباعدة من القاهرة ، ولم يترك في القلعة إلا نحواً من أربعة آلاف منهم فرض عليهم رقابة شديدة^(١) . ولعل هذه الإجراءات التي اتخذها كتبغا ضد البرجية كان لها أثرها في إثارة أمراء البرجية ضد كتبغا والمماليك الترك جميعاً .

وهكذا تكررت ثورات المماليك البرجية المشردين في القاهرة ، واتخذت هذه الثورات صورة عدائية صريحة ضد الترك وكتبغا . ومن الواضح أن المعركة بالنسبة للبرجية كانت من أجل البقاء . إذ أرادوا في إنزالهم من القلعة وتفريقهم بين أنحاء القاهرة تفتيتاً لعصبيتهم وإضعافاً لقوتهم . وعشياً حاول البرجية أن يتمسحوا بالسلطان الناصر محمد بن قلاوون ، إذ كان الناصر محمد في سلطنته الأولى طفلاً صغيراً لم يتجاوز العاشرة من عمره ، وكان كتبغا - كما سبق أن فصلنا - هو كل شيء في الدولة . ولم يلبث أن اغتصب كتبغا السلطنة لنفسه (١٢٩٤-١٢٩٦) ثم أعقبه السلطان لاجين (١٢٩٦ - ١٢٩٨) ، وفي عهد هذين السلطانين المقتصبين اشتد الصراع بين البرجية من ناحية والترك من ناحية أخرى . ويبدو أن كلا من كتبغا ولاجين اعتمد على المماليك الأتراك في مقاومة نفوذ البرجية ولذلك دأب هؤلاء الآخرون على مقاومة الترك في شخص كتبغا ولاجين^(٢) .

وأخيراً استطاع الأمير سيف الدين كرجي أن يدبر مؤامرة لقتل السلطان لاجين ، ونجحت المؤامرة سنة ١٢٩٨^(٣) . ويبدو أن البرجية كانوا لا يزالوا عندئذ على ولائهم الشديد لبيت قلاوون ، أو ربما أحس البرجية عندئذ أن الأمور لم تنتهياً بعد لاستئثارهم بالحكم ، فاختروا أن يعيدوا ابن أستاذهم السلطان الناصر إلى السلطنة وتم ذلك سنة ١٢٩٨ - ١٢٩٩ . وعندها عارض بعض أمراء البرجية - مثل

(١) ابن لمياس : بدائع الزهور ج ١ ص ١٣٢ .

(٢) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٨٠٥ ، ٨٢٢ .

(٣) ابن لمياس : بدائع الزهور ج ١ ص ١٣٧ - ١٣٨ .

(١٠ - العصر المماليكي)

كرجى وطنجى - إعادة الناصر محمد ، عارضهما جبهة البرجية وعلى رأسهم
بيبرس الجاشنكير الذى أخذ نفوذه يزداد بين صفوف البرجية من ناحية ،
وفى سلطنة الناصر محمد الثانية من ناحية أخرى (١) .

وهنا نلاحظ أن ثمة عوامل عديدة ساعدت على ازدياد نفوذ المماليك البرجية
فى تلك الفترة . فبالإضافة إلى الدور النشط الذى قاموا به فى السياسة الداخلية
وظهورهم أمام الناس فى صورة حماة عرش بيت قلاوون والناصر محمد بوجه خاص
فى وقت اشتد تعلق الشعب بحكم الناصر محمد ، كما سبق أن رأينا ، فإن البرجية
أظهروا شجاعة كبيرة فى ذلك الدور فى دفع خطر التتار عن بلاد الشام الأمر
الذى جعل المؤرخ أبى الحسان يهيدى يبطولتهم فى واقعة شقشب - قرب دمشق -
سنة ١٣٠٢ ، فيقول د وصرخ (سلار) فى بيبرس الجاشنكير وفى البرجية فأثوه
دفعة واحدة . . وأبلى سلار فى ذلك اليوم هو وبيبرس الجاشنكير بلاداً حسناً
وسلموا أنفسهم للموت . . وكانت سلار والجاشنكير فى ذلك اليوم اليد البيضاء
على المسلمين (٢) ، فإذا أضفنا إلى ذلك أن كثيراً من المماليك الجرا كسة كانوا قد
أصبحوا أمراء فى ذلك الوقت - أى فى أوائل القرن الرابع عشر - أدركنا
فى النهاية سر مآصار لهم من نفوذ ، ذلك أن أية فرقة من فرق المماليك كانت تتألف
فى أول أمرها من رقيق أجلاب صغار ، يتعهدهم أستاذهم - سلطاناً كان أو أميراً -
بالرعاية والعناية كما تتعهد الدجاجة أفراسها الصغار ، وفى ذلك الدور الأول من
تكوين الطائفة أو الفرقة المماليكية لا تكون لهم قوة أو عصبية وإنما يعتمدون بحكم
طبيعة دور القشاة الذين يمرون به على أستاذهم فى حمايتهم ، وهكذا حتى يترعرعون
ويتحرر الكبار منهم تدريجياً ليؤمروا أنى يصبحوا أمراء ، وعندئذ تصبح

(١) المقريزى : السلوك ؛ ج ١ ص ٨٩٦

(٢) أبو الحسان : النجوم الزاهرة ج ٨ ص ٧٦٠ - ١٦١ .

لهم قيادة ذاتية تنبغ من صفوفهم وتوجههم لتحقيق مصالحهم الخاصة وكانت طائفة البرجية أو الجراكسة عندما أسسها السلطان المنصور قلاوون ، تتألف من عماليك صفار لاحول لهم ولا قوة ، ولحسن مع مضي السنين والأيام تما هؤلاء الصفار وصار منهم الأمراء الكبار . وهكذا نسمع أن السلطان الناصر محمد عين في سلطنته الثانية أحد أمراء البرجية - وهو الأمير عز الدين أبيك المنصوري - في الوزارة (١) . أما المقرئى ، فيقول في حوادث سنة ٦٩٨ هـ - أى في سلطنة الناصر محمد الثانية - ما نصه : وقويت شوكة البرجية بدار مصر ، وصارت لهم الحمايات الكبيرة ، وتردد الناس إليهم في الأشغال ؛ وقام بأمرهم الأمير بيبرس الجاشنكير وأمر منهم عدة... وصار في قبائله الأمير سيف الدين سارل ومعه الصالحية والمنصورية (من الترك) ؛ إلا أن البرجية أكثر وأقوى... ووقع الحسد بين الطائفتين وصار بيبرس إذا أمر أحداً من البرجية وقفت أصحاب سارل وطلبت منه أن يؤمر منهم واحداً... (٢) .

على أن طبيعة البشر كثيراً ما تجمل أخلاقه ومبادئه تتغير بازدياد نصيبه من الدنيا . وهكذا كان البرجية قد أحسوا في دورهم الأول بأنهم أتباع بيت قلاوون وأن واجبههم الأول هو حماية مصالح ذلك البيت ، إلا أن هذه النظرة المثالية أخذت تتبدل عندما أحس البرجية بأنهم هم الذين يحمون عرش بيت قلاوون وليس عرش بيت قلاوون هو الذي يحميهم . وبعبارة أخرى فإن أمراء البرجية أخذوا يعملون لحسابهم الخاص وبفسكرون في مصالحهم قبل مصالح السلطان الناصر محمد بن قلاوون . وما دامت السلطنة غدت ضعيفة ومطمعا لكثير من أمراء الترك ، فلماذا لا يشارك البرجية في تلك المطامع بعد أن غدا منهم الأمراء الكبار وبعد أن أحس الناس جميعاً بشجاعتهم وبسالتهم .

(١) أبو الحسن: النجوم الزاهرة ج ٨ ص ١٤٠ .

(٢) المقرئى : السلوك ، ج ١ ص ٨٧٥ - ٨٧٦ .

أما السلطان فقد أحس في سلطنته الثانية بتضييق زعماء الترك والجزراكسة عليه . فأراد سنة ١٣٠٧ أن يعتمد على محبة الشعب له ويتخلص من سلاز زعيم الترك ويبرس الجاشنكير زعيم البرجية جميعاً . وربما دفع هذا الخطر المشترك الأميرين سلاز ويبرس الجاشنكير إلى العمل معاً مما جعل مؤامرة الناصر محمد تنتهي بالفشل (١) . وعندما ينس الناصر محمد من التخلص من سيطرة الأميرين سلاز (ويبرس) الجاشنكير وتضييقهما عليه لجأ إلى التنازل عن السلطنة ، وآثر البقاء في الكرك ، كما سبق أن شرحنا .

وكان أن أدى تنازل الناصر محمد عن السلطنة سنة ١٣٠٨ إلى فتح الباب على مصراعيه أمام البرجية ، فاعتلى كبيرهم يبرس الجاشنكير دست السلطنة في تلك السنة ، وبذلك كان أول واحد من البرجية يلبى هذا المنصب . على أن وصول أحد أمراء البرجية إلى العرش ، أثار أحقاد الترك الذين توجسوا خيفة من بطش الجزراكسة ، فرفض كثير من نواب وأمراء الشام الاعتراف بالسلطان الجديد ، حتى قال بعضهم : إن هؤلاء الجزراكسة متى تمكنوا منا أهل كونا وراحت أرواحنا معهم ، فقوموا بنا نعمل شيئاً قبل أن يعملوا بنا . (٢) . لذلك لم يوفق يبرس الجاشنكير في سلطنته فنتيجة لمعارضة الترك له من ناحية وتآمر الناصر محمد ضده في الكرك من ناحية ثانية ، ثم كراهية الناس ليبرس الجاشنكير لاسيما وأن سنة اعتلائه دست السلطنة جاءت مصحوبة بانتشار الوباء وغلاء الأسعار وفشاير الناس بسلطنة المظفر يبرس ، (٣) . وهكذا لم تطل سلطنة يبرس الجاشنكير وتم للناصر محمد استرداد عرشه للمرة الثالثة سنة ١٣٠٩ ، كما سبق أن فصلنا .

(١) المغربي : السلوك ج ٢ ص ٣٥ — ٣٦ .

(٢) أبو الحسن : المنهل الصافي ج ١ ورقة ٣٥٩ (مخطوط) .

(٣) أبو الحسن : النجوم الزاهرة ج ٨ ص ٢٤٣ .

وقد اعتلى الناصر محمد العرش في تلك المرة بعد أن بلغ من العمر مائة سنة من الوقوف على قدميه في وجه كبار الأمراء الترك والجزراكسة جميعاً ، فقبض على بيرس الجاشنكير وقتله ، واتبع سياسته صارمة تجاه الجزراكسة جعلته يحرص على تقليد أظافرهم وعدم الإكثار منهم بالشراء . ولم تنجح مؤامرة الجزراكسة للتخلص من الناصر محمد سنة ١٤٠٩ هـ ، إذ قضى السلطان على المؤامرة قبل أن تولد ونكل برعايتها من البرجية تنكيلاً شديداً . ومن ذلك ما روي المقرئ في حوادث سنة ٧١٥ هـ من أن السلطان الناصر محمد دارت جمع ما كانت البرجية قد اشترته من أراضي الجزيرة وغيرها ، (١) . أما العيني فيحكى أن السلطان الناصر محمد لجأ سنة ٧٢٢ هـ (١٣٢١ م) إلى تغريق من خشى خطره من البرجية في النيل (٢) .

انهيار نفوذ الجزراكسة:

ولكن إذا كان السلطان الناصر محمد قد استطاع في سلطنته الثالثة أن يقبض بيد من حديد على شئون الحكم وأن يقلم أظفار الجزراكسة ويقف بالمرصاد لمطامعهم ، فإن خلفاء الناصر محمد - من أولاد وأحفاد - لم تكن لهم تلك القوة والعزيمة وقد رأينا أن معظم من ولي السلطنة من أبناء الناصر محمد وأحفاده كانوا أحداثاً وأطفالاً ، الأمر الذي جعلهم أداة سهلة في أيدي كبار الأمراء ، يلهمونهم وفقما شاءوا ويعزلونهم بنفس السهولة التي كانوا يولونهم بها . وهكذا أتاحت الفرصة للبرجية من جديد ، فظهروا على مسرح الحوادث . وفي تلك المرة تمكثوا وازداد تعصبهم لجنسهم الجزركسي ، بعد أن تعرضوا لأخطار المقاومة والكبت والتعريد في عهد الناصر محمد .

(١) المقرئ : السلوك ، ج ٢ ص ١٥٦ .

(٢) العيني : عقد الجلال ج ٢٢ ورقة ٣٤٠ (مخطوط) .

وكان أن رفع الجراكسة رؤوسهم في عهد السلطان شعبان بن الناصر محمد فناروا سنة ١٣٤٥ بزعماء الأمير غرلو الجركسي شاد الدواوين ، في عزل السلطان شعبان وتولية أخيه المظفر حاجي سنة ١٣٤٦^(١) . وقد أدى نجاح تلك الثورة إلى ازدياد نفوذ الجراكسة في الدولة ، الأمر الذي أثار حقد الترك ، فأوقعوا بهم عند السلطان وقتلوا الأمير غرلو الجركسي ليحلوا محله الأمير أرقطاي التركي في نيابة السلطنة^(٢) . ولم يلبث أن أدى ذلك الانقلاب إلى زيادة نفوذ المماليك الترك . فحاول السلطان المظفر حاجي أن يستعين بالجراكسة مرة أخرى للحد من سطوة المماليك الترك ، ولكن محاولته جاءت بعد فوات الأوان إذ قبض عليه الترك وقتلوه سنة ١٣٤٧ وولوا بدله أخاه السلطان الناصر حسن .

وهكذا ساءت أحوال المماليك الجراكسة في تلك الفترة نتيجة لرجوع كفة الترك وسيطرتهم على شئون الدولة ، بحيث لم يبق هناك أمل أمام الجراكسة إلا في اختلاف أمراء الترك على أنفسهم . ومن أبرز أمراء المماليك الترك في ذلك الدور الأمير يلبغا الخاضعي ، الذي زاد عدد مماليكه عن أربعة آلاف حتى غدا على جانب من القوة مكنته من قتل السلطان الناصر حسن سنة ١٣٦١ وتعيين ابن أخيه المنصور محمد سلطانا ، مما أدى إلى انتقال السلطنة من أولاد الناصر محمد إلى أحفاده^(٣) . غير أن السلطان المنصور محمد لم يستمر طويلا في الحكم ، إذ عزله يلبغا لسوء خلقه - كما سبق أن شرحنا - وعين بدله الأشرف شعبان سنة ١٣٦٣ ، وسنه عندئذ عشر سنوات .

(١) المقرئى : المواظ والاعتبار ج ٢ ص ٢٤٠ .

(٢) أبو المعاسن : النجوم الزاهرة ج ١ ص ٣٦٥ .

(٣) ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٤ ص ٢٧٨ .

وهكذا صار يلبغا هو الحاكم الفعلي لدولة المماليك وييده الأمر والنهي ، في الوقت الذي ازداد عدد مماليكه وسيطره وأعلى عدد كبير من الوظائف العسكرية . ولم يلبس طموح المماليك اليلبغاوية أن أدى إلى انقسامهم على أنفسهم ، مما أتاح فرصة للسلطان شعبان للتخلص من امتداد يلبغا الذي انتهى الأمر بقتله سنة ١٣٦٧ (١) . وقد أعقب مقتل يلبغا تشققت المماليك اليلبغاوية في أنحاء الدولة والتنكيل بهم . وهنا نلاحظ أن المماليك اليلبغاوية لم يكونوا من جنس واحد ، ولم يكونوا جميعا أتراك ، وإنما كان منهم الجر كسي ؛ لأن يلبغا عندما أخذ يدعم قوته ويتوسع في شراء المماليك لم يراع الجانب العنصري ، فجاء في صفوف مماليكه الترك والجر كس وغير ذلك من الجنسيات . وقد استاء المماليك اليلبغاوية مما حل بهم من تشريد بعد مقتل أستاذهم يلبغا الخاصكي ، وازداد هذا الاستياء بصفة خاصة بين صفوف الجر كس من اليلبغاوية ، وهم الذين أصبح غضبهم مزدوجا لما حل بهم من اضطهاد بـ صفوفهم جـرا كسة أولا و يلبغاوية ثانيا .

وكيفما كان الأمر ؛ فإن المماليك اليلبغاوية لم يلبثوا أن عبروا عن سخطهم بتدبير مؤامرة لقتل السلطان الأشرف شعبان سنة ١٣٧٦ (٢) . ومن وراء هذه المؤامرة كان الأمير برقوق ، أحد كبار الأمراء اليلبغاوية ، وأصله من الجر كس .

برقوق ونائبس دولة المماليك الجراكسة :

تزعم الأمير برقوق المؤامرة التي عصفت بالسلطان الأشرف شعبان ، ومن ثم يرجع إليه الفضل في إمداد اليلبغاوية بفرصة جديدة للسيطرة على مقاليد الحكم في دولة المماليك . هذا إلى أن برقوق لم يمدد لليلبغاوية نخسب ، بل مهد أيضا

(١) أبو المحاسن : ج ١١ ص ٣٩ - ٤٠ .

(٢) البيني : عقد الجانج ٢٤ ورقة ٩٢٠٦ .

أبو المحاسن : الهجوم الزاهرة ج ١١ ص ٧٦ .

لوصول الجركس إلى منصب السلطنة ، لأن برقوق نفسه كان جركسيا ، وهو أول من اعتلى دست السلطنة من الجراكسة . الأمر الذي جعله المؤسس الحقيقي لدولة المماليك الجراكسة في التاريخ .

وتروى المراجع أن برقوق جركسى الجانس وأنه أحضر إلى مصر صحبة بعض تجار الرقيق ، فاشتراه الأمير يلغا الخاصى حوالى سنة ١٢٦٣ ، وأعتقه وجعله من جملة المماليك^(١) . ثم يروى أبو المحاسن أن برقوق استمر في خدمة يلغا حتى ثار بعض المماليك اليلغاوية على أستاذهم ، وعندئذ لا يدرى أبو المحاسن هل كان برقوق من هو مع أستاذه يلغا أم كان عليه ؟ . ومهما يكن من أمر فإن برقوق تعرض بعد مقتل يلغا لما تعرض له جبهة المماليك اليلغاوية من اضطهاد وحبس بالسكر سنة ١٣٦٨ . وعند الإفراج عن برقوق سنة ١٣٧١ لم يسمح له بالعودة إلى مصر إلا سنة ١٣٧٣ ؛ وعندئذ أخذ يتحين الفرص لتحقيق أطماعه العريضة^(٢) . وعلى الرغم من أن برقوق كان عندئذ أمير عشرة فحسب — أى أمير صغيرا — ؛ فإنه أسهم بسهم وافر في المؤامرة التي انتهت بقتل الأشرف شعبان وإعلان المنصور على سلطانا سنة ١٣٧٦^(٣) .

وقد أدرك برقوق أن انتصار اليلغاوية ونجاحهم في التخلص من السلطان الأشرف والمماليك سيؤدي إلى صدام بين الأمراء اليلغاوية بعضهم وبعض ، لاسيما وأن السلطان المنصور على كان في السادسة من عمره ، مما أغرى كبار الأمراء اليلغاوية على التنافس حول الاستئثار بالسلطة . وهناك سم برقوق لنفسه خطة ماكرة ، فانتقل إلى خدمة الأمير أيوبك اليدري ، حتى يبدو بعيداً عن حلقة الصراع ؛ وفي الوقت نفسه عول على ضرب كبار الأمراء بعضهم ببعض حتى

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ١١ ص ٢٢٣ .

(٢) المقرئى : المواعظ والاعتبار ج ٢ ص ٢٤١ .

(٣) العيني : عقد الجمان ج ٢٤ ورقة ٢٠٦ وما بعدها (مخطوط) .

يصفوه له الجو وكان أخطر منافس للأمير أيوبك البدرى هو الأمير قرطاي الطازى ، فاصطدم الأميران وتمكن أيوبك من القبض على قرطاي ونفيه إلى غزه سنة ١٣٧٧^(١) . وظن أيوبك بعد تلك الخطوة أن الأمور غدت مهيأة له للوصول إلى دست السلطنة ، فأخذ يرقى مالهكة وأنباعه ليخلق عصبية قوية ، ومن هؤلاء كان الأمير برقوق الذى رقى « دفعة واحدة » من أمير عشرة إلى أمير طبلخاناه^(٢) .

غير أن مطامع الأمير أيوبك البدرى فى اغتصاب السلطنة أثار مخاوف الأمراء اليلبغاوية فى الشام ، فأعلنوا الثورة على أيوبك سنة ١٣٧٧ برحمة الأمير طشتمر الدوادار نائب دمشق وعندما سمع أيوبك نبأ تلك الثورة استشار الأمير برقوق فيما يجب عمله ، فأشار عليه برقوق بالخروج فوراً على رأس حملة إلى الشام لاختاد الفتنة . ومن الواضح أن برقوق وجد فى تلك الحملة فرصة نادرة للتخلص من أيوبك ، فرسم خطوط المؤامرة مع بعض الأمراء الذين قرروا أيوبك استصحابهم معه فى حملته على الشام ، ومنهم يلغيا الناصرى وبركة الجوبانى^(٣) . وكان أن خرجت الحملة إلى الشام وصحبها السلطان المنصور على الصغير ، وعندئذ بدأت أولى حلقات المؤامرة فنار الجند على أيوبك سنة ١٣٧٧ ولجأ أيوبك إلى الفرار فى حين عاد الأمراء والسلطان الصغير بالعسكر إلى القاهرة ليترقى برقوق ويصبح أمير مائة مقدم ألف ، وهى أسى درجات الإمارة فى نظام المماليك^(٤) .

ومرة أخرى وجد برقوق نفسه أمام منافسين جدد ، هما يلغيا الناصرى وبركة الجوبانى ؛ فلجأ برقوق إلى التظاهر ليستمعين به فى تحقيق مآربه ثم

(١) المقرئى : السلوك ج ٣ ورقة ٣٠٧ (مخطوط)

(٢) أبو الحسن : النجوم الزاهرة ، ج ١١ ص ٢٢٣ .

(٣) المقرئى : السلوك ج ٣ ورقة ٣٠٩ — ٣١٢

(٤) أبو الحسن : النجوم ج ١١ ص ٢٢٣ .

يتخلص منه في نهاية الأمر وعند ما تخوف بعض الأمراء الترك من نوايا برقوق
رأشقهقوا على مصير يبيت فلاون ونادوا بتولية السلطنة أحد الراشدين من ذلك
البيت ، تمايل برقوق لإحباط تلك الدعوة بتولية الأمير طشتمر الدوادار أتا بكية
مصر (١) . ومن يدري ، فربما كان في حضور الأمير طشتمر إلى مصر فرصة
طيبة للتخلص منه ، فضلاً عما في اختيار طشتمر لذلك المنصب الكبير في القاهرة
من إرضاء للترك ، غير أن بركة وبرقوق لم يتركا طشتمر يحقق ما كان يطمح
فيه الأتراك من سطوة ونفوذ ، وإنما ضيقا عليه الخناق حتى وقع صدام بين
الطرفين سنة ١٣٧٧ انتهى بالقبض على طشتمر وحبس به بالإسكندرية ونفي عدد
كبير من أتباعه (٢) .

وبهذا كذا خطا بركة في خطوة جديدة نحو الإمام فتولى منصب أتابك العساكر
في مصر وأصبح زهيلة بركة رأس نوبة كبيراً أتابكاً (٣) . أما يلغا الناصري
فقد قبض عليه حينما أُرسل إلى نيابة طنابلس . ويصور أبو المحاسن الموقف
في ذلك الدور فيقول ما نصه : « والمعول على الاثنين : برقوق وبركة ، حتى
طمعت الناس بقو لهم : برقوق وبركة نصبا على الدنيا شيكاً » (٤) .

غير أن برقوق تعرض لثورة كادت تفسد عليه خط سيره ، إذ ثار أحد
الأمراء الجراكسة . هو إينال اليوسفي - سنة ١٣٧٩ ضد برقوق وبركة
جميعاً . ونهض إينال أن كان يضمركرهاً شديداً لبركة ، وحاول بشتى
الطرق أن يؤلب برقوق ضد بركة ، ولكن برقوق كان شديد الحرص على

(١) الدقاوي : الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع ج ٣ ص ١١ .

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ١١ ص ١٦٢ - ١٦٣ .

(٣) الأتابك هو أبو الأمراء ، وهو لقب شرفي .

القلعة شندی : صبح الأعشى ج ٤ ص ١٨ .

(٤) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ١١ ص ١٦٣ .

ألا يتعجل الأمور، فرفض الاستماع لتأليب إيتال وأخيراً أحرق إيتال على بركة
وبرقوق جميعاً فانهز فرصة غيابهما عن القاهرة، وهاجم بيت برقوق ونهب
ما فيه كما خدع صغار ممالك برقوق بأن مناهم بالأمانى المعسولة ليعاونوه في
خطته^(١). ولكن برقوق عاد مسرعاً وتمكن من إخماد الثورة، ويقال إن ممالك
برقوق ما كادوا يرونه حتى سرت مما ابتغى نفوسهم : نشر والله طائعين، وتحولوا
ضد إيتال الذى ولي الألبان. ولكن برقوق استطاع القبض على إيتال وسجنه^(٢).

وكان لابد أن تصل العلاقة بين برقوق وبركة إلى درجة تجعل الأول
يفكر فى التخلص من الثانى . وقد فكر برقوق فى استئثار رأى العام ضد
بركة ، فخرضه على انتزاع بعض أراضى الأوقاف وتوزيعها على أتباعه، الأمر
الذى أثار شيخ الإسلام سراج الدين البلقين وجماعة العلماء والمسلمين^(٣).
وفى الوقت الذى تار رأى العام ضد بركة ، أخذ برقوق يتقرب إلى الناس عن
طريق الإفراج عن بعض العامة الذين كان بركة قد حبسهم^(٤). وكان برقوق
يعرف جيداً أن استبعاد بركة يعنى ثورة الترك الذين يتعصبون لأعيانهم، ولذلك
استعد برقوق للهزيمة القادمة بتقوية جانب الجراكسة وتوحيد صفوفهم وهكذا
صار العسكر فرقتين فرقة جراكسة وهم أصحاب الأمير الكبير برقوق ، وفرقة
ترك وهم أصحاب الأمير بركة ، على قول المقرئى^(٥). ولم يكن هناك مناصاً
من الصدام بين هاتين الفرقتين . فوقع الصدام سنة ١٨٢٠ وانتهى بالقبض
على بركة وحبسها بالإسكندرية ومصادرة أمواله ، حتى قتل بعد قليل^(٦).

(١) ابن لباس : بدائع الزهور ج ١ ص ٢٤٢ — ٢٤٣ .

(٢) ابن خلدون : العبر ، ج ٥ ص ٤٦٨ .

(٣) المقرئى : السلوك ج ٣ ورقة ٢٣٦ (مخطوط) .

(٤) ابن حجر : أنباء العمر ج ١ ص ١٠٩ — ١٢٦ .

(٥) المقرئى : السلوك ، ج ٣ ص ٦١٠ — ٦١١ .

(٦) ابن حجر : أنباء العمر ج ١ ص ١٤٣ .

ابن لباس بدائع الزهور ج ١ ص ٢٥٢ — ٢٥٣ .

ولم تمض على التخلص من بركة بضعة أشهر حتى توفي السلطان المنصور على سنة ١٣٨١ ، ولكن برقوق رأى أن يترث قليلا ، فأقام في السلطنة أخاه السلطان الصالح أمير حاج وكان في الحادية عشرة من عمره^(١) . ويبدو أن برقوق رأى أنه ليس من الحكمة أن يتعجل إعلان نفسه سلطانا قبل أن يكسر شوكة المماليك الترك الذين عز عليهم ما حل بزعمهم بركة . لذلك ظل برقوق على حاله قبل مسك بركة وقتله وإليه حل المملكة وعقدتها ، ولم يجسر على السلطنة^(٢) . وفي الوقت نفسه أخذ برقوق يطارد الترك ويشردهم ، فأنقرضت دولة الأتراك بأسرها وتبعوا بالآخذ فقتلوا ونفوا وسجنوا^(٣) .

وهل يبي أن السلطان الصالح أمير حاج كان لا يستطيع وحده تدبير أمور الدولة وهو طفل صغير في الحادية عشرة من عمره ، لذلك جاء كتاب ولايته السلطنة مقرراً بشرط اشتراك الأمير برقوق معه في تدبير أمور الدولة ومعنى ذلك أن برقوق لم يعد مجرد أمير كبير أو موظف من كبار موظفي الدولة لحسب ، بل كانت له صفة عليا سامية في الوصاية على السلطان وتوجيهه وتوجيه أداة الحكم نيابة عنه . وكان أن استغل برقوق هذه الصفة وتلك السلطات الواسعة التي غدت في يده ليكن لنفسه ويملا الوظائف الكبرى بأقباؤه ومماليكه ، وهذا إلى أنه أخذ يتهجب إلى عامة الناس ويتقرب إلى قلوبهم عن طريق إلغاء بعض المكوس وتحسين النقد ، الأمر الذي أبعث الحالة الاقتصادية ، وجعل الناس يلجئون بشكره^(٤) . أما في الخارج فقد حدثت سنة ١٣٨١ أن أغار التركان على حلب

(١) ابن خلدون : المعبر ج ٥ ص ٤٧٣ — ٤٧٤ .

(٢) أبو الحسن : النجوم الزاهرة ج ١١ ص ١٨٨ .

(٣) المقرئى : السلوك ج ٣ ورقة ٦١٣ .

(٤) المينى : عقد الجمان ج ٢٤ ورقة ٢٦٨ .

المقرئى : المواعظ والاعتبار ج ١ ص ١٥٦ .

أبو الحسن : النجوم ج ١١ ص ٢١٠ — ٢١١ .

ولسكن برقوق استطاع صددهم وطردهم، الأمر الذى أظهره فى صورة الرجل القادر على الدفاع عن الدولة وحمايتها وتوفير الأمن لأهلها^(١).

وفى تلك الأثناء كان المماليك الترك يرقبون ازدياد نفوذ برقوق بعين القلق، ويعلمون أنهم إن يبق لهم ظل من النفوذ والسلطان إذا نجح برقوق فى اغتصاب السلطنة. وكان أن دبر الترك مؤامرة لاغتيال برقوق، وكانت المؤامرة برعاية أيتمش الخاصكى وبطا الأشرفى. ولكن عين برقوق اليقظة اكتشفت خيوط المؤامرة قبل حبكها، فبادر برقوق بالقبض على زعماء المؤامرة ونفيهم وجاء فشل هذه المؤامرة إعلاناً لزوال سلطان العنصر التركى وإيداناً بقيام دولة المماليك الجراكسة^(٢).

وكان برقوق يدرك جيداً مدى ما بين أمراء المماليك من منافسات وأحقاد فاحتاط على نفسه، وبالغ فى التخوف، الأمر الذى دفع بعض المقرئين إليه إلى أن يقدموا له النصيح « بأن يتسلطن ويستجيب عن الناس ويستريح ويريح من هذا الذى هو فيه من الاحتراز من قيامه وعوده »^(٣). ولكن برقوق ظل متخوفاً من الإقدام على تلك الخطوة لأنه خشى وقوف كبار الأمراء فى وجهه ونشأف عاقبة ذلك. وأعتذر بأنه يهاب قدماء الأمراء بالديار المصرية والبلاد الشامية. وعندما لمس كبار الأمراء من أعوانه تخوفه، رأوا أن يبدأوا هم الخطوات السكينة بإجلاسهم على العرش، وساعد الحظ برقوقاً بوفاة اثنين من كبار الأمراء الذين كان يخشى سطوتهم ويحترم سمو مكانتهم وهما الأمير آقتمش عبد الغنى والأمير أيدمر الشمسى. وعندما سمع برقوق بوفاة هذين الأميرين « طابت نفسه، واستجاب لمؤيديه، وإن ظل « يقدم رجلاً ويؤخر أخرى »^(٤).

(١) المقرئى : السلوك ج ٣ ورقة ٤٠٤ (مخطوط).

(٢) ابن المياسة بدائع الزهور ج ١ ص ٢٥٧.

(٣) أبو الحسن : النجوم الزاهرة ج ١١ ص ٢١٤.

(٤) المرجع السابق ص ٢١٥.

وأخيراً صعد إثنان من أعوان برقوق وأخذوا السلطان الصالح أمير حاج من قاعة الملك وحملوه إلى أهله بالدور السلطانية بعد أن جرداه من شارات السلطنة . وفي الحال استمضى الخليفة العباسي المتوكل على الله وشيخ الإسلام سراج الدين عمر البلقيني وغيرهما من العلماء والأمراء والقضاة فبايعوا برقوق الذي تلقب بالسلطان الظاهر (١) .

وباعتلاء برقوق منصب السلطنة سنة ١٣٨٢ انتهى ملك بيت قلاون ، كما انتهت دولة المماليك الترك ، وبدأت دولة المماليك الجراكمة التي استمرت في الحكم حتى الفتح العثماني سنة ١٥١٧ ، وقبل أن نتكلم عن سلطنة برقوق وغيره من مشاهير السلاطين في تلك الدولة الجديدة ، يصح أن نعرض بإيجاز لخصائصها العامة في التاريخ .

خصائص دولة المماليك الجراكمة :

استازت دولة المماليك الثانية أو الجراكمة بأن سلاطينها جميعاً كانوا من أصل جركسي ، ما عدا إثنين هما خشمقدم وتمرغا كانا من أصل يوناني

هذا إلى أن مبدأ الحكم الوراثي الذي حاول بعض سلاطين دولة المماليك الأولى تطبيقه في عناد وإصرار ، والذي ظهر بوضوح في بيت قلاون ، هذا المبدأ لا نجد له أثر في دولة المماليك الجراكمة . والواقع إن سلاطين دولة المماليك الثانية كانوا رعايا أو أمراء كبار أكثر منهم سلاطين . وكان نجاح السلطان في الحكم يتوقف على مدى توفيقه في توجيه كبار الأمراء ، وضرب طوائف المماليك بعضها ببعض . فإذا استمتع السلطان الاحتفاظ بمنصبه حتى الوفاة ، فإن ابنه كان يخلقه عادة ، ولكن لعدة أشهر فقط . ذلك أن اختيار ابن السلطان

(١) الميني : عقد الجان ج ٢٤ ورقة ٢٧٩ (مخطوط) .

الراحت لم يتم بناء على إيمان الأمراء بمبدأ الوراثة، وإنما كحل مؤقت حتى ينتج الموقف بين كبار الأمراء ويظهر من بينهم أمير قوى يستأثر بالعرش لنفسه.

وكان عمر دولة المماليك الجرا كسة مائة وأربع وثلاثين عاماً، تعاقب فيها على دست السلطنة خمسة وعشرين سلطاناً. ومن هؤلاء السلاطين تسعة حكموا مائة وثلاث سنوات؛ في حين حكم الستة عشر سلطاناً الباقون نحواً من تسع سنوات فقط. أما هؤلاء السلاطين التسعة الذين يرتبط بهم تاريخ دولة المماليك الجرا كسة فهم: برقوق وفرج وشيخ وبرسباى وجقمق وإبنال وخشقدم وقايتباى وقانصوه الغورى. ولا ترجع أهمية أولئك السلاطين إلى قوة بأسهم أو شجاعتهم بقدر ما ترجع إلى ذكائهم ومقدرتهم في الوصول إلى أهدافهم عن طريق ضرب خصومهم وطوائف المماليك بعضها ببعض (١).

وعرف كثير من سلاطين دولة المماليك الجرا كسة بحبهم للأدب والعلم - مثل برقوق وشيخ وجقمق وقايتباى وانغريز - كما بالغ بعضهم في العناية بإنشاء المؤسسات الخيرية من مساجد ومدارس ومستشفيات وسبل وغيرها. وربما كان الهدف من المبالغة في إنشاء هذه المؤسسات والإففاق عايجها هو محاولة بعض السلاطين - مثل برقوق وقايتباى - التكفير عن ذنوبهم ومحو أثر ما قاموا به من أعمال وحشية ضد خصومهم ومنافسيهم.

ولاشك في أن البلاد قاست كثيراً في عصر دولة المماليك الجرا كسة من جراء المنازعات المستمرة بين طوائف المماليك وفرقهم، وما كان ينتج عن تلك المنازعات من حوادث وقاتل في الشوارع، مما أوجد جواً من الرعب والفزع وعدم الاستقرار في البلاد. وزاد من البلاء أن السلاطين عجزوا في ذلك العصر عن كبح جماح ممالئهم، مما جعلهم لا يجدون وسيلة للاحتفاظ بمراكزهم

(1) Lane Poole : A Hist. of Egypt, pp, 325—326

سوى ضرب طوائف المماليك بعضها ببعض ، مثلما فعل السلطان خشقدم من ضرب الظاهرية بالأشرفية وضرب الناصرية بالمؤيدية ، وبذلك يخلو الجو للسلطان ومماليكه فيتحكمون في البلاد والعباد .

على أننا نلاحظ مع كل ذلك ، وعلى الرغم من كثرة الاضطرابات والفتن والثورات ، أن سلاطين دولة المماليك الجراكسة عملوا دائماً على حصر تلك المنازعات في دائرة داخلية بحتة ، بحيث لم يمكنوا قوة خارجية من التدخل في شؤون البلاد أو الانتقاص من سيادة الدولة . وهكذا استمرت دولة المماليك حتى نهاية القرن الخامس عشر محتفظة بمهبتها ومكانتها في المحيط الدولي ، بل لقد تمكن المماليك في ذلك العصر من إزال ضرب قاصمة بقمورلنك في وقت اهتزت جميع الأطراف الغربية من القارة الآسيوية من هول ضرباته . ولا أقل من أن نتناول أعمال أهم السلاطين الجراكسة بدراسة سريعة ، لنقف على حقيقة الخصائص التي انصفت بها دولة المماليك في ذلك العصر .

السلطان الظاهر برقوق : (١٢٨٢ - ١٢٩٩)

كان برقوق أول سلاطين دولة المماليك الجراكسة . وكان منتظرا منه أن يبدأ حكمه باضطهاد المماليك الترك ، ولكنه أظهر حكمة كبيرة فحرص على استرضاء الترك في أول حكمه واختار الأمير سودون الفخري - وهو من الترك - نائبا للسلطنة في مصر كما عفا عن يلبغا الناصري وأقره في نيابة حلب (١) .

على أن برقوق لم يستمر طويلا في تلك السياسة ، وإنما أخذ تدريجيا - بعد أن استتب له الأمور - يختص الجراكسة بالإقطاعات والوظائف الكبيرة على حساب المماليك الترك ، وبخاصة الأشرفية بماليك السلطان شعبان . وقد أدت

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ١١ ص ٢٣١ .

هذه السياسة إلى نشوب كثير من الثورات التي انصف بها عهد برقوق ، منها ثورة ألتنبغا السلطاني نائب أبليستين سنة ١٣٨٢ ، وهو أمير تركي قاله لأكون في دولة حاكمها جركسي ، مما يشهد على مدى العداوة بين الترك والجزراكسة في ذلك الدور (١) . ولكن تلك الثورة باءت بالفشل وفرار ألتنبغا إلى بلاد التتار لعدم حصوله على ما كان يطمع فيه من تأييد نواب الشام .

ولم يكذب برقوق يستريح من ثورة ألتنبغا حتى فوجيء بأن الخليفة العباسي المتوكل على الله يطمع في السلطنة ، وأن أمراء الترك في القاهرة دبروا مؤامرة لقتل برقوق وإعلان المتوكل سلطاناً . وقد اكتشف برقوق المؤامرة قبل الشروع في تنفيذها فعزل الخليفة المتوكل وأحل محله الخليفة الواثق بالله ، وبدأ منذ ذلك الوقت يتخذ سياسة عنيفة ضد الترك ، الأمر الذي جعل الأشرافية ويليغاوية يتعاونون جميعاً لمواجهة ذلك التهديد . وقد ظهر هذا التحالف بين صفوف الترك — من أشرافية ويليغاوية — في صورة ثورة كبرى اندلعت نارها سنة ١٣٨٨ وترعدها منطاش نائب ملطية — وهو زعيم الأشرافية — ، ويليغا الناصري نائب حلب ، وهو زعيم يليغاوية (٢) .

وكان أن ساء موقف برقوق عندما سمع بخروج مدن الشام عن طاعته وأن جيوش الثوار تفتقل من نصر إلى آخر في طريقها إلى مصر ، بعد أن حلت الهزيمة بجيوش السلطان في دمشق ، سنة ١٣٨٩ ، وفي تلك الأزيمة أخذ برقوق يتخبط في تصرفاته ، فهو تارة يحاول كسب الرأي العام في مصر بإلغاء بعض المكوس وإعادة الخليفة المتوكل إلى منصبه ، وتارة أخرى يطلب من الناس أن يحصنوا

(١) أبو الحسن : النجوم ج ١٩ ص ٢٢٩ .

(٢) ابن حجر : إنباء القصر ج ٢ ص ٢٠٠ .

(٣) المقرئ : السلوك ، ج ٢ ورقة ٤٨٩ وما بعدها (مخطوط) .

(١٩) — العصر المماليكي

الدروب وأن يساعده في مقاومة العدو الباغي، (١).

غير أن جميع هذه الإجراءات لم تفاجح في دعم مركز برقوقي، بل لقد أخذ الأمراء والمماليك يتسربون من القاهرة لينضموا إلى جيش يلبغا الناصري. وكان ذلك في الوقت الذي انتشر الطاعون في القاهرة، مما جعل البلاد تفرق في الفوضى. وأخيراً لم يجد برقوقي مخرجاً أمامه فأنفجر باكياً وسط جنوده، وأمرع بالاختفاء في منزل خياط، في الوقت الذي دخلت جنود يلبغا الناصري القاهرة وسيطرت على القلعة (٢).

وكان منتظراً - حسب العادة عند المماليك - أن يعلن يلبغا نفسه سلطاناً، بوصفه صاحب الدور الكبير في عزل برقوقي، ولكنه خشي معارضة المماليك الأشرفية التي ترك له بوصفه زعيم الطائفة اليلبغوية، فرشح الملك الصالح أمير حاجي ابن الأشرف شعبان، وتلقب السلطان الجديد بالمنصور بعد أن كان في سلطنته الأولى يلقب بالناصر (٣).

أما برقوقي فقد ألقى القبض عليه، وعندئذ خشي يلبغا انتقام المماليك الجراكية إذا هو مس به بسوء، فاكتمل بشقيه إلى الكرك سنة ١٣٨٩. ولم تلبث الأيام التالية أن أظهرت للناس فساد حكم يلبغا الناصري، في الوقت الذي بدأ الشقاق بين يلبغا وحليفه منطاش (٤). وفي الصراع الذي دار بين يلبغا ومنطاش حانت الفرصة لبرقوقي، فبايعه أهل الكرك بالسلطنة سنة ١٣٨٩، والتفت حوله الجراكية من الشام ومصر فكانون منهم جيشاً زحف به إلى دمشق (٥).

(١) أبو الحسن: النجوم الزاهرة ج ١١ ص ٢٦٩ - ٢٨٠.

ابن دقاق: الجواهر الثمين، ج ٢ ورقة ١٨٣.

(٢) ابن لباس: بدائع الزهور ج ١ ص ٣٧٣ - ٢٧٤.

(٣) أبو الحسن: مورد الطائفة ص ٩٦.

(٤) ابن خلدون: المعبر، ج ٥ ص ٤٨٧ - ٤٨٨.

(٥) ابن لباس: بدائع الزهور ج ١ ص ٢٨١.

أما منطاش الذى آلت إليه السلطة فى مصر عندئذ بعد انتصاره على يلبغا الناصرى ، فقد وجد نفسه أمام خطر جسيم ؛ فأخذ يتحارب على جمع المال بمختلف الطرق ليعيد جيشاً يحارب به برقوق فى الشام (١) . وفى الموقعة التى دارت بين الطرفين عند دمشق سنة ١٣٩٠ ، لم ينفع منطاش وجود الخليفة والسلطان حاجى معه ، إذ وقع السلطان والخليفة فى قبضة برقوق ، مما صار له أبعد الأثر فى نفوس رجال منطاش فخلصهم الحزيمة . وكان أن تنازل السلطان حاجى لبرقوق عن السلطنة ، فى حين احتفى منطاش بدمشق ؛ فترك برقوق بلاد الشام وهاد إلى القاهرة بعد أن بايعه الخليفة بالسلطنة (٢) . وكان أن استقبل برقوق فى القاهرة أجمل استقبال ، ووجدت البيعة له فى القلعة ، فى حين انزوى المنصور حاجى حتى دس له السم بهن جواريه فمات مسموماً .

وقد امتدت سلطنة برقوق الثانية من سنة ١٣٩٠ حتى سنة ١٣٩٩ ؛ وامتازت بمجهود برقوق فى تثبيت حكمه عن طريق القضاء على معظم المالك الترك واتخلص من خصومه وعلى رأسهم يلبغا الناصرى ومنطاش . وفعلا قبض برقوق على يلبغا الناصرى وقتله سنة ١٣٩١ ، فى حين قتل منطاش فى حلب سنة ١٣٩٣ وحملت رأسه إلى القاهرة حيث طيف بها فى شوارعها ثم علقت على باب زويلة (٣) . هذا فى الوقت الذى استمر برقوق يتخلص من أمراء الترك واحد بعد آخر بعزلهم عما كانوا يلونه من وظائف ومصادرة إقطاعاتهم وتوزيع تلك الوظائف والإقطاعات على ممالكهم الجراكسة (٤) .

(١) المقرئى : السلك ج ٣ ورقة ٧٣ هـ (مخطوط) .

(٢) أبو الهاسن : النجوم ج ١١ ص ٣٦٩ .

(٣) ابن حجر : الدهر السكينة ج ٤ ص ٣٦٦ .

(٤) أبو الهاسن : النجوم الزاهرة ج ١٢ ص ٣٦ - ٣٩ .

على أن المتاعب الداخلية التي صادفها برقوق في سلطنته الثانية لم تكن كلها من جانب الترك وأسياسهم ، وإنما قار العربان في مصر والشام ثورة خطيرة سنة ١٣٩٤ . وأرسل زعيم العربان في مصر - وهو الشريف العنابي - إلى موسى بن محمد بن عيسى شيخ العربان في إقليم السكرك يطلب منه معاونته في الحصول على الخلافة والسلطنة جميعاً ؛ على أن يتم تنفيذ تلك الخطة عند خروج برقوق من مصر لمقاتلة تيمورلنك . ولكن السلطان برقوق كشف المؤامرة ، فألقى القبض على الشريف العنابي وموسى بن محمد ، وحبسهما حتى ماتا في السجن ، كما أخضع عرب هواردة في الصعيد^(١)

تيمورلنك ودولة المماليك :

وإذا كان السلطان برقوق قد نجح في القضاء على الأخطار الداخلية التي هددت حكمه من جانب الترك والعربان ، وبذلك دانت لسلطانه مصر والشام ، فإن ثمة خطر خارجي كبير هدد دولة المماليك في ذلك الدور - هو خطر تيمورلنك . هذا وإن كان الصدام بين المماليك وتيمورلنك قد تأخر إلى ما بعد عهد برقوق . .

وكان تيمورلنك يلتزم إلى بيت من أشرف التتار ، ولد في مدينة سمرقند وتلقى نجمه فيها واتخذها قاعدة لأعماله التوسعية التي مكنته من الاستيلاء على بلاد ماوراءالنهر وخراسان وطبرستان حتى استولى على مدينة تبريز سنة ١٣٨٦ كما خرب الرها في العام التالي^(٢) . ولم يلبث حكام ماردين وبغداد وغيرهما أن كتبوا إلى السلطان برقوق يستنجدون به ضد ذلك الخطر التتري الجديد ، ولكن

(١) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ج ٩ ص ٣٧٦ - ٣٧٧

المقريزي : السلوك . حوادث سنة ٨٠١ هـ (مخطوط) .

(٢) ابن عرشاه : عجائب المقدور ص ٤٩

تيمورلنك كان أسرع في العمل فاستولى على بغداد سنة ١٣٩٣ وخرّبها وقتل كثيراً من أهلها (١).

وبوصول تيمورلنك إلى تلك المرحلة صار الصدام بينه وبين دولة المماليك أمراً قريب الحدوث . وكان أن أرسل تيمورلنك رسالة إلى السلطان برقوق تحوى كثيراً من التهديد والترغيب؛ ولكن برقوق قتل رسل تيمورلنك، وأخذ يعقد اتفاقيات مع التركمان وبني عثمان لصد ذلك الخطر الجديد (٢).

ومهما يكن من أمر، فإن هناك عوامل جديدة أجمت الصدام بين تيمورلنك ودولة المماليك، أهمها رغبة تيمورلنك نفسه في تأجيل ذلك الصدام بسبب انهضاله بتوحيده نفوذه في دولته الواسعة من ناحية، فضلاً عن أنه فتح جبهة جديدة لجيوشه عندما هاجم الهند من ناحية أخرى (٣) وكان كل ما فعله برقوق هو أنه استغل فرصة غياب تيمورلنك في الهند، وكتب لأحمد بن أويس تقليداً بنبأ به السلطنة في بغداد، وزوده بالمال والعتاد والمماليك والأمراء، ثم أرسله سنة ١٣٩٤ إلى بغداد، حيث تمكن بفضل تلك المعونة من استرداد عرشه والتغلب على الحامية التي تركها تيمورلنك في بغداد (٤).

وبمقتضى التقليد الذي كتبه برقوق لأحمد بن أويس أصبح الأخير نائباً لسلطنة المماليك في مصر؛ ونائباً عن السلطان برقوق في حكم بغداد، فحضر المسكة باسمه . ولا شك في أن هذا الوضع الجديد قد أضفى مكانة كبيرة على سلطنة المماليك، وإن كان تيمورلنك نفسه لم يرض عن ذلك الوضع فأمرع بالعودة من الهند سنة ١٣٩٩، في الوقت الذي توفي فيه السلطان برقوق .

(١) المقرئى: السلوك ج ٣ ورقة ٤١٦ وما بعدها (مخطوط).

(٢) ابن حجر: لبناء النمر ج ١ ورقة ٣٦٧ - ٤٠٠ (مخطوط).

(٣) أبو الحسن: النجوم الزاهرة ج ١٢ ورقة ٥٦.

(٤) المقرئى: السلوك ج ٢ ورقة ٧٣١.

مهر أبناء برقوق :

وعندما أحس السلطان برقوق بدنو أجله ، جمع حوله الخليفة وكبار الأمراء والقضاة ، وطلب منهم أن يحلفوا بالسلطنة لأولاده من بعده - وهم فرج وعبد العزيز وإبراهيم - على التوالي واختار برقوق مجاساً للوصاية على أبنائه برئاسة الأمير أيتمش البجاسى أتابك المسكر ، يساعده الخليفة المتوكل وبعض كبار الأمراء . ولم يلبث برقوق نفسه أن توفي سنة ١٣٩٩ (١) .

غير أن المماليك لم يؤمنوا - كما سبق أن رأينا - بمبدأ وراثة العرش ، ولم يلبث كبار الأمراء أن رأوا فرصتهم سانحة في قيام فرج بن برقوق في منصب السلطنة وسنه عشر سنوات فبدأت المنافسات والمنازعات بينهم ، الأمر الذي جعل السلطان فرج يزهد في العرش ، فهرب الصبي من القلعة سنة ١٤٠٥ واختفى في أحد البيوت ، وعندئذ بايع الأمراء أخاه عبد العزيز بالسلطنة (٢) .

وليس هناك أهمية خاصة لسلطنة فرج الأولى سوى ما حدث عندئذ من عودة تيمورلنك من الهند ، ففر أحمد ابن أويس من بغداد واحتفى بهلب في حين واصل تيمورلنك غزواته فاستولى على سيواس ومرعش وعيلتاب وبذلك وصلت قواته إلى أطراف الشام (٣) . ولم يستجب المماليك للإنذار الذي وجهه تيمورلنك بضرورة تسليم حلب ، فتجمعت الجيوش من نيايات الشام استعداداً للمقاومة . ولكن تيمورلنك أنزل الهزيمة بقوات المماليك واقتحمت جيوشه حلب سنة ١٤٠٠ لتعمل فيها قتلاً وأسراً ونهباً (٤) . وقد اهتزت مصر لأبناء تلك

(١) أبو الحسن : النجوم الزاهرة ، ج ١٢ ص ١٠٤ .

(٢) ابن حجر : ألباء القمر ج ١ ص ٦٨٨ (مخطوط) .

(٣) ابن أبياس : بدائع الزهور ج ١ ص ٢٣٦ .

(٤) ابن عريشاه : عجائب المقدور ص ٨٨ وما بعدها .

الهنزية، وخروج السلطان فرج الصغير على رأس الجيش ومعه الخليفة والقضاة، ولكن تيمورلنك أنزل الهنزية مرة أخرى بالممالك قرب دمشق في أواخر سنة ١٤٠٠. وبعد ذلك طُود فرج إلى القاهرة ليستعد للقيام بمحاولة أخرى ضد تيمورلنك، في حين تمكن الأخير — عن طريق الحيلة — من دخول دمشق حيث أقام بها قرابة ثلاثة أشهر جمع فيها كثيراً من أموالها فضلاً عن أولى الخبرة من أصحاب الحرف والصناعات الذين بعث بهم إلى سمرقند.

ويبدو أن أخبار ما فعله تيمورلنك بدمشق جعلت السلطان فرج يرضى بالصلح معه، فتم الصلح سنة ١٤٠١. وبعد ذلك خرج تيمورلنك من الشام لينزل الهنزية بالسلطان بايزيد الثاني في موقعة أنقرة سنة ١٤٠٢^(١). ولم يلبث أن توفي تيمورلنك بعد ذلك سنة ١٤٠٥ في سمرقند، ثم تعرضت دولته الواسعة للتمزيق بسبب النزاع بين ورثته، وبذلك خفت حدة خطر التنازع على دولة الممالك في مصر والشام.

أما ما كان من أحوال سلطنة الممالك في مصر، فقد رأينا كيف أن فرج ابن برقوق ترك العرش سنة ١٤٠٥ ليضع الأمر أخاه عبدالعزیز. ولكن الصراع بين أمراء الممالك في تلك الفترة اتخذ صورة مؤازرة أحد أبناء برقوق ضد الآخر، فعندما أحس بعض الأمراء بأن الأمير يبرس الأتابك علت مكانته بهكم وصايته على المنصور عبدالعزیز، سموا لعودة فرج إلى العرش. وقد عاد السلطان فرج إلى السلطنة بعد شهرين من اختفائه، واستمر تلك المرة في الحكم نحواً من سبع سنوات (١٤٠٥ — ١٤١٢)، انصرفت بالاضطراب والفوضى وسوء تدبير الحكم، ذلك أن فرج عرف بالقسوة والوحشية، فاستهل حكمه بقتل أخويه^(٢)، ولم يكن سكوت الأمراء عن فرج بدافع الرضى بحكمه، وإنما لأن

(١) ابن لياس: بدائع الزهور، ج ١ ص ٣٣٦.

(٢) ابن حجر: انباء الفجر ج ١ ص ٦٩٠ وما بعدها.

الموقف لم يصفر عن ظهور الرجل القوي بين صفوف الأمراء الذي يستطيع أن يضرب خصومه وينزع السلطنة لنفسه .

وكان أن كثرت الفتن في أنحاء الدولة — وبخاصة في الشام — على عصر فرج بن برقوق . ففي سنة ١٤٠٧ تازجكم نائب حلب وأضفى على نفسه لقب سلطان وتلقب بالعاقل ولكن جكم قتل بعد شهرين ، فتعالف نوروز نائب الشام والأمير شيخ نائب طرابلس وأعلن الثورة على السلطان فرج في القاهرة ، بل لقد حلفا بحجر شهما نحو مصر سنة ١٤٠٨ . وعندما خرج السلطان فرج إلى الشام لقمع تلك الثورة حلت به الهزيمة قرب دمشق سنة ١٤١٢ وقبض على فرج ليقتل قتلة شنة ، في حين أدى التنافس بين الأميرين شيخ ونوروز إلى اختيار الخليفة المستعين العباسي سلطاناً سنة ١٤١٢ (١) .

السلطان المؤيد شيخ المعهودى : (١٤١٢ - ١٤٢١)

ومن الواضح أن اختيار المستعين للسلطنة لم يكن إلا إجراءً شكلياً حتى يستقر الموقف بين الأميرين نوروز وشيخ . ولم يكن الأمير شيخ بطمن على سلامة موقفه حتى عزل الخليفة بعد خمسة أشهر من سلطنته ، واحتل هودست السلطنة بعد أن تلقب بلقب المؤيد ، وكان من الطبيعي أن تكون المشكلة الأولى التي واجهت السلطان المؤيد شيخ هي التغلب على نفوذ نوروز الذي أبى الاعتراف بالسلطان الجديد ؛ ولكن شيخ خرج إلى الشام وحارب نوروز وقتله وبذلك تخلص من منافس هيد (٢) .

وفي عهد المؤيد شيخ حاولت الإمارات التركمانية الواقعة على الأطراف

(١) العيني : السيف المهند في تاريخ الملك المؤيد ، ورقة ١٩٧ (مخطوط) .

(2) Wiet, , L'Egypte, Arabe, pp. 542—548.

الشمالية لدولة المماليك الخروج عن تبعيتها للسلطنة المماليكية ، ولكن المؤيد شيخ خرج لإخضاعهم مرتين سنة ١٤١٥ ، سنة ١٤١٧ . ولما تمرد التركان مرة أخرى بعد عودة السلطان شيخ إلى مصر ، أرسل المؤيد شيخ ابنه إبراهيم سنة ١٤١٩ لإخضاع دغاادر . فأوغل إبراهيم حتى قونية وضرب السكة باسم أبيه المؤيد شيخ وولى قيصرية حاكماً مالياً لسلطان المماليك من بيت دغاادر . وقد استقبل إبراهيم استقبالا حماسياً في القاهرة ، ولكنه لم يلبث أن مات في العام التالي ؛ وقيل إن أباه حقق عليه لما ناله من شهرة ومجد ، فدمس له السم (١) .

وقد توفي السلطان المؤيد شيخ سنة ١٤٢١ ، خلفه ابنه أحمد تحت وصاية الأمير ططار ، الذي لم يلبث أن انتزع السلطنة لنفسه ؛ ولكنه لم يبق فيها إلا أربعة وتسعين يوماً ثم خلفه محمد بن ططار . وقد قضى محمد هذا في الحكم بضعة أشهر تحت وصاية الأمير برسباي ، الذي انتزع السلطنة لنفسه سنة ١٤٢٢ .

السلطان الأشرف برسباي وفتح قبرسى :

حكم السلطان الأشرف برسباي ما يزيد عن ستة عشر عاماً (١٤٢٢ - ١٤٣٨) امتازت بالاستقرار وقلة الاضطرابات على الرغم مما قاساه الناس في ذلك العهد بسبب سوء الأحوال الاقتصادية وسياسة برسباي الاحتكارية التي سيشير إليها فيما بعد .

وقد مكن ذلك الاستقرار الذي نعمت به دولة المماليك السلطان الأشرف برسباي من القيام بمشروع حربي كبير هو غزو جزيرة قبرس وإدخالها في نطاق التبعية لسلطنة المماليك في مصر . وقد رأينا فيما سبق كيف أن القبارصة اتخذوا من جزيرتهم مركزاً لاثوب على الموانئ الإسلامية في شرق البحر المتوسط وتهديد

(1) Lane — Poole : A Hist. of Egypt . p . 336 .

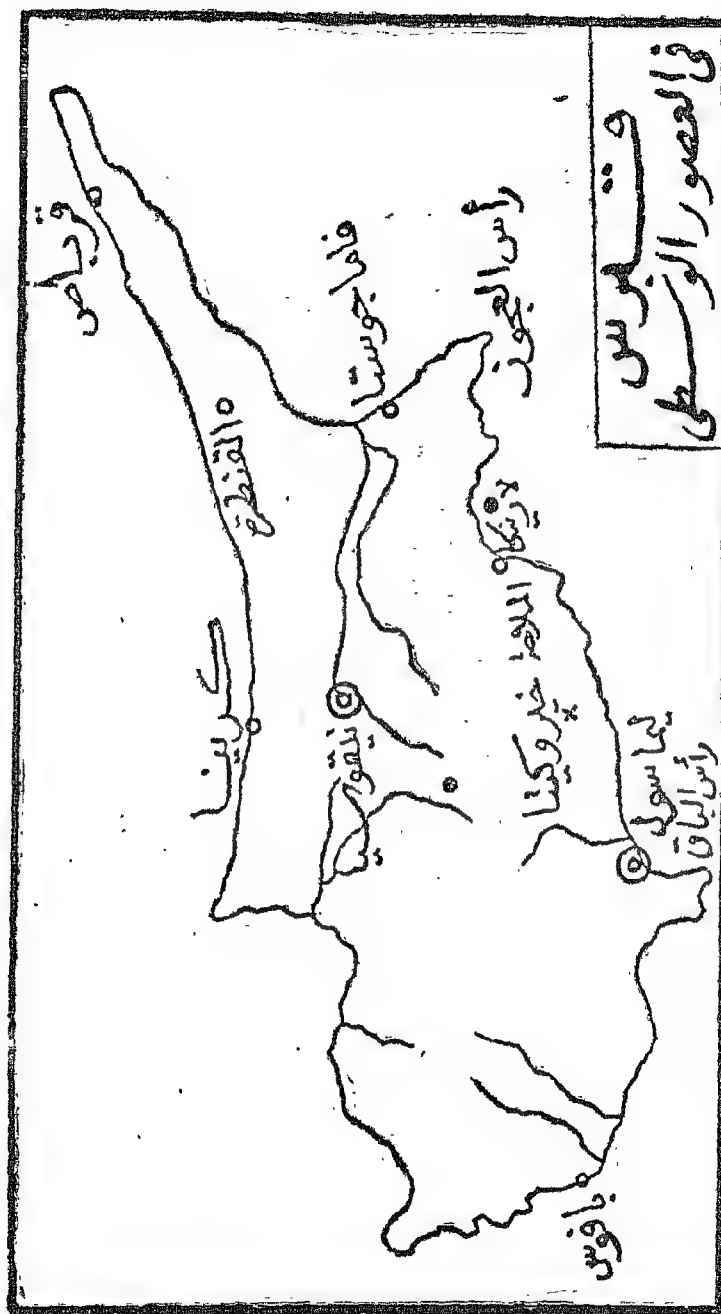
تجارة المسلمين، حتى قام بطرس الأول لوزجنان ملك قبرص بحملة الصليبية الكبرى على الاسكندرية سنة ١٣٦٥. وعلى الرغم من الصلح الذي تم بين جزيرة قبرص وسلطنة المماليك سنة ١٣٧٠، إلا أن الأفعال العدوانية التي تعرضت لها شواطئ مصر والشام لم تنقطع^(١). وليس من الضروري أن يكون أهل جزيرة قبرص بالذات هم الذين قاموا بكل الإغارات التي تعرضت لها شواطئ سلطنة المماليك في أواخر القرن الرابع عشر وأوائل القرن الخامس عشر، ولكن كان يكفي أن القراصنة المسيحيين الذين دأبوا على مهاجمة الثغور الإسلامية في تلك الحقبة اتخذوا جزيرة قبرص قاعدة لنشاطهم، مما جعل من الصعب على المسلمين اقتفاء أثرهم والقبض عليهم.

والواقع أن سلاطين المماليك في مصر حاولوا غزو قبرص أكثر من مرة لإحسانهم بخطرها وورغبتهم في دفع ذلك الخطر. وقد رأينا كيف حاول السلطان الظاهر بيبرس غزو قبرص سنة ١٢٧٠، ولكن محاولته باءت بالفشل^(٢). كذلك حاول يلبغا الخاقصكي أن ينتقم مما حل بالأسكندرية سنة ١٣٦٥ على يد بطرس الأول لوزجنان، فقامت دولة المماليك في عهد السلطان شعبان (١٣٦٣-١٣٧٧) ببعض إغارات على جزيرة قبرص، ولكنها لم تتخذ شكل غزو شامل للجزيرة^(٣). وهكذا حتى كان اعتلاء السلطان برسباي دسست السلطنة سنة ١٤٢٢، فرأى في الجهاد ضد قبرص وسيلة لتحقيق مآربه وصرف منافسيه من الأمراء عن خلق المشاكل والفتن الداخلية. ودفع برسباي إلى المضي في ذلك التفكير أن إغارات القبارصة لم تنقطع عن شواطئ دولة المماليك، إذ اعتدى بعض القراصنة على مركب لأحد تجار دمياط سنة ١٤٢٣، وأسروه وساقوه

(١) سعيد عاشور: قبرص والحروب الصليبية ص ٨٧

(٢) المقرئ: السلوك، ج ١ ص ٥٩٣.

(٣) النويري: الإعلام بالأعلام ج ١ ص ٧٦، ج ٢ ص ١٠٣ (مخطوط).



إلى قبرس^(١) ، ولم تجدد محاولات السلطان برسباي في عقد معاهدة مع جانوس ملك قبرس لضمان عدم التعدي على متاجر المسلمين ، إذ ظن جانوس أن حرص دولة المماليك على الصلح لا يعني سوى ضعف سلطان المماليك وتقوفه^(٢) .

وهكذا ظل سلاطين المماليك يتميزون غضبا ، حتى ورد الخبر على السلطان برسباي سنة ١٤٢٣ بأن الفرنج أخذوا مركبين من مراكب المسلمين قرب نهر دمياط فيهما بضائع كثيرة وعدة من الناس يزيدون على مائة رجل ، وبأن جانوس ملك قبرس استولى على سفينة محملة بالهدايا مرسله من برسباي إلى السلطان مراد العثماني^(٣) . وعند ذلك ثارت نائرة السلطان فأمر بالاستيلاء على أموال التجار الفرنج المقيمين بالثغور المماليكية ومنعهم من السفر إلى بلادهم ، كما أخذ يعد العدة لغزو قبرس .

وقد أرسل السلطان برسباي ثلاث حملات لغزو قبرس الأولى سنة ١٤٤٢ والثانية سنة ١٤٢٥ والثالثة سنة ١٤٢٦ . وكانت الحملة الأولى صغيرة ، هي في حقيقة أمرها حملة استكشافية غرضها تحديد مسؤولية قبرس عن ذلك الغزو من القراصنة الذي كان يتحرم في البحر^(٤) . وقد أغارت تلك الحملة على النواحي القريبة من ليماسول . ثم عادت إلى مصر في أواخر سنة ١٤٢٤ بعد أن قنم المسلمون غنائم كثيرة ودمروا وأحرقوا ما صادفوه من سفن قبرسية^(٥) .

وربما كانت أهمية هذه الحملة الأولى هي أنها أهبطت السلطان برسباي

(١) صالح بن يحيى : تاريخ بيروت من ٧١٩ - ٢٢٠ .

(٢) سعيد عاشور : قبرس والحروب الصليبية من ٨٨٠ .

(٣) خليل بن شاهين : زبدة كشف الممالك من ١٣٨ .

(٤) المقرئى : السلوك ج ٤ ص ٣٦٢ (مخطوط) .

(٥) Makhtaras ; Recital Concerning the Sweet Land of Cyprus d.633.

فكرة واضحة عن ضعف جزيرة قبرس من ناحية ، وعن مدى مسئولية قبرس وملوكها عن أعمال القرصنة من ناحية أخرى . ولم يشأ برسباى أن يضيع الوقت أو يعطى خصومه فرصة للاستعداد ، فأخذ يستعد عقب عودة الغزاة لإرسال حملة جديدة لغزو قبرس ، ودأب السلطان على زيارة دار صناعة السفن ببولاق كل يوم ليتفقد سير العمل فى بناء السفن ^(١) . وما زاد من حماسة السلطان برسباى وتصميمه أن أعمال القرصنة لم تنقطع بل استمرت على ما هى عليه ، فهاجمت أربع سفن قبرسية مركبا قرب اللاذقية كان مهجونا بالمجاديف المرسلة إلى مصر ؛ ثم قتلت بجوارتها وأشعلت النار فيها ^(٢) .

وأخيرا غادرت حملة برسباى الثانية الشواطئ المصرية فى يوليو سنة ١٤٢٥ فأتجهت إلى الشام ومنها إلى قبرس . وقد رست السفن الإسلامية أولا قرب فاما جوستا على شاطئ قبرس ، حيث هاجم الغزاة المناطق القريبة ودمروها وبعد ذلك أبهرت السفن إلى الملاحه فى حين سار شطر من جيش المماليك على الشاطئ . وقد أراد جانوس ملك قبرس أن يصد المسلمين فأرسل بعض السفن لمناوشة السفن الإسلامية ، من ناحية ، كما أرسل جيشا صغيرا ليقضى على القوة البرية المماليكية التى كانت تسيطر فى البر بجلاء السفن الإسلامية من ناحية أخرى . ولكن مشاة المسلمين أنزلوا الهزيمة بفارسان القبارصة ، فى حين فرت السفن القبرسية فى عرض البحر ^(٣) .

وبعد تلك الانتصارات السريعة ، أمر قائد الحملة - الأمير جرباش - بإزالة بقية القوات التى كانت بالسفن إلى البر ، فأخذ المماليك يحرقون القرى

(١) أبو الحسن : المعجم الزاهرة ج ٦ ص ٥٨٢ (طبعة كاليفورنيا) .

والعق : عقد الجان ج ٢٥ ق ٣ ص ٥٧٢ (مخطوط) .

(٢) سميد حاشور : قبرس والحروب الصليبية ص ٩٢ .

(٣) صالح بن يحيى : تاريخ بيروت ص ٢٢٣ .

ويعملون في الأهالي قتلا وأسرا ، حتى ضاقت مرأى بهم عن حمل الأسرى وامتلات أيديهم بالغنائم (١). وبعد ذلك توجه المسلمون إلى لياسول فوصلوها صباح أول أيام عيد الفطر (سنة ٨٢٨هـ) ، فاستولوا هناك على أحد الحصون وأحرقوه ، ثم أخذوا يتأهبون للعودة إلى مصر بعد أن حققوا كثير أمن أغراض الحملة الاستكشافية الانتقامية وكان أن وصل الغزاة إلى القاهرة في سبتمبر سنة ١٤٢٥ ، فاستقبلوا استقبالا حافلا ، وشقوا طريقتهم إلى القلعة وصحبتهم أكثر من ألف أسير ، فضلا عن الغنائم التي حملت على الجمال والبغال (٢) .

على أن السلطان برسباى لم يقنع بذلك ، لأنه عندما فكر في غزو قبرس من أول الأمر ، لم يكن هدفه إرسال حملة لجرد السلب والنهب والعودة بضع مئات من الأسرى وبعض أكوام من الغنائم . والواقع إن برسباى لم يكن يود أن تعود جيوشه من قبرس قبل أن تخضع الجزيرة نهائيا ، ولذلك بدا غير قانع بتلك النتائج التي حققها جيوشه في الحملتين السابقتين ، وقرر إرسال حملة ثالثة إلى قبرس في العام التالي (٣) . وكانت هناك عوامل أخرى دفعت برسباى إلى الإصرار على إخضاع قبرس لسيادته ، منها استمرار تحرير بعض الجنود ضد جانوس بسبب عداوتهم لملك قبرس ، ومنها استنجد بعض قوى المسلمين الأتراك على شاطئ آسيا الصغرى بدولة المماليك لحمايتهم من عدوان قبرس وملوكها . هذا فضلا عما وصل إلى مسامع السلطان برسباى من أن جانوس ملك قبرس استنجد بملوك غرب أوروبا ضد دولة المماليك (٤) .

(١) المفريزى : السلوك ج ٤ ورقة ٣٦٨ (مخطوط) .

(٢) أبو المحاسن : النجوم ج ٦ ص ٥٩٣ طبعة (كاليفورنيا) .

(٣) سعيد هاشور : قبرص والحروب الصليبية ص ١٠٣ .

(٤) ابن حجر : انباء الفجر ج ٢ ورقة ١١١ .

وقد وجد السلطان برسباى فى تلك العوالم مجتمعة حافزاً قويا لارسال حملة كبرى ثالثة لفتح قبرس ، ههد بقيادة جيوشها البرية الى الأمير تغرى بردى المحمودى ، وبقيادة قواتها البحرية الى الأمير اينال الجسكى ، وحدد اختصاصات كل منهما حتى لا يعارض أحدهما الآخر ، (١) . وفى أول يونيو سنة ١٤٣٦ أفلعت الحملة من الأسكندرية . وعندتها أكثر من مائة سفينة تحمل نحو أربعين ألف مقاتل . ولم تسكد الحملة فصل إلى منطقة ليماسول حتى بدأت العمل فوراً ، فهاجم الغزاة مدينة ليماسول واستولوا عليها وعانوا فيها نهباً وهدماً واحراقاً (٢) .

وفى تلك الحملة لم يكتف المسلمون بحصر نشاطهم فى الأقاليم الساحلية للجزيرة قبرس ، وإنما أوغلواداخل الجزيرة حيث كان الملك جانوس قد جمع قواته فى سهل خيروكيتا إلى الشمال الشرقى من ليماسول . وفى الموقعة الفاصلة التى دارت بين الطرفين فى ذلك السهل حلت الهزيمة ساحقة بالقبارسة ، فظلت سيوف المماليك تعمل فى صفوفهم دواًسنة الرماح تطعن فى أعضائهم فصاروا كثيرتهم قلة وقوتهم ضعفاء (٣) . وقد حاول جانوس ملك قبرس النجاة بنفسه عندما وجد ما حل به يهيمه ولكن المماليك تبعوه وقبضوا عليه مع جملة من الأسرى . وقد رأى قائد الحملة الأمير تغرى بردى المحمودى — أن يتبع تلك الضربة بالزحف على نيقوسيا عاصمة قبرس ، فدخلها المماليك دخول الظافر ورفعوا على مبانيها الرايات السلطانية ، وتقدم لهم هناك أعيان الجزيرة بالأموال الكثيرة للحصول على الأمان (٤) .

وأخيراً عاد الغزاة إلى مصر فشققوا القاهرة فى موكب حافل وخلفهم الأسرى وقد امتطى الملك جانوس د بغلاً أعرجاً . ويقال إن جانوس عندما

(١) السيوطى : غزوات قبرس ورودس ص ٩ ،

(٢) المقرئى : السلوك ج ٤ ورقة ٣٧٤ (مخطوط) ،

(٣) العيني : عقد الجان ج ٢٥ ق ٣ ورقة ٥٨١ .

(٤) سعيد عاشور : قبرس والحروب الصليبية ص ١١٤ - ١١٥ ،

دخل على السلطان برسباى قبل الأرض وأخذ يستعطف السلطان ، حتى وافق برسباى أخيراً على إطلاق سراحه مقابل مائتى ألف دينار دفع منها جانوس الذهب عاجلاً على أن يرسل الباقي بعد عودته إلى بلاده^(١) . كذلك اشترط السلطان برسباى أن تغل قبرس تابعة لسلطنة المماليك ، وأن يكون جانوس نائباً عنه في حكمها . وقد وافق جانوس على جميع تلك الشروط ، فأفرج عنه وسمح له بالسفر إلى جزيرته التي وصلها في مارس سنة ١٤٢٧ م^(٢) .

وبذلك يكون السلطان برسباى قد حقق نصراً كبيراً للدولة المماليك ، بما أضفى عليه وعلى حكمه أهمية كبرى على أنه لا يمكن أن تتخذ الحدود والاستقرار اللذين سادا عهد برسباى بأنهما دأبل على مساعدة الشعب ، إذ الواقع أن الناس قاسوا كثيراً في ذلك العهد بسبب كثرة الاحتكاكات والضرائب ، الأمر الذي جعل برسباى يموت غير مأسوف عليه سنة ١٤٣٨ م^(٣) .

السلطان الظاهر جقمق وشيخه رومى : (١٤٣٨ - ١٤٥٣)

لم يستطع التتيز يوسف بن برسباى (١٤٣٧ - ١٤٣٨) أن يحصى عرشه من أطماع الوصى عليه وهو الأمير جقمق ذلك أن العزيز يوسف كان في الرابعة عشرة من عمره ، فسجل على الأمير جقمق عزله بعد عدة أشهر - كما هي عادة المماليك - وتولى هو السلطنة بألقب الظاهر . وكان جقمق معتدلاً في حكمه ، إذا قيس بسلفه برسباى ، كما عرف عن جقمق تدينه وورعه لحرم المعاصى وشرب الخمر^(٤) .

(١) ابن حجر : إنباء الفرج ٢ ورقة ١١٢ .

(٢) Maktiaras op. cit. p. 673 .

(٣) Lane-poole : op. cit. p. 340 .

(٤) أبو الحسن : النجوم الزاهرة ج ٢ في ١ ص ٢٤٥ (طبعة كالمفرونية) .

(١٢ - العصر المماليكى)

وكما اشتهر عهد السلطان برسباى فى التاريخ بغزو جزيرة قبرس، فكذلك اشتهر عهد السلطان الظاهر جقمق، بغزو جزيرة رودس . والواقع إن جزيرة رودس كانت عندئذ مركزاً هاماً للصليبيين فى شرق البحر المتوسط ، بعد أن استولى عيافرسان الاسبتارية سنة ١٣٠٨ واتخذوها قاعدة لفشاحلهم وأعمالهم (١) . ولم يكن الاسبتارية أقل تحملاً لحرب المسلمين من آل لوزجنان فى قبرس ، الأمر الذى جعل المماليك يفكرون جدياً فى غزو جزيرة رودس للقضاء على ذلك الخطر .

ولاشك فى أن الاسبتارية فى رودس أحسوا بالخطر عقب نجاح المماليك فى فتح قبرس ، فأسروا بتقديم الهدايا للسلطان برسباى فى القاهرة ، وهرضوا عليه عقد معاهدة صداقة وعدم اعتداء ، ولكن ذلك لم ينس السلطان برسباى موقف رودس والاسبتارية من المسلمين ، ولو طال به الأجل لقام فعلاً بغزو تلك الجزيرة . ومن جهة أخرى يقال إن السلطان مراد الثانى العثمانى ضمم بمحاولات لضم فرسان الاسبتارية برودس إلى الحلف المسمى الكبير الذى أوشك أن يتكون فى أوروبا فى حرب صليبية كبرى ضد العثمانيين المسلمين ، فقام السلطان العثمانى بتحرير جقمق سلطان المماليك فى مصر على غزو رودس ليشغل الاسبتارية عن الانضمام لذلك الحلف (٢) . هذا إلى أن إغارات القراصنة على شواطئ مصر لم تنقطع عقب استيلاء المماليك على قبرس سنة ١٤٢٦ ، فلم يدع مجالاً للشك فى أن أولئك القراصنة اتخذوا جزيرة رودس قاعدة لهم بعد أن سقطت أرمينيا الصغرى وقبرس من ذلك أن أربع سفن للصليبيين دخلت فرع رشيد سنة ١٤٣٩ ، وبعد أن نهبت ودمرت عادت أدراجها ، مما أثار السلطان

(١) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ٣ ص ١٢٣٣ - ١٢٣٤ .

(٢) محمد مصطفى زيادة : المحاولات الحربية للاستيلاء على جزيرة رودس ، ص ١٩٨ .

جقمق (١). فإذا أضفنا إلى ذلك رغبة السلطان جقمق في أن يمتدح وحذو برسباى ليحقق لنفسه مجداً يغطي به حقيقة اغتصابه للسلطنة من ناحية ، ويصرف أنظار المماليك عن المنازعات الداخلية ويوجه طاقتهم نحو الغزو والجهاد من ناحية ثانية ، أدركنا مجموعة الأسباب التي حركت جقمق لغزو جزيرة رودس .

وقد أرسل السلطان جقمق ثلاث حملات ضد رودس في سنوات ١٤٤٠ ، ١٤٤٣ ، ١٤٤٤ . وكانت الحملة الأولى صغيرة ، لم تستطع أن تقوم بعمل يستحق الانتباه ، بل على العكس تصدى لها أسطول الاستبارية برودس وأنزل بالسفن الإسلامية بعض الخسائر (٢). أما الحملة الثانية التي أرسلها جقمق بقيادة الأمير إينال الملائى ضد رودس فقد كانت أكثر توفيقاً . فدمرت بعض الحصون الساحلية في رودس ثم قفلت راجدة إلى مصر بعد أن اضطرتها عواصف الشتاء إلى ذلك (٣). وأخيراً كانت الحملة الثالثة وهي كبرى حملات جقمق ضد رودس وأوفرها عدة وعناداً ، فانجبت صوب مدينة رودس حاصمة الاستبارية وحاصرتها نحو امان أربعين يوماً . ولكن على الرغم من مما أبداه المماليك من شجاعة نادرة ، فإنهم عجزوا عن الاستمرار في القتال بسبب شدة مقاومة الاستبارية الذين كانوا قد ألفوا أساليب المسلمين في الحرب ببلاد الشام . هذا فضلاً عن المساعدات التي تلقاها الاستبارية من العالم المسيحي الغربي ، وبخاصة برجنديا وقطالونيا . وهكذا رأى قائدا الحملة - وهما الأميران إينال الملائى وتما باى - الانسحاب والعودة إلى مصر حرصاً على سلامة قواتهما (٤) . ولم يلبث أن تم الصلح بين

(١) Wiet : L'Egypte, Arabe, p. 582 .

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ١ ص ١٢٢ (طبعة كاليفورنيا) .

(٣) السيوطي : غرر القبرس وروودس ص ١٤ .

(٤) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ١ ص ١٣٦ (طبعة كاليفورنيا) .

الاستراتيجية في ردوس والسلطان جقمق في مصر بعد أن تعهد الاستراتيجية بعدم العدوان على السفن والمتاجر الإسلامية (١).

هذا من نشاط السلطان جقمق في الميدان الخارجى . أما في الميدان الداخلى فقد امتاز عهده بالهدوء ، إذا استثنينا ثورتين في بداية حكمه قام بالاولى الأمير قرقاس الشيعاني الناصرى وقام بالثانية إينال الحكى نائب دمشق . وقد نجح جقمق في القضاء على هاتين الثورتين في سهولة (٢) . كذلك حدث في عهد جقمق أن دارالعبيد السود في منطقة الجيزة سنة ١٤٤٢ وأقاموا عليهم سلطانا من بينهم ، ولما كان السلطان جقمق قضى تلك الفترة وباع من في القاهرة من العبيد السود ، في حين أرسل الباقين في سفينة إلى بلاد العثمانيين حيث بيعوا هناك (٣) .

دولة المماليك في أواخر أيامها :

توفي السلطان جقمق سنة ١٤٥٣ وهو في الثمانين من عمره ، بعد أن أعلن أثناء مرضه - وهو على فراش الموت - ولاية العهد لابنه عثمان غير أن السلطان المنصور عثمان لم يستطع البقاء في الحكم أكثر من شهر ونصف ، فخلفه الجلبش لأنه وزع عليهم النفقة بنقود مغموشة غير سليمة (٤) .

وقد ولي السلطنة بعد المنصور عثمان السلطان الأشرف إينال (١٤٥٣-١٤٦٠) . ولعل أوضح ظاهرة اتصف بها تاريخ المماليك في ذلك الدور هي كثرة

(١) محمد مصطفى زيادة ، المحاولات الحربية للاستيلاء على جزيرة وودس من ٢٠٢ وما بعدها .

(٢) أبو الحسن : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ق ١ ص ٤٩ - ٥٨ (طبعة كاليفورنيا)

(٣) ابراهيم طرخان : مصر في عصر دولة المماليك الجراكمة ، ص ٣٥ .

(٤) Wiet : op . cit . , p . 587 .

ثورات المماليك الجلبان أو الأجلاب الذين كان يحلهم كل سلطان جديد . والمعروف أن سلاطين المماليك الأوائل اعتادوا منذ منتصف القرن الثالث عشر أن يشتروا مماليتهم صغاراً أطفالا ويتمدون تربيتهم ونشأتهم بشاة خاصة ، فيشعب المملوك وقد اختص بولائه أستاذه الذي اشتراه وقام على تربيته وحباه بمطقة . أما في ذلك الدور الأخير من تاريخ دولة المماليك - أى في القرن الخامس عشر - فقد دأب السلاطين على شراء المماليك كباراً في سن البلوغ ، مما جعل أولئك الجلبان لا يتشربون روح النظام والولاء لأسيادهم في طفولتهم ، فصاروا مصدر خطر على السلطان نفسه ، وتعددت ثوراتهم حتى صار السلاطين أنفسهم العوبة في أيديهم . وامل هذا هو السر فيما نلاحظه في ذلك الدور بالذات من سهولة عزل السلاطين وإقامة غيرهم ، فلا يكاد السلطان يبقى في منصبه أياماً بل ساعات حتى يعزل ويتمام غيره . ومن وراء جميع هذه الحركات الثورية والفتن والثلاقل كان الجلبان في ذلك الدور الأخير من تاريخ دولة المماليك الجراكة (١) .

ولا أدل على مدى ما أصاب البلاد من اضطراب نتيجة لثورات الجلبان في ذلك الدور ، من أن الجلبان ثاروا سبع مرات في عهد السلطان إينال البالغ طوله ثمان سنوات (٢) .

ولم يستطع أحد بن إينال البقاء في الحكم سوى أربعة شهور فقط ثم خلفه سنة ١٤٦١ السلطان الظاهر خشقدم الذي امتاز عهده بالهدوء . ولم يعكر صفو هذا الهدوء سوى المحاولة التي قام بها جانم بك نائب الشام لانتزاع العرش . ولكن خشقدم استطاع في سهولة أن يتخلص من مؤامرة جانم بك وأعوانه ، حتى قتله (٣) .

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٧ ق ١ ص ٣٩٠ وما بعدها (طبعة كاليفورنيا) .

(٢) ابن لياس : صفحات لم تنته من بدائم الزهور ص ٢٨ ، ٥٧ ، ٦٥ .

(٣) إبراهيم طرخان : مصر في عصر دولة المماليك الجراكة ص ٣٦ .

وبعد خشف قدم تولى السلطنة قايتباى المجنون سنة ١٤٦٧ ، ثم الظاهر تمرغا الرومى فى العام نفسه ، ولم يستطع تمرغا لإرضاء المماليك الخشقدمية وزعيمهم خير بك فعزله بعد شهرين . وذن الواضح أن خير بك عندما دبر عزل تمرغا إنما كان يبنى الاستئثار بالعرش لنفسه ، وفعل صعد خير بك إلى دست السلطنة أنفاه الليل ولقب نفسه بالسلطان الظاهر تشبهاً باستاذ الظاهر خشفدم . ولكن الأتابك قايتباى أسرع إلى القلعة وسيطر على الموقف ، وتولى السلطنة بعد عزل خير بك الذى أطلق عليه لقب « سلطان ليلة » لأنه لم يظل فى دست السلطنة سوى ليلة واحدة (١) .

ويعتبر السلطان قايتباى (١٤٦٨-١٤٩٦) من أبرز سلاطين دولة المماليك الجراكسة لأنه حكم مدة طويلة بلغت تسعة وعشرين عاماً ، وهى مدة لم يحكمها أحد من سلاطين المماليك ، عند السلطان الناصر محمد . وفى تلك المدة أثبت السلطان الأشرف قايتباى أنه أمير السلاطين الجراكسة فى ميدان الحرب ، وأوسهم خيرة بشئون العالم ، وأكثهم مقدرة وشجاعة وحكمة ؛ حتى لقد وصفه المؤرخ ابن لياس بأنه كان دواقر العقل سديد الرأى ، عارفاً بأحوال المملوك ، يضع الأشياء فى محلها . . . موصوفاً بالشجاعة عارفاً بأنواع الفروسية . . . (٢) حقيقة إنه تعسف — مثل غيره من السلاطين — فى جمع الأموال وفرض الضرائب ؛ ولكن آثاره ومنشأته العديدة تثبت أنه كان ينفق تلك الأموال فى المنشآت العامة وفى حروبه الواسعة . ويعتبر مسجداً قايتباى بالقاهرة والوكالات التى شيدها من أجل المباني العربية فى ذلك العصر . هذا إلى أنه حرص على ترميم وإصلاح المنشآت التى أقامها أسلافه ، كما تشهد على ذلك السجلات العديدة

(١) ابن لياس : بدائع الزهور ج ٢ ص ٨٩ وما بعدها .

(٢) ابن لياس : بدائع الزهور ، ج ٣ ص ٣٢٥ (نصر محمد مصطفى) .

المدونة على جدران المساجد والمدارس والقلاع وغيرها (١).

وقد عرف عن السلطان قايتباي حب الرحلات والأسفار ، فطاف بلاد الشام وشمال الفرات والوجهين البحري والقبلي بمصر ؛ بالإضافة إلى الحج وزيارة الأماكن المقدسة بالحجاز وفلسطين . وكان أينما ذهب يخلد اسمه بإنشاء الطرق والجسور والمساجد والمدارس والتحسينات وغيره من الأعمال الخيرية والمرافق العمرانية (٢).

على أن هناك مهاماً أخرى واجهت السلطان قايتباي ؛ أخطر بكثير من الإنشاء والتعمير . ذلك أن عدم استقرار الأوضاع على الحدود الشمالية سبب دائماً مصاعب جمّة لسلطات المماليك الجراكسة . وفي النصف الثاني من القرن الخامس عشر لم تقتصر المتاعب التي واجهت دولة المماليك في تلك الجهات على الثورات التي قام بها التركمان ، وإنما أدت القلاقل التي ظهرت في تلك الجهات إلى تدخل قوة جديدة هي قوة العثمانيين الذين أخذ نفوذهم يزداد ويتضخم ، وخاصة بعد استيلائهم على القسطنطينية سنة ١٤٥٣م (٣).

أما عن أحوال مصر في أواخر عهد السلطان قايتباي فقد امتازت بكثرة الضرائب وجميع الأموال للحروب ، هذا عدا انتشار الوباء انتشاراً فتاكاً سنة ١٤٩٢ ؛ حتى أنه كان يموت في القاهرة في اليوم الواحد أكثر من عشرة آلاف شخص . وقد مات بسبب ذلك الوباء ثلث المماليك ، فضلاً عن زوجة السلطان قايتباي وابنته . ثم إن ذلك الوباء ترتب عليه القحط الشديد وانتشار طاعون المواتى ، مما أدى إلى ندرة القوت وغلاء الأسعار (٤) . ولت المماليك قدرها

(١) Lane-poole: op. cit., p. 344 .

(٢) ابن أبي راس : بدائع الزهور ج ٣ ص ٣٢٩ (نصر محمد مصطفى) .

(٣) Wiet: op. cit., pp. 590-592 .

(٤) ابن أبي راس : بدائع الزهور ج ٣ ص ٢٨٧ (نصر محمد مصطفى) .

عندئذ خطورة تلك المحنة التي كانت تمر بها البلاد والعباد ، وإنما استمرت المنازعات والخلافات بين طوائفهم ، كما حدث سنة ١٤٩٥

وأخيراً سادت محنة السلطان قايتباي بعد أن جاوز الثمانين من عمره ، فتنازل عن السلطنة لابنه ، ثم توفي في اليوم التالي مباشرة سنة ١٤٩٦ (١)

وقد تعاقب في منصب السلطنة بعد السلطان الأشرف قايتباي ابنه محمد (١٤٩٦ - ١٤٩٧) ثم قانصوه خمسائة الذي لم يثبت في العرش سوى ثلاثة أيام ؛ ثم عاد محمد بن قايتباي مرة أخرى (١٤٩٧ - ١٤٩٨) ، ثم قانصوه الأشرفي (١٤٩٨ - ١٥٠٠) ؛ ثم جانبلاط (١٥٠٠ - ١٥٠١) ، ثم العادل طومان باي الأول (١٥٠١) . وجميع هؤلاء حكموا مدداً قصيرة مما يشهد على مدى حالة الفوضى وعدم الاستقرار التي سادت البلاد في ذلك السور الأخير من حياة دولة المماليك (٢) . ولا أدل على تلك الفوضى التي عمت جهاز الحكم في الدولة من أن معظم السلاطين الذين تولوا السلطنة في ذلك السور انتهى أمرهم بالقتل أو السجن أو الخنق ، مما جعل كبار الأمراء لا يرغبون في تولي منصب السلطنة الذي غدا ملطخاً بدماء الأبرياء . وعندما قتل السلطان العادل طومان باي سنة ١٥٠١ ، تمنع النوري — رغم أنه أقوى الأمراء — عن قبول المنصب بل إنه أخذ يبكي ، ويقال إن النوري قبل أخيراً أن يلى منصب السلطنة بعد أن « سجد وأجلسوه وهو يمتنع من ذلك ويبكي » ؛ ولكنه اشترط على الأمراء ألا يقتلوه ، وأن يصرفوه بالمعروف إذا أرادوا عزله ، فقال لهم « أقبل ذلك بشرط ألا تقتلوني ؛ بل إذا أردتم خلعي وافقتكم » (٣)

(١) Lane-poole : op. cit., p. 349 .

(٢) ابن أبي راس : بدائع الزهور ٣ ص ٣٣٢ — ٤٦٣ (نشر محمد مصطفى) .

(٣) ابن أبي راس : بدائع الزهور ٣ ص ٤ (نشر محمد مصطفى) .

السلطان الفاضل قانصوه الغورى (١٥٠١ - ١٥١٦)

أنبت السلطان قانصوه الغورى أنه رجل قوى صلب ويغم أنه كان قد تجاوز الستين من عمره عندما ولى منصب السلطنة . ذلك أنه عمل بسرعة على إعادة النظام والاستقرار إلى العاصمة ، وملأ مناصب الدولة بمن يثق فيهم من كبار الأمراء ، ثم اتجه إلى علاج الأزمة المالية المستعصية التي كانت تعانيها خزانة الدولة المفلسة .

وقد اتبع السلطان الغورى لإنعاش الخزانة العامة سياسة تيسيرية لم يسبقه إليها أحد من سلاطين المماليك . ذلك أنه جمع ضرائب ومكوس جثرة أشهر ، قدما دفعة واحدة ، ولم يكتف بفرض هذه الضرائب على الأراضي والحوانيت والمقارات ، وإنما تجاوز ذلك إلى الطواحين والمعدات والسفن ودواب النقل وخدم القصور ، بل حتى الأوقاف الخيرية . هذا إلى أنه ضاعف من الرسوم البحرية ، كما تلاعب في العملة لاستيفاد الخزانة من الفارق ، مما أضر بالتجارة ضرراً بليغاً^(١) . وكانت النتيجة أن حقق الغورى أغراضه وحصل على ما كان يرغب فيه من أموال ، ولكن على حساب الشعب الذى ازدادت حالته سوءاً ، وأخذ يئن من قسوة الضرائب الباهظة .

وقد أنفق الغورى من تلك الأموال - التى جدد فى جمعها - على مالهيكه الذين أكثر من أعدادهم عن طريق الشراء ، كما شيد مسجداً ومدرسة فى الطوى الذى سمي بعد ذلك باسمه ، وهو حى الغورية . كذلك عفى السلطان الغورى بطريق الخبز ، فأقام به كثيراً من الاستراحات والآبار . هذا فضلاً عن حفر بعض الترع وتحسين الإسكندرية ورشيد وإصلاح القلعة . ومن المعروف عن السلطان

(١) ابن مياس: بدائع الزهور ج ٥ ص ٨٩ - ٩٠ (أمر محمد مصطفى) .

الغورى أنه عني بفخامة بلاطه وعظمة مظهره ، فأصبحت مالهيك وخيوله وجواهره ومطبخه السلطاني مضرب الأمثال ، كما اشتهرت مجالسه الأدبية بمن ضمنهم من شعراء وأدباء وعلماء (١) .

ولم تحدث قلاقل ذات أهمية في الفترة الأولى من حكم السلطان الغورى ، إذا استثنينا بعض الثورات من جانب الممالك الأجلاب والعربان . أما في الميدان الخارجى ، فكان الخطر الكبير الذى هدد مصالح البلاد في ذلك الدور الأول من حكم السلطان الغورى آتيا من فاحية البحر الأحمر . ذلك أن فاسكو دى جاما اكتشف طريق رأس الرجاء الصالح سنة ١٤٩٧ ، وسرعان ما تبت البرتغاليون أقدامهم في كلكتا سنة ١٥٠٠ ، مما هدد مركز مصر الاقتصادية كطريق رئيسى للتجارة بين الشرق الأقصى والعرب الأوربي ، وأذن بانتقال زمام التجارة من أيدي الممالك إلى أيدي البرتغاليين (٢) . وإزاء هذا الخطر الجسيم ، استنجد أمراء المسلمين في الهند وجنوب شبه الجزيرة العربية بالسلطان الغورى ، الذى رأى في الخطر الجديد تهديداً مباشراً للمورد الأساسى الذى اعتمدت عليه دولته واستمدت منه قوتها .

وقد لجأ الغورى أولاً إلى الأساليب السياسية فوجه نداء إلى البابا يطلب منه منع البرتغاليين والأسبان من التعرض بشوء للمسلمين في الشرق والغرب ويبدو أن القوى الأوربية لم تتأثر بذلك التهديد الأجوف مما جعل الغورى يشيد أسطولا جديداً في البحر الأحمر ، وفي الصراع الذى نشب بين الممالك والبرتغاليين في المحيط العربى — غربى الهند — انتصر الممالك في أول الأمر سنة ١٥٠٨ ، ولكن لم يلبث أن ثار البرتغاليون لأنفسهم في العام التالى في

(١) ابن لياس : بدائع الزهور ، ج ٥ ، ص ٨٩ ، ٩٤ ، ٩٥ (لعمري محمد مصطفى)

(٢) wiet : op. cit. p. 616 — 617.

موقعة ديو البحرية ، بل لقد هاجم البرتغاليون عدن نفسها سنة ١٥١٣م وهكذا ضاعت مكانة مصر في الوساطة التجارية بين الشرق والغرب ، الأمر الذي أدى إلى ذبول دولة المماليك ذبولا سريعا متواصلا (١) .

على أنه إذا كان الخطر الخارجى من جانب البرتغاليين قد ترتب عليه ذبول دولة المماليك ، فإن ثمة خطر خارجى آخر تفاقم فى أواخر عهد الغورى . وترتب عليه سقوط سلطنة المماليك نفسها . ونعنى بهذا الخطر الجديد ، خطر بنى عثمان .

سقوط دولة المماليك :

والواقع إن الدولة العثمانية وصلت فى أوائل القرن السادس عشر إلى نقطة يمكن تسميتها بمفترق الطرق ، بالنسبة لحركة التوسع الضخمة التى شرع فيها العثمانيون منذ عدة قرون . فى أوائل القرن السادس عشر كان العثمانيون قد فرغوا من احتلال آسيا الصغرى والبلقان ووصلوا إلى أواسط أوروبا ، وعندئذ صار أمامهم أن يختاروا بين أمرين ، إما الاستمرار فى التوسع فى أوروبا على حساب الأوربيين المسيحيين مما أضفى على حركتهم التوسعية فى ذلك الاتجاه طابع الجهاد الدينى ، وإما الاكتفاء بما أصابوه من تقدم فى وسط أوروبا أو صلبهم إلى مدينة فيينا ذاتها ، والتوسع شرقا على حساب الدول الإسلامية المجاورة .

وكان أن اختار السلطان سليم العثمانى الاتجاه الأخير لاسباب وأن الخلاف المذهبى والسياسى كان على أشده بين العثمانيين السنيين من ناحية والصفويين الشيعة فى فارس والعراق من ناحية أخرى . ولم يلبث السلطان سليم العثمانى أن حقق انتصارا كبيرا على الفه اسماعيل الصفوى فى موقعة جالديران سنة ١٥١٤م

(١) ابن لياس : بدائع الزهور ج ٤ ص ٨٧ ، ٢٨٦ ، ٤٥٨ ، ٤٦٦ (نظر محمد مصطفى)

ومن الواضح أن انتصار العثمانيين على الصفويين، واستيلاء سليم الأول على الجزيرة والموصل وذيابكر، وغيرها من النواحي ذات العلاقات الاقتصادية والسياسية القديمة بدولة المماليك، جعل العثمانيين قلب قوسين أو أدنى من أطراف دولة المماليك في شمال الشام والعراق.

وقد استاء السلطان الغورى والأمراء لأخبار انتصار السلطان سليم العثماني على الصفويين، وخشوا من سطوته وشدة بأسه لما يحدث منه بعد ذلك إلى جهة بلاد السلطان،^(١) ولم يخفف من مخاوف السلطان الغورى ما تردد من أخبار بعد ذلك بأن الصفويين انتصروا على العثمانيين، لأنه أدرك أن بقاء دولة المماليك في ذلك الدور صار رهيناً باستمرار الصراع بين القوتين. لذلك حسم الغورى على الخروج إلى حلب، حتى يرى ما يكون من أمر الصفوي وابن عثمان، فإن كل من انتصر منهما على غيره لابد أن يزحف على بلادنا...^(٢).

ثم كان أن قضى سليم سنة ١٥١٥ على إمارة دلفادر، وهي الإمارة التركمانية المشمولة بحماية المماليك، الأمر الذي جعل السلطان الغورى يحس إحساساً قوياً بخطر العثمانيين الذي ازداد ملامسة حدود دولته^(٣). وكان أن اتخذ السلطان الغورى عدة خطوات إيجابية، فتحالف مع اسماعيل الصفوي من ناحية^(٤)، كما أوى الأمير قاسم العثماني - ابن أخى السلطان سليم - الذي فر من وجه عمه بعد أن قتل السلطان أباه أحمد (أبو القاسم وأخو سليم)^(٥).

(١) ابن لباس: بدائع الزهور ج ٤ ص ٣٩٧، وكذلك ص ٢٧٨، ٣٩٦، ٤٠٠. (نشر محمد مصطفى).

(٢) المرجع السابق ج ٥ ص ٢٢.

(٣) ابن لباس: بدائع الزهور ج ٤ ص ٤٦٢ - ٤٦٣ (نشر محمد مصطفى).

(٤) المرجع السابق ج ٥ ص ٣٥، ويذكر ابن لباس أن الغورى أرسل للصفوي عدة أفيال يستعين بها في حرب سليم العثماني وكان لإرسال هذه الأفيال في الحفية في خبر سر بولنه وابن الصفوي.

(٥) ابن لباس: بدائع الزهور ج ٥ ص ٤٩ (نشر محمد مصطفى).

وهكذا أصبح الصراع المكشوف متوقفاً بين لحظة وأخرى بين دولتي المماليك والعثمانيين . وسرعان ما جاءت الأخبار إلى السلطان الغوري بمظلم الحشود والاستعدادات التي يجريها السلطان سليم العثماني قرب حدود دولة المماليك ، ولم يصدق الغوري الإشاعات التي أطلقها السلطان سليم بأن تلك الاستعدادات إنما قصد بها محاربة الصفويين ، وإنما أوجس الغوري خيفة من نيات سليم وأخذ يحشد قواته على عجل لمواجهة الموقف . وفي تلك الأوقات العصيبة لم يتدخل المماليك عن عجبهم ولم يقدروا خطورة الموقف الذي أوشك أن يعصف بهم جميعاً ، فنار الجلبان في القاهرة لتأخر روانهم ، الأمر الذي أغضب السلطان الغوري فترك القلعة واعتزل في المقياس وقال للأمراء : أنا ما بقيت أحمل سلطاناً ، ولوا عليكم من تختاروه غيري ! . وقد استغل المماليك الجلبان تلك الفرصة ، فنادوا في الميث ونهبوا الدكاكين في القاهرة ، واستمروا ديشوشون على الناس ويخطفون العمام ... وجعل منهم الضرر الشامل ،^(١) وأخيراً استطاع كبار الأمراء أن يسترضوا السلطان الغوري ، فأنب المماليك قائلاً : د لاشمتوا العدو فينا ، وابن عثمان متحرك علينا^(٢) وفي الوقت الذي أخذ الغوري يكمل استعداداته ويصدر أوامره إلى الخليفة العباسي المتوكل والقضاة الأربعة بالتأهب لمصاحبتة على رأس الجيش إلى حلب لمواجهة تهديد بني عثمان ، إذا برسالة تصل من خاير بك نائب حلب نظمئن السلطان الغوري وتخبره أنه مخدوع فيما لديه من أخبار بصدد الاستعدادات العثمانية ، لأن تلك الاستعدادات إنما قصد بها حرب الشاه اسماعيل الصفوي . وستكشف الأحداث فيما بعد عن خيانة خاير بك هذا ، إذ أنه في الواقع كان متصلاً بالعثمانيين منذ وقت مبكر وقام بدور خطير

(١) ابن لياس : بدائع الزهور ج ٤ ص ٤٨٤ (نشر محمد مصطفى) .

(٢) المرجع السابق ج ٥ ص ٧ .

في تسهيل مهمة العثمانيين في احتلال الشام ، ولكي يسبك خاير بك أكذوبته ، فإنه أخذ يروى في رسالته إلى السلطان الغوري تاريخ الحرب بين العثمانيين والصفويين^(١) ، كما أنهل بالأمير سيدياى نائب الشام وطلب منه أن يطمئن السلطان الغوري ، فكتب سيدياى إلى الغوري يخبره أن الأحوال الاقتصادية في الشام سيئة بحيث لا تحتل البلاد بجيش السلطان ومعه جيشه الصغير ، لاسيما وأن العثمانيين لم يتحركوا على الحدود ، وإن كان العدو متحرك فنحن له كفاية^(٢) .

ولكن السلطان الغوري لم يأخذ بكلام خاير بك الخائن ومضى في استعداداته فحشد الجند والأمراء في الريدانية استعداداً للخروج إلى الشام . وفي تلك المرحلة وصلت السلطان الغوري رسالة نائية من خاير بك يقول فيها إن رسولا جاءه من قبل السلطان العثماني لمفاوضته في الصلح ، ومع رسالة خاير بك رسالة من السلطان سليم نفسه إلى الغوري ، كلها ألفاظ مسوولة لمحاولة بث الطمأنينة في قلبه وحرفه عن الاستعداد للحرب ، إذ يقول السلطان سليم للغوري في رسالته : ... أنت والدي وأسألك الدعاء ... وجميع ماترونه ويريد السلطان فعلناه^(٣) ... ومرة أخرى لم يتخذ الغوري بتلك الحيلة ، فلم يهضم على تسلمه رسالة السلطان سليم يومان حتى خرج على رأس جيشه إلى الشام ، بعد أن أناب عنه أثناء غيبته الأمير طومانباي .

وعند غزوة سمع السلطان الغوري لأول مرة بخيانة خاير بك ، ولكنه رفض تصديق النهمة ، ومضى في طريقه حتى وصل حلب في يوليو سنة ١٥١٦^(٤) .

(١) ابن دياس : بدائع الزهور ج ٥ ص ٢٣ (نشر محمد مصطفى)

(٢) ابن دياس : بدائع الزهور ج ٥ ص ٢٦ (نشر محمد مصطفى) .

(٣) المرجع السابق ج ٥ ص ٤٥ (نشر محمد مصطفى)

(٤) ابن زنبيل : آخره المالك ص ١٥ .

وهناك في حلب اعتدى جيش الغورى على الأهالى وأخرجوا الناس من بيوتهم
وسبوا حريمهم وأولادهم وكان ذلك سببا (فيما بعد) لقيام أهل حلب مع
السلطان سليم على الجراكسة ، لشدة ما حل بهم من الضرر منهم ،^(١) وكان
أن وصل معسكر الغورى في حلب رسولان من قبل السلطان سليم الثماني
يطلبان المفاوضة في الصلح ، وذلك بقصد خديعته وإحاطته بجو من السلامة
والعلمانية حتى يأخذه سليم على غرة . وقد تمادى الرسولان في التحويه على
الغورى فقالا له : نحن فوض لنا أستاذنا الأمر ، وقال مهما اختاره السلطان
افعلوه ولا نشاوروني . ويرى ابن إياس أنه من جملة مخادعة ابن عثمان بن
السلطان أنه أرسل يطلب منه سكر وحاوى فأرسل إليه السلطان مائة منظر
سكر وحاوى في علب كبار ، وكل ذلك حيل منه ،^(٢) ومع أن الغورى
استقبل الرسولين استقبالا حسنا وأرسل بدوره للسلطان سليم يؤكد رغبته
هو الآخر في الصلح ، إلا أن سلطان المماليك كان يحس بنية العثمانيين بتليل أن
الغورى استدعى أمراءه جميعا — ومن جملة خاير بك — وحلفهم على
القرآن في حضرة الخليفة العباسى بأنهم لن يخونوه في ساعة الشدة ، مما يدل
دلالة واضحة على أنه توقع الشر من سليم^(٣) .

ولم تلبث أن تحققت مخاوف الغورى ، إذ لم تكف تصل الإمدادات
بقيادة الصدر الأعظم سنان باشا إلى سليم ، حتى أساء معاملته الرسول الذى
أوفده الغورى إليه ورفض الحديث معه في الصلح وقال له دقل لأستاذك
يلاقينا على مرج دابق ، وهكذا درسول الغورى إليه وهو في حال نحس ، ليخبره
بما حدث ، وبأن العثمانيين تحركوا فعلا واستولوا على ملطيه وكركر وبهمنسا

(١) ابن زنبيل : آخره المماليك ص ٢٢

(٢) ابن إياس : بدائع الزهور ج ٥ ص ٦٠ (نشر محمد مصطفى) .

(٣) ابن زنبيل : ص ٢٤

وغير هامي القلاع^(١) وفي ذلك الموقف أدرك الأمير سيباى نائب الشام أن خاير بك غرر به عندما استعاضه على الكتابة للسلطان الغورى في مصر يطمأنه من ناحية سليم ، فهجم سيباى على خاير بك وأمسك به صائحا « يامولانا السلطان إن أردت أن تنتصر على عدوك بإذن الله ، فاقتل هذا الفادر الخائن في الحال » ،^(٢) ولكن خاير بك لم يكن وحده في الحياة إذ كان له شريك هو الأمير جابر دى الغزالي نائب حماه ، الذي أسرع بالتدخل وأقنع السلطان بعدم السماح لتلك النهم حتى لا يؤدي ذلك إلى بعثرة الجهود وفرقة الصفوف وبذلك ترك خاير بك عراً طليقاً ليتم الدور الذي بدأه^(٣) .

وكان أن خرج الغورى على رأس جيشه متجهاً شمالاً للاقاة العثمانيين . وعند دابق — إحدى قرى بلدة عزاز — أخذ الغورى ينظم جيشه ويصدر تعليماته النهائية استعداداً للمعركة المقبلة ولم تلبث أن لاحقت مقدمة الجيش العثماني ثم دارت المعركة بين الطرفين في أغسطس سنة ١٥١٦ . وفي تلك المعركة أبدى المماليك وسلطانهم الغورى شجاعة نادرة أفاضت في وصفها كتب التاريخ ، فقتلوا كثيراً من العثمانيين واستولوا على بعض عديم وأعلامهم ، حتى لقد فسكر السلطان سليم نفسه في « الهروب أو طلب الأمان ، عمى أن يتمكن من إعادة تنظيم صفوفه »^(٤) وفي تلك الساعة الحرجة ظهر خاير بك ليتم دوره الآن نأخذ يطلق الإشاعات الكاذبة بين صفوف المماليك المقاتلين ، فهو حيناً يشيع إن السلطان الغورى أمر مماليكه الأجلاب بالآية تدموا ، الأمر الذي جعل بقية حلوات المماليك يستاءرون من السلطان ويظنون أنه إنما ينبغي أن يجعلهم وحدهم

(١) ابن لباس : بدائع الزهور ج ٥ ص ٦٤ ، ٦٨ .

(٢) ابن زنبيل : آخره المماليك ص ٢٥ .

(٣) زيادة : نهاية السلاطين المماليك في مصر ص ٢١٨ .

(٤) ابن لباس : بدائع الزهور ج ٥ ص ٦٩ (نهر محمد مصطفى) .

وقود تلك الحرب ويحفظ بماليكه سلاماً معافين^(١) ؛ وحيناً آخر يشيع
خاير بك أن السلطان الغورى سقط قتيلاً في المعركة وبتراجع هو وجنوده
مولين الاديار ، ليحذو حذوهم بقية الجيش الماليكى^(٢) .

وأخيراً أدرك السلطان الغورى حقيقة اخيانه ، بعد أن وجد معظم جيشه
ولى الفرار . وحينئذ حاول الغورى أن يستحث جيشه على الثبات ، فأخذ يصيح
« يا أغوات ! هذا وقت المروءة هذا وقت النجدة ! يا أغوات ! تشجاعة !
صبر ساعة ! »^(٣) ، وكان أن تقدم الأمير ثمر الزردكاش إلى السلطان وأخذ
العلم السلطانى وطواه خشية أن يقع في يد الأعداء ، ثم نظر إلى السلطان
الغورى وقال له « يا مولانا السلطان ! إن عسكر ابن عثمان قد أدركنا ، فانج
بنفسك واهرب إلى حلب ! » ويقال إن الغورى لم يحتمل فسوة الموقف
فأصيب بفالج وطلب بعض المساء ليشرب ، ثم سقط من فوق فرسه ميتاً
على الأرض^(٤) .

وهكذا انتهت موقعة مرج دابق ، وهى الموقعة الفاصلة بين الماليك
والعثمانيين التى حددت مستقبل مصر والشام لعدة قرون تالية . ذلك أن ملول
الجيش الماليكى أسرعت إلى حلب ومنها إلى دمشق فمصر دوم فى آنحس حال ،
فوصلوا القاهرة فى أكتوبر سنة ١٥١٦ ، وعندما تأكد أهل القاهرة من خبر

(١) ابن زنبيل : آخره الماليك ص ٢٨ .

(٢) ويفهم من كلام المؤرخ ابن لياس (ج ٥ ص ٧٩) أن خاير بك لم يكن وحده فى
جريمة الخيانة ، وإنما وجد كثيرون من أمراء الغورى وخصيائه كانوا موالين عليه ... وكانوا
مع ابن عثمان فى الباطن ويكابرونه بأحوال السلطان وما يقع من أخبار المملكة . ويشهد
هذا على مدى انحلال الماليك فى أواخر أيامهم .

(٣) ابن زنبيل آخره الماليك ص ٣٠ .

(٤) ابن لياس : بدائع الزهور ، ج ٥ ص ٧٠ (نهر محمد مصطفى) .
(ويرى ابن لياس أنه لم يثر على أثر لجثة السلطان الغورى قبلاً بعدة وثائق
الأرشيف التى وابتلته فى الحال » ، فى حين روى ابن زنبيل (ص ٣١) أن بعض أمراء
الماليك قطعوا رأس الغورى ورموا بها فى حب حتى لا يعرف مسلم جثته) فيثبت بها .
(١٣ - - العصر الماليكى)

الهنزية بعد أن رأوا بأعينهم فلول الممالك وقد عادوا في حالة سيئة من الكسرة والهنزية ، سرت فيهم موجة من الرعب والخوف ، فقام العزاء والصراخ ... ورجت القاهرة في ذلك اليوم وكثر الاضطراب والقال والقليل ... ولم تكن هناك فسحة من الوقت للبحث والنقاش ، فأسرع الأمراء في مصر باختيار طومان باي - نائب السلطنة - سلطاناً خلفاً للغوري فتمنع طومان باي في أول الأمر غاية الامتناع حتى قال له الأمراء : ما عندنا نسلطان إلا أنت طوعاً أو كرهاً (١) . ومن الواضح أن منصب السلطنة في تلك الظروف كان غير مرغوب فيه ، بما جعل كبار الأمراء يهذبون فيه . هذا إلى أن طومان باي - وهو أحد أمراء الممالك - كان يعرف ما اعتري أخلاف الممالك في ذلك الدور من تدهور وفساد ، فلم يقبل السلطنة إلا بعد أن أحضره مصحفاً شريفاً وحلف الأمراء بأنهم إذا سلطنوه لا يخونونه ولا يخذلونه ولا يظلمون عليه ويرضون بقوله وفعله (٢) .

ولم تلبث أن جاءت الأخبار بأن العثمانيين استولوا على الشام فقال الناس : ما بقي بعد أخذ الشام إلا مصر ، فاشتد الطلح وأخذ كثيرون يفسكرون في الهروب إلى الصعيد ، في الوقت الذي كان الناس دجرحهم طرى بسبب موت السلطان (الغوري) وكسرة العسكر (مرج دابق) .

وفي تلك الأزمة الخطيرة لم يقدر جنود الممالك الموقف ، فاشتدوا على طومان باي للخروج والحرب مصاريق باهظة ، في الوقت الذي استولى العثمانيون على دمشق ودخلوا فملا غزة ، وأحرقوا منها بعض بيوت ، وأن نائب غزة هرب . وهكذا أخذ طومانباي يستحث العوام من الذعر والصبيان

(١) ابن إياس : بدائع الزهور ج ٥ ص ٨٥

(٢) المرجع السابق ص ٨٦

والشطار ، حيناً ؛ ويتوسل إلى الممالك أحياناً ويقول لهم : اخرجوا وقاتلوا
من أنفسكم وأولادكم وأزواجكم ؛ فإن بيت المال لم يبق فيه درهم ولا دينار ،
وأنا واحد منكم ؛ إن خرجتم خرجت معكم ، وإن قعدتم قعدت معكم ؛
وما عندي نفقة أنفقها عليكم^(١) . ١١١ .

ولم يتحرك الممالك لدفع خطر الأعداء عن حدود مصر إلا في ديسمبر
سنة ١٥١٦ ، فخرجت حملة على رأسها جان بردى الغزالي - وهو الأمير الحائن
شريك بخار بك . وقد رأى جان بردى الغزالي أن يسبك دونه في الحياة ،
فلما رأى أن العثمانيين استولوا على غزة خرج عنها واتجه شمالاً حيث تظاهر
باشبكاك مع العثمانيين في معركة تمثيلية قرب بيسان ، وانهم فيها^(٢) .

وفي أوائل سنة ١٥١٧ تسلم طومان باي رسالة من السلطان سليم العثماني
يعيره فيها بأصله المماليكي ، ويقول له : إنك مملوك تباع وتشتري ولا تصح
لك ولاية ملك ، ويطلب منه أن يكون نائباً عنه في مصر ، ويهدده إذا رفض
ذلك بأنه سيدخل مصر ويقتل جميع من فيها من الممالك ، « أشقى بطون الخوادم
وأقتل الجنين الذي في بطنها من الأتراك^(٣) » ، وفي الوقت الذي أرسل السلطان
سليم رساله وسفراه لمطالبة طومانباي بالدخول في طاعته ، دأب بخار بك
الحائن على تسهيل مهمة العثمانيين ، فواصل إرسال الكتب إلى أمراء مصر
د يرغبهم في الدخول تحت طاعة ابن عثمان ويطلب في محاسنه وعده في الرعية^(٤) .

(١) ابن لباس : بدائع الزهور ج ٥ ص ١١٩ - ١٢١ (نشر محمد مصطفى) .

(٢) ابن زنبيل : آخرة الممالك ص ٤٥ - ٤٦ .

محمد مصطفى : زيادة : نهاية سلاطين الممالك ص ٢٢١ .

(٣) ابن لباس : بدائع الزهور ج ٥ ص ١٢٥ .

(٤) ابن لباس : بدائع الزهور ج ٥ ص ١٢٥ .

ويروى ابن زنبيل (ص ٤٢) أن السلطان سليم لم يكن في نيته أن يفرز مصر
وأنه بعد أن استولى على حلب والشام فسكن في العودة إلى بلاده ولا يخير بك الذي حرضه على -

وقد أحس السلطان طومان باى بمرج موقفه وعظم الخطر الذى يهدده ويهدد مصر ، حتى يقال إنه عندما تسلم رسالة سليم العثمانى د بكن وحصل له غلبة الرعب ، ومع ذلك فقد صمم طومان باى على الخروج لدفع العثمانيين ، ولكنه لم يجد استجابة من المماليك الذين تناذلوا ورفضوا الخروج ، بل تطاولوا على السلطان طومان باى وقالوا له : إن رحمت لعنة الله عليك ؛ غيرك يحى يعمل سلطاناً^(١) ، وعندئذ لم يسع طومان باى سوى الوقوف عند الريدانية - قرب العباسية بظاهر القاهرة - واتخاذ تلك البقعة مركزاً للدفاع ضد الغزو العثمانى للبلاد ، ولكن العثمانيين الذين وصلوا عن طريق الشرقية فى أواخر يناير سنة ١٥١٧ حاولوا دخول القاهرة وتحاشى الاصطدام بالمماليك ، فلاحق بهم طومانباى وأظهر د همة عالية ، ودارت معركة عنيفة بين الطرفين قتل فيها سنان باشا الصدر الأعظم ، واستمر طومانباى يقاوم فى شجاعة نادرة ؛ حتى ألقى نفسه وحيداً فى نهاية الأمر ، فاضطر إلى الفرار^(٢) . والواقع أنه لم يكن هناك ثمة مناص من هزيمة الريدانية ، لأن الأمير جان بردى كان متصلاً بشريكه الخائن خاير بك ، ولم يمتنع بإفشاء خطة المماليك عن طريق خاير بك إلى السلطان سليم مما أدى إلى تجنّب العثمانيين تحصينات الريدانية ؛ بل نجح فى إقناع طومانباى بضرورة إخفاء الطوارق والمكاحل حتى المرحلة الأخيرة من مراحل القتال ، مما كان له أسوأ الأثر فى الجند حين وجدوا أنفسهم وراء الخندق معرضين لبنادق العثمانيين^(٣) .

ومن الواضح أن هزيمة المماليك فى الريدانية جعلت القاهرة تحت رحمة

== عن مصر ، وقال له : « نركب إلى مصر نأخذها ، ونقطع هذه الطائفة الجراكسة من أرض مصر جلة واحدة ، وأنا ضامن لك هذا الأمر بنهاية الحق »

(١) ابن لياس : بدائع الزهور ج ٥ ص ١٢٦ .

(٢) محمد مصطفى زيادة : نهاية السلاطين المماليك ص ٢٢٤ .

(٣) ابن لياس : بدائع الزهور ج ٥ ص ١٤٥ - ١٤٦ (نفس محمد مصطفى) .

العثمانيين ، فدخلت الجيوش العثمانية مدينة القاهرة في اليوم التالي لموقعة الريدانية - وهو يوم الجمعة ٢٣ يناير سنة ١٥١٧ - دون أن تلقي مقاومة؛ وفي ذلك اليوم بالذات دعى في خطبة الجمعة في مساجد القاهرة للسلطان ، الملك المظفر سليم شاه ، وكان طبيعياً أن يعمل العثمانيون السيف في كل من صادفوه من الماليك في شوارع مصر ؛ كما استباحوا لأنفسهم نهب القاهرة ، فافتحت للعثمانية كنوز الأرض بمصر من نهب قماش وسلاح وخيول وبغال وجوار وهبيد وغير ذلك من كل شيء فاخر ... (١) . أما طومانباي الذي فر من الريدانية فإنه لم يلق السلاح في سهولة ، وإنما استمر يقاوم المعتدين ، واشتبك معهم في معركة الصليبة ، ولكنه هزم وفر إلى الهلسا بالصعيد حيث فكر في الصلح مع سليم ؛ (٢) فأرسل يعرض عليه أن يكون نائباً عنه في حكم مصر ويحمل الخطبة والسكة بإسمه ، ويحمل له خراج البلاد ؛ بشرط أن يرحل سليم وجنوده عن مصر ، وإن كنت ما ترضى بذلك فاخرج ولا تقبض في براجميزة (٣) ، وكان طبيعياً أن يرفض سليم العثماني الجلاء عن البلاد بعد أن تمكن منها ، فعاد طومانباي إلى الجيزة حيث دارت اشتباكات بينه وبين العثمانيين عبر النيل ؛ ثم التقى الفريقان في معركة حامية هُزم فيها وردان في أول أبريل سنة ١٥١٧ ، ولما انتهت أيضاً بانتصار العثمانيين .

وهكذا لم يأس طومانباي من المقاومة واستمر في ذلك الدور ينزل أفدح الحساير بالعثمانيين ، الأمر الذي أغاظ السلطان سليم ، فصب جام غضبه على خاير بك الذي حرضه على فتح مصر ، وقال له : أنت أفررتني وطمعتني في أخذ

(١) ابن لباس : بدائع الزهور ج ٥ ص ١٥١ - ١٥٥ .

(٢) المرجع السابق ص ١٥٩ - ١٦٣ .

(٣) المرجع السابق ، ص ١٦٦ .

هذا الإقليم ، فانظر كيف تصنع ودبر نفسك كيف تعرف ، وإلا فهيا برأسك ١١ ، (١) .

أما طومان باي فقد تعرض في ذلك الدور لعقبات شديدة بسبب تفرق رجاله وانفصاحهم عنه ، فضلا عن خيانة البدو والأعراب الذين دأبوا على مهاجمته مما أوقعه بين نارين . وأخيراً وجد طومان باي نفسه وحيداً عاجزاً عن المقاومة ، فجمع من حوله من أفراد المماليك وقال لهم : لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ١١ اعلوا يا أغوات أن دولتنا قد دالت وآجالنا قد مالت ، وما بقي لنا في هذه الديار نصيب ١١ ، ولم يجد طومان باي مخرجاً سوى أن يهتدى في مدينة سخا بالشيخ حسن بن مرعي - أحد مشايخ العربان وكان بينه وبين طومان باي صداقة قديمة - ولكنه الشيخ خائنه ، وأرسل إلى سليم وسلمه إليه (٢) . وما كاد السلطان سليم يتحقق من خبر القبض على طومان باي حتى فرح فرحاً شديداً وقال : الآن ملكنا ملك مصر ١ ، (٣) . وكان أن أحضر طومان باي مقيداً بالجديد في حضرة السلطان سليم الذي أخذ يوبخه ويقرعه على مقاومته وأنعاله ، ولكنه طومان باي لم يفقد رباطة جأشه ووقف أمام سليم ليدافع في شجاعة عن سلوكه ويعلن في صراحة أنه لم يفعل إلا ما عليه عليه واجبه وشرفه ، وما يؤثر عن طومان باي في ذلك الموقف أنه قال للسلطان سليم العثماني : الآنفس التي تربت في العز لا تقبل الذل ، وهل سمعت أن الأسد يخضع للذئب ؟ لا أنتم أفرس منا ولا أشجع منا ، وليس في مسرك من يقايسني في حومة الميدان ١١ ، ويذكر ابن إياس أن السلطان سليم أعجب فعلاً بشجاعة غريمه فأشار إلى طومان باي وقال : والله مثل هذا الرجل لا يقتل ، وأوشك

(١) ابن زنبيل : آخره المماليك ص ٧٠ .

(٢) ابن زنبيل : آخره المماليك ص ١٢٢ - ١٣١ .

(٣) ابن زنبيل : آخره المماليك ص ١٣٢ .

أن يبقى على حياته فيرسله منفياً إلى مكة أو يصطحبه معه إلى القسطنطينية ،
لولا تهريب الخائنين خاير بك وجانبردي للسلطان سليم ، مما جعله يأمر
بإعدام طوما بباي^(١) .

وقد تلقى آخر سلاطين الماليك القرار بإعدامه في مصر وثبات ، فحمل
إلى باب زويلة في اليوم المحدد لإعدامه ، وأخذ يسلم على الناس على طول
الطريق ، حتى أرخى له المشاعلي جبل المشقة ، وعندئذ طلب طومان باي
من الناس أن يقرأوا له الفاتحة ثلاث مرات ، وبسط يديه إلى السماء وقرأ
الفاتحة من نفسه في صوت مسموع ، ثم التفت إلى المشاعلي وقال له : اعمل
شغلك ، فوضع الجبل في رقبتة ، وما هي إلا لحظات حتى سقط آخر سلاطين
الماليك ميتاً على عتبة باب زويلة . وبذلك انتهت سلطنة الماليك لتظل مصر
والشام بضعة قرون تحت السيادة العثمانية^(٢) .

(١) ابن أبياس : بدائع الزهور ج ٥ ص ١٧٥ .

ابن زبيل : آخره الماليك ص ١٣٦ .

(٢) ابن أبياس : بدائع الزهور ج ٥ ص ١٧٦ .

الفصل السابع

بلاد الشام في عصر سلاطين المماليك

استمرار نفوذ المماليك إلى الشام :

رأينا عند كلامنا على قيام دولة المماليك ، كيف أن بني أيوب لم يرضوا بما فعله المماليك في مصر من قتل توران شاه واغتصاب حكم مصر من أصحابها الشرعيين من بني أيوب ، وقد حاول الملك الناصر يوسف الأيوبي صاحب حلب ودمشق غزو مصر والقضاء على المماليك سنة ١٢٥٠ ، ولكن أقطاي هزمهم عند غزة . وعندما تكررت المحاولة في نفس العام ، أنزل أيلك هزيمة كبرى بالجيوش الأيوبية عند العباسية قرب الصحاحية (١) .

والواقع أنه لم يخفف من حدة الصراع في ذلك الدور بين الأيوبيين في الشام والمماليك في مصر سوى اشتداد خطر التتار بزمامة هولاكو على الوطن العربي في الشرق الأدنى . وكانت الخلافة العباسية في بغداد أشد إحساساً بذلك الخطر ، بحكم تطرف العراق نحو الشرق ، فأسرع الخليفة العباسي بإصلاح ذات البين بين الأيوبيين بالشام والمماليك بمصر . حتى تم الصلح بين الطرفين في أبريل سنة ١٢٥٣ ، وبمقتضى ذلك الصلح تم الاتفاق على أن يكون اسلمطنة المماليك نحو الأردن بما في ذلك غزة والقدس ونابلس والساحل ، في حين تكون بقية بلاد الشام للأيوبيين (٢) .

(١) المقريزي : السلوك ج ١ ص ٣٧٢ — ٣٧٤

أبو الفدا : المختصر ، ج ٣ ص ١٨٤ .

(٢) المقريزي : السلوك ، ج ١ ص ٣٨٥ .

وترجع أهمية ذلك الصلح إلى أنه جاء بمثابة اعتراف رسمي من الأيوبيين وعلى رأسهم الملك الناصر يوسف الأيوبي بدولة المماليك . وليس معنى ذلك أن الأيوبيين رضوا عن حقيقة قيام دولة المماليك على حساب جزء من ممتلكات بني أيوب ، بل ظل الأيوبيون رغم صلح سنة ١٢٥٣ في حالة قلق وعدم رضى ، بدليل أنهم انتهزوا فرصة هرب بعض زعماء البحرية إلى الشام عقب مقتل أقطاي وقاموا بمحاولة جديدة لهدم دولة المماليك والاستيلاء على مصر سنة ١٢٥٥ (١) . ومرة أخرى أسرع الخليفة العباسي إلى التوفيق بين الطرفين ، وتجديد الصلح بين الناصر يوسف والمعن أيك . هذا وإن كان زعماء البحرية بالشام قد حرضوا الملك المنيف عمر الأيوبي في الكرك على مهاجمة مصر ، ولكن المحاولتين اللتين قام بهما المنيف عمر سنتي ١٢٥٧ ، ١٢٥٨ باءتا بالفشل (٢) .

ثم كان أن حدث ما توقعته الخلافة العباسية ، فاجتاح التتار العراق وسقطت بغداد في أيديهم سنة ١٢٥٨ ، وبعد ذلك جاء دور الشام ومصر . وفي تلك الأزمة التي ألمت بالوطن العربي في الشرق الأدنى أظهر الأيوبيون نخاضاً واضحاً ، فأرسل الناصر يوسف ابنه العزيز إلى هولاكو يطلب منه مساعدته في القضاء على دولة المماليك وفتح مصر . حقيقة إن الناصر يوسف عاد فأحس بخطر التتار على ممتلكاته في بلاد الشام ، ولكن ذلك كان بعد فوات الأوان ، فنجح هولاكو في امتلاك حلب ودمشق ، وزحف التتار جنوباً في فلسطين صوب مصر (٣) .

ومن المعروف أن الوظيفة الأولى لأي حاكم أو أية حكومة هي توفير الأمن

(١) أبو الفدا : المختصر ، ج ٣ ص ١٩٠ .

(٢) أبو الحسن : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٤٥ .

(٣) أبو الدا : المختصر ، ج ٣ ص ١٩٩ .

العزيزي : السلوك ج ١ ص ٤١٩ .

والسلام والاستقرار للرباب وحمايتهم من الأخطار الخارجية والداخلية التي قد يتعرضون لها . فإذا فشل الحاكم أو فشلت الحكومة في تحقيق ذلك الغرض فقدت أهميتها التي قامت من أجلها ، وبدأت في نظر الشعب في صورة غير شرعية فلا داعي لتقديم الولاء والطاعة لحاكم ليس أهلاً للنهوض بالمهمة الأساسية التي رشخه الأحداث لها . ومعنى ذلك أنه إذا كان ملوك البيت الأيوبي بالشام قد نادوا دائماً بأنهم ورثة صلاح الدين وأنهم هم أصحاب الحق الشرعي في حكم مصر والشام ، فإن هذه الدعوى لم يعد لها سند واضح بعد أن عجز الأيوبيون عن دفع خطر التتار ، فسقطت بلاد الشام مدينة بعد أخرى في قبضة رجال هولاكو ، بل لقد انغم بعض ملوك بني أيوب إلى صفوف التتار وعاونوهم في زحفهم . وتروى لنا المراجع أن حلب لم تكن تسقط في أيدي التتار حتى أسرع الأشرف موسى الأيوبي صاحب حمص إلى حلب ليقدّم فروض الطاعة لهولاكو ، في حين فر الملك المنصور صاحب حمص إلى مصر ومعه حريمه وأولاده تاركاً حمص وشأنها (١) . أما الناصر يوسف فقد فر من دمشق إلى غزة عن طريق نابلس بنية الهروب إلى مصر وترك دمشق خالية (٢) . ولكن الناصر يوسف لم يلبث أن وقع في قبضة التتار فمعاذنه هولاكو ووعدوه بإعطائه حكومة الشام بعد أن يستولى التتار على مصر ، فاستمر الناصر يوسف تابعا لهم وبقى معهم في ذل وهوان إلى أن قتل (٣) . كذلك وقع الملك السعيد - ابن الملك العزيز عثمان الأيوبي - في قبضة هولاكو الذي ولّاه على الصببية وبانياس . ولم ينجح الملك السعيد بعد ذلك من معاونة التتار ومصاحبتهم فصار معهم وأعلن الفسق

(١) القرظي : السلوك ، ج ١ ص ٤٢٢

أبو الفدا : المختصر ، حوادث سنة ٦٥٨ هـ .

(٢) القرظي : السلوك ج ١ ص ٤٢٣

(٣) أبو الحسن : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٧٧ .

والفجور وسفك دماء المسلمين .. (١) .

ولاشك في أن ذلك السلوك الشائن الذي سلمه ملوك الأيوبيين في الشام جاء بمثابة فصل الختام لدولتهم ، وإعلانا لتنازلهم عن حقوقهم في الملك بعد أن نقاعسوا عن حماية ذلك الملك . وصار منطق الأحداث يحتم أن تدول دولة بنى أيوب ليرثهم في ملكهم إما التنازل وإما الممالك ، حسبما تقرره الممركة المنتظرة بين هاتين القوتين (٢) .

وفي الوقت الذي أثبتت الأحداث ضعف الأيوبيين وعجزهم عن حماية المسلمين في بلاد الشام من خطر التتار ، لمذا بالممالك يظهر أن على المسرح لينزلوا بالتنازل ضربة كبرى في موقعة عين جالوت سنة ١٢٦٠ ، وبذلك ظهر الممالك في صورة القوة الكبرى في الشرق الأدنى التي استطاعت أن تحمي كيان أهل مصر والشام من ذلك الخطر الوثنى الرهيب . ولاشك في أن فعل الأيوبيين في صد خطر التتار ، ونجاح الممالك في القضاء على ذلك الخطر ، جاء بمثابة فصل الخطاب بين الممالك والأيوبيين ، وخاتمة لحركة التنافس بين هاتين القوتين على مسرح الشام ، بعد أن صار من الواضح أن قوة الأيوبيين المتداعية لن تستطيع بحال الصمود في وجه نهضة التتار .

وكان أن استطاعت جيوش الممالك بعد عين جالوت إجلاء التتار عن دمشق وحماه وحلب ومطاردتهم حتى أطراف بلاد الشام . ومعنى ذلك أن نفوذ الممالك امتد إلى بلاد الشام فجأة بعد عين جالوت ، فأناج السلاطان المظفر قطار الأمير سنجر الحلبي في دمشق ، وإذا كان المظفر قطار قد أقر بعض ملوك بنى أيوب في حكم بلاد الشام — مثل الأشرف موسى صاحب حمص والملك المنصور

(١) أبو القدا : المختصر ، حوادث سنة ٦٥٨ هـ

المقريزي السلوك ج ١ ص ٤٢٠

2) Grousset : Hist des Croisades, III, p. 586 - 587

صاحب حماه — فإن هؤلاء الملوك الأيوبيين تغير وضعهم وأصبحوا تابعين لسلطان المماليك في مصر (١). ولم يبق من ملوك الأيوبيين بالشام من ظل خارجا عن نفوذ سلطنة المماليك سوى الملك المنيف عمر صاحب السكر والشوبك، فأرسل السلطان الظاهر بيبرس سنة ١٢٦١ من نوابه من أسلم الشوبك من الملك المنيف. كما قبض على الملك المنيف نفسه سنة ١٢٥٣ واحتقله في قلعة الجبل وعين أحد أمرائه نائبا للسكر (٢).

وإذا كان المماليك قد ظهروا في صورة وراثية الأيوبيين في حكم مصر والشام؛ فإن معنى ذلك أن المماليك لم يرثوا الأيوبيين في ملكهم العربي فحسب، بل أيضا في سياستهم الخاصة بالجهاد. هذا بالإضافة إلى أن المماليك كانت عندهم عقدة كبيرة من ناحية أصلهم غير الحر، فضلا عن اغتصابهم الحكم من أصحابه الشرعيين وهم الأيوبيون، ولذلك حرص المماليك منذ أن استقرت لهم الأوضاع في مصر والشام على أن يظهروا أمام أهل مصر والشام في صورة حماة المسلمين وزعمائهم في حركة الجهاد ضد الصليبيين. ولم يلبث سلاطين المماليك أن استأنفوا سياسة الأيوبيين، بحيث أنه لم يكذب بعض على قيام دولة المماليك نحو ما أربعين سنة حتى تم طرد الصليبيين نهائيا من بلاد الشام، وبذلك أصبحت لا توجد قوة تهيمن على بلاد الشام غير قوة المماليك.

ذلك أن السلطان الظاهر بيبرس استولى على قيسارية سنة ١٢٦٥، ثم استولى على أرسوف بعد قليل وعلى صفد في العام التالي (٣). ولم يلبث أن أخذ يتابع انتصاراته في سرعة مذهلة، فاستولى على طبرية وعلى قلعة يافا سنة ١٢٦٨

(١) المقرئى السلوك ج ٩ ص ٤٣٢.

(٢) المرجع السابق ص ٤٤٧.

ابن واصل: مفرج السكروب ج ٢ ورقة ١١٣ (مخطوط).

(٣) ابن أبي الفضائل: النهج السديد ص ١٣٢، ١٤٨.

ثم على العقيف ، حتى توج انتصاراته على الصليبيين بالاستيلاء على أنطاكية
— كبرى المدن الصليبية في شمال الشام — في مايو سنة ١٢٦٨^(١) .

ولم يكن خلفاء بيبرس من سلاطين المماليك أقل حماسة لمحاربة الصليبيين
فاستطاع السلطان المنصور قلاوون الاستيلاء على طرابلس سنة ١٢٨٩ ،
وبذلك لم يبق للصليبيين من مملكتهم العريضة ببلاد الشام سوى عكا وصيدا
وصور وعسليت ، وقد استولى السلطان الأشرف خليل بن قلاوون على عكا
سنة ١٢٩١ ، ولم تكبد تنتهى تلك السنة حتى استسلمت آخر البقايا الصليبية
بالشام وبذلك تم طرد الصليبيين نهائيا من تلك البلاد^(٢) .

وبتطهير بلاد الشام عن انتشار والصليبيين جميعا ، استقرت الأمور نسبياً
للمماليك في بلاد الشام كما أن تلك البلاد دخلت دوراً جديداً في تاريخها
يتناسب وأهميتها الجغرافية والسياسية والاقتصادية من ناحية ، فضلاً عن
أهميتها بوصفها إقليماً هاماً من الإقليمين الكبيرين اللذين تألفت منهما دولة
المماليك من ناحية أخرى .

التقسيم الإدارى لبلاد الشام فى عصر المماليك :

قسم المماليك بلاد الشام من الناحية الإدارية إلى ستة أقسام تسمى نيابات ؛
تخضع للحكومة المركزية فى القاهرة . أما هذه النيابات فهى نيابة دمشق ونيابة
حلب ونيابة طرابلس ونيابة حماه ونيابة صفد ونيابة الكرك ، ويبدو أن
هذا التقسيم فى حد ذاته كان ضرورياً لأنه يتفق مع طبيعة بلاد الشام
الجغرافية حتى أن معظم تلك النيابات التى نراها فى بلاد الشام على عصر
سلاطين المماليك ، إنما كانت فى حقيقة أمرها أقساماً إدارية واضحة فى

(١) تميمه عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ١١٤

(٢) أبو اللدا : المختصر ، حوادث سنة ٦٩٠ هـ .

المصور السابقة ، بل لقد وصل بعضها فعلا - قبل عصر المماليك - إلى درجة الدول المستقلة ، مثل طرابلس ودمشق وحلب^(١) على أنه ينبغي من باب الدقة التاريخية أن نشير إلى أثر عصر الحروب الصليبية بالذات في إبراز أهمية بعض أقاليم الشام ، مما تطلب جعلها نيابات ، وذلك مثل نيابة السرك ذات الموقع الهام على ملتقى الطرق البرية بين مصر والشام والحجاز ، مما جعلها تقوم بدور خطير بالنسبة لمواصلات المسلمين على عصر الحروب الصليبية .

وثمة ملحوظة أخرى هي أن تلك النيابات الست لم تنشأ في وقت واحد أو سنة واحدة ، لأن طبيعة انتشار النفوذ المماليكي على بلاد الشام انصرفت بالتدرج ، الأمر الذي جعل ظهور التقسيم الإداري لبلاد الشام في عصر المماليك يأتي على مراحل . من ذلك أن تاريخ إنشاء نيابة دمشق وحلب يأتي سنة ١٢٦٠ عقب هزيمة التتار في عين جالوت مباشرة أما حماء - فكما سبق أن ذكرنا - اختار المماليك عقب عين جالوت أن يبقوا على الأيوبيين فيها ، فعفا السلطان قطر عن الملك المنصور الثاني الأيوبي صاحب حماء وأقره على حكمها^(٢) ، وبذلك لم تصبح حماء نيابة في عصر المماليك إلا سنة ١٣٤١ ، أي بعد وفاة المؤيد على آخر ملوكها من بني أيوب . وأما نيابة السرك فيبدأ تاريخها في عصر المماليك سنة ١٢٦٣ على عهد السلطان بيبرس أيضاً ، ومثلها نيابة صفد التي ترجع إلى سنة ١٢٦٦ ، أما نيابة طرابلس فتتبع لشأنها إلى عهد السلطان قلاوون الذي استولى على تلك المدينة من الصليبيين سنة ١٢٨٩^(٣) .

Demombynes : La Syrie a l'époque des Mamelouks, (١)
p. 106.

(٢) المهریزی : السلوك ج ١ ص ٤٣٣ .

(٣) المهریزی : السلوك ج ١ ص ٧٤٧ ، أبو الحسن : المعجم ج ٧ ص ٢٢١

ولما كانت كل من هذه النيابات الشامية لها وضعها الخاص ، وتمتد لتشمل مساحة كبيرة ، ويتبعها من الناحية الإدارية عدد من المدن أو الموانئ أو القلاع الهامة ؛ فإنه روعى أن تقسم كل نيابة منها إلى أقسام إدارية صغيرة هي التي أطلق عليها القلقشندي اسم «النيابات الصغار»^(١). ولكي تتضح صورة كل نيابة من هذه النيابات في عصر المماليك يحسن تناولها بكلمة موجزة :-

أولا : نيابة دمشق . ، وهي كبرى نيابات الشام في عصر المماليك ، حتى أطلق عليها القلقشندي اسم « نيابة الشام » ، أو «مملكة الشام» ؛ ووصفها بأنها « أجل نيابات المملكة الشامية وأرفعها في الرتبة »^(٢). وقاعدة هذه النيابة مدينة دمشق التي اختصها سلاطين المماليك بعنايتهم وأقاموا فيها كثيرا من المنشآت . من ذلك ما يقال من أن الظاهر بيبرس جدد شرفات قلعة دمشق ورءوس أبراجها التي كان التتار قد هدموها ، وبنى فيها حماما ، كما جدد مشهد زين العابدين رضى الله عنه بجامع دمشق ، وأمر بتزخيم الحائط الشمالي وتحديد باب البريد وفرشه بالبلاط . هذا كله عدا القصر الألبق الذي شيده بيبرس بالميدان في دمشق ، وما حوله من العمار^(٣).

وكان يتولى أمر مدينة دمشق وإلى ينظر في شؤون المدينة ويتحدث في أمر الشرطة ، في حين كان يتولى أمر ضواحي دمشق - وهو الإقليم الذي يعرف باسم البر - وإلى آخر^(٤). وكان يقبع نيابة دمشق عدة نيابات صفرى وولايات . أما النيابات الصفرى فأهمها غزة والقدس وصرخند وعجلون وبعبك وسهمس ومصيف والرحبة ؛ مع ملاحظة أن غزة صارت أحيانا نيابة قائمة بنفسها

(١) القلقشندي : صبح الأعشى ج ١٢ ص ٩٠

(٢) المرجع السابق : ج ٤ ص ١٨٠ ، ١٨٤ .

(٣) ابن شاكر السكتيبي : فوات الوفيات - ترجمة بيبرس .

(٤) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ١٨٧ .

في القرن الرابع عشر^(١). وأما ولايات نيابة دمشق فديدة أهمها الرملة وبيسان والبقاع وبيروت وصيدا وقارا وغيرها .

ثانيا : نيابة حلب ؛ وكانت تتمتع هي الأخرى بأهمية خاصة في عصر المماليك نظراً لخطورة موقعها على الأطراف الشمالية لدولة المماليك مما جعلها محورا لكثير من أحداث العلاقات المضطربة بين المماليك من ناحية وجيرانهم مثل التتار والتركمان والعثمانيين من ناحية أخرى . لذلك اشتملت نيابة حلب على عدد كبير من النيابات الصغرى ليس له مثيل في بقية نيابات الشام ؛ ومن هذه النيابات الصغرى التابعة لنيابة حلب نيابة قلعة الروم أو قلعة المسلمين غرب الفرات في مواجهة البيرة ، ونيابات الكرخا وكركر وبهمنى وشمصاط وعينتاب ودريساك والراوندان وبغراس والقصير والشعر وبكاس . هذا فضلا عن عدد آخر من النيابات الصغرى كانت تقع خارج حدود الشام ولكنها تتبع نيابة حلب بحكم ملكية دولة المماليك لها . ومعظم هذه النيابات الصغرى الأخيرة كانت داخل بلاد الأرمن ، مثل ملطية وديرك ودرندة والابستين وإياس وطرشوس وأذنه وغيرها^(٢).

أما ولايات النيابة الحلبية فأهمها برحلب وكفرطاب وعزاز وتل باشا ومنبج وتيزين والباب وبزعا وأنطاكية^(٣).

ثالثا : نيابة طرابلس ؛ وكانت تشمل من النيابات الصغرى نيابة حصن الأكراد ونيابة حصن عكار ونيابة بلاطاس ونيابة صهيون ونيابة اللاذقية ؛ هذا فضلا عن ست نيابات صغرى أخرى أسماها القلعة فندى ونيابات قلاع

(1) Demombynes, op cit., p 174

ابن فضل الله العمري : التعريف ص ١٧٧ .

(٢) الفلقفندي : صبح الأعشى ص ٢٢٦ وما بعدها .

(٣) المرجع السابق ج ٤ ص ٢٣ .

الدعوة ، أى أنها كانت مراكز جماعة الاسماعيلية الباطنية ، وهى نيابة الرصافة ونيابة الخوازي ونيابة القدهوس ونيابة الكهف ، ونيابة المنيفة ونيابة القلعة .

أما الولايات التابعة لنيابة طرابلس فعددتها ست هي : أنطوطوس ، وجبة المنيطرة ، والظنين ، وبشرية ، وجبله وأنفة^(١) .

رابعا : نيابة حماه ، ومركز هذه الولاية مدينة حماه ، ولا يتبعها نيابات صغرى ، وإنما يتبعها ثلاث ولايات هي : ولاية برحماه ، وولاية بارين ، وولاية المعرة^(٢) .

خامسا : نيابة صفد ، وهى المدينة الحصينة التى ترتفع عن سطح البحر نحو من ألف وستمائة قدم ، والتى جدد يبرس قلعتها بعد أن استولى عليها من الصليبيين ، وليس لهذه النيابة نيابات صغرى - مثل نيابة حماه - وإنما تتبعها إحدى عشرة ولاية هى ولاية برصفد ، وولاية الناصرة وولاية طبرية ، وولاية تبنين وهونين وولاية عثليث وولاية عكا ، وولاية صور وولاية الشاغور وولاية الإقليم ، وولاية الشقيف ، وولاية جينين^(٣) .

سادسا : نيابة الكرك ، وليس لها نيابات صغرى هى الأخرى وإنما تتبعها أربع ولايات هى ولاية ير الكرك ، وولاية الشوبك ، وولاية زغر ، وولاية معان^(٤) .

(١) الفلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ٢٣٥ - ٢٣٦ .

(٢) المرجع السابق ص ٢٣٩ .

(٣) الفلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ٢٤٠ - ٢٤١ .

(٤) المرجع السابق ص ٢٤٢ .

وبعد ، فهذا عرض موجع لنيابات الشام في عصر المماليك أمام أنظمة الحكم في تلك النيابات ، فأول ما يلاحظ عليها أن كلامها كانت صورة مصغرة لسلطنة المماليك الكبرى في مصر . حتى لقد أطلق الفقه شندى على تلك النيابات اسم « الممالك الشامية » وقال إن « كل مملكة منها قد صارت نيابة سلطنة مضاعفة للمملكة المستقلة » .

ولنفصيل ذلك نقول إن كل نائب من حكام النيابات الشامية كان في حقيقة أمره « سلطاناً مختصراً » ، مع تهميته لسلطان مصر ، فكان لكل نائب حاشيته ومواليك وأتباعه ، وأطلق عليه أحياناً اسم « ملك الأسراء » لقيامه مقام السلطان في التصرف وقيام الأسراء على خدمته كخدمة السلطان (١) .

وكان لكل نائب من نواب الشام بيوت خدمة مثل بيوت خدمة السلطان ، كالشراب خاناه ، والفراش خاناه ، والزرده خاناه ، والطبلخاناه . وغيرها . واحتوت بيوت نواب الشام على وظائف مثل وظائف بيوت السلطان مثل رأس نوبة وأمير مجلس وأمير أخور وأمير جانداز... وغير ذلك . كذلك كان لكل نيابة من النيابات الشامية وزير يتمتع بما يتمتع به الوزير في مصر ، وهذا وإن لم يسمح للوزير في نيابات الشام بلقب وزير إلا إذا كانت قد سبقت له ولاية الوزارة بمصر ، أما إذا لم يكن قد سبق له تولي منصب الوزارة في مصر ، فإنه كان يلقب بلقب « ناظر للناظر » (٢) .

كذلك كان في كل نيابة من نيابات الشام أربعة قضاة يمثلون المذاهب الأربعة ، مثلما كان الحال تماماً في مصر منذ أيام الظاهر بيبرس . هذا فضلاً عن الوظائف الأخرى المتعددة التي وجدت في كل نيابة من نيابات الشام والتي كان

(١) الفقه شندى : صبح الأعشى ج ٥ ص ٤٥٥ .

(٢) المرجع السابق ج ٥ ص ٤٦٥ .

بعضها يتعلق بأرباب السيوف والبعض الآخر يتعلق بأرباب القلم، وتقسم ثلثات
بشمول الوظائف الدينية .

أما الدراوين التي وجدت في كل نيابة من نيابات الشام . فكان أهمها
ديوان الإنشاء وديوان النظر وديوان الجيش وقد اختص ديوان الإنشاء بجميع
المراسلات التي ترد إلى النائب أو تصدر منه . ونائب صاحب ديوان الإنشاء
بمكاتب السر . ويبدو أن كاتب السر في النيابات النامية كان يقوم أيضا بمهمة
التعويض على النائب لحساب السلطان ، ويطلع الأخير على ما قد يخفيه النائب
هذه (١) . وأما ديوان النظر فكان يمثل الإدارة المالية في النيابة ، بحيث له
الاشرف التام على المصروفات والإيرادات . وأما ديوان الجيش . فكان يشرف
على جيش النيابة وتوزيع الاقطاعات وترتيب الجوامك الخاصة بالمماليك .
ومن الثابت أن أراضى الشام قد مسحت وقسمت من جديد سنة ١٣١٣هـ ؛ وهذا ما يحكي
الروك الناصري ببلاد الشام ، نسبه إلى السلطان الناصر محمد بن قلاوون . أما عن
عدد الجنود ببلاد الشام فقد ذكره خليل بن شاهين الظاهري على الوجه التالي : —

أجناد الحلقة بدمشق ومالك الكافل والأسراء	١٥٠٠٠
أجناد الحلقة بعلب ومالك الكافل والأسراء	٨٠٠٠
أجناد الحلقة بطرابلس ومالك الكافل والأسراء	٥٠٠٠
أجناد الحلقة بهضند ومالك الكافل والأسراء	٢٠٠٠
أجناد الحلقة بحماه ومالك الكافل والأسراء	١٠٠٠

على أن هذه الأعداد لم تكن ثابتة وإنما تعرضت للتغيير والتبديل في عصر
المماليك ، وكذلك عدد الاقطاعات وتوزيعها ببلاد الشام (٢) .

(١) القلشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ١٨٩ .

(٢) خليل بن شاهين : زبدة كشف الممالك ص ١٠٣ - ١٠٦ .

ويلاحظ أن خليل بن شاهين أغفل ذكر عدد الأجناد بنبابة السكره .

وإذا كان هذا هو الوضع بالنسبة لكافة النيابات الشامية في عصر المماليك فإننا نحب أن نؤكد مرة أخرى أن نائب دمشق بالذات تمتع بأهمية خاصة فاقت أهمية بقية النواب في النيابات الشامية الأخرى؛ حتى لقد قال القلقشندي عن نائب دمشق إنه « قائم بدمشق مقام السلطان في أكثر الأمور المتعلقة بنيابته ، ويكتب عنه التوافيع الكريمة ، ويكتب عنه المربعات بتعيين إقطاعات الجند ، وتجهز إلى الأبواب الشريفة فيشمها الخط السلطاني الشريف » (١) .

ومن الواضح أن تلك المكانة الضخمة التي تمتع بها نائب دمشق في عصر المماليك كان من الممكن أن تصبح مصدر خطر على السلطان نفسه ، كما حدث في بعض الحالات. لذلك حرص سلاطين المماليك على فرض رقابة خفية على نوابهم في الشام عامة وفي دمشق خاصة ، فكان السلطان يحرص أحيانا على التدخل في شئونهم لاشعارهم بوجوده . وهذا إلى أن السلطان لم يكتف بأن يكون صاحب ديوان الإنشاء عينا له على النائب ، وإنما كان السلطان أيضا يعمل من نائب القلعة أو الحصن الموجود في الأقليم عينا له على النائب ، ويقاومه إذا حدثته نفسه بالخروج على السلطان (٢) . ولهذا السبب كان لنائب القلعة أجنادا مقيمين معه ولا يتصلون بدار النيابة في المدينة (٣) .

والواقع أنه على الرغم مما تمتع به نواب النيابات الشامية من سلطان ونفوذ كبير ، إلا أنهم كانوا قبل كل شيء تابعين لسلطنة المماليك في القاهرة؛ وبالتالي فإنهم لم يكونوا مطلقا يتصرف في كثير من النواحي . من ذلك أن سلطان

(١) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ١٨٤ .

(2) Demombynes : op. cit., p. 108.

(٣) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ١٨٥ .

المعري : التدريف ص ١٤٨ .

المماليك احتفظ بحقه في شغل الوظائف الكبرى بالنيابات الشامية ؛ فكان
النواب يعيشون في وظائف أرباب السيوف من إمرة عشرة فإدونها ، في حين
كان التعيين في الوظائف من إمرة طبليخاناه فإدونها من حق السلطان . أما
وظائف أرباب آتقلم فكان النواب لا يعينون إلا صفار الموظفين مثل كتاب
الدوج ، في حين كان السلطان يعين كبار الموظفين مثل الوزارة وكتابة السر
ونظر الجيش ونظر المال وغيرها . كذلك في الوظائف الأيضية كان من حق
السلطان وحده أن يعين كبار الموظفين مثل قضاة القضاة ، في حين ترك للنواب
تعيين صفار الموظفين ، كالذين يقومون بالخطابة في الجوامع الصغيرة (١) .

وهكذا ظل سلطان المماليك هو القوة الكبرى التي تسيطر على مصر
والشام وتشرف إشرافاً تاماً على سير الأمور في مختلف أرجاء الدو
المماليكية الواسعة .

المجتمع الشامي في عصر المماليك :

كان أهل الشام في عصر المماليك لا يختلفون عن أهل مصر من حيث
أنهم مغلوبون على أمرهم ، يخضعون لارستقراطية حاكمة استأثرت بالسلطة
وبالوظائف وحرمتهم من المشاركة في شؤونهم في أمورهم أمور بلادهم .
وهكذا كان المماليك في بلادهم الشام هم أصحاب السيادة والطبقة المسيطرة ذات
النفوذ والسلطان ، في حين خضع أصحاب البلاد الأصليين من أهل الشام للأمر
الواقع ، ورضوا بما فعله المماليك بهم .

وقد انقسم أهل بلاد الشام الأصليين إلى حضر وبدو ، فالحضر هم أهالي
المدن والقرى الشامية ، وقد اشتغلوا بالنشاط الاقتصادي من صناعة وتجارة

(١) الفلشندي : صبح الأعشى ج ١٢ ص ٦ - ٧ .

وزراعة . وكان كل ما يهدمون فيه هو أن يلى أمرهم نائب عادل من المماليك يحسن معاملتهم ولا يجرهم حقوقهم . ومن الواضح أن النشاط الاقتصادى الذى نهض به الخضر من أهل الشام تطلب نوعاً من الاستقرار والهدوء ، مما جعلهم ينجحون إلى مسألة المماليك ولا يحاولون الخروج عن طاعتهم أو المشاركة في الثورات التى اعتاد أن يقوم بها بعض نواب الشام بين حين وآخر ، وبخاصة عند قيام سلطان جديد في مصر ،

أما البدو ، فقد تألفوا من العشائر المنتشرة في بادية الشام ، وكان لكل عشيرة أنظمتها وبطونها . وعلى رأس تلك العشائر كان « آل فضل » من ربيعة ، الذين امتدت منازلهم من حمص إلى قلعة جعبر إلى الرحبة ، بمعنى أنهم انتشروا بين العراق والشام على جانبي نهر الفرات (١) . ومن الواضح أن آل فضل اضطروا - بحكم موقع منازلهم - إلى توزيع ولايتهم بين أقوى العديدة التى تقاسمت السلطان في شمال العراق والشام . ومن ذلك ما نسمعه عن زعيمهم عيسى بن مهنا الذى داب على مناصرة التتار حينما والمماليك أحياءاً حتى ضاق السلطان الناصر محمد بن قلاوون ذراها بآل فضل وطردهم ليحل محلهم إخوتهم من آل علي ، ؛ ولكن الناصر محمد عاد فمعا عن آل فضل وردم إلى بلادهم واقطاعهم (٢) .

ولاحظ أنه إذا كانت عشائر البدو الضاربة على أطراف دولة المماليك بالشام قد لجأت أحياناً إلى الخروج عن سلطان الدولة ، فإنه وجد قسم آخر من تلك العشائر انتشرت في داخلية بلاد الشام ، وهذه كانت أكثر ارتباطاً بعمور الولاء للدولة وخضوعاً لسلطانها . ومن هذه العشائر آل مرة في حوران

(١) تقي الدين : صبح الأعشى ج ٤ ص ٢٠٤ .

(٢) المرجع السابق ج ٤ ص ٢٠٦ .

وآل علي في المريج والغوطة حول دمشق؛ وغيرهم كثير^(١)، وقد حاول سلاطين المماليك إدخال عشائر البدو ببلاد الشام في النظام الإنشائي، فأضافوا على زعماء تلك العشائر ألقاب الإمارة وأنطوهم الإنشائات، وفرضوا عليهم التزامات معينة أهمها الولاء للدولة وحراسة الطرق والدروب الصحراوية وتقديم الرجال وقت الحرب. ولكن عشائر البدو أنفقت الخوض لذلك النوع من التنظيمات الحكومية التي تفقدتها كثيراً من حريتها فأخذت ما في النظام من عيوزات، وفي الوقت نفسه تخلصت مما فيه من التزامات.

وبالإضافة إلى العصبية العنصرية التي وجدت ببلاد الشام على عصر سلاطين المماليك - مثل الأكراد والتركمان والأرمن -؛ فإنه وجدت ببلاد الشام في ذلك العصر عصبية عديدة مذهبية ودينية كان لها دور كبير في الأحداث التي شهدتها بلاد الشام. ونستطيع أن نلخص أهم هذه الطوائف أو العصبية فيما يلي:

أولاً: الكسروانيون: وهم أهل جبل (جبال) كسروان وكاوا من النصيرية والعلويين والمناولة^(٢). ويبدو من خلال ما ذكرته المراجع أن الكسروانيين وقفوا موقفاً عدائياً من المماليك، وبخاصة أثناء الصراع بين هؤلاء الآخرين والصليبيين بالشام. من ذلك ما حدث أثناء حصار السلطان المنصور قلاوون لمدينة طرابلس سنة ١٢٧٩، إذ خف الكسروانيون لنجدة بوهيموند السابع أمير طرابلس. وقد أغضب ذلك السلطان قلاوون، فزحف المماليك على جبل كسروان لتأديب أهله ونجحوا في كسر شوكتهم^(٣).

(١) القلقشندي: صبح الأعشى ج ٤ ص ٢٠٨ - ٢١٠.

(2) Lammens ; La Syrie, 2, p. 18.

(٣) محمد كرد علي: خطاط الشام ج ٢ ص ١٢٦.

وعندما استولى السلطان الأشرف خليل على عكا وغيرها من البقايا الصليبية بالاشمام ، لجأ بعض الصليبيين إلى جبل كسروان وحاولوا استئثار أهله ضد سلطنة المماليك ، فبادر السلطان الأشرف خليل بإرسال حملة في بداية ١٢٩٢ بقيادة الأمير بدر الدين بيدرا ، ولكن الكسروانيين أنزلوا الهزيمة بالمعسكر المماليكي في تلك الواقعة ، الأمر الذي زاد من نفوذ الكسروانيين وبطشهم^(١) وفي سنة ١٣٠٠ - أي في سلطنة الناصر محمد بن قلاوون الثانية - سار أقوش الأفرم من دمشق إلى جبال كسروان لقتال أهلها عقوبة لهم عن موقفهم من دولة المماليك ، بعد أن كان « ضررهم اشتد » . وقد تحصن الكسروانيون بمجملهم المنيع ، واجتمعوا - نحو اثني عشر ألف رام - لقتال المماليك ، فاستمر القتال بينهم وبين المماليك ستة أيام ألقى الكسروانيون بعدها السلاح وغادوا الأمان . وكان أن فرض عليهم أقوش (أفش) الأفرم مبلغ مائة ألف درهم جبرها بعد أن تعهدوا بالطاعة^(٢) .

ونمة أهمية أخرى لتلك الحملة هي أن التتوخيين علونوا جيش الأفرم ، الأمر الذي أثار العداء بين الكسروانيين والتتوخيين . وقد أرسل الأمير الأفرم نائب دمشق إلى الكسروانيين يأمرهم بأن يصلحوا شئونهم مع التتوخيين ويدخلوا في طاعتهم بوصفهم أصحاب الأراضي والإقطاعات ، ولكن الكسروانيين رفضوا تلك الدعوة . ونتيجة لذلك خرج الأمير أقوش الأفرم في جيش كبير بلغ خمسين ألفاً من الرجال سنة ١٣٠٥ (٥٧٠٥) ، فهاجم الكسروانيين وخرّب ضياعهم وقطع كرومهم ومزقهم بعد ما قاتلهم أحد عشر يوماً ... وملك الجبل عنوة ، ووضع فيهم السيف وأمر ستائة رجل ، وغنمت السماكر منهم ما لا عظاماً ...^(٣) . وقد ساعد

(١) صالح بن يحيى : تاريخ بيروت ص ٣٠ .

(٢) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٩٠٢ - ٩٠٣ .

(٣) المقرئى : السلوك ج ٢ ص ١٥ .

الأفرم في جهوده لإخضاع الكسروانيين الأمير اسندمر نائب طرابلس ،
الذي تذكر عنه المراجع مبالغته في التنكيل بالكسروانيين وقتلهم^(١) ، ويبدو
أن حملات الأمير أفوش الأفرم على جبال الكسروانيين نجحت في إخضاعهم
والقضاء على كياناتهم وعصبيتهم ، فيروي المقرئ أن السلطان الناصر محمد أقطع
« جبال كسروان بعد فتحها » لبعض أمراء المماليك ، فذهبوا إليها « فزرها
لهم الجميلة ورفعت أيدي الرفضة عنها »^(٢).

ثانياً : التنوخيون ؛ وهم عشائر كثيرة اعتنقت الدرزية والنشرواني جهات
متفرقة من لبنان ، وظلوا يتأرجحون بين الولاء للصليبيين حيناً وللمسلمين
أحياناً ؛ كما تأرجحوا بين الولاء للمماليك من ناحية وخصوم المماليك من أيوبيين
وتتار من ناحية أخرى . وكان من أشهر عشائر التنوخيين جماعة البحتريين
الذين غضب عليهم السلطان الظاهر بيبرس بسبب نقلهم ، فاعتقل
بعض زعمائهم في مصر ورفض أن يطلق سراحهم حتى ينتهي من حروبه ،
حتى إذا ما تم للسلطان بيبرس فتح أنطاكية أطلق سراحهم . ومع
ذلك فقد ظل بيبرس يشكك في ولاء البحتريين ، حتى أرسل ضدهم حملة
قوية اجتاحت بلادهم وعاقبتهم في عنف^(٣) . وبعد بيبرس لجأ السلطان
قلاون إلى اضطهاد البحتريين عاقبة عنسادم فعادوا إلى الولاء لدولة
المماليك ، وعندئذ ردت إليهم الدولة إقطاعاتهم وعهدت إليهم بحراسة
بيروت وشواطئها ؛ وكان ذلك سنة ١٢٩١ على عهد السلطان الأشرف
خليل بن قلاون . كذلك ساعد البحتريون المماليك في قتال غازان خان

(١) صالح بن يحيى : تاريخ بيروت ص ٣٢-٣٣

أبو القدا : المختصر حوادث سنة ٧٠٥ هـ

(٢) المقرئ : السلوك ج ٢ ص ١٦٠ .

(٣) صالح بن يحيى : تاريخ بيروت ص ٧٥ .

تقار فلوس ، وذلك على عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون (١) .
 وثمة فريق آخر من التنوخيين ، هم الارسلانيون و مركزهم قرب بيروت
 وكانوا مواليين لدولة المماليك ، واشتهروا بمواقفهم ضد الصليبيين ، الأمر الذي
 جعلهم يظفرون برضاء سلاطين المماليك (٢) .

ثالثا : بنو مهن أو المهنيون ؛ وقد بدأ ظهورهم في القرن الثاني عشر ، حين
 نديهم أمراء السلاجقة لقتال الصليبيين على الساحل السوري ، فأبوا في ذلك
 بلاد حسنا ؛ كوفئوا عليه بمنحهم إقليم الشوف ، وقد حالقوا أقرباءهم التنوخيين
 في الغرب والشهابيين في وادي التيم (٣) .

رابعا : القهايون الدروز ؛ وكانت منازلهم في وادي التيم منذ سنة ١١٧٣
 واشتركوا بنجاح في قتال الصليبيين ثم التتار ، وبخاصة أثناء إغاراتهم على
 بلاد الشام في عهد السلطان المنصور قلاوون سنة ١٢٨١ . وقد حالف الشهابيون
 بني مهن وأصهروا إليهم .

خامسا : المتأولة ؛ وهم فرقة من غلاة الشيعة ، كانت زعامتهم في الجبال
 الشمالية من لبنان لبني حمادة . ويبدو أن التنافس كان قويا بينهم وبين الشهابيين
 الدروز حول الزعامة على لبنان (٤) . وقد حنق المماليك على المتأولة بسبب
 شذوذهم المذهبي ، مما جعلهم يتعرضون لبعض الاضطهاد في ذلك العصر .

سادسا : النصيرية أو العلويون ؛ وقد عاشوا في شبه عزلة في القسم الشمالي
 من جبل لبنان تحت زعامة شيوخهم (٥) .

(١) أحمد عزت عبد الكريم : التقسيم الإداري لسورية في العصر العثماني ص ١٣٦ .
 (٢) الشدياتي : أخبار الأعيان في جبل لبنان ص ١٧٤ .
 (٣) أحمد عزت عبد الكريم : التقسيم الإداري ص ١٣٦ .

(٤) Lammens : op. cit., vol. 2, p. 13.

(٥) Demombynès : op. cit., p. 227.

سما بعل. الإسماعيلية؛ وكانوا يعرفون أيضاً باسم الباطنية، وكانت لهم قلاع عديدة أهمها مصياف (أو مصياب) والقدموس والكهف والحواين والمنيفة والرصافة. وقد قام الإسماعيلية الباطنية بدور مشهور في تاريخ بلاد الشام على هصر الحروب الصليبية^(١)؛ ولم يتورعوا عن اغتيال كثير من الشخصيات الإسلامية والصليبية سواء. ولم يرض المماليك عن الباطنية بسبب شنوهم المذهبي من ناحية، ثم بسبب موقعهم المانع بين الصليبيين والمسلمين من ناحية أخرى. لذلك فرض السلطان الظاهر بيبرس ضرائب باهظة على الهدايا التي اعتاد أن يبعث بها الصليبيون إلى شيخ الباطنية، وذلك لإفساد أنوارهم الإسماعيلية وتمجيزاً لمن اكتفى شرهم بالهدية^(٢). ثم إن السلطان الظاهر بيبرس لاحظ أن طائفة الإسماعيلية لجأت — عندما أخذ نفوذها ينحسر في بلاد الشام — إلى دفع الأموال للصليبيين، وبخاصة الاستتارية في حصن الأكراد. لذلك انتز السلطان فرصة الصلح الذي عقده مع الاستتارية سنة ١٢٦٧ واشترط عليهم الامتناع عن أخذ الجزية التي كان يدفعها لهم الإسماعيلية الباطنية. ويروي المقرئ أن رسل الإسماعيلية وفدوا على السلطان الظاهر بيبرس سنة ١٢٦٧ ومعهم جملة من الذهب وقالوا: هذا المال الذي كننا نعمله قطعة للفرنج قد حملناه لبيت المسلمين لينفق في المجاهدين^(٣).

على أنه يبدو أن الإسماعيلية ببلاد الشام لم يلبثوا أن ضاقوا بالجزية التي كانوا يدفعونها للسلطان الظاهر بيبرس، بدليل أن نجم الدين حسن بن الشمراني مقدم الإسماعيلية ببلاد الشام أرسل مبعوثاً إلى السلطان سنة ١٢٦٩ يطلب منه إقصاص المال الذي كان يحمله الإسماعيلية إلى بيت المال. وفي ذلك الوقت كانت العلاقة سيئة بين السلطان وأحد زعماء الإسماعيلية — وهو صارم الدين مبارك

(١) سعيد هاشور: الحركة الصليبية ج ١ ص ٥٥٠ وما بعدها.

(٢) العيني: عقد الجمان ج ٢٠ المجلد الثالث ورقة ٥٢٩.

(٣) المقرئ: السلوك ج ١ ص ٥٥٧.

ابن الرضى صاحب العليقة - فتوسط صارم الدين للسلطان حتى رضى عنه بيبرس؛ وعندئذ قلده زعامة الإسماعيلية بدلا من نجم الدين الشمرانى . وكان أن توجه صارم الدين إلى مصياف - المركز الرئيسى للدعوة الإسماعيلية ببلاد الشام - حيث أخذ يباشر مهام منصبه (١) .

ويدل ذلك على مدى ما صار لسلطين المماليك من هيمنة على الإسماعيلية ببلاد الشام على عهد بيبرس . بل إن السلطان بيبرس اشترط على الإسماعيلية أن تكون مصياف وبلادها للسلطان ؛ وأرسل صحبة صارم الدين نائبا عن السلطان بمصياف ولم يكن صعبا على بيبرس بعد ذلك أن يستولى على حصون الإسماعيلية ببلاد الشام واحدا بعد آخر ، حتى استولى عليها جميعا (١٢٧٠ - ١٢٧٣) ؛ وعندئذ انتهى أمرهم ببلاد الشام ، وأقطعهم السلطان بدلا من قلاعهم الشامية بعض الجهات فى مصر ليمشوا فيها (٢) .

تورات الشام فى عصر المماليك :

لم تكن الشام فى عصر المماليك مجرد إقليم من أقاليم الدولة ، وإنما كانت أهم من ذلك بكثير . لقد كانت بلاد الشام الجناح الأيمن الذى بدونه يتعذر على دولة المماليك الاحتفاظ بكيانها وتوازنها ، والنبات فى وجه الأخطار الاسيوية الضخمة التى هددت تلك الدولة ، حينما من جانب الأيوبيين والتتار والصليبيين ، وأحيانا من جانب الأرمن والتركمان ثم العثمانيين . وهكذا أدرك سلاطين المماليك منذ أن أقاموا دولتهم فى مصر أنه لا بقاء لهم ولا دولتهم إلا فى ظل وحدة تربط بين الشام ومصر تحت حكمهم ، وتضمن لهم مراقبة التيارات العديدة التى يمكن

(١) - سعيد عاشور : الظاهر بيبرس : ص ٨٢ .

(٢) - المربزى : السلوك ج ١ ص ٦٠٨ .

أن تؤثر في كيانتهم ، فضلا عن مراقبة الطرق الرئيسية التي سلكها الأعداء في تهديدهم لمصر والشام في العصور الوسطى .

وإذا كان سلاطين المماليك قد نظروا إلى بلاد الشام نظرة خاصة ، فوضعوا لها تقسيما إداريا يشهد على مدى إدراكهم لأهمية تلك البلاد ، فإننا نلاحظ في نفس الوقت أن نواب الشام وأمراء المماليك في تلك البلاد أدركوا أهميتهم ، واستغلوا موقع البلاد من ناحية وبعدها عن مركز السلطنة من ناحية أخرى في محاولة فرض إرادتهم وإملاء كلمتهم على السلاطين وكثيرا ما أحس أمراء المماليك في الشام بنفوذهم وقوتهم فأعلنوا الثورات في وجه السلاطين في مصر ، بل لقد طالب بعض أمراء الشام بالسلطنة لأنفسهم معتمدين على ما عرف عن المماليك من بغض للنظام الوراثي وإيمان بأن الملك للأقوى . ولم ير بعض أمراء الشام - عندما استفحل النزاع أحيانا بينهم وبين سلاطين المماليك - مانعا من الاتصال بأعداء الدولة من تتار وعثمانيين ، مما عرض دولة المماليك لكثير من الأخطار . هذا كله فضلا عما نلصقه في عصر المماليك من فرار كثير من خصوم السلاطين ومنافسيهم من مصر إلى الشام ، حيث يجدون ملاذا ويعملون على تأليب الأعداء وإثارة المتاعب في وجه السلاطين .

ومع قيام سلطنة المماليك عند منتصف القرن الثالث عشر انطلق أول صوت للمعارضة من دمشق ، حيث رفض المماليك الأكراد (القيصرية) أن يقسموا يمين الولاء للسلطان شجر الدر ، كما امتنع الأمير جمال الدين يغمور - نائب السلطنة بدمشق - عن الاعتراف بشجر الدر . وكان من الطبيعي أن ينضم أولئك المتمردون إلى جانب الملك الناصر يوسف الأيوبي ، مما سبب لسلطنة المماليك في مصر كثيرا من المتاعب في دورها الأول ، ولم يخفف من حدة هذه المتاعب سوى الأصوات التي ارتفعت للمطالبة بتوحيد الكلمة في وجه خطر التتار^(١) .

(١) المفري : السلوك ج ١ ص ٣٦٦ وما بعدها .

على أنه حدث في ذلك الدور - وقبل أن يواجه المماليك خطر التتار - أن انقسم المماليك في مصر على أنفسهم . فاجأ السلطان إيلك إلى قتل أنطاي زعيم المماليك البحرية ، مما جعل هؤلاء يفرون إلى الشام وعلى رأسهم من زعمائهم بيبرس وفلاون وسنقر وبيبري وغيرهم من الأمراء . وقد ظل زعماء البحرية في الشام ثلاث سنوات (١٢٥٤ - ١٢٥٧) بسبيون المتعاقب لسلطنة المماليك في مصر ، حتى كان سقوط الخلافة العباسية على يد التتار سنة ١٢٥٨ وظهور خطر التتار في صورة جديدة على الشام ومصر ، وعندئذ دخل البحرية في طاعة السلطان فنزل ليواجهوا جميعاً الخطر الجديد (١) .

والواقع إن سيادة سلطنة المماليك لم تمتد على بلاد الشام إلا بعد موقعة عين جالوت سنة ١٢٦٠ كما سبق أن رأينا . ومنذ تلك السنة أصبحت المتاعب التي صادفها سلاطين المماليك في بلاد الشام لا تأتي من جانب الأيوبيين والتتار والصليبيين لحسب ، بل أيضاً من جانب أمراء المماليك أنفسهم بالشام . من ذلك أن الأمير علم الدين سنجر الحلبي نائب دمشق ناز في وجه بيبرس سنة ١٢٦٠ ، أي بعد شهر واحد من توليته السلطنة ، بل إن الأمير سنجر طالب لنفسه بمنصب السلطنة ، فتلقب بالملك المجاهد ووضع اسمه على النقود ودعا لنفسه في خطبة الجمعة ، وصار يركب في دمشق بشعار السلطنة (٢) . ولكن الظاهر بيبرس أخذ حركة الأمير سنجر عن طريق الحيلة ، وذلك بعد أن حرض أمراء الشام فاتفقوا على سنجر وقاوموه ، ثم قبض عليه بعد ذلك . كذلك ناز الأمير شمس الدين أقوش البرلي ووطد مركزه في حلب ، ولكن السلطان الظاهر أخذ حركته (٣) .

(١) ابن واصل : مفرج السكروب ج ٢ ورقة ٣٩٤ (مخطوط) .

(٢) المقريزي : السلوك ج ١ ص ٤٣٩ .

(٣) أبو الفدا : المختصر ج ٣ ص ٢٠٩ - ٢١١ .

ولم تكن المتاعب التي صادفها بيبرس في بلاد الشام في ذلك الدور التأسيسي لدولته كلها ناشئة من جانب أمراء المماليك، وإنما ظل بعض بقايا ملوك بني أيوب يشكلون خطراً على سلطان دولة المماليك. من ذلك أن الملك المغيث عمر الأيوبي صاحب السكرك استعان بجموع الأكراد الفارين من وجه التتار وأخذ يغير على العربك وغيرها من المناطق القريبة التابعة لسلطنة المماليك. ولم يهدأ بيبرس إلا بعد أن قبض على المغيث عمر سنة ١٢٩٢ واعتقله بقلعة الجبل إلى أن قتل بعد ذلك (١).

ولما اعتلى المنصور قلاوون دامت السلطنة سنة ١٢٧٩، خرج عليه شمس الدين سنقر نائب الشام وامتنع عن مبايعته، بل إنه دعا أهل دمشق إلى طاعته وتلقب بالملك الكامل وخطب له في الجامع الأموي. وفي أثناء النزاع بين السلطان قلاوون والأمير سنقر لم ير الأخير حرجاً في الاتصال بالتتار، فاتصل بخان مغول فارس - وهو أبغا بن هولاقو - وحرضه على مهاجمة بلاد الشام، ثم انتهى الأمر بفرار الأمير سنقر إلى صهيون (٢). ولم تلبثه المتاعب التي واجهاها السلطان قلاوون في بلاد الشام عند ذلك الحد، إذ حدث سنة ١٢٨١، والسلطان قلاوون مشغول بمحاربة الصليبيين، أن دبر الأمير سيف الدين كوندك وجماعة من الأمراء الظاهرية وبعض التتار مؤامرة لاختيال السلطان (٣). ولم يتردد المتآمرون في الاتصال بالصليبيين، ولكن المنصور قلاوون علم بالمؤامرة في الوقت المناسب فأحبطها وأعدم رعاها وفر عدد كبير من أتباعهم إلى صهيون ليأمنوا بالأمير شمس الدين سنقر الأشقر (٤).

(١) ابن شاكر السكيتي: عيول التواريخ ج ٢ ورقة ٢٣٠ - ٢٣١.

(٢) النويري: نهاية الأرب، ج ٢٩ ورقة ١٧٠.

(٣) مفضل بن أبي الفضائل: المنهج السديد ج ٢ ص ٣٢٢.

(٤) النويري: نهاية الأرب ج ٢٩ ورقة ٢٧٨ ب.

والملاحظ أنه لم تحدث اضطرابات في الشام عقب وفاة السلطان قلاوون وقيام ابنه الأشرف خليل في السلطنة سنة ١٢٩٠ ، أو عقب مقتل الأشرف خليل وقيام أخيه الناصر محمد بن قلاوون في السلطنة سنة ١٢٩٣ . وفي الفترة المضطربة التي أعقبت وفاة المنصور قلاوون وامتدت حتى قيام الناصر محمد في السلطنة المرة الثالثة سنة ١٣٠٩ ، شهدت بلاد الشام بعض الأحداث ، من ذلك أن السلطان كتباً الذي اغتصب السلطنة سنة ١٣٩٤ زار بلاد الشام حيث عزل الأمير عز الدين أيك الحموي نائب دمشق وعين بدله الأمير سيف الدين أغرلو المادلي . ولم يكبد السلطان كتباً يعود إلى مصر حتى عزله حسام الدين لاجين وولى السلطنة بدله سنة ١٢٩٦ ، وعندئذ هرب كتباً إلى دمشق (١) .

وقد لجأ السلطان المنصور لاجين إلى تعيين الأمير سيف الدين قبحق نائباً بالشام ، كما أرسل السلطان السابق الناصر محمد بن قلاوون إلى الكرك ليأمن خطره (٢) . غير أن السلطان لاجين أوفر صدور أمراء مصر والشام عليه بسبب سياسته . فخرج عليه الأمير قبحق بالشام (قبحق) ثم رحل قبحق إلى بلاد التتار حيث رحب بهم غازان محمود (٣) .

ولم يلبث أن عاد السلطان الناصر محمد إلى عرشه سنة ١٢٩٨ ليضيق عليه الأميران بيبرس الجاشنكير وسلار ، الأمر الذي جعل الناصر محمد يتظاهر بالخروج إلى الحجاز ، حتى إذا بلغ الكرك أعلن تنازله عن السلطنة . وإزاء إصرار الناصر محمد على رغبته ، اختار الأمراء بيبرس الجاشنكير سلطاناً سنة ١٣٠٨ . غير أن أمراء الشام لم يرضوا جميعاً بحكم السلطان الجديد ، فأقسم بعضهم بيمين الولاء

(١) أبو الهاسن : النجوم ج ٨ ص ٦٣ ، ٦٤ .

المريزي : السلوك ج ١ ص ٨١٩ - ٨٢٢ .

(٢) الزبيرى : نهاية الأرب ج ٢٩ ورقة ٣١٥ .

(٣) محمد جمال الدين سروود : دولة بني قلاوون في مصر ص ٤٠ .

ليبرس الجاشنكير ، في حين راسل البعض الآخر الناصر محمد وأفهموه أنهم على ولائهم له .

وزاد الموقف في بلاد الشام تعقيداً ، أن يبرس الجاشنكير أخذ يضيق الخناق على الناصر محمد بالكرك ؛ الأمر الذي جعل الأخير يكتب إلى نواب الشام يذكّرهم بأنهم مالكي أبيه وأنه طالما أحسن إليهم ، فلا أقل من أن يساعده في استعادة عرشه وإلا فإنه سيلجأ إلى التتار ، ويطلب مساعدتهم . وبفضل مساعدة أمراء الشام تمكن الناصر محمد من العمل لاستعادة عرشه ، فسار إلى دمشق حيث استقبله أهلها استقبالا طيباً ، وأقيمت له الخطبة وقدم له أسراء الشام فروض الولاء (١) . وبعد ذلك عاد الناصر محمد إلى مصر حيث اعتلى دست السلطنة للمرة الثالثة سنة ١٣٠٩

وكان أن عين الناصر محمد الأمير قراسنقر المنصوري نيابة السلطنة بالشام ، فأغضب ذلك المماليك الأشرافية لانتهاهم الأمير قراسنقر هذا بالمشاركة في قتل السلطان الأشرف خليل . وقد أحس الأمير قراسنقر بأن المماليك الأشرافية يوغرون صدر السلطان الناصر ضده ، فاتفق مع بعض أمراء الشام - مثل الأمير أفوش الأفوم نائب طرابلس - إلى بلاد التتار ، حيث رحب بهم أولجايتو ليبلغ التتار في فارس (٢)

ولم يلبث أن عين السلطان الناصر الأمير تذككي الحسامي الناصري نيابة الشام سنة ١٣١٢ ، ثم ولاه جميع بلاد الشام وكتب إلى كل من نائب حماه وحمص وطرابلس وصفد بالرجوع إليه ولم يلبث أن ازداد نفوذ تذككي في الدولة ، وبخاصة بعد أن ارتبط مع السلطان الناصر محمد برباط المصاهرة ؛ ويروى

(١) أبو الحسن : النجوم الزاهرة ج ٨ ص ٢٦٠ - ٢٦٥ .

(٢) أبو الحسن : النجوم الزاهرة ج ٩ ص ٣١ - ٣٢ .

(٣) - مصر المماليك .

أبو الحارث أن تذكر طلب من السلطان عزل بلخا نائب حلب فعزله على الفور^(١). غير أن الناصر محمد لم يلبث أن أوجس خيفة من ازدياد نفوذ تذكر لحقه عليه وعزله وتخلص منه وأحل محله في نيابة الشام الأمير ألتنبغا الصالحى^(٢).

وإذا كانت سلطنة الناصر محمد الثالثة قد امتدت بطول المدة الزمنية (١٣٠٩ - ١٣٤١) والاستقرار النسبي في أوضاع الدولة الداخلية، فإن عصر أولاد الناصر محمد وأحفاده شهد كثيراً من التقلبات والفتن في مصر والشام جميعاً من ذلك أنه حدث في عهد الملك الصالح صلاح الدين (١٣٥١ - ١٣٥٤) ، أن أخرج عن طاعته معظم نواب الشام مثل نائب حلب ونائب طرابلس ونائب حماه ونائب صفد ، وبذلك لم يبق على طاعة السلطان سوى أرغون الكاملى نائب دمشق الذى اضطر إلى الهرب إلى غزة فاستولى ببغداد أرس نائب حلب على دمشق ، حتى نجح السلطان في القضاء على الفتنة^(٣).

وفي عهد المنصور صلاح الدين محمد بن حاجى (١٣٦١ - ١٣٦٣) أعلن الأمير بيدمر الخوارزمى نائب دمشق العصيان وملك قلعة دمشق وقتل نائب القلعة ، وشاركه في حركته جماعة من نواب الشام ، فخرج السلطان إلى الشام سنة ١٣٦١ وقبض على بيدمر وأرسله مقيداً إلى الاسكندرية وعين اثنين من أمرائه نواباً على دمشق وحلب ثم رجع إلى القاهرة^(٤).

وفي عهد المنصور على بن الأشرف شعبان (١٣٧٦ - ١٣٨١) خرج الأمير بيدمر نائب دمشق عن الطاعة مرة أخرى ولكن نائب قلعة دمشق تمكن من القبض عليه^(٥).

(١) المرجع السابق ج ٩ ص ١٢٩.

(٢) أبو الحارث : النجوم ج ٩ ص ١٤٥ - ١٤٧ ،

(٣) المرجع السابق ج ١٠ ص ٢٧١ - ٢٧٢ .

(٤) ابن دباس : بدائع الزهور ج ١ ص ٣١١ (بولاق) .

(٥) ابن حجر : الدرر الكامنة ج ١ ص ٥١٣ - ٥١٤ .

وقد استمرت بلاد الشام في عصر دولة المماليك الجراكسة مصرحاً بالكثير من الثورات والحركات التي قام بها بعض الأمراء ضد السطحية ، ففي الأحداث التي أدت إلى انتقال الحكم من المماليك الترك إلى المماليك الجراكسة ، لسمع كيف ثار الأمير طشتهمر الدوادار نائب دمشق الذي سبق للبلغاوية لمعاداة إليها ، وإن كانت الأمور قد هدأت بسرعة في الشام سنة ١٣٧٧ ، وفي الزاع الذي دب سنة ١٣٧٧ بين الأميرين برقوق وبركة من ناحية وطشتهمر من ناحية أخرى ، لجأ برقوق وبركة إلى العمل على إضعاف شأن طشتهمر بنقل أنصاره إلى وظائف النيابة بالشام .

ثم كان نجاح برقوق في القضاء على سلطنة الترك وإقامة دعائم دولة المماليك البرجية سنة ١٣٨٢ ، ليجهل بلاد الشام مصرحاً جديداً للزاع بين الترك والجراكسة ، إذ سار ألتينغا التركي نائب أبلستين ضد برقوق سنة ١٣٨٢ ، وإن كان نواب الشام لم يؤيدوه في ثورته مما اضطره إلى الفرار إلى بلاد التتار^(١) . ويفهم من المراجع أن الأمير يلغا الناصري نائب حلب وقف موقفاً عدائياً من برقوق ، فخرص على الاعتفاظ بهدافة مولى بن دلفادر التركاني - وهو ألد أعداء دولة البرجية - مما جعل برقوق يعزل يلغا نائب حلب سنة ١٣٨٥^(٢) . غير أن برقوق لم يكذب فرغ من أمر يلغا حتى سمع بمؤامرة جديدة في دمشق سنة ١٣٨٦^(٣) . وفي الوقت نفسه أخذ منطاش نائب ملطية يجمع عناصر المقاومة ضد برقوق ، الأمر الذي جعل الأخير يعيد يلغا الناصري إلى نيابة حلب ليعتزده أداة في محاربة منطاش . على أن يلغا للناصري لم يقف موقفاً حاسماً من منطاش ، الأمر الذي دعم نفوذ الأخير وزاد من خطورة حركته^(٤) .

(١) أبو الحسن : النجوم ج ١١ ص ٢٢٩ .

(٢) ابن حجر : إنباء الفرج ج ١ ص ٢٢٤ - ٢٢٥ .

(٣) المقرئ : السلوك ج ٣ ورقة ٤٧٠ .

(٤) الميني : عقد الجمان ج ٣٤ ق ٢ ورقة ٢٢٨ .

ولم يلبث الأمير يلبغا الناصري أن أعلن ثورته علناً على السلطان في حلب ، فاستمال منطاش إليه ، وسيطر على شمال الشام . وفي ذلك الوقت جاءت الأخبار إلى السلطان برقوق من دمشق بأن بعض الأمراء الترك في الشام هاجموا طرابلس وقتلوا من فيها من أمراء مواليين لبرقوق (١) . وهكذا لم تكد تذهب سنة ١٣٨٩ حتى كانت معظم مدن الشام - فيما عدا دمشق وبعبك والكرك - قد دخلت في طاعة يلبغا الناصري . وقد بادر السلطان برقوق بإرسال جيش إلى دمشق لمحاربة يلبغا الناصري ، ولكن الهزيمة حلت بجيش السلطان قرب دمشق ، مما مكن يلبغا الناصري من دخول دمشق والاستيلاء على قلعتها (٢) .

وهكذا خدت بلاد الشام في ذلك الدور مسرحاً لنزاع مريع ، هو في حقيقة أمره صراع بين المماليك الترك والمماليك الجراكسة حول السلطنة ، أما يلبغا الناصري ، فإنه لم يضع الوقت ، وإنما دحرف إلى غزوة ومنها دخل أرض مصر إلى الصالحية ، الأمر الذي جعل برقوق مضطراً إلى التنازل عن السلطنة ، فنفي إلى الكرك سنة ١٣٨٩ (٣) .

غير أن برقوق استغل وجوده في بلاد الشام ليجمع الأنصار ، في الوقت الذي اشتد النزاع في مصر بين يلبغا الناصري ومنطاش . ولم يلبث أن خرج برقوق من الكرك إلى دمشق . وقوى مركز برقوق في حصاره لدمشق انضمام الأمير كمشبقا الحموي نائب حلب إليه ، الأمر الذي جعل برقوق يطمئن إلى جبهة الشمال ، ويترك حصار دمشق ليتفرغ لمواجهة الجيش الكبير الذي خرج من مصر بقيادة منطاش لمحاربتة . وفي المعركة التي دارت بين الطرفين سنة ١٣٩٠

(١) أبو الحسن : النجوم الزاهرة ج ١١ ص ٢٥٩ .

(٢) ابن خلدون : العبر ج ٥ ص ٤٢٥ .

(٣) ابن حجر : الدرر الكامنة ج ٤ ص ٤٤١ .

تغلب برفوق وإن لم يستطع دخول دمشق ، فوحف على مصر ليدخل القاهرة ويسترد عرشه (١) . وسرعان ما استطاع برفوق بعد ذلك توطيد نفوذه بالشام ، وإن كان ذلك لم يتم إلا بعد أن غدت بلاد الشام مسرحاً لصراع مرير بين بلوغا الناصري ومنطاش سنة ١٣٩١ ، مما أثر تأثيراً سيئاً في أوضاعها الاقتصادية (٢) .

وإذا كانت الأمور قد استقرت نسبياً في بلاد الشام في أواخر عهد برفوق ، فإن ثورة الأمراء لم تلبث أن تجددت بعد وفاته . من ذلك ما نسمعه عن ثورة الأمير تنم نائب الشام في عهد السلطان فرج بن برفوق سنة ١٤٠٠ ، وانضم إليه في ثورته نواب صمد وطرابلس وحماء وحلب (٣) . وقد استطاع السلطان لخماد هذه الثورة ، ولكن ذلك الانتماء لم يكن معناه استقرار الأمور في بلاد الشام ، إذ حدث بعد قليل أن تعرضت بلاد الشام لغزو التتار بزعامة تيمورلنك ، الذي آباد جيش المماليك عند حلب سنة ١٤٠٠ واستولى على حلب ، ثم أنزل الهزيمة بالسلطان فرج عند دمشق في أواخر سنة ١٤٠٠ ودخل دمشق نفسها (٤) . والمعروف أن تيمورلنك جمع مبرة صناعات وأرباب الحرف في الشام ورحلهم إلى سمرقند ، مما أضر بمصنعة الشام ضرراً بليغاً .

واستمرت أحوال بلاد الشام في اضطراب بعد الصلح مع تيمورلنك والمماليك ، إذ ثار نائب غزة ونائب طرابلس ضد السلطان فرج سنة ١٤٠٥ . وفي عهد السلطنة الثانية للسلطان فرج ثار نائب حلب الأمير جكم سنة ١٤٠٧ وأعلن سلطنته وتلقب بالملك العادل ، وضرب العملة باسمه ولم يكذب يقتل جكم بعد

(١) أبو المعاسن : النجوم الزاهرة ج ١١ ص ٣٧٨ - ٣٧٩ .

المقريزي : السلوك ج ٣ ص ٦٣٤ - ٦٣٥ .

(٢) المقريزي : السلوك ج ٣ ص ٦٦٦ وما بعدها .

(٣) ابن لمباس : بدائع الزهور ج ١ ص ٣١٩ - ٣٢٤ (بولاق)

(٤) ابن عربشاه : عجائب المفرد في أخبار تيمور ص ٩٨ وما بعدها .

شهرين حتى انضم نوروز نائب الشام إلى شيخ نائب طرابلس واستبدا ببلاد الشام ، بل لقد زحفا على مصر سنة ١٤٠٨ . وقد حلت الهزيمة بالسلطان فرج قرب دمشق سنة ١٤١٢ ، ثم قبض عليه وقتل بعد قليل (١) .

وهكذا ظلت بلاد الشام مسرحا لكثير من الفتن والمؤامرات والثورات طوال عصر المماليك . وقد درس الأستاذ جاسستون فينت تراجم أربعة وسبعين نائبا لنياية دمشق في عصر المماليك ، فتبين له أن تسعة وعشرين منهم خرجوا على السلطنة وأعلنوا الثورة ، واستطاع اثنان منهم — همالاجين وشيخ — أن يوصلا إلى السلطنة ؛ وتمسك اثنان من الحرب إلى خارج الدولة ، وحصل خمسة على عفو السلاطين ، وبجئ خمسة ثم أفرج عنهم ، في حين أعدم خمسة عشر (٢) ، هذا في دمشق فقط وهي إحدى نيايات الشام ١

أثر نيايات الشام في أحوال دولة المماليك :

أما عن نصيب نواب الشام في سياسة دولة المماليك العامة ، فيلاحظ أنهم كانوا قوة يخشاها السلاطين في مصر ؛ حتى أن كل سلطان جديد من سلاطين المماليك كان عليه أن يفكر في مدى إخلاص نواب الشام له . ولعل هذا هو السر فيما لجأ إليه سلاطين المماليك من كثرة تغيير نواب الشام بين حين وآخر وبخاصة في أوائل حكم كل سلطان .

ولا أدل على قوة نواب الشام ومدى إدراك سلاطين المماليك لخطورتهم من أن السلطان بيبرس الجاشنكير لم يتمالك نفسه من الفرح عندما حلف له نواب الشام عقب توليته السلطنة سنة ١٣٠٨ ، وقال ، د الآن تم لي الملك ١ ، (٣)

(١) ابن أبي عمير : بدائع الزهور ج ١ ص ٣٥٣ — ٣٥٥ .

(٢) Hauteceour et wiet : les mosques du caire p.56. (٢)

(٣) أبو المعاسن : النجوم الزاهرة ج ٨ ص ٢٤٢ .

ثم إن كل سلطان جديد من سلاطين المماليك كان يحرص بمجرد اعتلائه
دست السلطنة ، على أن يرسل خبر سلطنته إلى الشام ليطمئن إلى أن نواب
الشام وأمرائها جميعا يؤيدونه .

وهناك أربع حالات في دولة المماليك الترك اشترك فيها أمراء الشام مع
بعض أمراء مصر في خلع أربعة سلاطين وتولية غيرهم من الأمراء المواليين
لهم . وأول هؤلاء السلاطين هو بركة خان بن بيبرس ، وسبب خلعهم قيام
خلاف بينه وبين أمراء الشام ومصر . ويقال إن بركة خان كان بالشام سنة
١٢٧٨ عندما علم بمؤامرة أمراء الشام ضده ، فأرسل إليهم ملتصقا منهم القفو
متلفعا إليهم بأنواع الخسوع (١) . ولكن الأمراء لم يهتموا بكلامه وساروا
إلى مصر ليصلوا على خلعهم ، وعندئذ رحل بركة خان عن دمشق قاصدا مصر حيث
حاصره الأمراء حتى اضطروه إلى التنازل عن السلطنة . ويقول النويري إن
بركة خان أرسل إلى الأمراء أثناء الحصار وسألهم أن يكون الشام بكاه
لهم ، فأبوا ذلك إلا أن يخلع نفسه (٢) .

أما السلطان الثاني الذي خلع عن السلطنة عندما غضب عليه أمراء الشام
فهو كتبغا (١٢٩٤ - ١٢٩٦) ، الذي استنار أمراء الشام عندما عزل الأمير
أيبك الحوي نائب دمشق وعين بدله بملوك أغرلو العادلي ، فضلا عن أنه لم
يمنح أمراء الشام الإقطاعات والهدايا عند زيارته الشام لأول مرة ، كما جرت
بذلك عادة السلاطين في مصر المماليك (٣) .

وأما السلطان الثالث الذي خلع عن السلطنة بسبب غضب أمراء الشام
عليه ، فهو بيبرس الجاشنكير (١٣٠٨ - ١٣٠٩) الذي لم يرض عنه نواب

(١) بيبرس الدواهار : زبدة الفكرة ، ج ٩ ورقة ٦٨ (مخطوط) .

(٢) النويري نهاية الأرب ج ٢٨ ورقة ١٢٦ .

(٣) تاريخ ابن الوردي ج ٣ ص ٢٤٠ .

الشام وكاتبوا الناصر محمد في السرك يخبرونه بتأييدهم له حتى يسترد ملكه (١) وكان أن خرج الناصر محمد من السرك إلى دمشق — كما سبق أن ذكرنا — وشرجت عساكر دمشق إلى طاعته واملقوه ، وبفضل هذه المعونة تمكن الناصر محمد من استعادة عرشه سنة ١٣٠٩ (٢) .

وأخيرا فإن السلطان الرابع الذي خلع بسبب قيام أمراء الشام ضده هو علاء الدين كجك بن الناصر محمد سنة ١٣٤١ ؛ وقد تسلم بعده أخوه أحمد (٣) ومهما يكن من أمر ، فإن قيام بعض الحركات في الشام لمساعدة سلطان أو عزل آخر لا ينبغي أن تجعلنا ننسى إطلاقا المساعدات القيمة التي أمدت بها نيابات الشام مصر في أوقات الحرج أثناء حروبها الطويلة ضد الصليبيين والتتار . ولا شك في أن الملاحظة الهامة التي يفرج بها الدارس لتاريخ مصر سلاطين المماليك في مصر والشام هي أن أمراء المماليك — في مصر والشام — كانوا غالباً ما يتناسون ما بينهم من خلافات لمواجهة الأخطار الخارجية ، وأن وحدة مصر والشام كانت ضرورة حتمية لمواجهة خطر الأعداء الذين هددوا كيان العروبة في الشرق الأدنى في ذلك العصر .

(١) أبو المعاسن : النجوم الزاهرة ج ٨ ص ٢٤١ .
 (٢) أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر ج ٤ ص ٥٦ — ٥٨ .
 (٣) أبو المعاسن : النجوم الزاهرة ج ١٠ ص ٢١ وما بعدها .

الفصل الثامن

العلاقات الخارجية

استطاعت دولة المماليك التي قامت في مصر والشام سنة ١٢٥٠ أن تثبت أنها أعظم قوة معاصرة في الوطن العربي من المحيط إلى الخليج ؛ فنظر إليها حكام وشعوب الدول الإسلامية والعربية نظرة إكبار وإجلال ، في حين نظرت إليها القوى الأخرى — خارج المحيطين العربي والإسلامي — نظرة خوف واحترام . وحسب دولة المماليك أنها استطاعت أن تواجه الأخطار الخارجية التي هددت الوطن العربي في الشرق الأدنى في شجاعة وبأس ؛ لحمت الشام ومصر من خطر التتار ، وطردت الصليبيين كلية من أرض الشام بل لاحقتهم في مراكزهم القريبة مثل أرمينية الصفوى وقبرس ورودس . هذا فضلا عن أن نهض سلاطين المماليك في أحياء الخلافة العباسية في مصر — بعد سقوطها في بغداد — جعل لهم ولدولتهم مكانة مرموقة في العالم الإسلامي أجمع ، اذ جعلهم يبدون في صورة الزعماء الحقيقيين للعالم الإسلامي أجمع بوصفهم حماة الخلافة المتمتعين ببيتها .

وهكذا خدمت القاهرة في عصر سلاطين المماليك قبله الأصدقاء والأعداء جميعا ؛ الأصدقاء يطلبون تأييدها وينشدون مساعدتها ، والأعداء ينفون ملاحقتها ومساومتها ، أو مهددونها انقضاء لبطشها . وبين هذا وذاك من التيارات السياسية ظهر تيار التجارة والمال أشد ما يكون قوة وانطلاقا في ذلك العصر ليجمع التجار والسفراء يترددون على مصر بين فيفة وأخرى ، ينفون عقدا اتفاقية تجارية أو إلغاء مكس أو تخفيف ضريبة ؛ وبذلك شهدت القاهرة نشاطا دبلوماسيا ضخما في عصر المماليك ، وصارت مركزا لشبكة واسعة من العلاقات

الخارجية مع الدول الصديقة وغير الصديقة ، بحيث أننا لا نباخ إذا قلنا إن ديران الإنشاء في عصر المماليك قدما بمثل أضخم وزارة خارجية شهدها العالم أجمع في ذلك العصر ، ولا أقل من تنبع هذا النشاط بإلقاء نظرة سريعة على العلاقات بين سلطنة المماليك في مصر والشام من ناحية وأهم الدول التي ربطتها بها علاقات دبلوماسية من ناحية أخرى (١) .

المماليك ومغول القفجاق :

عندما قسم جنجركر خان دولته الواسعة بين أبنائه الأربعة كانت الأجزاء الواقعة قرب بحر قزوين وفي حوض نهر الفولجا من نصيب جوجي ابن جنجركر خان ، فأقام هناك دولة هرفى باسم دولة مغول القفجاق أو القبيلة الذهبية نسبة إلى اللون الذهبي الذي اشتهرت به غنياتها ، ولم يلبس الإسلام أن انتشر بين ذلك الفرع من التتار ، وذلك بعد أن اعتنق رئيسهم بركة خان الإسلام ، الأمر الذي ترتب عليه ازدياد أواصر التقارب والصداقة بين مغول القفجاق والقوى الإسلامية المجاورة وبخاصة دولة المماليك من ناحية ، وازدياد العداء والتنافس بين مغول القفجاق وبقية طوائف المغول الوثنيين وبخاصة مغول فارس من ناحية أخرى .

وفي موجة العداء بين سلطنة المماليك في مصر وتتار فارس ، كان طبيعياً أن يزداد التقارب بين المماليك وتتار القفجاق المسلمين من ذلك أن السلطان الظاهر بيبرس لم يكذب لم بإسلام بركة خان حتى كتب إليه د يفويه بقتال هولاء كـ و يرغب في ذلك (٢) . ثم إن الظاهر بيبرس أخذ يكرم وفود المغول

(١) استبعدنا من هذه الدراسة الدول التي لم تربطها بدولة المماليك سوى علاقات حرية واضحة مثل مغول فارس وأرمينية الصغرى وقبرس ورودس وغيرها ، وقد سبق الكلام ما كان بين دولة المماليك وتلك الدول من علاقات يشوب عليها الطابع الحربي .

(٢) المقرئى : السلوك ١٧ ص ٤٦٥ .

الرافدين على بلاده من القبيلة الذهبية ، وكان بهضر هؤلاء خاضعين لحولاكو
ففروا إلى الشام عندما لمسوا العداء المستحكم بين زعيمهم بركة خان وحاكمهم
حولاكو^(١) .

ولم يلبث أن وفد على مصر سنة ١٢٦٣ رسل بركة خان يحملون رسالة
للسلطان بيبرس جاء فيها دليلاً على السلطان أني حاربت (حولاكو) الذي منى
لحقى ودمى لإعلاء كلمة الله العليا تمصياً لدين الإسلام لأنه باغى والباغى كافر
بالله ورسوله ... (٢) ، وكان أن رد الظاهر بيبرس على بركة خان برسالة طويلة
جمع فيها د من الترضيب والاستمالة والإغراء على حولاكو وإظهار الميل
إليه ... (٣) ، ولم يكتف بيبرس بتلك الرسالة ، وإنما أمر بالعداء لبركة خان
بعد العداء للسلطان على منابر مكة والمدينة والقدس والقاهرة ، كما أرسل
هبة الرسل هدية ثمينة للملك بركة ، من جهتها فيل ودراسة ، ويقال إن
رسل بيبرس قوبلوا بالطفافة البالغة في بلاد بركة خان ، وحكوا عند عودتهم
إلى مصر أن لكل أمير وأميرة في بلاط بركة خان إماماً ومؤذناً خاصاً ،
وأن الأطفال كانوا يحفظون القرآن في المدارس^(٤) .

(١) توماس أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ص ٢٥٩

المقريزي : المواظ والاعتبار ج ٢ ص ١١٧ - ١٩٨ .

(٢) الميني : هذا الجمان ج ٢٠ المجلد الثالث ورقة ٤٩٤ .

(٣) ابن واصل ، مفرج السكروب ج ٢ ص ٤٢٢ (مخطوط) .

(٤) توماس أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ص ٢٦٠ .

ويلاحظ أن بعض الكتاب ذكروا أن الظاهر بيبرس تزوج من ابنة بركة خان ملك
القفجاق (انظر مثلاً جمال الدين سرور : دولة الظاهر بيبرس في مصر ، ص ١٠٦) ، وأخذوا
هذا الرأي من : Lane - Poole : op-Cit.p286

ولكن هذا الرأي يبدو لنا خاطئاً ، إذ لا يوجد في المراجع المعاصرة أدنى إشارة إلى
ارتباط الظاهر بيبرس بملك القفجاق بركة خان بصفة المصاهرة . وربما كان سبب ذلك الخطأ الذي وقع
فيه ابن بول ومن أخذ عنه ، أن المراجع عندما ذكرت زوجات الظاهر بيبرس قالت إن أولى
زوجاته هي ابنة حسام الدين بركة خان التتري وأنها كانت خوندالكبرى في حريم بيبرس وأم
ولده وولي عهده السعيد بركة خان . ولكن الأمير حسام الدين بركة خان غير بركة خان ملك

ومهما يكن من أمر ، فإن العلاقة بين الظاهر بيبرس في مصر وبركة خان ملك مغول القفجاق لم تكن مجرد علاقة شخصية بين رجلين وإنما كانت علاقة بين دولتين ربطت بينهما روابط روحية قوية وأحسنا بخاطر واحد مشترك هو خطر مغول فارس . وهكذا لم تؤد وفاة بركة خان سنة ١٢٦٧ إلى انقطاع صلوات الود بين مغول القفجاق ودولة المماليك ، إذ تبوءت السفارات والكتب بين بيبرس ومنسكوتغر — خليفة بركة خان — بقصد ترجيع القوى ضد مغول فارس وزعيمهم أبقا (١) . واستمرت هذه السياسة نافذة بعد بيبرس ، إذ حدث سنة ١٣٠٤ أن أرسل طقطاي ملك القفجاق سفارة إلى السلطان الناصر محمد بن قلاوون تحمل هدية ورسالة خلاصتها امتداده لمشاركته في محاربة غازان إيلخان مغول فارس ؛ فأجابه الناصر محمد بأن الله قد كفاهم شر غازان وأن أخاه أوجلتاو رضى بالصالح (٢) .

وقد أراد السلطان الناصر محمد بن قلاوون أن يدهم الصلوات بين دولتي المماليك والقفجاق ، فواصل إرسال الرسل والهدايا إلى أريك خان ؛ بل لقد أرسل سفارة سنة ١٣١٦ إلى أريك خان ليطالب الزواج من « بعض الجميلات الجنكزية ، أى أميرة من بيت جنكز خان » ، وذلك توثيقا لصلوات الود بين سلطنة المماليك ومغول القفجاق . ولكن يقال إن رجال أريك خان تمنعوا في أول الأمر ، واشتطوا في طلب المهر وطول المدة وكثرة الشروط (٣) ، الأمر الذي جعل السلطان الناصر محمد يعدل مؤقنا عن ذلك المشروع حتى عاد

« القفجاق » ، ولا يندوا الأمر مجرد تعابه في الاسم أوجد ذلك الخلط (المقرئى : السلوك ج ١ ص ٦٤٠ — ٦٤٤) .

(١) العيني : عقد الجمان ج ٢٠ المجلد الثالث ورقة ٣٥٧ .

(٢) المقرئى : السلوك ، ج ٢ ص ٩٧ .

محمد جمال الدين سرور : دولة بني قلاوون في مصر ص ٢١٨ .

(٣) النوبرى نهاية الأرب ج ٢٠ ورقة ٩١٣٧ .

المقرئى : السلوك ، ج ٢ ص ٢٠٤ .

أرسله خان إلى تلبية رغبة السلطان الناصر فقال : قد جهزت لأخي السلطان الملك الناصر ما كان قد طلب وعينت له ابنة من البيت الجفكرخاني ، وفي سنة ١٣٣٠ وصلت الأميرة التتية واسمها دلتينية - ويقال طولونية - إلى الإسكندرية عن طريق البحر فاستقبلت أحسن استقبال ، ودخل بها السلطان الناصر بعد أيام (١) .

وهكذا استمرت العلاقات أقوى مما تكون صفاء بين سلطنة المماليك في مصر ودولة مغول القفجاق . ويفهم مما ذكره القلقشندي أن المراسلات استمرت بين السلطان الحسن ابن الناصر محمد وجانيك ابن أريك ، وأن جانيك كان يخطب في رسائل المماليك بعبارات التثنية والتقدير والمبالغة في الاحترام (٢) . ويبدو أن انحلال إملائية مغول فارس بعد ذلك قلل من إحساس كل من مغول القفجاق والمماليك في مصر والشام بذلك الخطر المشترك ، هذا إلى أن دولة مغول القفجاق نفسها أخذت في الانحلال والضعف البطيء ، في الوقت الذي شغلت سلطنة المماليك بأعداء جدد مما أضعف صلاتها مع مغول القفجاق .

المماليك والدول الأجنبية في آسيا :

حرصت مصر في عصر المماليك على بسط نفوذها السياسي والديني على الحجاز ، أسوة بما كان عليه الوضع منذ أيام الطولونيين . وكان شرفاً عظيماً ودعاة كبرى لكل حاكم مسلم أن يظهر أمام المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها في صورة حامى الحرمين والمدافع عن الحجاز وأرضه الطيبة . ومنذ قيام سلطنة المماليك في مصر ، وسلاطين المماليك يبدون اهتماماً خاصاً بالحجاز وعناية كبرى بشؤنه . ولم يقتصر ذلك الاهتمام وتلك العناية على العناية بعارة الحرم النبوي وإرسال

(١) المقريزي : السلوك ٢٣ ص ٢٠٤ - ٢٠٥ .

(٢) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٧ ص ٢٩٥ - ٢٩٦ .

المكسورة إلى الحجاز (١) ، وإنما امتدت تلك العناية إلى بسط نفوذ الممالك السياسية على الحجاز ومن ذلك ما يقال من أن السلطان الظاهر بيبرس إنما قصد بإحياء الخلافة العباسية في مصر ، أن يستغل هذه القوة الجديدة في بسط سيادته على الحجاز مثلما كان الحال أيام الأيوبيين (٢) .

والواقع إن الخلائق بين أشراف الحجاز هي التي أتاحت فرصة طيبة لسلطين الممالك لتحقيق أغراضهم . ذلك أنه حدث سنة ١٢٦٦ أن قدم إلى مصر الشريف بدر الدين مالك بن منيف بن شبيحة ليشكو إلى السلطان بيبرس من أن الشريف جواز أمير المدينة حرمه من المشاركة في الإمرة التي كانت مناصفة بين أبيه ووالد جواز . وهكذا وجد السلطان فرصة طيبة للتدخل ، فكتب إلى جواز يطلب منه تسليم بدر الدين نصف الإمرة ، وتسلم الشريف بدر الدين تقليداً بذلك من بيبرس ، وفامثل جواز .

ثم حدث سنة ١٢٦٨ أن وقع خلاف في مكة بين الشريف نجم الدين أبي هني وبين عمه وشريكه في إمارة مكة الشريف بهاء الدين لإدريس . وقد انتهز السلطان بيبرس تلك الفرصة لتسوية النزاع بينهما وتأكيده سلطانه عليهما جميعاً ، فرتب السلطان لهما عشرين ألف درهم كل سنة ، بشرط ألا يجهموا من أحد مكوساً ولا يمنع أحد من زيارة البيت ولا يتعرض للتاجر . وأهم من هذا كله ، فإن السلطان بيبرس اشترط على أميرى مكة أن يخطب باسمه في الحرم والمشاعر ، وأن تضرب السكة باسمه ، مما يضمن له سيادة سياسية فعلية على الحجاز . وبعد أن وافق أميرا مكة على كل ذلك ، كتب لهما بيبرس تقليداً بالإمارة وسلمت لنوابهما أوقاف الحرم التي بمصر والشام (٣) .

(١) القرينى : السلوك ج ١ ص ٤٤٥ .

(٢) Van Berchem: Titres Califiens pp. 286-292.

(٣) القرينى : السلوك ج ١ ص ٥٦٠ ، ٥٦٩ .

ولم يبق بعد ذلك أمام بيبرس سوى أن يذهب بنفسه إلى الحجاز لتأكيد سلطانه على تلك البلاد من ناحية ولتأدية فريضة الحج من ناحية أخرى ، وكان أن تفد بيبرس عزمه سنة ١٢٦٩ (٦٦٧ هـ) فزار المدينة ، وغسل السكبة يديه . وانتهت تلك الفرصة ليعين أحد أمرائه - وهو الأمير شمس الدين مروان - نائباً عنه في مكة ليكون الحل والعقد على يديه^(١) . على أنه يتضح من خلال أحداث زيارة بيبرس للحجاز أن العلاقة بينه وبين أشرف الحجاز لم تكن على ما يرام ، بدليل أن أميري المدينة جاز ومالك رفضاً مقابلة السلطان بيبرس « وفراً منه » بما يشهد على أن أمراء الحجاز أحسوا بثقل وطأة حكم بيبرس عليهم^(٢) .

ولم تستقر الأوضاع لدولة المماليك في الحجاز بعد عهد بيبرس ، إذ استمرت الخلافات بين الأشرف في مكة والمدينة تثير مشاكل عديدة في وجه دولة المماليك . من ذلك ما حدث في عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون من استنجد الشريف منصور ضد ابن أخيه ماجدين مقل الذي انتزع منه إمارة المدينة ، فأرسل السلطان الناصر محمد بعضاً من جنده لمعاونة الشريف منصور^(٣) .

أما في مكة فقد عانى الشكوى من الأخوين حميضة وأسد الدين رميثة ، مما جعل السلطان الناصر محمد يرسل حملة سنة ١٣١٤ لإحلال أخيهما أبي الغيث محلهم في الحكم^(٤) . ولم يكتف أمراء مكة بالاستعانة بسلطنته المماليك في مصر لفض ما بينهم من منازعات ، بل بلغ الأمر ببعضهم أن فر إلى أوجاثير لإبليخان

(١) العيني ، قد الجوان ج ٢٠ مجلد ٣ ورقة ٥٥١ (مخطوط)

النويري . نهاية الأرب ج ٢٨ ص ٥١ - ٥٢ (مخطوط)

(٢) المقرئ . السلوك ج ١ ص ٥٨٠ - ٥٨٢

(٣) محمد جمال الدين سرور . دولة بني قلاوون في مصر ص ١١٨

(٤) أبو الفدا . المختصر ج ٤ ص ٧٣

المغول في فارس اطالب النجدة منه^(١) . وهكذا ظلت مكة مسرحاً لمنازعات عديدة الأمر الذي جعل سلاطين المماليك يرسلون بين حين وآخر بعض القوات إلى هناك لإقرار الأمور أو لمناصرة أمير على آخر. هذا إلى أن سلاطين المماليك كثيراً ما قصدوا الجحار لأداء فريضة الحج ، وعندئذ كانوا يفتنمون فرصة وجودهم هناك لبحث المشاكل التي يعاني منها أهل الحرمين ، وتوزيع القمح والعلال على المحتاجين ، فضلاً عن إقرار الأمن والنظام بالأراضي المقدسة^(٢) .

أما بلاد اليمن فقد ارتبطت بحكامها من بني رسول بعلاقات الود مع سلاطين المماليك في مصر ، ويفهم من المراجع أن عدة سفارات أتت من اليمن تهمل الهدايا إلى السلطان الظاهر بيبرس سنة ١٢٦٨ ، ١٢٧٠ ، ١٢٧٥ (١٢٦٦) ، ١٢٦٩ ، ١٢٧٤) ومن هذه الهدايا التحف والفيلة والحيوانات والطيور . وكان السلطان الظاهر بيبرس يحسن استقبال تلك السفارات ويرد على تلك الهدايا بأحسن منها^(٣) .

ويبدو أن ملوك اليمن من بني رسول كانوا يخشون سطوة سلاطين المماليك في مصر ، لأنه كان من المفروض أن تظل بلاد اليمن تابعة لمصر منذ أن فتحها تورانشاه أخو صلاح الدين الأيوبي سنة ١١٧٣ . هذا إلى أن قيام الخلافة العباسية في مصر جعل لسلاطين المماليك نوعاً من الولاية على بقية ملوك العالم الإسلامي ، وبخاصة البلاد التي ورد ذكرها في التقليد الذي منحه الخليفة المستنصر بالله العباسي للسلطان الظاهر بيبرس ، وهي « الديار المصرية والبلاد الشام والديار بكرية والحجازية واليمنية والفراتية » . ولعل هذا هو السر في حرص ملوك بني رسول باليمن على علاقاتهم الودية مع سلاطين المماليك

(١) الزويري . نهاية الأرب ج ٣٠ ورقة ٨٩ ع

Howorth : Hist. of the Mongols, III, p. 572.

(٢) المغربي : السلوك ج ٢ ص ١٩٧ ، ص ٢٣٨ .

(٣) المرجع السابق ج ١ ص ٥٦٣ ، ٥٩٥ ، ٦٢١ .

في مصر ، فأرسل المظفر شمس الدين على سفارة سنة ١٢٨١ إلى السلطان المنصور قلاوون تحمل هدية قيمة من العنبر والعرد والصيني وغيرها . وقد ألح ذلك الوفد في الحصول على أمان من السلطان قلاوون لملك اليمن ، فبني السلطان رخصتهم وأعطاهم أمانا نص فيه على ألا يتناوله من مضره مدى الدهر وأسمارنا ، ما دام ملازما لشروط مودتنا . . . (١) .

وفي الوقت نفسه حرص سلاطين المماليك في مصر على إرسال الرسل إلى اليمن ليذيعوا على أهلها ما أحرزه سلاطين مصر من انتصارات باهرة رفعت شأن الإسلام والمسلمين . من ذلك أن السلطان الناصر محمد بن قلاوون أرسل أحد أمرائه إلى اليمن ليبشر بانتصاره على التتار في موقعة مرج الصفر سنة ١٣٠٢ (٢) .

على أنه حدث سنة ١٣٠٣ أن تولى ملك اليمن المؤيد هزير الدين داود ، الذي لم يتبع أسلافه من ملوك اليمن في التودد إلى سلاطين مصر ، بل على العكس ضايق التجار المصريين وامتنع عن إرسال المال المقرر إلى مصر . لذلك أرسل إليه كل من السلطان الناصر محمد والخليفة المستنصر بالله يذودونه ويهددونه ؛ بل لقد أخذ الناصر محمد يعد للعدة لإرسال قوة حربية لتأديب صاحب اليمن ، لولا اضطراب الأحوال الداخلية في مصر مما حال دون تنفيذ ذلك المشروع (٣) .

على أن الأمور لم تلبث أن انتظمت بين سلطنة المماليك من ناحية وملوك اليمن من ناحية أخرى . ومن الثابت أن المنازعات بين أمراء اليمن بعضهم

(١) بيبس الدواو : زبدة الفكرة ج ٩ ورقة ١٢٣ (مخطوط) ؛

(٢) محمد جمال الدين سرور : دولة بني قلاوون في مصر ص ١٣٠ .

(٣) المجلد ١ : السور ج ٢ ص ٣٤ - ٣٨ .

(١٩) - العصر المماليكي

وبعض من جهة ، أو بين الأمراء والأئمة الزيدية من جهة أخرى . أناحت
لسلاطين المماليك فرصة دائمة للتدخل بين حين وآخر في شئون الين وإدهاء
هيمنتهم على ملوكها . من ذلك أن الملك المجاهد سيف الدين طلب من السلطان
الناصر محمد سنة ١٣٢٥ أن يمدّه بقوة تنصره على ابن عمه عبد الله ابن المنصور
الذى سيطر على معظم أنحاء الين ، فأمدّه السلطان الناصر محمد بمهمة كبيرة
تحت قيادة الأمير ركن الدين بيبرس الحاجب^(١) . وهكذا ظل ملوك الين
يعترفون بالولاء لسلاطين المماليك في مصر ويعرضون على إرضائهم بما حقق
لأولئك السلاطين سيادة على أهم أجزاء شبه الجزيرة العربية .

وثمة دولة إسلامية أخرى في آسيا ربطتها بسلطنة المماليك علاقات
المودة والصداقة ، هي دولة هندستان . وقد نجح محمد بن تغلق ملك هندستان
وسلطان دهل (١٣٢٥ - ١٣٥١) في توطيد دعائم دولته عن طريق التوسع
على حساب الصين وخراسان من جهة ، ومخالفة سلطنة المماليك في مصر
بوصفها أكبر دولة إسلامية مناهضة لمفول فارس من جهة أخرى^(٢) . وطفا
الغرض أرسل محمد بن تغلق في أوائل حكمه سفارة مزودة بالهدايا الثمينة ،
وإن كانت هذه السفارة لم تصل إلى مصر بسبب ما دب بين أعضائها من نزاع
ما مكن الملك المجاهد صاحب الين من الاستيلاء على ما معهم من هدايا .
ولما سمع محمد بن تغلق بما حدث لسفارته الأولى ، عاد وأرسل إلى
السلطان الناصر محمد بن قلاون سنة ١٣٣١ يطلب معولته ضد المفول^(٣) .

ثم إن محمد بن تغلق لم يكتف بالسمي لكسب تأييد السلطان الناصر

(١) الميرزى : السلوك ، ج ٢ ص ٢٥٩ — ٢٦٥ .

(٢) Lane — Poole : Med. India under Mohammedan Rule ,
pp. 116—120:

(٣) محمد جمال الدين مرور : دولة بنى قلاون ص ١٤٠ — ١٤١ .

محمد ، بل حاول أيضا الحصول على تقليد بولايته على بلاده من الخليفة العباسي بالقاهرة ، فأجابه الخليفة المستكفي بالله العباسي إلى رغبته . وقد حرص فيروز شاه الثالث - الذي خلف محمد بن تغلق في الحكم سنة ١٣٥١ - على اتباع نفس السياسة ، فطلب تعويضاً من الخليفة العباسي ، وأرسله له الخليفة المنتضد بالله سنة ١٣٥٦ (١) .

وهكذا يتضح لنا كيف أن سلطنة المماليك أيام ذروة مجدها حققت لنفسها من اتساع النفوذ وهيبة السلطان ما جعل حكام الدول الإسلامية حتى بلاد الهند شرقاً يخطبون ودها ويسعون لكسب تأييدها .

سلطنة المماليك والدول الإسلامية في شمال أفريقيا :

أما الدول الإسلامية بشمال إفريقيا فقد ربطتها بسلطنة المماليك في مصر علاقات قوية أدت إليها رابطة الجوار والإسلام من جهة ، ورابطة الخلافة من جهة ثانية ، ورابطة الخطر المشترك الذي هدد العالم الإسلامي من جانب الغرب الأوروبي من جهة ثالثة ، ثم رابطة الحج ، نظراً لأن مصر تقع على الطريق الرئيسي الذي يوصل حجاج المغرب إلى أرض الحجاز من جهة رابعة .

وكانت مشكلة الخلافة سبباً من أسباب فتور العلاقات في وقت ما بين سلطنة المماليك في مصر وبنى حفص في تونس (١٢٢٨ - ١٥٧٣) . ذلك أن ملوك بنى حفص لم يطلبوا من الخليفة العباسي في بغداد تفويضاً بالحكم مثل غيرهم من غالبية الحكام المسلمين ، مما يشير إلى شيء أضمروه في نفوسهم . ولم يلبس أن ظهر ذلك الشيء عند ما اتخذ أبو عبد الله محمد الأول الحمصي الملقب بالمنتصر (١٢٤٩ - ١٢٧٦) لقب الخلافة والإمامة ، وتلقب بلقب

(1) Allan : The Cambridge Shorter Hist. of India, p. 246.

المستنصر بالله المنصور بفضل الله أمير المؤمنين أبي عبد الله محمد ابن الأمام
الراشدين^(١). وبذلك كان أسبق ملوك شمال أفريقية — بمد الموحدين —
إلى اتخاذ لقب أمير المؤمنين .

وتفسير المراجع إلى أن الذي شجع الحفصيين على الإقدام على تلك
الخطوة كان شريف مكة أبو نجي بن الحسن، الذي أسرع بالاعتراف بسيادة
الحفصيين على مكة^(٢)، ولم تكن سفارة أبي نجي هي الوحيدة التي وصلت
إلى تونس، وإنما أعقبها أيضا سفارتان إحداهما من سلطان بني مرين
والأخرى من ملك التكرور .

ولم يمض على اتخاذ أبي عبد الله الحفصي لقب الخلافة مدة طويلة حتى
قام السلطان الظاهر بيبرس بإحياء الخلافة العباسية في القاهرة سنة ١٢٦٠ ،
عما أرجد نوعا من الضغينة بين سلطنة المماليك في مصر وملوك الحفصيين
في تونس . والواقع إن سلطنة المماليك في مصر حاولت دائما أن تقلل من
شأن خلافة الحفصيين ، بدليل ما ذكره العمري من أن ملك تونس يخاطب
بأمير المؤمنين في بلاده^(٣) . كذلك شكك القلقشندي في دعوى انتساب
الحفصيين لقريش ، وقال إنهم لبسوا من العرب في شيء ، وحقر من شأنهم
وشأن خلافتهم^(٤) . أما المؤرخ أبو المحاسن فقد بلغ من تحقيره للحفصيين
وخلافتهم أن قال مانصه وفيها (٥٦٥٢) وصلت الأخبار من الغرب باستيلاء
إنسان على إفريقية وادعى أنه خليفة وللقب بالمستنصر ...^(٥) .

(١) Van Berchem : Titres Califieu, p. 292.

(٢) القهواني : المولى في أخبار إفريقية وتونس ، ص ١٧٨ .

(٣) العمري : التمريل بالمصطلح العربي ص ١٣ .

(٤) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٨ ص ٧٩ .

(٥) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٣٢ .

ويبدو لنا موقف سلطنة المماليك في مصر من الحفصيين في المكاتبات الصادرة عن ديوان الإنشاء ، إذ ليس في هذه المكاتبات ما يشير إلى اعتراف سلاطين المماليك بخلافة الحفصيين . ولم يحاول سلاطين المماليك تلقيت الحفصيين بلقب أمير المؤمنين ، وإنما لقبوهم فقط بلقب «أمير المسلمين» وهو لقب دون الأول في المرتبة ولا يعني أنه خليفة شرعي على المسلمين ، وإنما هو مجرد حاكم أو أمير من أمراء المسلمين يعمل تحت لواء الخلافة^(١) . وليس في القلقشندي سوى رسالة واحدة بعث بها الظاهر برقوق إلى أحد ملوك الحفصيين لقبه فيها بلقب «أمير المؤمنين» ؛ وربما كانت عبارة المؤمنين فيها تحريفا عن المسلمين نتيجة لخطأ النسخ ، أو ربما كان سوء العلاقات بين الخلفاء العباسيين في القاهرة وسلاطين المماليك عندئذ سببا لدفع الظاهر برقوق إلى الاعتراف بالخلافة الحفصية نكائية في الخلافة العباسية .

على أن مشكلة الخلافة بين المماليك والحفصيين لم تصل إلى درجة من الحدة تحول دون تكاتف القوتين لمواجهة الخطر الكبير الذي هدد العالم الإسلامي عندئذ من جانب الصليبيين . من ذلك أن أخبار رحلة لويس التاسع إلى تونس سنة ١٢٧٠ أثارت اهتمام السلطان بيبرس ، فأخذ يستعد بدمرته لدفع هادية الصليبيين عن تونس ، بل يقال إن السلطان الظاهر بيبرس بادر بإرسال رسول إلى فرنسا لتحذير لويس التاسع من هاقبة مشروعه ، وذلك بمجرد وصول أخبار استعدادات لويس التاسع إلى مصر^(٢) . وعند نزول القوات الصليبية في تونس بادر السلطان الظاهر بيبرس بإرسال رسالة إلى ملك الحفصيين يخبره بأنه سيرسل إليه ما يستطيع من عسكر ، كما طلب من عربان برقة المبادرة

1) Van Berchem : Titres Califiens. p. 261.

(٢) ابن خلدون ، المعبر ، ج ٦ ص ٢٩١

بمساعدة المستنصر الحفصى . هذا إلى أن يبهرس أمر بحفر الآبار في الصحراء الغربية ليعتمد عليها جنوده في طريقهم لفجدة تونس (١).

على أن السلطان يبهرس لم يكف بمضى في استعداداته حتى جاءت الأخبار بموت لويس التاسع في تونس وفشل حملته ، الأمر الذى جعل يبهرس يوقف استعداداته الحربية لمساعدة تونس ويرسل البعثات إلى سائر بلدان المسلمين ابتهاجا بالخلاص من ذلك الخطر (٢) . ومع ذلك فإن السلطان يبهرس لم يفته أن يتخذ تلك الحملة الصليبية وسيلة للتفتيح على المستنصر الحفصى والخط من شأنه . ويروى المقرئى أن رسول صاحب تونس قدم إلى مصر سنة ١٢٧١ يحمل هدية وكتابا للسلطان الظاهر ببهرس ، ولكن يبهرس استاء من أسلوب المخاطبة وظن أن صاحب تونس نعمد عدم مخاطبة سلطان مصر بما يستحقه من تقدير . لذلك نعد السلطان ببهرس من ناحيته أن يفرق هدية صاحب تونس على الأمراء دون أن يحتفظ لنفسه بنصيب منها ، كارد على ملك الحفصيين مستقبعا لظاهرة بالمنكرات واستخداه الفرنج ، فضلا عن تقاعسه في الجهاد وعدم خروجه لمقاتلة الصليبيين عندما هاجموا بلاده . ويروى المقرئى أن السلطان ببهرس قال للمستنصر الحفصى ومثلك لا يصلح أن يلى أمور المسلمين (٣) .

* * *

هذا عن العلاقة بين سلطنة الممالك ودولة الحفصيين في تونس ؛ أما عن علاقة الممالك ببقية بلاد المغرب الإسلامى - مثل بنى زيان في تلمسان وبنى مرين في فاس - فيلاحظ أنها تأثرت بما كان هناك من صداقة بين سلطنة الممالك وبنى مرين في فاس ، في الوقت الذى سادت العلاقات بين بنى زيان وبنى مرين .

(١) المقرئى : السلوك ، ج ١ ص ٩٠ .

(٢) سعيد ماسور ، الظاهر ببهرس ص ١١٤ .

(٣) المقرئى ، السلوك ، ج ١ ص ٦٠١ .

والواقع إن الزينيين تطلعو في أول الأمر إلى سلاطين المماليك للحصول على تأييدهم ضد أطماع بني مرين ، ولكن سلاطين المماليك في مصر كانوا على درجة من بعد النظر جعلتهم يدركون أن بني مرين هم أضخم قوة في بلاد المغرب ، فحرصوا على إظهار الود نحوهم واكتساب صداقتهم ، الأمر الذي أدى إلى نفوذ بني زيان من سلطنة المماليك . وليست هناك بداية محددة لذلك النفوذ ، وإن كانت المراجع تشير إلى أن السلطان الناصر محمد بن قلاوون أرسل سفارة سنة ١٣٠٥ إلى أبي يعقوب يوسف المريني ، ومع السفارة هدية جميلة ، وبعد أن لقيت السفارة من بني مرين كل ترحاب وحفاوة ، تعرضت وهي في طريق عودتها إلى مصر لعدوان الأعراب في تلمسان ، على الرغم من أن أعضاء السفارة كانوا قد طلبوا من بني زيان في تلمسان حمايتهم في أراضيهم (١) . وكان أن غضب السلطان الناصر محمد بن قلاوون لما أتاه صاحب تلمسان - وهو عندئذ أبو محمد موسى (١٣٠٧-١٣١٨) فأرسل يعقوب عليه ويؤنبه ، كما بعث له بهدية صغيرة تحقيراً لشأنه . وقد رد التلمساني على السلطان الناصر محمد محتجاً ، كما رفض قبول الهدية (٢) . وعلى الرغم من أن أباتاشفين عبد الرحمن بن موسى التلمساني حاول أن يصلح الأمور بعد ذلك مع سلطنة المماليك ، وأرسل إلى السلطان الناصر محمد سنة ١٣٢٥ معبراً عن حسن نواياه ويوضح له أن سبب استيائه أسلافه هو د ميلاكم إلى خيرتا ، (يقصد بني مرين) (٣) ، فإن دعوته لم تجد ترحيباً من سلطنة المماليك ولم يلبث بنو مرين أن بسطوا سيادتهم على تلمسان سنة ١٣٣٧ ، وكتب أبو الحسن علي المريني رسالة إلى السلطان الناصر محمد يخبره بما تم على يديه من فتوح ، فرد عليه السلطان الناصر مؤيداً ومهنئاً (٤) .

(١) التوبري ، نهاية الأرب ج ٢٨ ورقة ٥٠ (مخطوط)

(٢) ابن خلدون المعرج ٧ ص ٣٢٧

(٣) القلشندي صبح الأعشى ج ٨ ص ٨٦

(٤) المرجع السابق ج ٨ ص ٨٧ - ٩٩ ج ٧ ص ٣٩٥ - ٤٠٧

وهكذا يبدو لنا كيف نظر سلاطين الممالك في مصر إلى بني مرين نظرة احترام وإجلال ، بوصفهم أكبر قوة في المغرب العربي ، فضلاً عن دورهم البارز في حماية الإسلام بالمغرب وجهاد المسيحيين بأسبانيا^(١).

والواقع إن مظاهر العلاقات الوثيقة التي ربطت مصر بالمغرب العربي في أواخر العصور الوسطى بوجه عام وفي عصر سلاطين الممالك بوجه خاص عديدة ومتنوعة . ومن هذه المظاهر حرص سلاطين الممالك على إرسال البعثات إلى المغرب كلما أحرزوا انتصاراً على أعداء المسلمين في الشرق ، مثل التتار أو الصليبيين . ولا يخفى علينا أن ملوك المغرب كانوا ينظرون إلى سلطنة الممالك نظرة أمل بوصفهم حماة العالم الإسلامي ضد الأخطار التي تهدده من جهة الشرق . وهناك في المراجع ما يشير إلى أن ملوك المغرب كانوا يقفون موقف المترقب عندما دم خطر التتار المشرق العربي على أيام هولاكو ثم تيمورلنك ، وأنهم كانوا يسارعون إلى تنبئة الممالك بحقب كل انتصار أحرزوه على خصومهم^(٢).

كذلك كانت مصر في عصر سلاطين الممالك ملجأ لكثير من المغاربة اللاجئين إليها فراراً من حكام بلادهم . ولم يقتصر الأمر على الأمراء المغاربة الفارين من بلادهم ، وإنما تعدى ذلك إلى هجرة بعض أفراد وطوائف من أهل المغرب إلى مصر يلتمسون فيها العلم والرزق . وكان بعض أولئك المغاربة من الفقراء والصوفية ، فتركوا أثراً عميقاً في أحوال مصر الاجتماعية نتيجة لما ترتب على مجيئهم من انتشار حركة التصوف فيها . ولا يخفى علينا أن مرور ركب الحجاج المغاربة بمصر في طريقهم إلى الحجاز أو إلى بلادهم بعد أداء الحج

(١) العمري : التعريف ص ١٦ — ٣٣

(٢) النويري : نهاية الأرب ج ٣٠ ورقة ٢٧

القلقشندي : صبح الأعشى ج ٨ ص ٧٩ — ٨٤ ، ج ١٠٣ ، ج ٧ ص ٤٠٧ — ٤١١

كان فرصة طيبة لإصلاح نسبة كبيرة من أهل المغرب على أوضاع مصر، ولا شك في أن تلك العلاقات الطيبة بين مصر والمغرب مهدت لاتعايش التبادل التجاري والثقافي بين الطرفين . أما عن النشاط التجاري فثمة إشارات في المراجع إلى أن مصر كانت تستورد من المغرب الحبوب والزيت وتصدر إليه المنسوجات الحريرية والكتانية . وقد روى ابن خلدون أنه أتى إلى مصر سنة ١٣٨٢ على ظهر سفينة مصرية كانت قد قصدت تونس للتجارة^(١) ، كما ذكر في موضع آخر : إن تهمار المغاربة إلى المشرق ثروتهم بعيدة لبعد الشقة وغلو أسعار بضائعهم^(٢) . وأما عن التبادل الثقافي فالمعروف أن مصر في عصر المماليك « صارت أهل سكن العلماء وعط رحال الفضلاء ، كما وصفها السيوطي^(٣) . لذلك قصدوا في ذلك العصر كثير من المغاربة لطلب العلم ؛ فضلاء العلماء المغاربة الذين حظوا بعطف سلاطين المماليك وسمحوا لهم بالتدريس في الأزهر^(٤) . وعلى رأس هؤلاء العلماء يذكر التاريخ اسم ابن خلدون الذي أتى إلى مصر لا تذاً بها سنة ١٣٨٢ ، وظل يواصل نشاطه العلمي في التأليف والتدريس حتى وفاته في مصر سنة ١٤٠٥ ، أما ابن بطوطة - الرحالة المغربي الشهير - فقد وفد على مصر في عهد السلطان الناصر محمد سنة ١٣٢٤ ؛ وسجل إعجابه بها ووصفه لما شاهده بين ريوها في رحلته المعروفة .

وهكذا تدل جميع الشواهد على تنوع الصلات وقوتها بين مصر في عصر المماليك والمغرب العربي ، مما ترك أثراً كبيراً في التاريخ ويعتبر شاهداً قوياً على وحدة التاريخ العربي .

(١) ابن خلدون : العبر ج ٧ ص ٤٥١ .

(٢) ابن خلدون : المقدمة ص ٢٩٤ .

(٣) السيوطي . حسن المحاضرة ج ٢ ص ٨٦ .

(٤) ابن حجر . الدرر الكامنة ج ٣ ص ٣٦١ - ٣٦٢ ج ٤ ص ٣٢٧ .

الجمهورية بين سلطنة المماليك والسودان الغربي :

أما دول السودان الغربي ، فلم تقم بينها وبين سلطنة المماليك في مصر علاقات سياسية قوية مباشرة وذلك بعد الشقة بين الطرفين ، وليس معنى ذلك انعدام الصلات بين سلطنة المماليك والسودان الغربي ، فقد كانت هناك صلات قوية ، ولكنها كانت أكثر وضوحاً في نواحي الحج والتجارة والجوانب الثقافية .

والواقع إن الحج ظل يمثل أقوى الروابط التي ربطت سلطنة المماليك بدول السودان الغربي ، حيث أن سكان تلك النواحي اعتادوا في طريقهم إلى الحجاز أن يسلكوا الدرب الصحراوي المعروف بطريق غات ، وهو يبدأ من مدينة غات نفسها وينتهي عند الأهرام (١) ، فإذا وصل حجاج السودان الغربي إلى مصر فإنهم اعتادوا أن يقضوا فيها وقتاً حتى ينهوا ركب الحجاج والمحمل إلى مكة . ولا شك في أن تلك المدة التي كانوا يقضونها في مصر أثناء طريقهم إلى الحجاز ، كانت فرصة طيبة يتصلون فيها بالمصريين ويتصل المصريون بهم ويعتبر كل طرف على الآخر .

وأول من مر بمصر في طريقه إلى الحجاز من ملوك مالي والتكروري هو متساو الذي حج أيام السلطان الظاهر بيبرس (٢) . وتغبرنا المراجع أن ثمة وفداً من الحجاج التكروري وفد بمسدد ذلك إلى مصر سنة ١٣٢٣ ، وكان يتألف من عشرة آلاف تكروري على رأسهم متساموسي (٣) . وقد أحاط

(١) ابن خلدون : الديبر ج ٥ ص ٤٣٤

(٢) القلائشي : صبح الأعشى ج ٥ ص ٢٩٣ . ويذكر القلائشي أن منسا معناها السلطان وولي معناها على .

(٣) ابن الوردي : تاريخ ابن الوردي ج ٢ ص ٢٢٥ .

ذلك الملك نفسه بمظاهر الترف ، وأخذ ينفق في مصر عن سمة استرعت نظر المعاصرين ، وأقدم هذا باجلية السلطان الناصر محمد بن قلاوون من بيتا حمل جليل من الذهب المعدني الخام . أما السلطان الناصر محمد فقد أكرمه وبعث إليه وإلى أفراد حاشيته بالفلج والسيوف وغيرها ، كما أمده بالخيول والجمال والمؤونة لينمكن من مواصلة سفره إلى الحجارة (١) .

ولم يلبث سلاطين مالى أن أدركوا أهمية الحصول على تقليد من الخلافة العباسية بالقاهرة في توطيد نفوذهم . من ذلك أن محمد أبو بكر سلطان مالى أتمز فرجة مروره بمصر سنة ١٤٩٤ في طريقه إلى الججاز لأداء فريضة الحج ، ورأى أن يدعم ملكه وبكسبه صبغة شرعية ، فطلب من الخليفة العباسي تقليداً بتفويضه حكم بلاده ، ومنحه الخليفة ما أراد . ويقال إنه عند وصوله إلى مكة ، نادى به شريف مكة « سلطانا وخليفة بأرض التكرور ، وأن كل من خالفه فقد خالف الله ورسوله (٢) » .

ويبدو أن نفوذ مصر السياسي صار معترفاً به في تلك الجهات منذ أواخر القرن الرابع عشر ، إذ حاول ملوك الكاتم الحصول على تأييد شرعي لحكمهم من سلطنة المماليك (٣) . هذا مع ملاحظة أن ملوك السودان الغربي ظلوا في نظر سلاطين المماليك في مرتبة أقل من ملوك شمال أفريقية ، بدليل أن الفريق الأول كانوا يخاطبون في المكاتبات السلطانية الصادرة عن ديوان الإنشاء بلقب « الجناب الكريم العالى » ، في حين أن الفريق الثانى كانوا يخاطبون بلقب « المقام العالى (٤) » .

(١) العمري : مسالك الأبصار ص ٩٤٣ ، ٩٥٤ — ٩٥٥ .

(٢) محمد كمت التليكى : تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس ص ١٢

(٣) Ziada : Foreign Relations, p. 113.

(٤) اللقشندى : صبح الأعشى ج ٨ ص ٧ .

والواقع إن المراسلات المتبادلة بين سلاطين الممالك في مصر وملوك السودان العربي تلقى ضوءاً هاماً على العلاقة بين الطرفين ، وتدل على مدى العناية دولة الممالك بتعرف أحوال تلك البلاد من ناحية ، ومدى اهتمام بلاد السودان العربي بأخبار دولة الممالك من ناحية أخرى وما تعرض له من أحداث وبخاصة من جهة التتار . ويستشف من كلام العمري أنه يأسف لعدم العناية نهاية تامة بأحوال التكرور الذين تربطهم بمصر روابط الإسلام ، ويطالب بمزيد من الاهتمام بأخبارهم^(١) .

ولاشك في أن روابط الإسلام بين مصر ودول غرب إفريقيا أدت إلى نمو الروابط العلمية والثقافية بين الطرفين . من ذلك ما يقال من أن السلطان منسا موسى اقترح فرصة وجوده في مصر فابتاع جملة من الكتب ليوفر لأهل بلاده جانباً من الثقافة الإسلامية^(٢) . كذلك يقال إن جامعة تنكبوتو الدينية التي أنشئت حوالي سنة ١٣٣٥ حاولت دائماً أن تحتذى أساليب الأزهر في التعليم . ويبدو أن بعض المصريين من العلماء وغيرهم استقروا في السودان الغربي ، بدليل ما يذكره ابن بطوطة من أنه عندما مرض في مدينة مالي لم يسعفه بالعلاج إلا أحد الأطباء المصريين^(٣) .

ومن جهة أخرى ، فإن بعض طوائف من بلاد التكرور أقامت في مصر لطلب العلم والدراسة على مشايخ العصر المهرزين أمثال ابن جوزي وأبي حيان وغيرهما^(٤) . وقد نبغ من التكرورة في مصر صبيح بن عبد الله التكروري الملقب بالكوتاني الذي اشتغل بتدريس الحديث في دمشق حيث مات سنة ١٣٣٠^(٥) .

(1) Demombynes : Masalik Alabsar, Intr, IX.

(٢) ابن حجر : الدرر الكامنة ج ٤ ص ٣٨٣ .

(٣) رحلة ابن بطوطة ج ٤ ص ٣٩٧ .

(٤) السخاوي : الضوء اللامع ج ٧ ص ٢ .

(٥) ابن حجر : الدرر الكامنة ج ٢ ص ٢٠٥ .

كذلك ابنتي تجار التكاورة بمصر مدرسة المالكية عرفت بمدرسة ابن رشيق (١)؛
وأصبحت هذه المدرسة المالكية مركزاً لطلاب العلم الوافدين من بلاد التكرور،
حتى أن الخبيرين من أهل تلك البلاد اعتادوا أن يعضوا لتلك المدرسة بالمال
والتمهرات (٢). ولا يخفى علينا أن كثير من التكاورة في مصر كانوا على درجة
شديدة من الفقر، وهؤلاء كان لهم نصيب من عطف سلاطين الماليك،
إذ يروى المقرئ أن السعيد بركة خان ابن الظاهر بيبرس « عمل للتكاورة
خوان حضره كثير من أهل الخبر » (٣).

وأخيراً ، فإنه لا يخفى علينا أن التجارة كانت تمثل رباطاً قوياً دعم العلاقات
بين دولة الماليك ودول السودان الغربى . ومن ثم لم يكن من الغمط التجارى بين
الجماعين في مكان آخر من هذا الكتاب ، ولذلك اكتفى بالإشارة هنا أن
الأم لم يقتصروا في عصر الماليك على مجيء التجار التكاورة إلى مصر يحملون
حاصلات السودان ، وإنما تعدى ذلك إلى تردد بعض التجار المصريين على
بلاد الكانم والتكرور ، الأمر الذى قوى الصلات بين دولة الماليك ودول
السودان الغربى .

الموقف بين سلطنة الماليك والحبشة :

أما عن العلاقة بين سلطنة الماليك والحبشة فكانت من نوع آخر .
ذلك أن الحبشة دولة مسيحية تتبع كنيسة الكنييسة المرقسية بالإسكندرية؛
ثم لأنها كانت بعيدة عن مصر لا تربطها بها حدود مباشرة مما حال دون وقوع

(١) سميت بهذا الاسم لأن علم الدين ابن رشيق هو الذى أدرج على رأسها قبل متصل
الفرق السابع المهرى ، وهو أيضاً أول من درس بها ،
(٢) المقرئى المواظ والاهتبار ج ٩ ص ٩٩٥ ؛
(٣) المقرئى : التلوك ج ١ ص ١٩٩

صدام مباشر بين القوتين ، مثلما حدث بين مصر وملك النوبة المسيحية في مصر الممالك ، أو بين سلطنة الممالك من ناحية والقوى الصليبية القريية في الشام وأرمينية الصغرى وقبرس ورودس من ناحية أخرى .

والواقع أنه منذ أن تأكدت تبعية الكنيسة الحبشية للكنيسة المصرية في أوائل العصور الوسطى ، والعادة جرت بأن تستوزد الحبشة مطاراتها من مصر ، فإذا خلا منصب مطران الحبشة أرسل ملكها رسالتين لإحداهما الحاكم مصر والأخرى لبطرك الاسكندرية طالباً تعيين من يشغل كرسي المطرانية في الحبشة . كذلك جرت العادة أن يرفق ملك الحبشة رسالته بمبلغ ضخم من المال يجمعه على شكل ضريبة من رعاياه^(١) . وعند وصول هاتين الرسالتين والمال ، يتصل بطرك الاسكندرية بالسلطان أو الحاكم في مصر ويستأذنه في رسالة أحد الرهبان الأكفاء ليشغل كرسي مطران الحبشة .

وهكذا وجد عامل ديفى قوى ربط بين الحبشة وسلطنة الممالك ، وحقق قدراً كبيراً من الاتصالات بين الدولتين . وبفهم من المراجع أن السلطان الظاهر بيبرس أرسل سفارة إلى الحبشة ، ولما كان هذه السفارة تأخرت في العودة بسبب الحروب الداخلية التي كانت دائرة هناك حول العرش ، الأمر الذي أغضب بيبرس وقد أحس ملك الحبشة بفضب سلطان مصر ، فلم يجرؤ على طلب مطران منه مباشرة ، وإنما اتصل بسلطان اليمن وطلب وساطته لكي يصدر بيبرس أوامره إلى البطرك غيريال الثالث ليمس إلى الحبشة ومطراناً رجلاً جيداً عالماً لا يجب ذهاباً ولافضة ، . ونخرج من رسالة ملك الحبشة إلى بيبرس بنتيجتين أولاهما أنه اشترط في المطران أن لا يجب ذهاباً ولافضة ، بما يفهم منه أن بعض المطارنة

1) Coulbeaux : Hist. Politique et Religieuse de l'Abysinie, t. I, p. 179.

المصريين الذين كانوا يوفدون إلى الحبشة أظهروا تكالباً على المال؛ وثانيهما أن ملك الحبشة حرص على أن يحشورسائله لسلطان مصر بعبارات الملقى والزلفى، ومن ذلك قوله... وهذه الخاق كلهم يقولون آمين بطول بقاء عمر سلطاننا مالك مصر، وبملك الله عدوه... (١).

ومع ذلك فإنه يبدو أن العلاقة استمرت سيئة بين السلطان الظاهر بيبرس وملك الحبشة، فامتنع بيبرس عن إرسال المطران المطلوب، مما دفع الحبشة إلى استحضار مطراناً سورياً من بلاد الشام (٢).

غير أن الأحباش لم يرتاحوا للمطارنة السوريان، فكتب ملك الحبشة يهياًصيون (صهيون) إلى السلطان المنصور قلاوون يعتذر له ويسأله د إنفاذ مطران لإصلاح بلاد الحبشة التي فيها النصارى والمسلمين. كذلك كتب ملك الحبشة إلى بطرك الاسكندرية يقول له: وهؤلاء السريان المطارنة الذين عندنا من غير مصر بغضناهم وما حببناهم، ولأجل محبتنا في بطركية مصر ما خلعناهم عندنا أساقفة وطردناهم (٣).

وقد تكررت رسائل ملك الحبشة إلى السلطان قلاوون بعد ذلك، وكلها رسائل مليئة بالتوسلات والتضرعات، حتى أنه قال في إحدى رسائله: ... اسمع يا سلطان مصر - نصرك الله - : إعطى البطريرك المستورييتمسح لى أسقفنا، فنحن وهم أمانتنا واحدة من زمن مرقص وإلى اليوم... (٤) وكان أن استجاب السلطان المنصور قلاوون لرجاء ملك الحبشة فسمح بتبرسيم المطران المطلوب وسفّره إلى الحبشة.

(١) الزويرى: نهاية الأرب ج ٢٨ ص ٤٦ (مخطوط).

(٢) Coulbeaux: op. cit., T. I, pp. 288—290.

(٣) محمى الدين بن عبد الظاهر: تشرىف الأيام والصور ص ١٧٠ - ١٧٣.

(٤) المرجع السابق ص ١٧٣.

(١٧ - العصر المملوكي)

ومن هذا يبدو أن علاقة كنيسة الحبشة بالكنيسة المرفسية بالإسكندرية كانت سبباً في اتصالات دائمة بين دولة الممالك والحبشة . وجدير بالذكر أن سلاطين الممالك في مصر كانوا يرثبون أحياناً في العلاقة بين بطاركة الإسكندرية وملوك الحبشة ، ولهذا أصرروا أن يكون الاتصال بين الطرفين عن طريق سلطنة الممالك نفسها وليس اتصالاً مباشراً . ويدل ذلك على أن بعض سلاطين الممالك أخذوا عهداً على بطرك النصارى بأن لا يكتب إلى ملك الحبشة بنفسه ولا بوكيله ولا ظاهراً ولا باطناً ، ولا يولى أحداً في بلاد الحبشة ولا قسمياً ولا أعلى منه ولا دونه إلا بإذن من السلطان ووقفه على كتابته ... (١) . كذلك كان سلاطين الممالك يوجهون دائماً النصيح إلى بطرك النصارى في مصر بأن يتوفى ما يأتيه سرّاً من تلقاء الحبشة (٢) ، ولا شك في أن تلك المخاوف التي سادت سلاطين الممالك في مصر من الاتصالات بين بطرك مصر وملوك الحبشة إنما كانت أمراً طبيعياً في عصر الحروب الصليبية ، وهو العصر الذي طفق بروح التعصب الديني من ناحية والذي ظهرت فيه دولة الممالك في صورة القوة الإسلامية الكبرى التي تزعمت حركة الجهاد ضد الصليبيين من ناحية أخرى .

على أن موضوع تعيين مطران للحبشة من قبل بطرك الإسكندرية لم يكن للسبب الوحيد للاتصال بين سلطنة الممالك ودولة الحبشة . ذلك أنه ثمة مظاهر آخر للعلاقات بين الطرفين ارتبطت بهجور الحجاج الأحباش بمصر وهم في طريقهم إلى بيت المقدس . والمعروف أن الأحباش كانت لهم جمالية كبيرة مقيمة في بيت المقدس ، كما كان لهم دير كبير في تلك المدينة المقدسة اتخذوه مقر لهم . وقد اعتاد ملوك الحبشة إرسال الهدايا والهبكات إلى رهبان ذلك الدير ، فضلاً عن التماس كرم سلاطين الممالك في رعاية أولئك الرهبان . من ذلك ما جاء في رسالة ملك

(١) السخاوي : الثبر المسبوك في ذيل السلوك ص ٣١٠ .

(٢) العمري : التمرين بالمصطلح الشريف ص ٤٨ .

الحبشة يهبأصيون (١٢٨٤ - ١٢٩٣) إلى السلطان المنصور قلاوون ؛ من أن ذلك الملك أرسل نوباً ومائة شمة د وسأل إنقاذ ذلك للرهبان الحبوش المقيمين بالقدس الشريف ، ويوصى عليهم بالأيمنعوا من دخول الهيكل^(١) . كذلك أرسل ملك الحبشة المذكور إلى رهبان دير الأحباش في بيت المقدس يقول لهم د سلام عليكم يا رهبان الحبوش الذين صبروا على العباداة والزهد إلى هذه الأيام ، وصبرتم على الحر والبرد . وقد سيرت لكم ثوب أحمر ديباج ، ومائة شمة ، وثيابي وهو زفاري الذي تلبسه السلاطين حتى تلبسونه وقت القربان . فمرفوني بوصول هذا ، واكتبوا أسماءهم ، واذكروني في صلواتكم بدعوانكم ...^(٢) .

ويدو أن جموع الحجاج الأحباش الذين كانوا يمررون بمصر في طريقهم إلى بيت المقدس بلغوا درجة من الكثرة تطلب نوعاً من دوام الاتصال بين ملوك الحبشة من ناحية وسلاطين مصر من ناحية أخرى ، لإعفاء أولئك الحجاج من رسوم المرور . وقد ذكر ألفاري أنه شاهد قافلة تضم نحواً من ثلثائة من حجاج الأحباش تمر بالأراضي المصرية قرب شواطئ البحر الأحمر في طريقهم إلى بيت المقدس^(٣) .

والمناوئز في المراجع أن السلطان صلاح الدين الأيوبي شمس دير الأحباش برهائيه عندما استولى على بيت المقدس سنة ١١٨٧ ، ولذلك دأب ملوك الحبشة في عصر المماليك على إرسال السفارات والكتب السلاطين المماليك ، راجين أن يشملوا حجاج الأحباش بهطهم ولا يمنعهم من زيارة كنيسة القيامة

(١) عيسى الدين بن عبد الظاهر ؛ فهرست الأيام والعصور ٩٧٠ .

(٢) المرجع السابق ص ٩٧٣ .

(٣) Alvarez i Portugeuee Embassy, pp. 243-244. (٣)

بالقدس (١).

والواقع إن وجود جمالية كبيرة من الأحباش مقيمة إقامة دائمة في بيت المقدس، ووجود دير لهم في تلك المدينة على اتصال دائم بدولة الحبشة، أمر له أهميته من حيث اطلاع ملوك الحبشة على أخبار الحروب الصليبية أولاً بأول، ولم تغب عن البابوية وأصحاب المشاريع الصليبية في غرب أوربا فكرة الاستفادة من تلك القوة المسيحية الكبرى - وهي الحبشة - في محاربة المسلمين، وبخاصة في الدور الأخير من الحروب الصليبية بعد طرد الصليبيين نهائياً من الشام في أواخر القرن الثالث عشر (٢). ومن الثابت أن البابوية أرسلت عدة سفارات في القرن الرابع عشر إلى ملوك الحبشة لتحثهم على المشاركة في محاربة المسلمين، وكان أن أفلحت تلك الاتصالات في استئثار ملوك الحبشة، فيقال أنهم أعدوا حملة كبيرة لمهاجمة مصر من ناحية الجنوب في الوقت الذي هاجمها بطرس لوزجنان ملك قبرص من ناحية الشمال سنة ١٣٦٥. كذلك فذكر استحق الأول ملك الحبشة (١٤١٤ - ١٤٢٩) في غزو مصر، وبخاصة عندما سمع بأن المماليك غزوا جزيرة قبرص وأسرُوا ملكها جانوس سنة ١٤٢٦. وقد دارت بين ملك الحبشة وملوك غرب أوربا مباحثات في هذا الشأن، ولكنها باءت بالفشل (٣). كذلك فشلت محاولات ملوك الحبشة لتحويل بحري النيل وتجويع مصر، وهي الفكرة التي ولدت نتيجة لاتصالات طويلة بين ملوك أرغونه والبرتغال من ناحية وملوك الحبشة من ناحية أخرى (٤).

(١) ابن لياس: بدائع الزهور ج ٥ ص ١٢.

(٢) سعيد طشور: الحركة الصليبية ج ٢، ص ١٢٠٩.

(٣) المقرئى: الإلام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام ص ٤.

أبو الحسن: النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٦٣٧ - ٦٤٠ (طبعة كالفورنيا).

(٤) سعيد طشور: الحركة الصليبية ج ٢ ص ١٢١٣ - ١٢١٤.

المعركة بين سلطنة المماليك ودول التركان :

عاشت على الأطراف الشمالية لدولة المماليك جماعات من شعوب متنوعة مثل الأرمن والكرج والأكراد والتركمان ، وهؤلاء جميعاً ربطتهم بسلطنة المماليك علاقات متقلبة بين الخضوع والنيعة حيناً والثورة والعدوان أحياناً ، وفقها أملت الظروف الخاصة والعامة التي أحاطت بمنطقة الشرق الأدنى وشعوبها منذ منتصف القرن الثالث عشر .

وقد عرف عن التركمان بالذات أنهم ساهموا بنصيب بارز في حركة الجهاد ضد الصليبيين منذ وقت مبكر ، فعملوا جنوداً في جيوش أتابكة السلاجقة ثم في جيوش الأيوبيين بالمماليك . على أنه بصرف النظر عن تلك الأعداد من التركمان الذين عملوا جنوداً مرتزقة في جيوش المماليك ، فإن التركمان أقاموا لأنفسهم دولاً أو دويلات على أطراف آسيا الصغرى وبلاد النهرين ، اشتهرت منها دولة بني دلفادر ودولة بني رمضان ودولة بني قرمان ودولة الشام البيضاء ودولة الشام السوداء . وكان المفروض أن تكون هذه الدول التركمانية تابعة لسلطنة المماليك في مصر والشام ، ولكن الحاصل فعلاً هو أنها لم تظل على ولائها للمماليك ، وإنما دأبت على استغلال الظروف للخروج على سلطنة المماليك بل ومهاجمة أراضيها ، مما سبب لدولة المماليك كثيراً من المتاعب على حدودها الشمالية .

وقد اشتد تهديد الدول التركمانية لسلطنة المماليك في القرن الخامس عشر ، عندما كثرت الاغلاقات والفتن داخل دولة المماليك وظهر ضعف هذه الدولة وعجزها عن الاحتفاظ بهيبتها والدفاع عن كيائها ضد الأخطار الخارجية التي هددها ، وبخاصة من جهة تيمورلنك . وكان أن أحس السلطان المؤيد شيخ بطبر التركمان ورأى ضرورة تأديبهم فقام بهملتين ضدّهم سنة ١٤١٥ ، سنة ١٤١٧ ،

ولكنهم أعلنوا ثورتهم من جديد عقب عودة السلطان ، فأرسل السلطان المؤيد شبح ابنه إبراهيم على رأس حملة كبرى سنة ١٤١٩ ؛ فوصلت هذه الحملة إلى فونية ، وخرب إبراهيم بلاد التركمان ثم عاد محملاً بالغنائم (١) .

ولم يغفر التركمان لسلطنة المماليك ما حل ببلادهم من تهريب وتدمير ، فقام عثمان قرايوك زعيم الشاه البيضاء بمهاجمة خربت سنة ١٤٢٩ كما أوغل داخل حدود دولة المماليك ويبدو أن قرايوك أقدم على مهاجمة دولة المماليك بتحريض من شاه رخ ابن تيمورلنك ، الأمر الذي جعل السلطان الأشرف برسباي يبادر بإرسال حملة خربت الرها - التابعة للشاه البيضاء - وأسمرهه حاكمها هايل بن عثمان قرايوك (٢) .

وقد بلغ من استخفاف عثمان قرايوك زعيم الشاه البيضاء بسلطنة المماليك أنه أرسل إلى السلطان برسباي سنة ١٤٣٣ سفارة تحمل هدية تشمل امرأة وخروف وخلعة . وكان أن فهم برسباي ما يعنيه قرايوك من تلك الهدية ، إذ برز الخروف إلى السلطان والمرأة إلى أن السلطان وأمراده كالنساء ، في حين تشبه الخلعة إلى أن برسباي تابع لقرايوك . ولم يستطع السلطان برسباي أن يخفي غضبه فأمر بذيخ الخروف أمام الرسل وألبس الخلعة لأجد الخريطين فرقص بها في حضرة السلطان وحطم المرأة ، ثم صرف رسل قرايوك بعد أن أمانهم وقص أذنان خيوطهم وقال لهم «قولوا لأستاذكم يلاقيني على الفرات فكان ذلك إعلاناً للحرب (٣) .

ومع أن الحرب التي شنها برسباي ضد قرايوك سنة ١٤٣٣ انتهت به صلح سريع لهدفه زعيم الشاه البيضاء بأن يكون تابعا مخلصا لسلطان المماليك ؛ إلا

(١) Wiet 1 op cit., pp. 546—547

(٢) إبراهيم طرخان : مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة ص ٢٢١ - ٢٢٢ .

(٣) ابن لباس : بدائع الزهور ج ٢ ص ١٩ - ٢٠

أن قرايلوك كان ينفك دائما برعوده ، الأمر الذى سبب للسلطان برسباى متاعب كثيرة . ولم يلبث برسباى أن انتهر فرصة استحكام الخلاف بين دولتي الشاه البيضاء والشاه السوداء وأعلن تأييده الأخيرة . وقد انتهى ذلك النزاع بتغلب دولة الشاه السوداء فتمكن زعيمها من هزيمة قرايلوك وقتله ، وعندئذ أرسل رأسه إلى السلطان برسباى سنة ١٤٣٥ فعلقها السلطان على باب دويلة وأمر بإقامة الزينات في القاهرة ابتهاجا بالخلاص من أعد خصومه (١) .

وفي سنة ١٤٣٨ اعتلى دست سلطنة المماليك السلطان جقمق الذى أنصف هذه جهوده العلاقات مع التركمان فصار أمراء دغاغر ، وتدخل سنة ١٤٤٩ في النزاع بين أبناء عثمان قرايلوك الذين دب فيما بينهم الخلاف ، وفر أحدهم وهو الأمير قاسم إلى السلطان جقمق فنصره وساعده (٢) . كذلك يروى السخاوى أن تركان الشاه السوداء خطبوا ود السلطان جقمق وأرسلوا له هدية ثمينة سنة ١٤٥١ ، فقبلها السلطان وأكرم الرسل ورد على الهدية بأحسن منها (٣) . وفي العام التالى - أى سنة ١٤٥٢ - أرسل أودون حسن - أمير الشاه البيضاء - مفاتيح آمد إلى السلطان جقمق بعد أن انتزع تلك المدينة من أخية جهانكير المامدى سلطنة المماليك فشكره جقمق ورد إليه المفاتيح (٤) .

على أنه يلاحظ منذ منتصف القرن الخامس عشر ازدياد المتاعب التى سببتها دول التركمان لسلطنة المماليك وذلك بسبب ظهور قوة العثمانيين وتدخلهم في شئون الإمارات التركمانية من ناحية وفي العلاقات بينهم وبين سلطنة المماليك من ناحية أخرى . من ذلك أنه حدث سنة ١٤٥٤ أن اعتدى السلطان محمد الفاتح

(١) Wiet : op. cit., p. 565.

(٢) السخاوى : التبر المسبوك ص ٣٠٩ .

(٣) المرجع السابق ص ٢٤٤ - ٢٤٥ .

(٤) المرجع السابق ص ٣٨٤ .

العثماني على إمارة دلفادار، فأرسل أميرها إبراهيم بن قرمان مستنجدا بالسلطان إينال دفا أكثر ث السلطان بذلك ، بسبب صلة الصداقة بين الدولة العثمانية وسلطنة المماليك عندئذ . ويبدو أن موقف إينال السلمي من أمير قرمان - وهو معمول بالحماية المماليكية - أثار إبراهيم بن قرمان فخرج على سلطنة المماليك ، الأمر الذي جعل السلطان إينال يبادر بإرسال حملتين ضده حتى تم القضاء على تلك الفتنة (١) .

ولم يلبث أن اتخذ التنافس بين سلطنة المماليك من ناحية وسلطنة العثمانيين من ناحية أخرى شكل مناصرة قوة أو أخرى من القوى التركمانية الواقعة على الحدود بين دولتي المماليك والعثمانيين . من ذلك أنه حدث نزاع سنة ١٤٦٦ في إمارة دلفادار بين شاه سوار وأخيه بوداق ، فناصر السلطان محمد الفاتح شاه سوار وناصرت سلطنة المماليك أخاه بوداق وكان أن انتصر شاه سوار على أخيه فخطب له في العاصمة أبليستين وأخذ يهاجم أطراف دولة المماليك ، الأمر الذي أثار السلطان قايتباي وجعله يرسل حملة سنة ١٤٦٧ لتأديب شاه سوار . ولكن جيش قايتباي دانكسر كسرة شنيعة ، (٢) . ولم تفلح الحملة التي أرسلها قايتباي في العام التالي ضد سوار ، إذ منيت بنفس المصير من القتل والهزيمة .

ويبدو أن سوار تمادى في الاستخفاف بدولة المماليك والعبت بحدودها فضلا عن أنه اعتدى على الدول التركمانية المحالفة لسلطنة المماليك مثل دولة بني رمضان . لذلك لم يستطع السلطان الأشرف قايتباي السكوت عن ذلك التهديد الخطير لطية دولة المماليك ، فأرسل حملة كبرى ضد سوار سنة ١٤٧٠ بقيادة الأمير يشبك الدوادار . وقد زود قايتباي قائده هذه الحملة بسلطات استثنائية واسعة ليوفر

(١) ابن أبياس : صفحات لم تنفر من ٧٣ ، ٤٧ (نشر محمد مصطفى) .

(٢) ابن أبياس : بدائع الزهور ج ٣ من ١٢ (نشر محمد مصطفى) .

له إمكانيات النصر، د ففوض إليه السلطان أمور البلاد الغامية والحليية وغير ذلك من البلاد ، وجعل له الولاية والعزل في جميع أحوال المملكة (١) .
وفعلا انتصر الأمير يشبك على شاه سوار واستولى منه على قلعة عينتاب، كما استرد منه أذنه وطرسوس ، حتى اضطر سوار إلى الاستسلام سنة ١٤٧١ .
ولم يلبث أن عاد يشبك إلى مصر منتصرا ومعه سوار مقيدا في الأغلال ، وذلك بعد أن هين بوداق أميرا على إمارة دلفادر بدلا من أخيه سوار .

ومع ذلك ، فإن سلطنة المماليك استمرت تعاني كثيرا من المتاعب من جانب إمارة دلفادر ، لاسيما بعد أن خلف علاء الدولة أخاه بوداق في حكم الإمارة سنة ١٤٨٠ . ذلك أن علاء الدولة وقع تحت تأثير العثمانيين وتهرىضهم وإن كان تفوق الجيوش المماليكية على الجيوش العثمانية في ذلك الدور قد جعل علاء الدولة يلتزم بجانب الحرص في معاملاته مع دولة المماليك ويتودد إليها .

أما أوردون حسن - أو حسن الطويل - زعيم قبيلة الشاه البيضاء ، فقد استغل المتاعب التي سببها شاه سوار لدولة المماليك وأغار على إقليم حلب كما وصلت جيوشه إلى الرها ، وبعد سقوط سوار حاول إثارة أخيه بوداق ضد سلطنة المماليك لذلك بادر السلطان قايتباي بإرسال حملة بقيادة يشبك الدوادار ضد حسن الطويل سنة ١٤٧٢ (٢) . على أنه رغم الانتصارات الجزئية التي حققتها المماليك على حسن الطويل ، فإن دولة الشاه البيضاء لم تخضع في سهولة ، ولا سيما وأن الأمير خليل الذي خلف أباه حسن الطويل في حكم الشاه البيضاء سنة ١٤٧٨ لم يكن أقل هنادا . وقد حدث في الحروب التي شنها الأمير يشبك في شمال الشام والعراق في ذلك الدور أن أسرى يشبك نفسه وقتل سنة ١٤٨٠ . ولما سمع السلطان قايتباي

(١) ابن أبياس : بدائع الزهور ج ٣ ص ٥٩ (نشر محمد مصطفى) .

(٢) ابن أبياس : بدائع الزهور ج ٣ ص ٨٠ ، ٨٦ (نشر محمد مصطفى) .

ذلك الخبر واضطربت أحواله وما جت القاهرة عن آخرها وكان يوماءه ولا^(١).
وقد بادى السلطان قايتباى بإرسال حملة للانتقام بقيادة الأمير أركك ولكن
دولة الغناء البيضاء بادرت بالاعتذار عما سلف ، ومن ثم هدأت العلاقات بين
سلطنة الممالك وتلك الدولة إلى أن التهم الأتراك العثمانيون دول الأركان
ودولة الممالك جميعا .

العثمانيك والمماليك :

أما العلاقة بين سلطنة الممالك وسلطنة العثمانيين فقد بدأت أتم ما تكون
صفاء ، لا سيما وأن الدولة العثمانية وجهت جهودها في الدور الأول من حركتها
التوسعية ضد القرى المسيحية المجاورة ، وبخاصة الدولة البيزنطية ، وهو أمر قوبل
بالارتياح الكبير من جانب الممالك وغير الممالك من القوى الإسلامية في
الشرق الأدنى . وزاد من ذلك الشعور الودى المتبادل بين الممالك والعثمانيين
تعرض الدولتين لخطر واحد مشترك هو خطر تيمورلنك مما حثهم على ضرورة
الاتصال والتفاهم بينهما لمواجهة ذلك الخطر .

وثمة إشارة في المراجع إلى أن السلطان مراد الأول العثماني أرسل سنة ١٣٨٨
سفارة إلى السلطان برقوق تحمل إليه هدية وتحذره من تحركات تيمورلنك من
تبريز نحو الغرب مما يهدد الدولتين المماليكية والعثمانية^(٢) . وإذا كان السلطان
برقوق قد أكرم وفادة رسل السلطان العثماني ، وأظهر استعدادا للتضامن معه
لصد خطر تيمورلنك إلا أنه لم يستطع أن يخفى مخاوفه من أطماع العثمانيين
وخطورتهم على مستقبل دولته ، فقال : إني لا أخاف منه (تيمورلنك) فإن

(١) ابن أبياس : بدافع الزهور ج ٣ ص ١٧٤ (نصر محمد مصطفى) .

(٢) الخطيب : نزعة النفوس والأيدان ورقة ١٦ .

كل أحد يساعدني عليه ، وإنما أخاف من ابن عثمان ، (١) .

ولم تلبث الأحداث أن أثبتت صدق ظن برقوق إذ أثار بايزيد الأول العثماني على قيصريّة سنة ١٣٩١ وقبض على صاحبها الذي كان مشمولاً بمهاجمة دولة المماليك . هذا وإن كان نخوف بايزيد من خطر تيمورلنك الذي أخذ يزداد افتراءً من حدود دولته قد جعله يسارع إلى إصلاح الأمور مع السلطان برقوق فاعتذر له عما حدث وأرسل له هدية ثمينة (٢) . ويبدو أن بايزيد العثماني لم يجد له حليفاً قوياً يساعد في دفع خطر تيمورلنك سوى دولة المماليك ، فأرسل إلى السلطان برقوق يحذره من ذلك الخطر ويقول له وضع تحت تصرفه مائة ألف فارس ليستعين بهم في محاربة تيمورلنك ، فضلاً عن أنه طالب من السلطان برقوق أن يرسل إليه طبيباً حاذقاً في صناعة الطب ، ليدوايه . وقد قابل برقوق كل تلك العروض في حذر ، فشكر السلطان العثماني واحتفى برسله وأوفد إليه الطبيب شمس الدين محمد بن صفير ومعه من الأدوية والعقاقير ما يكفي لـ (٣) .

وثمة مظاهر آخر من مظاهر تمسح السلاطين العثمانيين في ذلك الدور بدولة المماليك في مصر هو طلب بايزيد العثماني تفويضاً شرعياً بالسلطنة من الخليفة العباسي بالقاهرة سنة ١٣٩٤ . ومع أن سلطنة المماليك وقفت موقف المتحفظ من ذلك الطلب ، إلا أن بايزيد أرسل إلى تيمورلنك حوالى سنة ١٣٩٩ يذكره بأن الخلافة العباسية ما زالت قائمة في مصر وبأن هذه القوة الكبيرة

(١) ابن حجر : إنباء الفرج ١ ورقة ٣٨٥ .

(٢) ابن قاضي شعبة : ذيل تاريخ الإسلام ورقة ٦٩ .

(٣) المقريزي : السلوك ج ٣ ص ٧٠٨ .

الخطيب : نزعة النفوس ورقة ٤٥ .

كفيلة برده إذ حاول العدوان^(١) ومن جهة أخرى فإن السلطان بايزيد حرص على إرسال سفارة إلى مصر لينبش المسلمين بانتصاره على الأوربيين في موقعة نيقوبوليس سنة ١٣٩٦ كما أرسل إلى السلطان برقوق هدية من أسرى الفرنج بلغ عددهم مائتي أسير^(٢).

على أن تلك العلاقة الطيبة بين سلطنة العثمانيين وسلطنة المماليك أضعفت من شأنها أطماع العثمانيين. وكان ذلك في مطلع عهد السلطان فرج بن برقوق عندما أغار بايزيد العثماني على أطراف دولة المماليك واستولى سنة ١٤٠٠ على مطية ودارندة^(٣). ولا شك في أن ذلك العدوان كان كافيا في حد ذاته لتحذير سلطنة المماليك من نوايا بايزيد العثماني؛ هذا وإن كان خطر تيمورلنك ظل يدفع العثمانيين دفعا إلى الاحتفاظ بود المماليك، بدليل أن بايزيد عاد بعد قليل يطلب محالفة السلطان فرج لإقامة جهة متحدة في وجه تيمورلنك؛ ولكن كبار الأمراء في مصر رفضوا محالفة ابن عثمان وأرسلوا إليه يد كرونه بعدوانه على مطية. وهكذا أتت الفرصة لتيمورلنك لكي ينزل ضربته بكل من القوتين الكبيرتين في الشرق الأدنى على الأفراد فوحف على دولة المماليك وأزل الهزيمة بهيوشما قرب دمشق في أواخر سنة ١٤٠٠، كما أوقع بالسلطان بايزيد وأزل به كارثة أقرة سنة ١٤٠٢.

على أن وفاة تيمورلنك سنة ١٤٠٥ ونفكك دولته أتاح فرصة لدولتي المماليك والعثمانيين للتخلص من أثر الضربات التي أنزلها بهما تيمورلنك. وكان أن تهددت علاقات الود بين السلطنة العثمانية والسلطنة المماليكية، فأرسل السلطان

(1) D'Ohsson : Tableau de l'Empire Othoman, VI, p. 223 & Arnold : The Caliphate, p. 106.

(2) ابن قاضي شعبة، ذيل تاريخ الإسلام ج ٢ ورقة ١٢٣ ص ٩.

ابن حجر : انباء الغر ج ١ ص ٤١٤.

(3) العيني : عقد الجن ج ٢٥ ورقة ٧٨.

مراد الثاني العثماني سفارة إلى القاهرة سنة ١٤٢٣ انتهت السلطان الأشرف برسباي بالسلطنة ، ومعها هدية . وقد رد السلطان على الهدية بأحسن منها ، وإن كانت هدية سلطان المماليك لم تصل إلى السلطان العثماني بسبب وقوعها في أيدي قراصنة البحر من الأوربيين^(١) . ومع ذلك فإنه هذا لم يمنع السلطان مراد الثاني من إرسال سفارة عثمانية أخرى إلى السلطان برسباي سنة ١٤٢٦ ، وقد أقامت هذه السفارة في القاهرة لحين شهدت مجيء ثالث حملات السلطان برسباي على قبرص سنة ١٤٢٧ ، وهي الحملة التي نجحت في غزو الجزيرة وأمر ملكها جانوس لوزجنان . ويبدو أن أخبار هذا النصر الذي أحرزته سلطنة المماليك أثار غيرة السلطان مراد الثاني العثماني ، فبادر في العام التالي - ١٤٢٨ - بإرسال محمد بن أسيراً مسيحياً أوروبياً هدية للسلطان برسباي^(٢) .

وعند ما ارتقى جقمق دسنت سلطنة المماليك (١٤٣٨ - ١٤٥٣) ازدادت أواصر الصداقة بين الدولتين العثمانية والمماليكية فتبوءت المراسلات والسفارات والهدايا بين مراد الثاني العثماني وجقمق ، وحرص السلطان مراد الثاني على أن يبعث إلى مصر عدة من أسرى انتصاره على الحلف الأوربي هندقار ناسنة ١٤٤٤ . وقد استمرت هذه السياسة الودية قائمة بين السلطان محمد الثاني والسلطان إينال ، فاحتفلت القاهرة احتفالاً رائعاً لسقوط القسطنطينية في قبضة العثمانيين سنة ١٤٥٣ ، فزينت الأسواق والحارات وأوقدت النموع في الشوارع والمآذن ودقت الشرائر السلطانية بالقلعة عدة أيام^(٣) .

غير أنهم يكذبون للعثمانيين الاستيلاء على القسطنطينية والميطرة على البلقان ، حتى طردوا يوجون بصرهم تجاه الشرق بغية الاستيلاء على الأجزاء التي مارالت

(١) محمد مصطفى زيادة : نهاية السلاطين المماليك في مصر ص ٢٠٠ .

(٢) محمد مصطفى زيادة : نهاية السلاطين المماليك ص ٢٠٠ .

(٣) محمد مصطفى زيادة : نهاية السلاطين المماليك ص ٢٠٢ .

خارج قبضتهم في آسيا الصغرى . والمعروف أن الإمارات التركمانية القائمة في آسيا الصغرى وشرقها - وأهمها إمارة قرمان وإمارة دلفادر - كانت مشمولة بالحماية المالكية ؛ فأذا تطلع الدولة العثمانية إلى بسط سيطرتها على تلك الإمارات بصادم مقبل بين العثمانيين والماليك . وقد اتخذ الصدام بين العثمانيين والماليك في ذلك الدور الأول شكل قيام كل دولة بمساعدة بعض الأطراف المتنافسة على الحكم في الإمارات التركمانية ، فتساعد سلطنة العثمانيين أميراً منافساً للأمير الذي تؤيده سلطنة الماليك ، مما أوجد حالة من الصدام غير المباشر بين العثمانيين والماليك . وازدادت العلاقة توتراً بين سلطنتي الماليك والعثمانيين عند ما رحب السلطان قايتباي بأخ صغير للسلطان بايزيد الثاني العثماني اسمه جم ، وكان هذا الأخ قد هرب من المذبحة التي اعتاد كل سلطان عثماني أن يدبرها للتخلص من منافسيه (١) .

ولم يلبث التنافس بين سلطنة الماليك وسلطنة العثمانيين أن اكتسب شكلاً سافراً ، فأخذ السلطان بايزيد بمد يد العون للأمير علاء الدولة أمير دلفادر الخارج على سلطنة الماليك ١٤٨٣ ، وساعده بمجنود عثمانية في الإغارة على إيالة ملطية التابعة للماليك في آسيا الصغرى ولم تفلح جهود السلطان قايتباي في إصلاح العلاقات بين دولتي الماليك والعثمانيين ، بل لقد أخذت جموع من العثمانيين تهاجم حدود الشام دون سابق إنذار . وإذا كانت جيوش الماليك قد أحرزت عدة انتصارات في الجبهة الشمالية في أواخر القرن الخامس عشر فإن هذه الانتصارات لم يكن لها نتيجة سوى إيفار صدر السلطان العثماني وتحريك الرغبة في الانتقام عنده .

وعند ما توفي السلطان قايتباي سنة ١٤٩٦ ، أرسل ابنه محمد - الذي ولي

(١) محمد مصطفي زيادة 1 نهاية السلاطين ص ٢٠٣ - ٢٠٤

السلطنة بعده - رسولا اسمه خاير بك إلى السلطان بايزيد الثاني ليعلمه بنفأ سلطنته . وخاير بك هذا هو صاحب دور الحياة الذي سبق الإشارة إليه هند الكلام عن سقوط دولة المماليك ؛ وربما رجعت الخيوط الأولى لمؤامراته وخيائنه إلى ذلك الوقت الذي أوفده فيه محمد بن قايقباي إلى القسطنطينية . وفي الوقت الذي اضطربت أحوال سلطنة المماليك في أواخر القرن الخامس عشر وأوائل السادس عشر نتيجة لثورة المماليك والأمراء وكثرة تغيير السلاطين والتخلص منهم بالقتل أو العلل ، كانت السلطنة العثمانية تستعد استعداداً جدياً للمهركة الفاصلة التي ستحدد مستقبل الزعامة السياسية على العالم الإسلامي في الشرق الأدنى وقد سبق أن رأينا كيف استطاع السلطان سليم الأول العثماني إسقاط سلطنة المماليك عقب موقعة مرج دابق سنة ١٥١٦ ثم موقعة الريدانية سنة ١٥١٧ .

المماليك والمرونة البيزنطية :

أثبت سلاطين المماليك أنهم على جانب كبير من المهارة السياسية والقدرة على اكتساب الجغفاء في الخارج ضد أعدائهم الذين هددوا دولتهم تهديداً مباشراً في مصر والشام . وهكذا حالف المماليك مغول القفجاق ليضربوا بهم مغول فارس الذين طالما هددوا بلاد الشام . ولكن مغول فارس لم يكونوا الخطر الوحيد الذي هدد نفوذ المماليك وأمن دولتهم في بلاد الشام ، وإنما كان هناك الخطر الصليبي ما زال قائماً عند قيام دولة المماليك ليتمثل خطراً حقيقياً لا يستهان به .

وكان طبيعياً أن يحالف المماليك أعداء الصليبيين ، مثلما حالفوا أعداء مغول فارس ، فلم تكن سلطنة المماليك تقف على قدميها في عهد الظهير بيبرس حتى أخذت تسمى لتتقارب مع الإمبراطورية البيزنطية ، وهي العدو التقليدي للصليبيين بالشام منذ قيام الحروب الصليبية في نهاية القرن الحادي عشر . ولم تلبث أن توطن

العلاقات بين السلطان الظاهر بيبرس والإمبراطور ميخائيل باليولوجس، فأرسل الإمبراطور إلى سلطان المماليك يطلب منه إيفاد بطرك من المماليكين ليرعى شئون الطائفة المملكانية في دولته. وكان أن استجاب بيبرس لرغبة الإمبراطور فأرسل إليه سنة ١٢٦٢. الرشيد السكحال - وهو أحد رجال المذهب المملكاني - صهبة الأمير فارس الدين أقوش المسعودي وهناك في القسطنطينية احتفى الإمبراطور البيزنطي بالسفارة المماليكية، وأطلع الأمير أقوش على مسجد المسلمين الذي كان الصليبيون قد هدموه في الحملة الصليبية الرابعة والذي شرع الإمبراطور في تهيئته (١) وكان أن أسهم بيبرس في ترميم مسجد القسطنطينية فأرسل إليه الحضر العبداني والقناديل المذهبة والسطور المرقومة، والمباخر والسجادات والعود والعنبر والممك وماء الورد (٢).

ومع أن الإمبراطور أقوش المسعودي عاد من القسطنطينية يحمل هدايا الإمبراطور البيزنطي للسلطان الظاهر؛ إلا أن الأخير استاء عند ما علم أن الإمبراطور طاق رسله أثناء سفرهم سنة ١٢٦٤ عبر بلاده إلى بركة خان زعيم مغول القفجاق. وقد غضب بيبرس لذلك الأمر وجمع رجال الدين لبشدهم على أن الإمبراطور البيزنطي «خائف الإيمان». على أن الإمبراطور ميخائيل باليولوجس لم يلبث أن استدرك غلطته في سرعة، فأطلق رسل بيبرس وسمح لهم بالسفر إلى بركة خان وفي الوقت نفسه، بادر بإرسال الهدايا إلى بيبرس ليسترضيه (٣).

وقد استمرت العلاقات الودية بين سلطنة المماليك والإمبراطورية البيزنطية بعد عهد بيبرس، إذ تروى المراجع أن السلطان المنصور قلاوون أرسل إلى

(١) المبني : عقد الجمان المجلد الثالث ورقة ٤٨١

محمد جمال الدين سرور : دولة الظاهر بيبرس ص ١١٠

(٢) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٤٧١ — ٤٧٢ .

(٣) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٥١٤ ، ٥٣٧ .

الامبراطور ميخائيل الثامن سفارة على رأسها الأمير ناصر الدين الجزائري وبطرك الأقباط حنا المصايع ، وحملت تلك السفارة رسالة تفيد الإمبراطور باعتلاء السلطان قلاوون دسست السلطنة ورغبته في الإبقاء على مودة الامبراطور وصداقته . وكان أن أجاب الامبراطور ميخائيل الثامن على السلطان قلاوون مؤكدا حرصه على الصداقة بين الدولتين وبطلب منه أن يبعث إليه يمينا يتمسك بها فأرسل إليه قلاوون من حلفه على ذلك اليمين^(١) .

ولم تتغير سياسة الدولة البيزنطية تجاه سلطنة المماليك في مصر عندما اعتلى عرش الدولة الامبراطور أندرونيق الثاني سنة ١٢٨٢ ، إذ باذر هذا الامبراطور الجديديا رسال هدية إلى السلطان قلاوون تشتمل حملا من الحرير الأطلس وأربعة أحمال من البسط ، فسر قلاوون بتلك الهدية سرورا كبيرا وضمّر الرسل بالعطايا^(٢) .

والمعروف أن سلطنة المماليك بلغت أقصى درجات النفوذ والسلطان على عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون وكان طبيعياً أن يكون للدولة البيزنطية نصيب كبير من النشاط الخارجي الضخم الذي ميز دولة المماليك في ذلك العصر . ويقال إن الإمبراطور البيزنطي أندرونيق الثاني أرسل سفارة إلى الناصر محمد سنة ١٣٠٥ تحمل هدية له وتسأله إعادة كنيسة المصلبة في بيت المقدس إلى أصحابها ، وكان المسلمون قد حولوا هذه الكنيسة إلى مسجد في عهد السلطان بيبرس^(٣) . على أنه يبدو أن الناصر محمد لم يستجب في سرعة لتلك الرغبة فكرر الإمبراطور رجاءه بعد ذلك بعدة سنوات ، وعندئذ أهداه الناصر محمد تلك الكنيسة إلى المسيحيين بعد أن أفتى علماء المسلمين بأنه لا يجوز اغتصابها ، كما استجاب السلطان الناصر محمد لرغبة الإمبراطور البيزنطي في التماسح مع أهل الكتاب

(١) بيبرس الدوادار : زبد الفسكرة ج ٩ ، ص ١٢٣ - ١٢٤ .

(٢) النويري : نهاية الأرب ج ٢٩ ورقة ٢٨٥ ب .

(٣) المرجع السابق ج ٣٥ ورقة ٢٨٠ .

وسمح لهم بإنشاء عدة كنائس في دولته^(١) . ويبدو أن الإمبراطور البيزنطي ارتاح لاستجابة السلطان الناصر محمد له ، فأرسل له هدية ثمينة من الجوخ والأطلس وغير ذلك من التحف الجميلة^(٢) .

والملاحظ أن الإمبراطور أندرونيق الثاني بالذات أظهر حرصاً شديداً على صداقة دولة المماليك ، فاستمر في إرسال الهدايا إلى السلطان الناصر محمد بين حين وآخر . ويبدو أن الإمبراطورية البيزنطية كانت تعمل حساباً في ذلك الدور لزيادة نفوذ الدول التركمانية في آسيا الصغرى مما شكل خطراً جديداً عليها ، لذلك سعى الإمبراطور البيزنطي لعمل تحالف مع سلطنة المماليك ضد التركان^(٣) . ولا أدل على حرص الإمبراطور البيزنطي أندرونيق الثاني على مسالمة سلطنة المماليك ، من أنه رفض المشاركة في تنفيذ المشروع الصليبي الذي وضعه أددعاء الحروب الصليبية من البنادقة - واسمه مارينو سانودو - وهو المشروع الذي استهدف خنق دولة المماليك إقتصادياً تهديداً لاحتلالها حربياً ثم الاستيلاء على الأراضي المقدسة بالشام^(٤) .

وقد استمرت العلاقات الطيبة بين الدولتين المماليكية والبيزنطية قائمة في عصر أولاد السلطان الناصر محمد وأحفاده . من ذلك ما نشر إليه المراجع من أن الإمبراطور حنا الخامس أرسل سفارة إلى مصر سنة ١٣٦٩ لإزالة الأثر السيئ الذي تركته حملة بطرس لوزجنان على الاسكندرية سنة ١٣٦٥^(٥) .

وكان أن قامت دولة المماليك الجراكسة سنة ١٣٨٢ ، فاستأنفت علاقاتها

(١) مفضل بن أبي الفضائل : الزيج السديد ج ٣ ص ١٩٥ .

(٢) المرجع السابق : ج ٣ ص ٢٢٩ .

(٣) محمد جمال الدين سرور ، دولة بني قلاوون في مصر ص ٣٩١ .

(٤) صفيح طاعور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ١١٩٨ ، ١١٩٩ .

(٥) المقرئى : السلوك ج ٣ ورقة ٦٦ (مخطوط) .

الخارجية على نفس الأسس التي اتبعتها دولة المماليك البحرية. ويقال إن الامبراطور
حننا الخامس أرسل سفارة سنة ١٣٨٥ إلى السلطان الظاهر برقوق تحمل إليه
الهدايا وتطلب منه أن يكون للبيزنطيين قنصل بالاسكندرية أسوة بالقنصل
فأجاب السلطان الامبراطور البيزنطي إلى طلبه^(١). على أن الملاحظ هو أن
الامبراطورية البيزنطية أخذت تتعرض لضغط شديد من جانب العثمانيين منذ
أواخر القرن الرابع عشر، وعندئذ ضعف نشاطها الخارجي وبات واضحاً أن
تلك الدولة تسير في طريقها إلى الموت البطيء. ولم يكن بوسع الأباطرة
البيزنطيين الاعتماد على مساعدة سلطنة المماليك أو تأييدها ضد العثمانيين لأن
المسلمين جميعاً - داخل دولة المماليك وخارجها - كانوا ينظرون إلى توسع
العثمانيين على حساب القوى المسيحية في شرق أوروبا نظرة ارتياح ويعتبرون
الفتوحات العثمانية جزءاً من حرر كمالهم الديني في ذلك الدور الأخير من المصور
الوسطى. وهكذا حتى جاءت الأخبار إلى القاهرة باستيلاء العثمانيين على
القسطنطينية سنة ١٤٥٣، فاحتفل السلطان إينال بذلك الحدث احتفالاً كبيراً
« ودقت البشائر بالقلعة »، وزينت القاهرة إبتهاجاً بسقوط عاصمة الروم،
وأرسل إينال إلى محمد الفاتح العثماني ديهنته بهذا الفتح العظيم^(٢).

سلطنة المماليك والقوى الأوروبية :

وأخيراً، فإن سلطنة المماليك ربطتها علاقات عديدة - تجارية أو عدائية -
مع بعض القوى الأوروبية وبخاصة في حوض البحر المتوسط. ولم يكن
منتظراً من سلطنة المماليك - وهي إحدى قوى البحر المتوسط وذات السيطرة

(١) ابن خلدون : ديباج الفخرية ورقة ٢٢٣ ،

(٢) ابن خلدون : ديباج الفخرية من ديباج الزعمور ص ١٥ (نشر محمد مصطفى).

على أم طرق التجارة بين الشرق والغرب وصاحبة الدور الرئيسي في الحروب الصليبية في أواخر العصور الوسطى — لم يكن منتظراً من تلك الدولة أن تعيش مقطوعة الصلة بالدول الأوروبية ذات المصالح التجارية والسياسية والصليبية في البحر المتوسط .

والمعروف أن صقلية ربطتها بحكام مصر من بني أيوب علاقات ودية كانت أبرز أركانها الصداقة بين الامبراطور فردريك الثاني والسلطان الكامل الأيوبي ، وهي الصداقة التي استمرت قائمة بعد الحملة الصليبية السادسة سنة ١٢٢٨ ، واتخذت صورة هدايا وسفارات متبادلة بين الجانبين ، ولا أدل على استمرار عرى هذه الصداقة من أن الامبراطور فردريك الثاني لجأ إلى تهديد السلطان الصالح نجم الدين أيوب عندما علم بخروج لويس التاسع على رأس حملته الصليبية لهاجمة دمياط سنة ١٢٤٨ — ١٢٤٩^(١) . ويبدو أن سقوط دولة الأيوبيين لم يغير من تلك الصداقة بين ملوك صقلية وسلاطين مصر ، إذ حرص مانفرد ابن فردريك الثاني على مصداقة سلاطين المماليك ، كما حرص سلاطين المماليك على الاحتفاظ بعلاقة الود التي ربطت مصر بمملكة الصقلية . من ذلك ما تشير إليه المراجع من تبادل الهدايا بين مانفرد ملك الصقلية والسلطان الظاهر بيبرس ، حتى أن بيبرس أرسل سنة ١٢٦١ وفداً برئاسة المؤرخ جمال الدين ابن واصل إلى ملك صقلية^(٢) . وكان وفد بيبرس يحمل هدية جليلة إلى مانفرد منها بعض الزراف وبعض أسرى عين جالوت من التتار ، وقد رد مانفرد على تلك السفارة بسفارة مشابهة تحمل الهدايا إلى السلطان بيبرس^(٣) . وليس هناك ما يشير إلى تغير هذه العلاقة بين ملوك صقلية وسلاطين المماليك بعد عهد

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ١٠٥٥ .

(٢) Lane-Poole : op cit. p. 268 & Enc. of Islam,

(٣) جمال الدين ضرور : دولة الظاهر بيبرس ص ١١٢ .

ما انفرد وإنما استمرت العلاقات الودية بين الطرفين، فأمة في عهد البيت الأنجوى الذى تولى حكم صقلية منذ سنة ١٢٦٦ . ويشير المقرئى إلى أن شارل الأنجوى ملك صقلية أرسل إلى الظاهر بربص هدية وكتاباً على لسان أحد كبار موظفيه يقول فيه : « بأن محذومه أمره أن يكون أمراً الملك الظاهر نافذاً في بلاده ، وأن أكون نائب الملك الظاهر كما أنا نائبه » (١) . ويبدو أن الغرض من هذا الكتاب كان عقد معاهدة تجارية بين دولة سلاطين المماليك وملك صقلية (٢) .

أما الجمهوريات الإيطالية التجارية - وبخاصة البندقية وجنوا - فقد ربطتها بدولة المماليك علاقات تجارية قوية ، فكان لكل جمهورية قنصل في المدن والموانئ الكبرى يرضى مصالحها . ولم يكن من منظوراً من الجمهوريات الإيطالية أن تضحي بمصالحها التجارية الكبرى مع سلطنة المماليك من أجل التيار الصليبي الهام ، ولذلك نسمع أن البندقية بالذات اهتزت لنبأ إغارة بطرس لوزجنان ملك قبرس على الاسكندرية سنة ١٣٦٥ وأرسلت رسالها إلى السلطان شعبان في إبريل سنة ١٣٦٦ تؤكد له أن السفن التي أغارت على الاسكندرية لا تمت إلى البندقية بصلة ، وأن البنادقة لم يساعدوا الملك بطرس ولم يشتركوا معه (٣) .

وكان الجنوية لا يقلون عن البنادقة حرصاً على مصالحهم التجارية في مصر واستياء مما فعله ملك قبرس بالاسكندرية ، بعد أن تأثرت تجارتهم نتيجة لذلك مع جميع البلدان الإسلامية ، من ذلك ما يرويه التوبرى السكندري من أن البنادقة والجنوية قصدوا بلاد العراق برأى مدوافة الاسكندرية للتجارة كما مدتهم .

(١) المقرئى : السلوك ١٣ ص ٥١٢

(2) Lane—Poole : op. cit., p. 266.

(٣) سعيد عبد الفتاح عاشور . قبرس والحروب الصليبية ص ٧١ .

فمنهم السلطان أويس من دخول بغداد والمتاجرة بها وقال لهم «أرجعوا أولا إلى سلطان مصر وامتدركوا ما أفسدتم في الاسكندرية ، وأتوني بخط ملك مصر بدخولكم تحت طاعته وحيثما يبيعون يبلدى وتبتاعون منه» (١). وهكذا ألح البنادقة والجنوية في الصلح على الملك بطرس لوزجنان من ناحية وعلى سلطان المماليك من ناحية أخرى ؛ وبفضل وساطتهم تم الصلح بين الطرفين في ديسمبر سنة ١٣٧٠ ، وعندئذ أخذت التجارة تعود إلى ما كانت عليه بين قبرس والبندقية وجنوا من ناحية ومصر والشام من ناحية أخرى ، وأخذت سفن الفرنجة تفتد إلى الإسكندرية بكثرة « واطمأنت الناس وما فات فات » (٢).

والمعروف أن التنافس التجارى بين البندقية وجنوا انتهى في القرن الرابع عشر بتفوق البنادقة الذين احتسكروا معظم النشاط التجارى في البحر المتوسط . ولم يرض الجنوية عن ذلك الوضع فأخذوا يغيرون على موانئ وشواطئ دولة المماليك الجراكسة ، وشاركهم في تلك الإغارات بعض قراصنة القطلان والروادسة والقبارسة . ويبدو أن إغارات الجنوية على شواطئ مصر والشام اشتدت في عهدى السلطان برقوق وابنه فرج ، فهاجموا صيدا وبيروت ورشيد ودمياط ، الأمر الذى جعل السلطان برقوق يهتم بتدعيم قوته البحرية في البحر المتوسط لدفع خطر القراصنة عن شواطئ دولته من ناحية وتأديب الجنوية من ناحية أخرى . وقد حدثت عدة اشتباكات قرب دمياط بين الأسطول المماليكى والسفن الجنوية سنة ١٣٨٥ ، انتهت بنجاة الجنوية وأسر بعضهم (٣).

(١) النورى : الإلام بالاعلام ج ٢ ورقة ٨٢ (مخطوط) .

(٢) سعيد عاشور: قبرس والحروب الصليبية ص ٨٢ & .

النورى : الإلام ج ٢ ورقة ٢٨٣ ب

(٣) ابن حجر : ذنباء القمر ج ١ ورقة ٧٢٤ ع

المقرئى : السلوك ج ٣ ورقة ٤١٦ .

وعلى الرغم من أن الجمهورية أسرعوا إلى مصالحة السلطان برقوق سنة ١٣٨٦، إلا أنهم عادوا بعد قليل إلى أعمال القرصنة والاعتداء على سفن المسلمين في شرق البحر المتوسط من ذلك أن بعض سفن تابعة للسلطان برقوق كانت قادمة إلى مصر وعليها شحنة من الرقيق الجراكسة، فضلا عن أخذ السلطان برقوق نفسه وبعض أقاربه، ولكن الجنوبية أغاروا على تلك السفن وأمروا من فيها، الأمر الذي أغضب برقوق وجعله ينتقم من التجار والقناصل الأجانب في دولته^(١) ومرة أخرى عاد الجنوبية إلى طلب الصلح، فأطلقوا سراح الأسرى وأرسلوا هدية إلى السلطان برقوق سنة ١٣٨٨^(٢).

وهكذا استمرت العلاقة بين سلطنة المماليك وجمهورية جنوا تتأرجح بين الصلح حيناً والعداء والحرب أحياناً. وقد حدث سنة ١٤٠١ - على عهد السلطان فرج بن برقوق - أن أغار بعض القراصنة من الجنوبية على طرابلس واستولوا على سفينتين كانتا في طريقهما إلى مصر تحملان قدراً كبيراً من البضائع^(٣) وبعد ذلك بهامين أعد حاكم جنوا قوة بحرية كبيرة واعتزم ضرب الاسكندرية، ولكن حملته سنة ١٤٠٣ باءت بالفشل بسبب الاحتياطات التي اتخذها السلطان فرج. ولم يستطع الجنوبية بعد ذلك إعادة العلاقات الصافية بينهم وبين سلطنة المماليك^(٤). وزاد من سوء العلاقات بين جنوا ودولة المماليك في أواخر القرن الخامس عشر أن جنوا مدت أطباعها إلى جزيرة قبرص واستولت على ميناء قافاجوستا فعلا في الوقت الذي كانت جزيرة

(١) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ج ٩ ق ١ ص ٣٣.

(٢) ابن حجر: لمباء الدرر ج ١ ص ٢٦٥-٢٦٤.

(٣) ابن قاضي مهبية : ذيل تاريخ الاسلام مجلد ٣ ورقة ١٩٥.

(٤) Piloti : L'Egypt au Commencement du Quinzieme.

Siecle. pp. 89-90.

قبرس تخضع لحماية سلطنة المماليك منذ أن فتحها السلطان برصباي
سنة ١٤٢٦^(١).

ويبدو أن سوء العلاقات بين سلطنة المماليك وجنوا في ذلك الدور هو
الذي دفع الجنوبية بالذات إلى البحث عن طريق آخر — غير طريق دولة
المماليك — يوصل إلى الهند. وقد نجح الجنوبية إلى كشف بعض أجزاء الساحل
الغربي لإفريقية في مواجهة جزر كنارياتما يعتبر مقدسة للجهود التي أدت إلى
كشف طريق رأس الرجاء الصالح فيما بعد (٢).

* * *

وإذا كانت الجمهوريات الإيطالية قد اضطرت لها ظروفها التجارية وما كان
بينها من مشاحنات إلى الدخول في منازعات أحيانا مع دولة المماليك فإن الوضع
اختلف بالنسبة لدول أسبانيا المسيحية مثل أرغونة وقشتالة وأشبيلية . ويبدو
أن حرص الدول المسيحية في أسبانيا على عدم وصول نهجيات من دولة المماليك
للمسلمين في أسبانيا جعل ملوك تلك الدول يسألون سلاطين المماليك من ذلك
أن جيمس الأول ملك أرغونة نود إلى السلطان بربس وبأدله الهدايا. وقد
استمرت هذه العلاقات الطيبة قائمة بين ملكة أرغونة من ناحية ودولة المماليك
من ناحية أخرى ؛ فأرسل جيمس الثاني ملك أرغونة (١٢٩١ — ١٣٢٧)
عدة سفارات إلى السلطان الناصر محمد يسأله لتسهيل مهمة الحجاج الذين يذهبون
لزيارة بيت المقدس، وكذلك يطلب منه تشجيع التجارة بين البلدين عن طريق
رعاية تجار كل بلد في البلد الآخر . وكانت طلبات ملك أرغونة تجاب كلها
لدى سلطنة المماليك مما ساعد على بقاء العلاقة طيبة بين الطرفين (٣).

(١) سعيد عاشور : قبرس والحروب الصليبية ص ١٢٥ — ١٢٦ .

(2) Beazley : Note Book of Middle Ages'. p. 156.

(3) Atiya : Egypt and Aragon. pp. 60—62.

كذلك تبودلت الرسل والهدايا بين السلطان المنصور قلاوون من ناحية
والفونس العاهر صاحب قهتاله (١). أما أشيلية فيروي النويري أن صاحبها
الفونس أرسل رسالة إلى الظاهر بيبرس يطلب صداقته ، فرد عليه بيبرس
بإرسال سفارة تحمل هدايا جارية وقدوة بامت سفارة بيبرس بالخفاوة والإكرام
في أشيلية ، وعند انتهاء مهمتها أعد لها صاحب أشيلية سفينة حملتها إلى
الاسكندرية (٢).

وحديث بالذكر أن القوى الخريبة التي طالما ناصبت ساطنة المماليك العداء
بسبب السياسة الصليبية كانت أحياناً تلجأ إلى مسالمة المماليك رغبة في التخفيف
عن أهل الذمة في مصر أو طمعاً في تحقيق سيادة الصليبيين في السيطرة على
الأماكن المقدسة عن طريق مسالمة المماليك وكسب ودهم . من ذلك أن البابا
حذا الثاني والعشرين اشترك مع ملك فرنسا شارل الرابع في إرسال سفارة إلى
القاهرة سنة ١٢٢٧ تطلب من السلطان الناصر محمد بن قلاوون معاملة المسيحيين
في دولته برفق ، حتى يمكن أن يلقي المسلمون نفس المعاملة في غرب أوروبا ،
« وأنه مهما حمل معهم (مع المسيحيين) بمصر والشام عاملوا من عندهم من
المسلمين مثله » (٣). كذلك أرسل فيليب السادس ملك فرنسا سفارة ضخمة تألفت
من مائة وعشرين رجلاً إلى السلطان الناصر محمد سنة ١٢٢٠ ، ومع السفارة
كتاب يلتمس فيه ملك فرنسا إعادة بيت المقدس وسواحل الشام إلى الصليبيين

(١) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ج ٩ ورقة ١٢٩ .

(٢) النويري : نهاية الأرب ج ٢٨ ق ١ ورقة ٢٢٧ .

(٣) المقرئ : السلوك ج ٢ ص ٢٨٧ .

— ٢٨٢ —

ولكن السلطان الناصر غضب لذلك الطلب وأهان سفراء ملك فرنسا وأمر
بردهم إلى بلادهم (١).

* * *

وهكذا يبدو كيف اتسع نطاق العلاقات الخارجية لسلطنة المماليك، حتى
أن بلاط سلاطين المماليك غدا مقصد الرسل والسفراء من حكام الشرق
والغرب جميعاً.

(١) النويرى . نهاية الأرب ج ٣١ ورقة ١٠٤ .

الفصل التاسع

النشاط الاقتصادي

الزراعة :

أهتم سلاطين المماليك في مصر بالزراعة اهتماما كبيرا ، حيث أن الزراعة في تلك العصور كانت الحرفة الأولى لغالبية السكان والمورد الأول الذي عاش عليه معظم الأهالي. والمعروف أن أراضي مصر الزراعية توزعت في ذلك العصر لإقطاعات على السلطان والأمراء والأجناد بعد أن قسمت إلى أربعة وعشرين قيراطا ، اختص السلطان نفسه بأربعة قراريط والأمراء بعشرة، وما تبقى كان من نصيب الأجناد .

على أن الأراضي الزراعية قيست ومسحت أكثر من مرة في عصر المماليك وتبع ذلك فك الزمام وتعديله، وهي العملية المعروفة باسم الروك^(١). واشتهر في عصر المماليك الروك الحسامي الذي أجراه السلطان حسام الدين لاجين سنة ١٢٩٦ والروك الناصري الذي أجراه الناصر محمد بن قلاوون سنة ١٣١٥.

أما عن الروك الحسامي فيقال إن السلطان المنصور لاجين لاحظ أن الأمراء يأخذون كثيرا من إقطاعات الأجناد ولا يدفعون عنها الحقوق والمقررات الديوانية ، مما يجعلهم مغنا لأعوانهم ومستخدمهم لذلك ندب السلطان لاجين الأمير بدر الدين بيليك الفارسي الحاجب والأمير بهاء الدين قراقوش الظاهري وجماعة من الكتاب على رأسهم تاج الدين عبد الرحمن الطويل مستوفى الدولة، لروك

(١) الفقه شدي : صبح الأعشى ج ٢ ص ٤٣٢ .

أراضي مصر . وبعد أن قام هؤلاء بفك زمام الأراضي المصرية وتعديله وزعت الوثائق الخاصة بحدود الإقطاعات على الأمراء والأجناد سنة ١٢٩٨ (٥٦٩٧) (١) .

على أن توزيع الأراضي المصرية لم يثبت أن تعرض للتغيير والتبديل ، الأمر الذي جعل السلطان الناصر محمد بن قلاوون يلجأ في سلطنته الثالثة إلى فك زمام الأرض وتوزيعها من جديد وهي العملية المعروفة باسم الروك الناصري سنة ١٣١٥ (٥٧١٥) . وقد عهد السلطان الناصر محمد إلى بعض أمرائه بهذه المهمة ، فأرسل جماعة من أمرائه إلى كل جهة من جهات البلاد ، في حين توجه السلطان الناصر نفسه إلى الصعيد ليشرف على العملية التي استغرقت خمسة وسبعين يوماً (٢) .

• • •

وانقسمت الأراضي الزراعية في مصر إلى أقسام حسب جودتها وما يتبع ذلك من قيمة محصولها . وأهم هذه الأقسام هي :- (٣) .

١ - الباق ؛ وهو خير الأراضي وأغلاها قيمة وأوقاها سعرا ؛ لأنها تصلح لزراعة الكتان والقمح ، وكان يؤجر الفدان منه بأربعين درهما وذلك سنة ١٣٨٨ م .

٢ - البرائب ؛ وسعرها دون الباق لضعف الأرض وتصلح لزراعة القمح والمقاي ، ويؤجر الفدان منها بثلاثين درهما .

٣ - البرش ؛ وهو عبارة عن كل أرض خلت من أثر ما زرع فيها للسنة الماضية .

(١) المقريزي : السلوك ج ١ ص ٨٤٢ - ٨٤٤ .

(٢) النويري : نهاية الأرب ج ٣٠ ص ٩١ .

(٣) محمد جمال الدين سرور : دولة بني قلاوون في مصر ص ٢٩٢ - ٢٩٣ .

٤ - الوسخ ، وهو عبارة عن الأرض التي استحكم وبخها ولم يتمكن المزارعون من إذاتته ، بل حرثوها وزرعوها ، فجاء زرعها مختلطاً بالخلفاء ونحوها .

٥ - الحرس ؛ وهو عبارة عن الأرض التي فسدت بما استحكم فيها من موانع قبول الزرع واستخدم مراعى للعواب .

٦ - الشراق ؛ وهو الأراضي التي لا يصل إليها الماء لقصور النيل أو علوها أو لسد طريق الماء عنها .

٧ - المستبحر ؛ وهو الأرض الوطئة التي إذا سار فيها الماء لا تجد مصراً له .

٨ - السباح ؛ وهو الأرض التي غلب عليها الملح ، فأصبح لا ينفع بها في زراعة الحبوب . وقد يزرع فيها الباذنجان والقصب الفارسي .

° ° °

ويبدو أن محصول الأرض الزراعية في مصر إزداد على عصر المماليك نتيجة للعناية بمراقب الزراعة من جمود وترع ومقاييس النيل وغيرها . وقد قسم القلقشندي الجسور في ذلك العصر إلى نوعين : الجسور السلطانية ، وهي الجسور العامة الجامعة للبلاد الكثيرة التي تعمر في كل سنة من الديوان السلطاني بالوجهين القبلي والبحري . والجسور البلدية وهي الخاصة ببلد دون بلد ويتولى عمارتها المقطعون بالبلاد من الأمراء والأجناد وغيرهم ، من أموال البلاد الجارية في إقطاعهم ^(١) .

وقد بلغ من عناية سلاطين المماليك بالجسور أنهم كانوا يرسلون في كل سنة عدداً من الأمراء إلى مختلف الأعمال لمهارة الجسور ، ويعبر عن الأمير منهم باسم

(١) القلقشندي صبيح الأحمى ج ٣ ص ٤٤٨ - ٤٤٩ .

وكاشف الجسور ، كما كان د الجسور خولة ومهندسون لكل عمل ، يقومون في خدمة الكاشف في عمارة الجسور إلى أن تنتهي عمارتها (١) . فإذا عاد الأمراء المعينون لكشف جسور الوجهين القبلي والبحري من مهمتهم خلع عليهم السلطان تقديراً لأهمية العمل الذي همضوا به (٢) . وعرف عن بعض سلاطين الماليك أنهم كانوا يخرجون بأنفسهم أحياناً للتفقد أحوال مرافق الزراعة وبخاصة الجسور . من ذلك ما يرويه المقرئ من أن السلطان الناصر محمد ما كاد يسمع بشريق بعض الجهات قرب شبين حتى سار بنفسه سنة ١٣٣٦ (٥٧٣٧) ومعه بعض المهندسين لكشف تلك النواحي ولم يلبث أن أمر السلطان الناصر محمد ببناء جسر يمتد من شبين القصر إلى بنا العسل ، وجمع له اثني عشر ألف رجل ليعملوا على إنجازه ، ثم أقام به عدة قناطر وبذلك أمكن وصول المياه إلى الأراضي المرتفعة بتلك الناحية (٣) .

* * *

أما عن أهم الحاصلات الزراعية في مصر في ذلك العصر ، فمنها القمح الذي كان محصوله يفيض عن حاجة البلاد أحياناً وعندئذ كان السلاطين يمدون بلاد الشام والحجاز والنوبة بمقادير وفيرة منه ، كذلك كان الكشتان من أهم مزارع مصر في عصر الماليك وكانت تصدر كميات كبيرة من المنسوجات الكتانية إلى البلاد المجاورة . واشتهرت مصر في ذلك العصر بزراعة قصب السكر - لاسيما في مناطق ملوى وقفط ونجع حمادى - ، هذا عدا أنواع الفواكه والخضروات لسد حاجة السوق المحلية (٤) . هذا كله فضلا عن الزهور والرياحين

(١) المرجع السابق ج ٤ ص ٤٤٩ .

(٢) المقرئ : السلوك ج ٢ ص ٧٢٠ ، ٧٢٤ .

(٣) المقرئ : المواعظ ج ٢ ص ١٦٩ - ١٧٠ .

(٤) المقرئ : الخطوط ج ١ ص ٢٠٣ - ٢٠٤ .

التي زرعت في الحدائق والبساتين^(١).

وأدت الأراضي الزراعية ضريبة الخراج للدولة، واختلف ذلك باختلاف البلاد، فأكثر خراج الوجه القبلي كان عيناً من قمح وشعير وسمسم وفول وعدس وتحوها، وكان يؤخذ في الغالب عن خراج كل فدان من هذه الأصناف ضريبة اقتراح بين أرد بين وثلاثة. أما الوجه البحري فكان أغلب خراج بلاده نقداً وليس فيه ما خراج بلاده عيناً إلا القليل^(٢). ولما كان هناك تفاوت بين السنة القمرية المعتمدة عليها في استخراج الخراج والسنة الشمسية التي تضبط بها الزروع والثمار ومواعيد استحقاق الجباية — إذ تنقص السنين القمرية عن السنين الشمسية سنة تقريباً كل ثلاث وثلاثين سنة — فإن النظام الخراجي كان يقتضى تقديم السنة الهلالية سنة كلما انقضت ثلاث وثلاثون سنة منها، وهذا هو السر في تلك الإشارات التي نجدها في المراجع المعاصرة فيقول المقرئ مثلاً في حوادث سنة ٨٦٩٧ وحوادث سنة ست وتسعين إلى سنة سبع وتسعين على العادة^(٣).

* * *

وبالإضافة إلى الثروة الزراعية على السلاطين في عصر المماليك بالثروة الحيوانية فأكثرها من نتاج الأغنام وجلب الأنواع الممتازة منها ليربيتها حتى ازداد عدد المواشي وارتفعت مبيعاتها. ويقال إن السلطان الناصر محمد بن قلاوون قام بمشروع هام للعناية بالثروة الحيوانية، إذ بنى حظيرة على قطعة أرض بجوار قلعة الجبل وأجرى إليها الماء من القلعة وأنشأ بها بيوتاً للدواجن وأخرى للأغنام والمواشي؛

(١) القلشندي : صبح الأعشى ج ٢ ص ٤٥٠ — ٤٥١ هـ

السيوطي : حسن المحاضرة ج ٣ ص ٢٥٠ — ٢٥٢ .

(٢) القلشندي . صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٤٩ — ٤٥٠ .

(٣) المقرئ : السلوك ج ١ ص ٨٤٥ وكذلك حاشية ١ في نفس الصفحة هـ

القلشندي : صبح الأعشى ج ١٣ ص ٥٠٤

ثم أودع بها ألفى رأس من الضأن بعث في طلبها من بلاد الصعيد وأربعة آلاف من الوجه البحرى، فضلا عن عدد كبير من البقر^(١). هذا إلى أن عناية الناصر محمد بإنتاج المواشى والأغنام لم تقتصر على المناطق القريبة من عاصمته، وإنما صار يتنوع مراعيها في عيذاب وقوص وغيرها من أنحاء البلاد، كما كان يبعث في طلب الأغنام الممتازة من بلاد النوبة والين^(٢).

على أن هذه العناية بالزراعة ومراقبتها في عصر المماليك لا تعنى بأى حال تقدم أحد الفلاحين أو ارتفاع مستوى معيشتهم فالفلاح المصرى عاش في ذلك العصر قننا مربوطاً إلى الأرض التى يفلحها ويفنى حياته في خدمتها وليس له من خيراتها إلا القليل. ذلك أن خيرات البلاد ومصولات الأراضي الزراعية كانت في الواقع خبياً موزعاً بين السلاطين والأمراء ومماليكهم، في حين لم يبق للفلاحين سوى الكد والعمل ودفع ما يطلب منهم من أموال وهم صاغرون. ويذكر الشربى أن الفلاح في أنقر ما كوله كان لا يتناول إلا الشعير والخبز القريش والبصل^(٣). ولا عجب، فإن الأغلال معظمها لأهل الدولة أولى الجاه وأرباب السيوف الذين تزايدت في الذات رغباتهم، نفرت معظم القرى لموت أكثر الفلاحين ونشردهم في البلاد .. ،^(٤).

الصناعة:

أما الصناعة فقد ازدهرت في عصر المماليك نتيجة لوفرة الثروة والمعروف أن الصانع أو الفنان يحاول دائماً أن يرقى بإنتاجه إذا اطمأن إلى أنه سيحقق في

(١) محمد جمال الدين السرور : دولة بني لاويث في مصر ص ٢٩٤ .

(٢) المقرئى : المواظ ج ٢ ص ٢٢٩ .

(٣) المصرى : هن القحوف في شرح قصيدة أبى شادوف ص ٤٥٩ .

(٤) المقرئى : لغاة الأمامة ص ٣٦ ، ٤٦ .

النهاية تمن أتعابه ويتقاضى جزاء يناسب ما يبذله من جهد ووقت ومن ناحية أخرى فإن المستهلك إذا عظمت ثروته وفاضت عن مطالبه الأساسية، فإنه يفكر في اقتناء الكماليات ولا يقصن بمال يبذله في شراء التحف والحصول على المنفاس. وكان هذا الوضع الذي أثر في ارتفاع الصناعة والصناع على عصر المماليك، عند ما فاضت الخزائن بالثروة العظيمة، فانعكس أثر ذلك فيما خلفه ذلك العصر من مصنوعات راقية، بلغت شأواً بعيداً في الدقة والإتقان^(١).

وقد رأينا في صفحات هذا الكتاب السابقة أن دولة المماليك كانت دولة حربية بكل معاني الكلمة، قامت وليدة المعركة الصليبية في أرض المنصورة، وأثبتت جدارتها في ساحة الحرب ضد التتار والصليبيين في الشام، واستمدت بقاها من نجاحها في الدفاع عن مصر والشام ضد الأخطار الخارجية الكبرى التي هددهما في ذلك الدور الهام من العصور الوسطى ... هذا إلى أن المماليك أنفسهم من سلاطين وأمراء وأجناد كانوا يمثلون طبقة حربية تعتمد على الفروسية ويستطيع كل فرد فيها أن يصل إلى أعلى الدرجات ويحقق أمتهام الآمال بفضل مهارته في القتال واستعمال القوس والنشاب والحرية.

لذلك لا عجب إذا احتلت الصناعات الحربية مكاناً بارزاً في النشاط الصناعي لدولة المماليك. وقد وجد بالقاهرة في ذلك العصر سوق كبير اسمه سوق السلاح ذخير بالأسلحة المتنوعة وبالصناعات التي كانوا يصنعونها فإذا حدثت فتنة أو تشعب حرب مرع الأمراء والجنود إلى ذلك السوق وعندئذ ترفع سعر الحديد وأجور الحدادين وصناع آلات السلاح، لإقبال الناس على شرائه^(٢).

ويرتبط بالصناعات الحربية صناعة السفن، إذ حرص سلاطين المماليك

(١) سقيمه عبد الفتاح عاكور: مصر في عصر دولة المماليك البحرية ص ٢٥٠

(٢) المقريزي: السلوك : ج ١ ص ٥١٢

(١٩) - العصر المملوكي

على إنشاء أسطول بحرى قوى يحمى شواطئ مدولهم الواسعة ويصد غارات المهتدين ويؤدب القراصنة الذين دأبوا على مهاجمة السفن الإسلامية فى البحر المتوسط وقد عني السلطان الظاهر بيبرس عناية كبيرة بدور صناعة السفن فى الروضة والإسكندرية ودمياط، فكان يتفقد أمورها بنفسه ويرتب ما يجب ترتيبه ، ومنع الناس من التصرف فى أخشاب السفن^(١)، ومثل ذلك يقال عن السلطان الأشرف خليل قلاوون الذى عني - أثناء حكمه القصير - بإنشاء أسطول قوى عهد بإعداده إلى الوزير صاحب شمس الدين بن السلجوس؛ حتى إذا ما بلغت عدة ذلك الأسطول ستين مركباً ، أمر السلطان بتجهيزها بالآلات الحربية والرجال واستعرضها فى جزيرة الروضة فى يوم حافل مشهود^(٢) .

وكانت السفن الحربية على أنواع منها الشوانى والحراريق والطرائد. أما الشوانى فكانت أعظمها شأناً وهى مراكب حربية كبيرة أقيمت فيها أبراج وقلاع للدفاع والهجوم، وتكونت هذه الأبراج من عدة طبقات تقف فى الطبقة العليا منها المساكر المسلحة بالآقواس والسهام والحراب ، وفى الطبقة السفلى الملاحون بالمجاديف . وكانت الحراريق أقل حجماً ، وهى بمثابة ناقلات الجنود والذخيرة فكان يحمل فيها المشاة المقاتلون فضلاً عن الذخيرة والبارود والنفط . أما الطرائد فهى السفن الخاصة بحمل الخيل ، وكانت تتسع لنحو أربعين فرساً وأحياناً ثمانين فرساً^(٣) . وكانت السفن الحربية فى مصر تصنع على صنفين ، فبعضها كانت تحكم أجزاؤه بمسامير ، ومن هذا النوع السفن المستخدمة فى البحر المتوسط ، والبعض الآخر كانت تضم أجزاؤه بأحبال اللب ، أما الأخشاب

(١) المقرئى : المواظ ج ٢ ص ١٩٤ ، ١٩٧

السلوك : ج ١ ص ٤٤٧ هـ

(٢) المقرئى : المواظ ج ٢ ص ١٩٤ - ١٩٥

(٣) محمد جمال الدين سرور : دولة بنى قلاوون ص ٢١٥

اللازمة لصناعة السفن فكانت تستورد من بلاد الشام وآسيا الصغرى أو من غرب أوروبا عن طريق تجار البندقية. وأحياناً استخدمت الأخشاب المحلية مثل خشب السنط والنبج في صناعة السفن^(١).

هذا عن الصناعات الحربية ، أما الصناعات المدنية فكانت عديدة وعلى جانب كبير من الرقي في عصر المماليك ومن أهم هذه الصناعات صناعة المنسوجات المتنوعة ، حتى غدت لمصر في ذلك العصر شهرة خاصة في صناعة أنواع معينة من المنسوجات مثل قماش الفستيان نسبة إلى القسطنطينية والقماش الديبقي نسبة إلى ديبق^(٢) . هذا فضلاً عن اشتهار ثيابس - قرب القرم - بصناعة قماش رقيق سمي القمص صُنعت منه عمامة الرجال وملابس النساء وكذلك اشتهرت دمياط بصناعة أقمشة من التيل ذات عدة ألوان بحيث يتغير لونها باختلاف الضوء الواقع عليها^(٣) .

وسواء كانت الأقمشة التي صنعت في مصر في عصر المماليك من الحرير أو القطن أو الصوف أو الكتان ، فإنها امتازت جميعاً بدقة الصناعة وثبات الألوان وجودة الحامة ومتانة النسيج ، كما تشهد على ذلك قطع النسيج المتبقية من ذلك العصر^(٤) . وبالإضافة إلى أقمشة الملابس العادية ، وجدت مصانع خاصة تسمى دور الطرز تصنع فيها الخلع التي يمنحها السلاطين لكبار رجال الدولة وموظفيها وتمنقش عليها أسماء السلاطين وألقابهم ، كذلك اشتهرت مصر في ذلك العصر بصناعة الفرش والستور والخيام والفساطيط والحبال المكسوة بالفطن والحرير

(١) آدم مينز : الحضارة الإسلامية ج ٢ ص ٣٦٢

المفريزي : المواعظ ج ١ ص ٢٠٤ .

(٢) القليشندى : صبيح الأعشى ج ٣ ص ٤٧٢ .

(٣) محمد جمال الدين مرور : دولة بني فلان ص ٢٥٥ .

(٤) زكي محمد حسن : أطلال الفنون الزخرفية والتصاوير الإسلامية ص ٢٠٠ .

ولم تكن العناية بصناعة المعادن في عصر المماليك أقل منها بصناعة المنسوجات، فاستخدم النحاس بصفة خاصة في صناعة الثريات والأواني المنزلية والأباريق والصحن والطسوت وغيرها، كذلك استخدم النحاس في عصر المماليك في تغطية بعض أبواب المساجد وقصور السلاطين والأمراء. وكان النحاس عند استخدامه في هذا الغرض يعد على هيئة صفائح رقيقة مقسمة إلى أشكال هندسية بديةة المنظر^(١)، وما زال بدار الآثار العربية بالقاهرة باب من مصراعين مصفحين بصفائح من النحاس منقوشة برسومات عربية رائعة تتخللها كتابة بالنسخ الجميل، وهذا الباب كان لأحد أمراء السلطان قلاوون.

وانتشرت في عصر المماليك صناعة تكفيت (تطعيم) البرونز والنحاس بالذهب والفضة، واشتهرت بهذه الصناعة سوق الكفتيين بالقاهرة. ويشهد المقرئ على أن المعاصرين كانت لهم في النحاس المكفيت رغبة عظيمة... فلا تكاد دار تخلو بالقاهرة ومصر من عدة قطع نحاس مكفيت^(٢). كذلك عنى المصريون في عصر المماليك بصياغة الذهب والفضة، فأكثروا من صنع الأواني والحلي الذهبية والفضية، وزينوها بكثير من النقوش والكتابات. أما الحديد فلم تكن مصر مركزاً مهماً لصناعته في ذلك العصر، ولذا استوردت مصر كميات من الأدوات الحديدية من أوروبا. ومع ذلك فقد أجاد العمال المصريون في ذلك العصر صناعة بعض أنواع الأسلحة والدروع، فضلاً عن الصباية والآقفال والمفاتيح^(٣).

وازدهرت صناعة الزجاج في مصر في العصر المماليكي؛ وكان أهم مراكزها القسطنطينية والقاهرة والإسكندرية. وتفيد بذلك أعداد المشكوك فيها

(١) ذكرى محمد حسن: فنون الإسلام من ١٩٥٥.

(٢) المقرئ: الموعظ ج ٢ ص ١٠٥ (بولاقي).

(٣) تميمي: مشهور: مصر في عصر دولة المماليك البحرية ص ١٠٥.



ميتعة من عصر للمالك مصنوعة من النحاس المسكوت بالذهب والفضة
ولها غطاء على شكل قبة

الزجاجية المحفوظة بدور الآثار والتي تمتاز بجمال أشكالها وانسجام زخرفتها وإتقان صنعها . وبالإضافة إلى ذلك صنع في مصر الزجاج الملون المستخدم في الشبائيك ، وكذلك بعض أنواع البلور الصخري المحبب . أما الخزف فكانت مصر من المراكز الأساسية لصناعاته في العالم الإسلامي ، ومنها القشر كثير من نماذجه إلى البلاد الأخرى وقد جرت العادة على أن تزين الألوان الخزفية المصنوعة خصيصاً للسلطان والأمراء برؤسهم أو شعاراتهم^(١).

وبلغت المصنوعات الخشبية درجة كبيرة من التقدم في عصر المماليك واتبع المصريون في زخرفة المصنوعات الخشبية عدة طرق منها الحشوات والخراط والتطعيم . فالحشوات استخدمت لتجنب تشقق الخشب من جهة والرغبة في زخرفته بأشكال هندسية من جهة أخرى . والخشب المخروط كانت تصنع منه الشبائيك والحواجر والمثرييات . أما تطعيم الخشب فكان يتم عادة بالمعاج أو البنوس ، لاسيما في الكراسي والمناضد والأبواب وحوامل المصاحف^(٢).

أما المصنوعات الجلدية - وبخاصة المروج - فكان لها شأن كبير في عصر المماليك ، إذ كانت المروج تصنع على أنواع وألوان مختلفة وأثمنها ما كان يصنع من الجلد البلقاري ، وأحياناً كانت تحلى بالذهب والفضة^(٣).

ويضيق بنا المقام عن تتبع كافة الصناعات الصغيرة التي ازدهرت في عصر المماليك ، ولكن يكفي أن نختتم هذا العرض السريع بالإشارة إلى أن مصر شهدت أيضاً في ذلك العصر عدداً من الصناعات الغذائية أهمها صناعة السكر . ويذكر المقرئ أنه كان في سمرودسبعة عشر معصرة لعصير القصب ، كما كان في ملوى

(١) زكي محمد حسن : فنون الإسلام ص ٤١٩ وما بعدها .

(٢) زكي محمد حسن : فنون الإسلام ص ٤٦٢ وما بعدها .

(٣) المقرئ : المواظ ج ٢ ص ٩٨ (بولاق) .

عدة معاصر^(١). ومن الواضح أن هذه المعاصر التي انتشرت في كافة أرجاء البلاد في عصر المماليك، أنتجت كميات ضخمة من السكر، يدل عليها ما تشير إليه المراجع من كثرة استهلاك السكر في عمل الحلوى في ذلك العصر، حتى أن استهلاك السكر على أيام الناصر محمد بلغ في شهر رمضان وحده (سنة ٧٤٥هـ) ثلاث آلاف فنطار قيمتها ثلاثون ألف دينار، منها ستون فنطاراً لكل يوم من أيام رمضان برسم الدور السلطانية^(٢).

هذا عن الصناعة، أما الصنائع وأصحاب الحرف فقد خضعوا في عصر المماليك لنظام النقابات، فكان أفراد كل حرفة يكونون نقابة خاصة بهم لها نظام ثابت يحدد عددهم ومعاملاتهم فيما بينهم وبين بعض من ناحية، وفيما بينهم وبين الجمهور من ناحية ثانية، وفيما بينهم وبين الحكومة من ناحية ثالثة ولكل نقابة من هذه النقابات رئيس أو شيخ يرأسهم، يفض مشا كل أفراد النقابة ويرجعون إليه في كل ما يهمهم. ولما كان دخول أي فرد غريب في حرفة من الحرف يؤدي إلى منافسة أصحابها الأصليين، فإنهم كانوا لا يبرنون أحداً على طرق صناعتهم، إلا أن يكون من أبنائهم ولا يسمحون لأي شخص في مشاركتهم إلا أن يكون قد أتى ليحل محل أحدهم، وفي هذه الحالة يقبل بشروط خاصة.

التجارة الخارجية:

شاعت الظروف أن يكون قيام دولة المماليك في مصر والشام في منتصف القرن الثالث عشر مصحوباً بأزدهار طريق البحر الأحمر وموانئ مصر، واضمحلال ماعداه من طرق التجارة الرئيسية الأخرى بين الشرق والغرب، ذلك أنه لم

(١) المقرئى : المواظ ج ١ ص ٢٠٤ .

(٢) المقرئى : المواظ ج ٢ ص ٢٣١ .

(٣) سعيد طاشور : المجتمع المصرى في عصر سلاطين المماليك ص ٣٦ - ٣٧

يكبد يعضى على قيام دولة الممالك سنوات معدودة حتى استولى المغول على بغداد سنة ١٢٥٨ ، وامتد نفوذهم إلى الشام وآسيا الصغرى . فضلاً عن بلاد فارس التى اتخذها هولاكو مركزاً لدولته فى الشرق الأوسط ؛ وبذلك اضمحل طريق التجارة البرى بين الصين من جهة وآسيا الصغرى وموانى البحر الأسود من جهة أخرى .

وقد قام ماركو بولو برحلة شهيرة إلى الشرق الأقصى فى أواخر القرن الثالث عشر الميلادى ، فأشار إلى ما ترتب على غزوات المغول من انهدام الأمن فى ذلك الطريق واعتداء اللصوص على القوافل والتجارة^(١) . وكان ذلك فى الوقت الذى قل لإقبال السفن التجارية الآتية من الشرق الأقصى على الخليج الفارسى بسبب ازدياد نشاط القراصنة من سكان جزر البحرين فى ذلك الخليج ومن ثم تحولت السفن التجارية إلى اليمن وميناء عدن بالذات .

على أن ملوك اليمن أظهروا تعسفاً كبيراً مع التجار ، فلم يكتفوا بفرض الضرائب الباهظة على ما يحملونه من بضائع ؛ بل لجأوا إلى استخدام القسوة فى معاملة التجار ، حتى صار من التقاليد المرموعة عند وصول إحدى السفن التجارية إلى عدن أن يصعد عمال ملك اليمن إليها وينزعوا فلاحها ودفنها ومرساتها حتى لا يمكنوها من الإبحار قبل أن تدفع الأموال والضرائب المستحقة عليها . أما التجار أنفسهم فكانوا يفتشون نفثيهاً دقيقاً قبل أن يسمح لهم بالنزول من السفن إلى الميناء ؛ وبلغ من دقة هذا التفتيش وقسوته أنه تناول الهامة والشعر والكمين وحنة السراويل وتحت الأباط ، كذلك وجدت عجوز تفتش النساء وتضرب بيدها فى أعجازهن^(٢) ، فإذا ما أتم التاجر إزال بضاعته ودفع ما عليها من

(1) Marco Polo : Travels (vol ,) pp : 107-108 .

(٢) أبو محمد عبد الله باخرمة : تاريخ ثغر عدن ج ١ ص ٥٨ .

ضرائب وتسويقها ، أخذ يتأهب للعودة من حيث أتى ، فيطوف المندى في طرقات عدن ويعان في الأسواق أن التاجر الفلاني سيغادر الميناء فن له عليه دين أو مال فليطالبه به ، وإن لم يظهر للتاجر دائن يسمح له بالرحيل^(١). وهذا يجدر أن نلاحظ أنه لم يسمح للسفن التجارية الوافدة من الشرق الأقصى سواء كانت من الهند أو الصين أو جزر الهند الشرقية - بتخطي عدن شمالا في البحر الأحمر ؛ وإنما كانت رحلتها تنتهى عند عدن ثم تقفل راجعة من حيث أتت ، في حين جرت العادة بنقل البضائع من عدن شمالا إما بطريق القوافل في شبه الجزيرة العربية وإما بطريق السفن الإسلامية ، إلى موانئ مصر والحجاز . وهكذا ترتب على اضمحلال طرق التجارة الآسيوية في القرن الثالث عشر انتعاش طريق البحر الأحمر - مصر ؛ الأمر الذى أتاح لسلطين المماليك في مصر فرصة ذهبية للإفادة من القيام بدور الوسيط بين تجار الشرق وتجار الغرب . وإذا كان السلطان الظاهر بيبرس قد شغل بالأعمال التأسيسية اللازمة لحفظ كيانه دولة المماليك الناشئة وحمايتها من الأخطار الخارجية والداخلية التى تهددها ؛ فإن السلطان المنصور قلاوون (١٢٧٩ - ١٢٩٠) عمل على تنشيط التجارة في البحر الأحمر بمختلف الطرق . من ذلك أن السلطان قلاوون أخذ يتوعد إلى القوى الإسلامية الواقعة في حوض البحر الأحمر ويحسن علاقته بحكامها ، فأرسل إلى الملك يوسف الأول ابن عمر ملك اليمن يسأله ويعاهده على التحالف والمودة ، بعد أن كان بيبرس قد امتن ملوك اليمن وأهائهم . وعندما وصلت رسل ملك اليمن إلى مصر ، حرص قلاوون على إكرامهم وأرسل معهم الهدايا والتحف إلى ملك اليمن^(٢) . ومثل ذلك يقال عن سياسة قلاوون تجاه أبى تى شريف مكة .

على أن جعل مصر حلقة الوصل في النشاط التجارى بين الشرق والغرب

(١) المرجع السابق ص ٦٧ - ٦٨

(٢) المغرزي : السلوك ١ - ص ٥٨١ ، ٧٠٢

كان يتطلب أمرين : أولهما تأمين طرف التجارة داخل مصر ذاتها حتى تصل البضائع سليمة من موانئ البحر الأحمر - وبخاصة عيذاب - إلى موانئ البحر المتوسط ، وبخاصة دمياط والإسكندرية . وثانيهما إغراء تجار الشرق على جلب بضاعتهم إلى موانئ مصر المطلة على البحر الأحمر ، ثم إغراء التجار الأوروبيين على التردد على الإسكندرية ودمياط لشراء ما يلزمهم من حاصلات الشرق .

أما عن الأمر الأول فإن السلطان قلاوون ومن خلفه من سلاطين المماليك حرصوا على أن يضمروا بيد من حديد على العائدين والمعتدين على قوافل التجارة بين النيل والبحر الأحمر ، وبخاصة قبائل الأعراب الذين سكنوا تلك الجهات والذين اعتادوا حياة السلب والنهب ؛ حتى أن قوافل الحجاج نفسها لم تسلم من عبثهم^(١) . ويروى المقرئى أنه عندما اشتد القتال في صحراء عيذاب سنة ١٢٨١ بين عرب جهينة وعرب رفاعة ، أمر السلطان قلاوون الشريف علم الدين صاحب سواكن د بأن يوفق بينهم ولا يعين طائفة على أخرى ، خوفا من فساد الطريق^(٢) .

وأما عن الأمر الثانى فإن السلطان قلاوون أرسل إلى نوابه بالغفور يأمرهم بحسن معاملة التجار وملاطفتهم والتودد إليهم وترغيبهم ، ومراعاة العدالة فيما يجبونه منهم من أموال بحيث لا يأخذون منهم سوى الحقوق السلطانية^(٣) . وقد أورد القلقشندى بعض رسائل صادرة من سلاطين المماليك لناظر نجر الإسكندرية ، وفيها يأمر السلطان ناظر النجر بحسن د معاملة التجار الواردين إليه بالعدل والرفق... فإنهم هدايا البحور ودوالة الغفور ، ومن ألسنتهم يطلع

(١) المقرئى : السلوك ج ٤ ص ٨٥٨ - ٨٥٩ (مخطوط) .

(٢) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٧٠٠ .

(٣) تاريخ ابن القرات ج ٧ ص ١٩٨ .

ما تجننه الصدور ؛ وإذا بذر لهم حب الإحسان نشروا له أجنحة مراكبهم كالطيور... (١). ولا شك في أن أمثال هذه الوصية إنما كان وجهها سلاطين الممالك إلى صماهم بمختلف الثغور المصرية التي يرد إليها التجار من المشرق والمغرب جميعا .

كذلك كتب السلطان قلاوون منشورا إلى التجار الذين يفدون على مصر من الصين والهند واليمن والعراق وبلاد الروم... يرحب بهم ويصف لهم محاسن مصر ويفريهم على القدوم إليها بمناجرهم ومن يؤثر الورد إلى ممالكنا إن أقام أو تردد... فليحزم عزمه من قدر الله له في ذلك الخير والخيرة ، ويحضر إلى بلاد لا يحتاج ساكنها إلى ذخيرة ، لأنها في الدنيا جنة عدن لمن قطن ، ومسلة لمن تغرب عن الوطن... فن وقف على مرسومنا هذا من التجار المقيمين باليمن، والهند، والصين والهند، وغيرهم، فلما أخذ الأمانة في الارتحال إليها والقدوم عليها ، ليجد الفعال في المقال أكبر ، ويرى إحسانا يقابل في الوفاء بهذه العهود بالأكثر... (٢).

وفي الوقت الذي دأب سلاطين الممالك على تشجيع تجار الشرق الأقصى بوجه خاص على الحضور ببضائعهم إلى مصر ، حرصوا أيضا على الترحيب بالتجار الأوروبيين الذين يفدون إلى الاسكندرية ودمياط لشراء حاصلات الشرق . ولا أدل على اتساع أفق سلاطين الممالك ورغبتهم الأكيدة في الاستفادة من موقع مصر التجاري ، من أنهم فرقوا بين الدين والتجارة ، فقدموا كافة التسهيلات للتجار الغربيين في الوقت الذي كانوا يحاربون الصليبيين — ومن خلفهم الغرب الأوروبي .

(١) القلقشندي : صبح الأعشى ج ١١ ص ٤٢١ .

(٢) القلقشندي : صبح الأعشى ج ١٣ ص ٣٤٠ — ٣٤١ .

ولقد ترتب على تشجيع سلاطين الممالك للتجار الأوربيين على القدوم إلى مصر أن كثرت عددهم ، فذكر البلوى المغربى فى رحلته أنه رأى بمصر سنة ١٣٣٦ أناسا كثيرين من مختلف الأجناس^(١) . بل إن بعض الباحثين الأوربيين قدروا عدد الأجانب فى الإسكندرية وحدها فى أوائل القرن الرابع عشر للميلاد بحوالى ثلاثة آلاف تاجر أوربى^(٢) . ومن الواضح أن هؤلاء التجار الأوربيين فضلوا دائما الإقامة بالمدن التجارية والنفور على شاطئ البحر المتوسط مثل الإسكندرية ودمياط^(٣) . وكان لكل جالية من هؤلاء الأجانب ففضل يشرف على شئون أفراد الجالية ومصالحهم وإذا ما حدث من طائفة أحدهم ما يشين الإسلام يطلب منه الكف عن ذلك ،^(٤) كذلك اتخذت كل جالية لنفسها فندقا أو أكثر ينزل فيه أفرادها . وقد زار مصر سنة ١٣٩٥ أمير فرنى الحكى الكثير عن فنادق البنادقة والجنوية والسكرتلان والقبارسية وأهل نابل وأهل كريت وأهل مرسيليا وغيرهم^(٥) . ورتبت أمور هذه الفنادق بحيث تكون لكل منها إدارة مستقلة ، على رأسها مدير يدير شئون الفندق . وعند وصول تاجر أجنبى إلى الثغر ، تفتش أمتعته بدقة وعناية ، ويطلب منه دفع ٢/ من قيمة ما معه من ذهب وعملة نقدية ؛ وبعد ذلك يقصد فندق جاليته حيث يضع بضائعه ويجتمع بمواعظيه وأبناء بلده ويستطيع أن يعيش وفق النظم الذى اعتاده فى بلاده . ذلك الفندق احتوى جميع ما احتاجه التاجر الأجنبى من مأوى وكنيسة ومخبز وحمام^(٦) .

.....

(١) رحلة البلوى المغربى ورقة ٤٤ (مخطوطة) .

(٢) Kammerer : Le Regime et le Status des Etrangers en Ehypte ; p. 17 .

(٣) Schefer : Le Voyage d'Outremer , p. 122 .

(٤) خليل بن شاهين : زبدة كشف المالك ص ٤١ .

(٥) Schefer : Le Voyage d'Outremer . p. 122 .

(٦) Kammerer : op. cit. , p. 20 .

ثم إن التجار الأوربيين تمتعوا داخل فنادقهم بقسط وافر من الحرية ، إذ سمحت لهم السلطات المصرية بإحضار الخمر اللازمة لهم في سفنهم وإنزالها إلى فنادقهم^(١). ويبدو أن التجار الأجانب اعتادوا إحضار هذه الخمر بكميات ضخمة، حتى أنه عند ما حاول السلطان الصالح اسماعيل منع الأجانب سنة ١٢٤٣ من إحضار الخمر إلى الاسكندرية ، عارضه حاكم المدينة ، وقال إن الضرائب التي تحصل في السنة من تلك الخمر تبلغ أربعين ألف دينار^(٢) . ١ .

أما أهم أبواب تجارة مصر الخارجية في عصر المماليك فكانت مدينتي أسوان بالنسبة لتجارة النوبة، وعيذاب بالنسبة لتجارة الصين والهندو الصين، ومنها تحمل المتاجر على ظهور الإبل عبر الصحراء حتى قوص فقسير بها السفن في النيل شمالا ويبدو أن طريق عيذاب - قوص لم يلبث أن أهمل بعد إخراج الصليبيين من الشام ، وأصبحت التجارة تأتي من البحر الأحمر إلى السويس ومنها بطريق القوافل إلى القاهرة . أما التجارة بين مصر وأوروبا ، فكانت أهم أبوابها الاسكندرية ودمياط ، فتأتي إليهما السفن الأوروبية محملة بالفراء والجوخ والاششاب والحديد والتبذد وغيرها من المنتجات الأوروبية ، وتعود محملة بالتوابل والبخور والعطور والخزف والأقمشة وغيرها من منتجات الشرق^(٣) . وبالإضافة إلى تجارة الشرق الأقصى والغرب الأوربي شهدت دولة المماليك نشاطا تجاريا كبيرا مع بلدان السودان الغربي وإفريقية الوسطى وقد عرف تجمعات تلك الجهات باسم الكارم أو الكارمية نسبة إلى مملكة الكانم كما عرفوا أحيانا باسم التكرور نسبة إلى مملكة التكرور^(٤). وكان هؤلاء التجار يحملون إلى دولة المماليك بضاعة

(١) Reinaud : Traité de Commerce, p. 40 .

(٢) المفريزي السلوك ج ٢ ص ٦٩٤ .

(٣) سميد هاشور : مصر في عصر دولة المماليك البحرية ص ٢٠٨ .

(٤) من المرجح أن تكون تسمية ساحل مصر باسم بولاق الكروور نسبة إلى تجمعات التكرور الذين كانت تزد بضائعهم من قوص عن طريق النيل إلى ساحل بولاق .

من أهم البضائع التي قامت عليها عظمة دولة المماليك وثروتها ، وهي التوابل والفلفل والبهار والبخور والقرنفل ، وكلها أصناف اشتد تنافس الأوربيين عليها ، ودفع فيها التجار الغربيون الأثمان المرتفعة . ثم إنه يلاحظ أن تلك الطائفة من التجار لم يقتصر نشاطها على محاصيل بلادها لحسب ، وإنما امتد ذلك النشاط إلى جلب البهار من اليمن والصين والهند ، حتى أصبح اسم الكارمية يطلق على كل من اشتغل بتجارة البهار والفلفل^(١) . ويبدو أن نسبة كبيرة من تجار الكارمية في عصر المماليك اتخذوا مدينة فوس مركزاً لنشاطهم الواسع ، فعدت تلك المدينة الهامة في صعيد مصر سوقاً تجارياً واسماً لمنتجات إفريقيا الوسطى واليمن والهند والحبشة . وهناك في فوس كون تجار الكارمية نقابة حافلة لأنفسهم ، هيمنت على تجارة التوابل والبخور والعاج واحتكرتها أحياناً ؛ وصار لهذه النقابة رئيس معترف به من قبل حكومة المماليك وأطلق عليه اسم رئيس الكارمية^(٢) . ولا شك في أن تجار الكارمية في مصر جنوا ثروة طائلة من وراء تجارتهم حتى قال المقرئى مانصه : « وكان تجار الكارم بمصر حينئذ في عدة وافرة ولهم أموال عظيمة » ؛ مما جعل سلاطين المماليك يقرضون المال منهم أحياناً إذا اضطرتهم الظروف إلى ذلك^(٣) .

وهكذا نجحت مصر في عصر سلاطين المماليك في أن تستأثر بالجزء الأكبر من التجارة العالمية بين الشرق والغرب ، ولم يدخر سلاطين المماليك وسعاً في تقوية تلك الروابط الاقتصادية بين مصر وبلدان الشرق والغرب ، عن طريق المعاهدات والاتفاقيات والانصالات الدبلوماسية مع ملوك وحكام تلك البلدان .

(١) انظر ترجمة عز الدين عبد العزيز بن منصور السكولى الناجر السكارى المتوفى

صفحة ٧١٣ هـ

(المقرئى . السلوك ج ١٣٢ - ١٣٣ هـ

النورى : نهاية الأرب ج ٣٠ ص ٩٤ ،

(٢) ابن حجر : الدرر الكامنة ج ٢ ص ٣٨٧ ،

(٣) المقرئى : السلوك ج ٢ ص ١٠٣ .

من ذلك المعاهدات التجارية العديدة التي عقدها سلاطين الممالك في مصر مع ملوك صقلية وقشتالة وأرغونة فضلا عن جنوا والبندقية وغيرهما من جمهوريات إيطاليا التجارية . وقد حدث سنة ١٢٨٣ أن أرسل حاكم جزيرة سيلان - واسمه أبو نكبأ - سفارة إلى السلطان المنصورى قلاوون تحمل كتابا يدعو فيه إلى تنشيط التجارة بين دولة الممالك وجزيرة سيلان الغنية . وقام هذا الحاكم في كتابه بدعاية واسعة لجزيرته ، فذكر ما يمتلكه من سفن تجارية عديدة ، وما تنتجه سيلان من محصولات وفيرة ، فضلا عما يستخرجه أهلها من اللؤلؤ والاحجار الثمينة . وأكد أن المصريين سيجدون في سيلان كثيرًا من الحاصلات التي يسعون للحصول عليها من الهند ، ثم طلب في كتابه تعيين مندوب تجارى لدولة الممالك في سيلان . وكان أن رحب السلطان قلاوون بسفراء ملك سيلان وأجزل لهم العطايا وأرسل معهم سفارة تحمل رد كتاب ملكهم (١) .

وإذا كانت عذاب وقوص قد زعمتا حركة النشاط التجارى بالنسبة للتجارة الآسيوية والإفريقية ، فإن دمياط والإسكندرية قامتا في عصر الممالك بدور بارز في استقبال التجار الأوربيين الذين وفدوا بسفنهم عن طريق البحر المتوسط لاقتناع حاصلات الشرق وبيع ما يحملونه من حاصلات الغرب . ويبدو أن هدم بعض أجزاء دمياط في أوائل عصر الممالك خوفا من مجيء حملة صليبية جديدة بعد فشل حملة لويس التاسع على مصر ، ثم ردم فم بحر دمياط زمن السلطان الظاهر بيبرس ، أدى إلى عدم استطاعة سفن البحر الكبيرة الوصول إليها ، فأصبحت ترسو على مقربة من ملتقى النيل بالبحر المتوسط ، ثم ترسل ما تحمله من بضائع أو تأخذ ما يطلبه من حاصلات بواسطة مراكب نيلية صغيرة (٢) . لذلك اختار

(١) يبرس الوادار : زبدة الفكرة ج ٩ ص ٢٤٤ و ٢٤٥

المقريزى : السلوك ج ١ ص ٧١٣ .

(٢) معبد عاشور : مصر في عصر دولة الممالك البحرية ص ١٠ و ١١

كثير من السفن الأوربية في عصر المماليك أن تستعيص بالإسكندرية عن دمياط، وبذا صارت الإسكندرية كبرى موانئ دولة المماليك على البحر المتوسط، وإليها تهوى ركائب التجار في البر والبحر وتمير من قاشها جميع أقطار الأرض... (١).

وكان من الطبيعي أن ترأب سلطنة المماليك تلك الحركة التجارية الواسعة، ففرضت رقابة شديدة على الوارد والصادر من المتاجر، وضربت عليه مكوساً اختلفت باختلاف الظروف والأحوال، ثم تختم البضاعة بختم خاص للدلالة على استيفاء المكس. وربما كان هناك خاتم آخر للدلالة على مصدر كل سلعة حتى لا يكون سبيل إلى الغش في بيعها. وقام بهذا العمل موظفون أطلق عليهم اسم «مباشري الختم»، كانوا أشبه بموظفي الجمارك في عصرنا الحالي (٢). ويبدو أن هذه الضرائب التي فرضها سلاطين المماليك على التجارة الخارجية - وبخاصة التوابل - كانت قاسية حتى أن حمولة الفلفل التي يبلغ ثمنها في القاهرة خمسين ديناراً كانت تباع أحياناً في الإسكندرية للتجار الأوربيين بثلاثة أمثال هذا الثمن. وقد دفع ذلك التجار الأوربيين - وبخاصة البنادقة - إلى رفع شكواهم إلى السلاطين أكثر من مرة، فيروى المقرئ كيف قدمت رسل البنادقة (٧٤٥ هـ / ١٣٤٤ م) بهدية وسألوا الرفق بهم والمنع من ظلمهم وألا يؤخذ منهم إلا ما جرت به عادتهم، وأن يمكنوا من بيع بضائعهم على من يختارونه. وفي بعض الأحيان كان السلاطين يستجيبون لدعوات التجار الغربيين «ليكثر الفرنج من بلادهم جلب البضائع»، فيأمر السلطان ناظر الخاص بالتخفيف عنهم وعدم إبدائهم (٣).

(١) القلقشندي: صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٠٤.

(٢) المقرئ: السلوك ج ٢ ص ٤٣٩ حاشية للدكتور محمد مصطفى زيادة.

(٣) المقرئ: السلوك ج ٢ ص ٦٧٠ - ٦٧١.
(٢٠ - عصر المماليك)

على أن نشاط تجارة مصر الخارجية في عصر المماليك لم يستمر دون محاولات لمرقلته من جانب القوى المعادية لسلطنة المماليك . من ذلك أن البابوية التي ألهمها سقوط عكا في يد المسلمين سنة ١٢٩١ وطرده الصليبيين نهائيا من الشام ، فكرت في إضعاف سلطنة المماليك عن طريق حرمانها من المورد الأساسي لغناها وقوتها وهو التجارة . لذلك أصدرت البابوية عدة مراسيم تحرم على التجار الأوروبيين المتاجرة مع دولة المماليك^(١) . وقد تضمنت هذه المراسيم توقيع عقوبة الحرمان على الأفراد والمدن والجمهوريات والدول التي تتعامل تجاريا مع دولة المماليك ، واختصت أيضا معينة حرمت تصديرها إلى تلك الدولة بعضها له أهمية في الحرب كالحديد والخشب والقار والكبريت ، وبعضها له أهميته الغذائية كالقمح والنبذ والزيوت ، هذا كله فضلا عن الرقيق الأبيض الذي اعتمد عليه نظام المماليك^(٢) .

ولكن الجهود التي بذلتها البابوية عقب سقوط عكا سنة ١٢٩١ لحل التجار الأوروبيين على مقاطعة مصر اقتصاديا والاستعاضة عن طريق مصر - البحر الأحمر بطريق إياس - تبريز ، هذه الجهود لم تفلح وبات بالفشل . ذلك أن القوى التجارية في غرب أوروبا أدركت مدى الخسائر التي عادت عليها نتيجة حرمانها من التجارة مع مصر ، وتحاللت بمختلف الطرق على كسر المراسيم البابوية واستئناف نشاطها التجاري مع الاسكندرية ودمياط . ولم يلبث جاييم الثاني ملك أرغونه أن جدد اتفاقته التجارية مع السلطان الأشرف خليل - وهو السلطان الذي استولى على عكا من الصليبيين - كما حرصت مملكته أرغونة بالذات على عدم سحب قناصلها التجاريين من مصر عقب سقوط عكا . أما البندقية

(١) سعيد مياشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ١٢٠٣ .

(2) Kammerer : Le Mer Rouge T. 1, partie 2, p. 151 &

Heyd : Hist, du Commerce, II, p. 26.

فقد أرسلت سفيرا إلى مصر سنة ١٣٠٢ - على عهد السلطان الناصر محمد ابن قلاوون - ليبلغ المسؤولين في القاهرة رغبة جمهوريته في استئناف علاقاتها التجارية مع مصر ، وكان أن رحب السلطان الناصر محمد بن قلاوون بالسفير البندقي وأعلن من جانبه استعدادة الطيب لتقديم كافة التسهيلات لتجار البندقية ومنحهم الامتيازات القديمة التي كانوا يتمتعون بها قبل قطع العلاقات ، كما وافق على أن يكون فرانكسكودى كنالى قنصلا للبندقية في الإسكندرية يرضى مصالحها ومسالخ رعاياها الاقتصادية^(١).

ولكن إذا كان سلاطين دولة المماليك الأولى قد حرصوا على الاحتفاظ لمصر بمكانتها المرموقة في النشاط التجاري بين الشرق والغرب، فإن الوضع اختلف كثيراً في عصر دولة المماليك الثانية . ذلك أن النظام الإقطاعي الذي اعتمد عليه سلاطين المماليك في عصرهم الأول ، لم يلبث أن تطرق إليه الفساد ، ولم يعد يكفي لسد حاجاتهم المادية ومطالب ملوكهم العربى . لذلك اتجه سلاطين دولة المماليك الجراكسة نحو الاشتغال بالتجارة ، واتبعوا سياسة الاحتكار التجاري لتعويض ما حل بهم من خسائر نتيجة لاختلال النظام الإقطاعي من ناحية ، وللحصول على المال الوفير من أيسر طريق في نظرهم ، من ناحية أخرى .

ولا شك في أن احتكار سلاطين دولة المماليك الجراكسة لبعض السلع والغلات الهامة - مثل التوابل والبخور - أدى إلى ارتفاع ثمناتها ارتفاعاً فاحشاً ، الأمر الذي أنزل أبلغ الضرر بالتجار الأوربيين بوجه خاص ، فضلاً عن المستهلك الأوربي . وقد بلغت سياسة الاحتكار هذه أشدها على عهد السلطان الأشرف برسباي (١٤٢٢ - ١٤٣٨) الذي أبطل التعامل بالنقد البندقي والفلورنسى وسك المدينار الأشرفي ليكون أساساً للتعامل مع التجار الأوربيين^(٢).

(1) Diehl : Venise, p. 72 .

iW (2) et : L' Egypte Arabe, p. 573 .

وأخيراً دفع الضيق القوى التجارية في غرب أوروبا إلى مضاعفة جهودها للوصول إلى الهند وتجارة الشرق الأقصى عن طريق المحيط الأطلسي^(١). وما زال الغرب الأوروبي يحد لاكتشاف طريق بحري جديد إلى الهند، حتى توصل فاسكو دي جاما إلى اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح في نهاية القرن الخامس عشر، فجاء ذلك إيداناً بثورة كبرى في طرق التجارة العالمية من ناحية، وإعلاناً لأهمية طريق مصر بوصفه الطريق الأساسي للتجارة بين الشرق والغرب في تلك الفترة من ناحية أخرى. ولم يلبث أن أدى تدهور مركز مصر التجاري في أواخر عصر المماليك إلى إضعافهم ثم سقوط دولتهم بعد أن حرموا من المورد الأساسي الذي ظالما أمدهم بالمال والقوة

التجارة الداخلية:

أما التجارة الداخلية فكانت على درجة واسعة من النشاط على عصر سلاطين المماليك، فاشتهرت المدن المصرية - وعلى رأسها القاهرة - بأسواقها العامرة ذات الطابع الخاص المميز، وأهم ما في هذه الأسواق أن كل سوق منها يختص بنوع معين من البضائع، فسوق الشماعين يختص ببيع الشمع، وسوق النحاسين يختص ببيع النحاس، وسوق الفرايين ببيع الفراء... وهكذا^(٢).

ومن محاسن هذا النظام أن التاجر لم يستطع أن يشذ عن جيرانه أو أن يرفع أسعار السلعة التي يتجر فيها، لأن منافسيه على مقربة منه، كما أن المشتري إن لم يعجبه نوع السلعة أو ثمنها فإنه يستطيع أن ينتقل في سهولة من متجر لآخر دون أن يتحمل أدنى مشقة. أما عيوب هذا النظام، فأهمها أن الفرد

(1) Ronciere : La Decouverte de L'Afrique au Moyen Age, Tome 3. p. 31.

(2) المقرئى : المواقظ ج ٢ ص ١٠٣ (بولاق).

إذا أراد شراء عدة أصناف متباينة من البضائع ، فعليه أن يقطع المدينة كلها طولا وعرضا حتى يقضى حاجاته ، لأنه لن يجد في السوق الواحد سوى نوع واحد من البضائع^(١) .

أما المواد الغذائية فوجدت لها أسواق قائمة بذاتها منها بالقاهرة سوق باب الفتوح وسوق بين القصرين وسوق باب الزهومة ، وكلها اشتهرت في ذلك العصر بكثرة المعروض فيها من لحوم وخضروات وزيوت وألبان ... ففعلنا هنا اكتظاظها بجمهور المشتريين^(٢) . أما الفواكه فكان لها سوق خاص بها قرب باب زويلة ، وعرف هذا السوق باسم دار التفاح ، كانت تحمل إليه ثمار البساتين المحيطة بالقاهرة ، حيث يتفنن الباعة في عرضها ، ويتأفقون « في تنسيقها واحتفافها بالرياحين والأزهار »^(٣) .

وقد حفلت البلاد في ذلك العصر بالمنشآت الخاصة بالتجار الأتراك والبنين والهنود والفرس والمغاربة وغيرهم ، وجرت العادة أن التجار المسلمين الوافدين من بلد واحد كانوا ينزلون في وكالة معينة حيث يالفون بعضهم ببعض ، فوكالة قوصون مثلا كان ينزلها التجار الوافدين ببضائع بلاد الشام - مثل الزيت والصابون والفسق والوز والجوز وغيرها - وفي الوكالة يستطيع التاجر أن يطلع أمواله وبضائعه في مأمن من كل سوء ، وفي الوقت نفسه حرص سلاطين المماليك على حراسة الوكالات من هبث العابثين ، كما أنهم احتاطوا عليها من خطر الحرائق وغيرها^(٤) .

ولم يترك سلاطين المماليك حركة البيع والشراء في الأسواق دون رقيب أو حسيب ، وإنما همدوا إلى المحتسبين بالطواف أيسلا ونهارا للفتيش على

(١) سعيد عاشور : المجتمع المصري في عصر المماليك ص ٨٦ .

(٢) الماريزي : المواظ ج ٢ ص ٩٦ — ٩٧ .

(٣) الماريزي : المواظ ج ٢ ص ٩٣ .

(٤) محمد جمال الدين سرور : دولة بني علاون ص ٣٢٦ .

الباعة وضبط من يحاول التلاعب في الأسعار أو الأوزان أو أصناف البضاعة . وقد روعى في المحتسب دائماً أن يكون ذا رأى وصرامة وخشونة في الدين ،^(١) . وكانت رقابة المحتسب أشد ما تكون على الأاطعمة والمشروبات التي تباع في الأسواق والطرق للتأكد من سلامتها ونظافتها حرصاً على صحة الناس ، فإذا وجد بعضها فاسداً أخذ البائع بالشدّة^(٢) .

المالية العامة :

تشمل المالية العامة الموارد الأساسية لبيت المال في ذلك العصر ، والأوجه التي كانت تنفق فيها هذه الأموال . أما عن الموارد فتتقسم إلى قسمين : موارد شرعية وموارد غير شرعية ، وكانت الموارد الشرعية تتمثل في عدة ضرائب هي :-

أولاً : ضريبة الأرض أو الخراج ، وكانت تتفاوت وفقاً لدرجة خصب الأرض من ناحية ، وزيادة المحصول أو نقصانه تبعاً للفيضانات من ناحية أخرى .

ثانياً : الزكاة ، والمفروض في كتب الفقه أن من وجبت عليه الزكاة كان مخيراً بين أن يدفعها إلى الإمام أو نائبه وبين أن يفرقها بنفسه ، ولكن الذي أصبح عليه الوضع في عصر المماليك هو أن المؤدين للزكاة صاروا يفرقونها بأنفسهم ، ولم يبق ما يؤخذ من الناس على صورة زكاة في عصر المماليك إلا نوعين ، أولهما ما يؤخذ من التجار على ما يدخلون به إلى البلد من ذهب وفضة ، وتكون هذه الضريبة حوالي ٢٪ أو ٢ ½٪ ، وثانيهما

(١) ابن الأخوة : معالم القرية في أحكام الحسبة ص ٨ .

(٢) السبكي : معيد النعم ص ٩٢ .

ما يؤخذ من موائى أهل برقة من الغنم والإبل عند وصولهم إلى البحيرة لارعى^(١).
ثالثاً : الجوالى وهى الجزية المقررة على أهل الذمة ؛ وقد نقصت هذه الجزية في عصر المماليك حتى أصبحت تراوح بين خمسة وعشرين درهماً وعشرة دراهم على الفرد . وكان لهذه الضريبة ناظر في مصر والقاهرة يوليه السلطان ويضاف جزء من متحصل إيرادها إلى بيت المال ، في حين يخصص الباقي للإنفاق على بعض القضاة وأهل العلم . أما خارج القاهرة فإن الوضع جرى بأن تكون جزية أهل الذمة في كل بلد لمقطع تلك البلد من أمير أو غيره ، وتجرى مجرى مال ذلك الإقطاع .

رابعاً : النفور ، وهى ما يؤخذ من التجار الواصلين في البحر إلى الديار المصرية . والمعروف أن المقرر في الشرع هو أن يؤخذ العشر من بضائع هؤلاء التجار ، ولكن مذهب الشافعى أباح للحاكم أن يأخذ أكثر من العشر ، كما أباح له أن يخفف هذه الضريبة إلى نصف العشر ، بل أن يلغى هذه الضريبة كلية إذا وجد أن بلاد المسلمين في حاجة إلى نوع معين من البضائع المستوردة . وكان الوضع في دولة المماليك هو أن يؤخذ الخمس عن كل ما يجلبه تجار الفرنج من بضائع ، وربما زاد ما يؤخذ منهم على الخمس أيضاً^(٢) .

خامساً : المواريث الحشرية ؛ ويقصد بها مال من يموت وليس له وارث خاص . وهذه الجهة ناظر يولى من قبل السلطان ، ويحمل المتحصل منها إلى بيت المال .

سادساً : ما يتحصل من دار ضرب النقود بالقاهرة ، وكان يضرب بها ثلاثة أصناف هى الذهب والفضة النقرة والغلوس النحاس . ويقصد بهذه

(١) سيده عاشور : مصر في عصر دولة المماليك البحرية من ٢١٤ — ٢١٥ .

(٢) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٦٣ .

الضريبة ما يؤخذ من صاحب الذهب أو الفضة أو النحاس مقابل ضرب معدنه وتحويله إلى دنانير أو دراهم أو فلوس بعد ضبط عيارها. وكان بالدبار المصرية، داران أساسيان لضرب العملة، أحدهما بالقاهرة والآخر بالاسكندرية. هذا فضلاً عن دور أخرى أقل أهمية في تروجه وفوه وبلاد الصعيد^(١)، وأجرة كل ألف دينار تضرب بالدار أربعة عشر درهما ونصف تقريباً.

سابعاً : المتجر، والمقصود به أن الحاكم - سواد كان خليفة أو سلطان - كان يقصد إلى استغلال أمواله بتشغيلها في التجارة طلباً للكسب؛ وبذلك يتنافس أرباب الأعمال والتجار في أرزاقهم.. وكان بعض الخلفاء العباسيين في بغداد والفاطميين في القاهرة قد دأبوا على مباشرة هذا الأسلوب في استثمار أموالهم، فيشترون مقادير كبيرة من الغلات ويخزنونها للمتاجرة فيها. وعند ما وجدوا أن سعر الغلات والحبوب قابل للقلب بما يعرضهم للخسارة، فضلاً عن احتمال تلفها نتيجة للخبز، استبدلوا بالغلات الأخشاب والصابون والحديد والرصاص والعسل وغيرها، وعملوا لهذه التجارة ديواناً اسمه ديوان المتجر ظل قائماً حتى عصر المماليك^(٢). وقد انتقد ابن خلدون هذا التصرف من جانب الحكام واعتبروه منافسة غير مشروعة لأن الرعايا مكاثفون في اليسار متقاربون، ومراحمه بعضهم بعضاً تنتهي إلى غاية موجودهم، فإذا رافقهم السلطان في ذلك - وماله أعظم كثيراً منهم - فلا يكاد أحد منهم يحصل على غرضه في شيء من حاجاته^(٣).

ثامناً : المعادن المستخرجة من أراضي مصر وأهمها الزمرد والشب والظنون، وقد احتكرها جميعاً سلاطين مصر لشدة طلب الأوروبيين عليها، وباعوها

(١) الميرزى : السلوك ج ٢ ص ٤٤٤

(٢) سعيد طاشور : مصر في عصر دولة المماليك البحرية ص ٢١٧.

(٣) مقدمة ابن خلدون : ج ١ ص ٢٤٤ - ٢٤٥.

بأضعاف أثمانها ، وليس لأحد أن يبيعه أو يشتريه سوى الديوان السلطاني ، ومتى وجد مع أحد شيء من صنفه استهلك (صودر) ،^(١)

* * *

أما الموارد المالية غير القمعية فيقصد بها المكوس المتنوعة التي لا يوجد سند شرعي اعتمد عليه السلاطين في فرضها ، ولم تكن جميع المكوس في عصر الماليك من ابتكارهم ، بل كان بعضها موروثاً عن العصور السالفة ، حتى أحدث السلطان قطز مكوساً كثيرة لاجل جمع المال وقتال التتار ،^(٢) . كذلك يلاحظ في أمر هذا النوع من الضرائب أنها لم تكن ثابتة على حال واحد طوال عصر الماليك ، فربما يتطرق أحد السلاطين في جمعها ورفع قيمتها ؛ ثم يعقبه سلطان آخر تغلب عليه روح التخفيف عن الرعية فيلغى بعض هذه المكوس أو معظمها .

ومن أمثلة هذه المكوس مكس ساحل الغلة ، وهي الضريبة المفروضة على الغلات والاتجار فيها ، ورسوم الولاية التي يجمعها الولاة من عرطاء الأسواق ومقرر الحوائص والبقال ؛ ومقرر السمجون وهو مبلغ يؤخذ على كل من يسجن ولو لحظة واحدة ، ومقرر طرح الفراريج فلا يمكن أحداً من الناس في جميع الأقاليم أن يشتري فروجا فما فوقه إلا من الضامن ،^(٣) ومقرر الأنصاب والمعاصر وهو ما يجني من مزارعي قصب السكر ومن رجال المعاصر ، ومقرر المراكب وهو ما يؤخذ من كل مركب ؛ وزكاة الدولة وهو ما يؤخذ من الرجل عن زكاة ماله ولو عدم ، وإذا مات يؤخذ من ورثته ، ومقرر

(١) الفلندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٥٩

(٢) القرطبي : المواعظ والاعتبار ج ١ ص ١٠٥ (بولاق)

(٣) القرطبي : المواعظ ج ١ ص ٨٨ (بولاق) .

البشارة بفتح الحصون فإذا حضر مبشر بفتح حصن تجمع ضريبة من الناس على قدر طبقاتهم ، ويجتمع من ذلك مال كثير ، (١) ، ومقرر وفاء النيل إذ يجمع من الناس هذه المناسبة أموال تعمل بها شوى وحوى وفاكة عند المقياس هذا عدا المكوس المفروضة على الخمر وبيوت البغاء وغيرها .

* * *

أما عن الأوجه التي كانت تنفق فيها هذه الأموال المتحصلة من الضرائب الشرعية وغير الشرعية ، فيلاحظ عدم وجود فارق في تلك العصور بين مالبة الدولة ومالية السلطان . وقد استغل سلاطين المماليك الأموال التي جمعوها في شراء المماليك وتربيتهم والإتفاق عليهم في سزاء ، حتى أن الطباق السلطانية كانت تعج بأعداد كبيرة من المماليك الذين يأكلون أنثر المأكولات ويلبسون أثمن الملابس . ثم إن حياة السلاطين الخاصة تشهد بما كانوا عليه من ترف وسعة ويكفي أن يقف الباحث على وصف لقلعة الجبل بقصورها الفخمة وسقوفها المذهبة وطرقاتها المغطاة بالرخام الثمين وبيوتها المزخرفة بالزجاج القبرسي الملون وما احتوت عليه من اصطبلات شريفة ضمت الخيول السلطانية الأصيلة ، وساحات للأغنام والطيور والحيوانات الغريبة من زراف وفيلة وغزلان ، إلى غير ذلك من مظاهر الترف والثراء التي استلزمت من سلاطين المماليك صرف الأموال الطائلة عن بذخ وطيب خاطر (٢) . ولعل ما أفاضت في وصفه المراجع المعاصرة عن أفراح السلاطين وحفلاتهم وثرواتهم ، يكفي لتوضيح بعض الأوجه التي كان يصرف فيها سلاطين المماليك أموالهم ، من ذلك ما قيل من أن جهاز الأمير

(١) المنري : المواظ ج ١ ص ١٠٦ (بولاق) .

(٢) سعيد عاشور : المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك ص ٥٨ — ٦٣ .

آنوك بن السلطان الناصر محمد مبلغ حمولة ثمانمائة جمل وستة وثلاثين قطارا من البغال وبلغ الذهب في المصاغ والملابس ثمانين قطارا ، ومع ذلك استصغر أبوه هذا الجهاد (١) .

ولم يرض سلاطين المماليك على نسائهم وجواريمهم بالمال والمتاع ، بحيث أننا لو أردنا وصف ملبوس كل منهم وتحمل بيوتهم لاحتجنا إلى عدة مجلدات ، ؛ على قول أحد المؤرخين المعاصرين (٢) . وحسبنا أن إحدى الحوادث توفيت فلما حصرت تركتها بلغت ألفا وستمائة ألف دينار . كذلك يقال إن ابنة الناصر محمد خلفت ثروة طائلة أغاضت المراجع في وصفها .

على أنه إذا كان الجزء الأكبر من الثروة التي جمعها سلاطين المماليك قد أنفقوها في حياة الترف ؛ فإن هناك جانباً منها كان ينفق في دفع أرزاق موظفي الدولة من الولاة والوزراء والقضاة ورجال الدواوين من نظار وكتاب . هذا فضلا عما تطلبته البلاد من منشآت ومرافق وإصلاحات كالجسور والقرع والمعاهد والزوايا والمدارس والسجون والطرق ... وغيرها . أما شئون الغزو والجهاد — وبخاصة ضد التتار والصليبيين — فقد تطلبت من سلاطين المماليك كثير من الأموال لإعداد الجيوش وتزويدها بالسلاح وبناء الحصون والقلاع فضلا عن إعداد السفن الحربية بمختلف أنواعها من شواني وطرادات وحراريق وأخرى وغيرها .

السياسة النقدية :

قامت دولة المماليك والنقود التي يتعامل بها الناس في مصر والشام هي الدراهم الكاملية التي أمر السلطان الكامل الأيوبي بضرها سنة ٦٢٢هـ (١٢٢٥م) ، وكانت نوعين ؛ الأول من الفضة النقرة بحيث كان ثلثا الدرهم من فضة وثلثه

(١) المرجع السابق ص ٦٣ وما بعدها .

(٢) خليل بن شامين : زبدة كشف الممالك ص ١٢١ .

عن نحاس ، والثاني دراهم الفلوس النحاسية وهي مصنوعة من النحاس ، وكثير استعمالها بعد الأزمات الاقتصادية التي حلت بالبلاد سنة ٨٦٣٠ (١٢٢٣ م) والتي صحبها انحطاط سعر الدراهم الفضية . وكان الوضع في أواخر دولة الأيوبيين هو أن يستبدل كل درهم فضة نقرة بستة من الدراهم والفلوس النحاسية (١) .

وكان من الطبيعي أن تكون الاضطرابات التي صحبت سقوط دولة الأيوبيين وقيام دولة المماليك مقرونة باختلال النقد واضطرابه . وعلى الرغم من أن ملاحطين المماليك الأوائل - مثل شجر الدر والمعز أيبك والمنصور على بن أيبك والمظفر قطار - قد سكوا نقوداً بأسمائهم ؛ إلا أن النقد ظل مضطرباً طوال العشر السنوات الأولى من تاريخ دولة المماليك . وهكذا استقرت الأمور للسلطان الظاهر بيبرس ، وأخذ ينظم شئون الدولة ، وهندئذ أمر بضرب دراهم جديدة عرفت باسم الدراهم الظاهرية ، نقش رنكة عليها ، وهو يمثل صورة سبع ، ومهما يكن من أمر فإننا نستطيع بدراسة العملة في عصر المماليك أن نميز بين ثلاثة أنواع من النقود هي الدنانير الذهبية والدراهم الفضية والفلوس النحاسية .

أما عن الدنانير الذهبية ؛ فيلاحظ أن الذهب كان دائماً هو أساس النقد وبه تقوم بقية النقود من فضة ونحاس . ولكن تعرض العملة الذهبية في عصر المماليك للتلاعب في العيار والتغير في الوزن والتبديل في الحجم ، جعلها لا تحوز ثقة المتعاملين من التجار وغير التجار . وقد أشار القلقشندي إلى أن العبرة في وزن الدنانير بالمناقل ، ولكنه قال عن الدنانير التي سككت في مصر في عصر المماليك ، إن الغالب فيها نقص أوزانها ، وكانهم جعلوا نقصها في نظير كلفة ضربها (٢) .

(١) عبد الرحمن فهمي محمد : النقود العربية. ماضيها وحاضرها ص ٧٦

(٢) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٤١ .

وفي الوقت الذي اعتري الدنانير الممالئكية ذلك الخلل ، وتعرضت لتلاعب السلاطين والأمراء بغية الربح غير المشروع ؛ إذا بالبندقية تلجأ في القرن الثالث عشر إلى ضرب عملة ذهبية تعرف باسم الافرنقية أو الدوكات تمتاز بمبارها الصحيح ووزنها الثابت وسمكها المحدد ، مما جعلها تحوز ثقة المتعاملين . وقد وصف القلقشندي هذه العملة الأوربية فقال إنها معلومة الأوزان ، كل دينار منها معتبر بتسعة عشر قيراطاً ونصف قيراط من المصري ... وهذه الدنانير مخصصة على أحد وجهيها صورة الملك الذي تضرب في زمنه وعلى الوجه الآخر صور تاز بطرس وبولس الخواريين اللذين بعث بهما المسيح عليه السلام إلى رومية . ويعبر عنها بالافرنقية جمع افرنقى وأصله افرنقى ... ويعبر عنه أيضاً بالدوكات وهذا الاسم في الحقيقة لا يطلق عليه إلا إذا كان ضرب البندقية من الفرنجة ، وذلك أن الملك اسمه هندم دوك ... (١) .

ولم يلبث أن انتشر الدوكات البندقي وعم استعماله في مصر والشام وغيرهما من بلدان المسلمين بعد أن حاز ثقة المتعاملين ، الأمر الذي أزعج سلاطين الممالك ، فحاول السلطان الناصر فرج بن برقوق حمل دنانير جديدة على زنة الدنانير الافرنقية المتقدمة الذكر ، بمعنى أنه جعلها ثابتة الوزن ، وبزنة مثقال تماماً . وقد عرفت هذه الدنانير بالناصرية نسبة إلى السلطان الناصر فرج ، وكثر وجودها وعم استعمالها ، ولكنهم مع ذلك كانت تقل بمقدار عشرة دراهم عن الدنانير الإفريقية (٢) . وهكذا ظل مصروف الذهب بالديار المصرية لا يثبت على حاله بل يعلو تارة ويهبط أخرى بحسب ما تقتضيه الحال ، على قول القلقشندي ؛ الأمر الذي جعل تلك الدنانير التي سكها سلاطين الممالك لا تقوى على منافسة

(١) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٤٦ .

(٢) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٤٦ .

الدواكن البندقية ، فأنحطت قيمتها في الأسواق الحرة عن قيمة البندق (١) .
 أما الدراهم الفضية فالمفروض فيها أن يكون ثلثاها من فضة وثلثاها من نحاس (٢) . ولكن هذه الدراهم لم تلبث هي الأخرى أن تعرضت للفساد منذ
 أواخر القرن الثامن الهجرى - أو على وجه التحديد منذ سنة ٧٨١ هـ
 (١٣٧٩ م) - عند ما انتشرت الدراهم الخوية التي ضربها المماليك بحماه ،
 وقد تذر الناس من هذه الدراهم الأخيرة لزيادة نسبة النحاس فيها
 حتى بلغت الثلثين ، مما قلل من الإقبال عليها ، فازداد استخدام الفلوس
 النحاسية (٣) .

أما هذه الفلوس النحاسية فكانت أقل أنواع العملات في تلك العصور ،
 وكانت - على قول المقرئى - لا يشتري بها شيء من الأمور الجارية ، وإنما
 هي لنفقات البيوت ولأغراض ما يحتاج إليه من الخضر والبقول ونحوها (٤) .
 ويروى القلقشندى أن السلطان الناصر حسن ابن الناصر محمد بن علاون عفى
 بضرب فلوس جديدة سنة ٧٥٩ هـ (١٣٥٨ م) اشترت بالفلوس الجدد جمع
 جديد ، وجعل ذلك كل فلس منها منقار ولغات في نهاية الحسن وبطل ما عداها
 من الفلوس وهي أكثر ما يتعامل به أهل زماننا (٥) . غير أن الملاحظ في عصر
 المماليك أن الفلوس النحاسية هي الأخرى لم تسلم من تلاعب السلاطين طمعا في
 الربح فكان وزنها عرضة للتغيير والتبديل ، كما أن السلاطين اختلّفوا في تقدير
 قيمتها بالوزن ، فحينما يكون الرطل منها بستة دراهم وأحيانا باثنى عشر درهما
 أو بدرهمين ونصف ، وفي جميع الأحوال يرغم التجار والأهالي على التعامل بها

(١) عبد الرحمن فهمى محمد : النفود الربية ص ٩٨ .

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٤٣ .

(٣) المقرئى : شذور النفود في أخبار النفود ص ١٥ .

(٤) المقرئى : لغاة الأمة بكشف الغمة ص ٧٠ .

(٥) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٤٤ .

وفق القيمة التي تحددها الحكومة بما يشيع حالة من القلق في الأسواق (١)

* * *

وبعد ، فإن اضطراب العملة المتداولة في عصر المماليك أدى إلى زعزعة الحياة الاقتصادية في كثير من حلقات ذلك العصر . وربما أدى ضعف ثقة الناس في قيمة النقود إلى أنهم عمدوا إلى نظام المقايضة ، ومن ذلك ما يرويه المقرئى «وأدركت أنا والناس من أهل نجر الإسكندرية وهم يجعلون في مقابلة الخضرة والبقول ونحو ذلك كسر الخبز لشراء ما يراود منه ، ولم يزل ذلك إلى نحو السبعين والسبعمائة ، وأدركنا ريف مصر وأهلها يشترون الكثير من الحبوب والمأكولات ببيض الدجاج وبخال الدقيق ..» (٢) . ولم يقتصر نظام المقايضة على التجارة الداخلية بل استعمل على مقياس أوسع في التجارة الخارجية وبخاصة في القرن الخامس عشر ، فكان دالحل الإسكندرية من الفلفل ين خمسمائة رطل فرفورى ويشترى في الإسكندرية نقدا أو مقايضة بصلع متعددة كالفضة وقوالب النحاس وسبائك القصدير والرصاص والصابون الأبيض والشمع والمصطكي ؛ كما أنه يقايض أيضا بما كولات كبيرة كالزيت بأنواعه وعسل النحل وعسل السكر ولوز أبوليا وبرونسة والقسطل وبندق مملكة نابلى وفواكه أخرى ، ويهبط كذلك فنظار من هذه السلع مقابل الحمل الواحد من الفلفل (٣) .

(١) المقرئى : لغاية الأمة من ٤٧ وما بعدها ٩

السلوك ج ٢ ص ٩٧ ، ج ٣ ص ٨٢ — ٨٣

(٢) المقرئى : لغاية الأمة يكشف الغمة ص ٦٩

(٣) موفيق اسكندر : نظام المقايضة في تجارة مصر الخارجية

(مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية سنة ١٩٥٧ ص ٤٢)

الفصل العاشر

الأحوال الداخلية

بناء المجتمع :

كان المجتمع في عصر المماليك مجتمعاً طبقياً ، بمعنى أنه تألف من عدة طبقات متميزة بعضها عن بعض في خصائصها وصفاتها ومظاهرها ، فضلاً عن نظرة الدولة لها ومقدار ما تتمتع به من حقوق أو تنهض به من واجبات . وفي ظل مثل هذا التنظيم الطبقي يبدو الفارق كثيراً بين الحكام والمحكومين ، وبخاصة إذا كان الحكام أغراب عن البلاد وأهلها ، لم تربطهم بأبناء مصر والشام إرابة الدم أو الأصل والجنس ، مما يجعل المماليك لا يشعرون في كثير من الحالات بروح التجاوب مع الأهالي والعطف على مصالحهم والعمل من أجل رفاهيتهم .

والواقع إن المماليك حكموا البلاد دائماً بوصفهم طبقة عسكرية ممتازة ، استأثروا بالحكم وبشئون الحرب ، ونظروا إلى الأهالي على أنهم أقل منهم درجة أو درجات لا ينبغي لهم أن يشاركوا في الحياة الحربية ، وإذا سمح لبعضهم بالمشاركة في شئون الحكم فبالقدر المحدود الذي تؤوله صلاحياتهم . وتشير الشواهد التاريخية إلى أن المماليك لم يكونوا جميعاً من أصل واحد ، بل كان منهم التركي والجركسي والمغولي والصيني والاسباني والألماني واليوناني والسلافي وغير ذلك من الجنسيات العديدة التي حملها تجار الرقيق إلى مصر . وقد شجع التجار على مزاوله تلك التجارة ، الأرباح الطائلة التي كانوا يحصلون عليها من وراء الاشتغال بها إذ لم يكن سلاطين المماليك وأمرؤهم بالمال في شراء مزيد من المماليك يكونوا

لهم سنداً ودعامة تقوى مركزهم داخل البلاد وخارجها . وبقدر ما في المملوك من مزايا وصفات طيبة ومواهب بقدر ما يرتفع ثمنه ، وبالعكس بقدر ما قد يكون فيه من عيوب بقدر ما ينهط سعره . ولعل هذا هو السر في أن مملوكا مثل قلاون عرف بالآلاف لأنه اشترى بألف دينار ، وهو مبلغ كبير يستحق الفخر لأنه يشير إلى عظم مواهبه وحسن صورته (١) .

على أنه جرت العادة غالباً أن ينسب المملوك إلى أستاذه ، أى سيده الذى اشتراه بالمال ، فيبهرس البندقدارى نسب إلى أستاذه الأمير علاء الدين البندقدار والمماليك الأشرفية الخليفة نسبة إلى السلطان الأشرف خليل ، والناصرية إلى الناصر محمد .. وهكذا . وقد ينسب المملوك أحياناً إلى تاجره الذى جلبه إذا كان ذلك التاجر مشهوراً مثل يلغا السالمى نسبة إلى تاجر معروف اسمه سالم والمماليك العثمانية نسبة إلى الخواجا عثمان نثر الدين وهو من كبار التجار الذين جلبوا كثيراً من المماليك والجواري إلى السلاطين (٢) .

وقد عنى سلاطين المماليك عناية فائقة بمماليكهم وحرسوا على تربيتهم تربية سليمة ، فإذا اشترى السلطان عدداً من المماليك أرسلهم أولاً لفحصهم للتأكد من سلامة أبدانهم ، وبعد ذلك ينزل كل منهم في طبقة جنسه بحيث لا يقيم في طبقة من الطباق المخصصة للمماليك بالقلمة إلا المماليك ذوى الأصل المشترك أو المجلوبين من بلد واحد . ويقوم بتربية المماليك في الطباق مجموعة من الطواشية الحصيان ، فضلاء الفقهاء الذين كانوا يترددون على الطباق لتعليم المماليك القرآن والحط وأحكام الدين الإسلامى ثم إن الأساندة - من سلاطين وأمرأت

(١) يبيرس الدوادار : زبدة الفكرة ج ٩ ص ١٤١

أبو الهاسن : المنهل الصافي ج ٣ ص ٣٧ ب (مخطوط) .

(٢) ابن قاضي شهاب : الإعلام بتاريخ أهل الإسلام ج ٤ ص ٢٧٣ (مخطوط)

(٢١) - العصر المماليكى (

لم يعضنوا على ماليكمم بالأرزاق والأموال ، وإنما نظروا إليهم نظرة أبوة
مغشوبة بالعطف والحنان ، فخصصوا لهم أشهى الأطعمة وحسروا لهم الكسرات
الفاخرة (١) .

فإذا شب المملوك وأدرك سن البلوغ ، بدأ تعليمه فنون الحرب والفروسية
حتى إذا انتهت هذه المرحلة التعليمية خرج من الطباقي وانتقل في أدوار الخدمة
السلطانية ، رتبة بعد أخرى حتى يصبح من الأمراء . وعندما يغادر المملوك
الطباقي تغطى له جامكية أو مصروف يبلغ ستة دنانير في المتوسط ، ولكنه سرعان
ما ينتقل من الجامكيات إلى الإقطاعات وإلى إمرة العشرات ثم الطباخانات ،
وعندئذ يصبح الأمير سلطاناً مختصراً ، على قول القلقشندي (٢) .

على أنه يلاحظ أن المماليك ظلوا طبقة منفصلة عن سائر السكان في مصر
والشام ، فلم يتزوجوا منهم واختاروا زوجاتهم وجواريتهم من بنات جاسمهم
اللائق جلين التجار . وقد بدأت حكومة المماليك دائماً على تحذير الناس من انتقال
مملوك من المماليك عن طريق البيع إلى كاتب أو حامى ، أى إلى أحد من غير
طبقة المماليك ، ومن خالف ذلك التحذير تعرض للأذى والعقوبة (٣) . ولا شك
في أن هذه العزلة التي عاش فيها المماليك أوجدت فجوة واسعة بين الحكام
والمحكومين ، مما ترك أثراً واضحاً في المجتمع المعاصر ، ذلك أن أهل البلاد في
مصر والشام ظلوا طول عصر المماليك لا ينعينهم شيء من أمر الأحداث الكبرى
الداخلية والخارجية التي أحاطت بمجتمعهم ، وحسبهم ما كانوا يشهدونه من
مواكب حافلة أو من منازعات صاحبة بين طوائف المماليك ، وما ترتب على

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور : المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك ، ص ١١
وما بعدها .

(٢) القلقشندي : صبح الأعشى ج ١ ص ٦٠ .

(٣) أبو المعاسن : النجوم ج ٩ ص ٩٢ .

فذلك النزاع من سقوط سلطان وقيام غيره . وهكذا ظل الفلاح يعمل في حقله والتاجر في متجره والفقير في مدرسته أو جامعه . . ينفذون جميعا مشيئة سادة البلاد من الممالك ويدفعون لهم ما يطلب منهم وهم صافرون . حقيقة إن الممالك عملوا حسبا لبعض فئات من المصريين والشاميين وأعطوها بعض حقها من التقدير والعطف، ولكن ذلك لم يمنهم من التشكر لهم أحيانا . ثم إن هذه الفئة التي حظيت بقسط من عطف الحكام الممالك كانت أقلية صغيرة من المعممين ، في حين ظلت غالبية السكان من التجار والفلاحين والعامة لا تلتقي مع الممالك سوى الهوان والمغارم (١) .

والى جانب طبقة الممالك - وهم حكام البلاد - وجدت جماعة المعممين أو أهل العمامة ، وهذه الطبقة كانت تشمل أرباب الوظائف الدبلوماسية والفقهاء والعلماء والأدباء والكتّاب . والملاحظ أن هذه الفئة امتازت طول عصر الممالك بمميزات معينة ، على الرغم مما تعرض له أفرادها من الامتحان أحيانا . ويبدو أن الممالك أحسوا دائما بأنهم غرباء عن البلاد وأهلها ، وبأنهم في حاجة إلى دهامة يستندون إليها في حكمهم ويستعينون بها على إرضاء الشعب فلم يجدوا أمامهم سوى فئة العلماء ، بحكم ما للدين ورجاله من قوة وأثر . فالممالك احترموا للعلماء ورجال الدين لأنهم قوة لها خطرها في اكتساب الرأي العام في البلاد « ولأن بهم عرفوا دين الإسلام وفي بركتهم يعيشون » (٢) . ومن جهة أخرى فإن المعممين اعتدوا بمكانتهم في عصر الممالك فعمدوا أحيانا إلى معارضة السلاطين في الحق ، حتى حكى ابن بطوطة عن السلطان الناصر محمد بن قلاوون أنه قال « إنى لا أخاف أحد إلا شمس الدين الحريري قاضي فضاء الخنفية » (٣) .

(١) سعيد عاشور : مصر في عصر دولة الممالك البحرية ص ١٥٨ .

(٢) المقرئى : السلوك ، ج ٣ ص ٣٨٣ (مخطوط) .

(٣) رحلة ابن بطوطة ج ٢ ص ٨٨ .

على أن هذه السكينة الكبرى التي وصل إليها العلماء في عصر المماليك لم تمنع بعض السلاطين والأمراء من التعرض لهم بالنقد والتهكم . ولم يرض المماليك أن تشاركهم فئة من السكان في ركوب الخيل ، فاشتروا على السلاطين حرمان المتعممين من ركوبها . وكثيراً ما انصابت جموع المماليك في شوارع القاهرة للاعتداء على الفقهاء والمعلمين وإنزالهم عن خيولهم وسلبهم إياها^(١).

أما التجار فكأنوا يؤلفون طبقة مقربة أحياناً إلى سلاطين المماليك ، لأنهم أحسوا بأن التجار دون غيرهم هم المصدر الأساسي الذي يمدهم بالمال في ساعات الحرج والشدة . وتدل جميع العواهد على أن التجار تمتعوا في عصر المماليك بثروات طائلة ، وهذا أمر طبيعي في عصر كانت مصر حلقة النشاط التجاري بين الشرق والغرب . على أن كثرة الثروة في أيدي التجار جعلتهم دائماً مطمع سلاطين المماليك ، فأكثروا من مصادرتهم بين حين وآخر ، فضلاً عن إيقاعهم بالرسوم الباهظة^(٢) . لذلك لم يطمئن التجار في عصر المماليك على أموالهم ونجاتهم بل كانوا يدعون على أنفسهم أحياناً أن يقرهم الله حتى يستريحوا عما هم فيه من الغرامات والخسارات وتحكم الظلمة فيهم^(٣).

واكتظت القاهرة وغيرها من المدن الكبرى في عصر المماليك بجموع كبير من العمال والصناع والباعة والسوقة والسقائين والمساكين والمعدمين أو أشباه المعدمين ، وهي الفئات التي جهمتها المراجع المعاصرة تحت اسم «العوام» . وقد عاش أفراد هذه الطبقة في ضيق وعسر بالقياس إلى المماليك وغيرهم من الطبقات المندمة ، حتى لاحظ بعض الرحالة الأوروبيين الذين زاروا مصر في عصر المماليك أن القاهرة وحدها بها عدد يتراوح بين خمسين ألف ومائة ألف بلامأوى

(١) سعيد عاشور : المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك ص ٣٢ .

(٢) ابن حجر : إنباء الغمر ج ١ ص ٣٦٥ ، ٥٢٩ .

(٣) المقرئى : السلوك ج ٤ ص ٤٤٤ .

صوى الطريق وقاطع ولا يلبس سوى أسمال بالية (١). كذلك دهش البعض الآخر من كثرة المحاذين بالقاهرة في ذلك العصر وقال إنهم أحاطوا به من كل جانب طالبين منه الإحسان . حقيقة إن العوام وجدوا أحيانا بعض العطف من السلاطين الممالك وأمرانهم - لا سيما في أوقات الشدة والمجاعات - ولكن وضعهم السيئ وكثرة عددهم دفعهم في كثير من الحالات إلى احترام السلب والنهب وانتهاز الفرص للحصول على أكبر قدر من الغنائم في أوقات الفتن والاضطرابات (٢).

أما الفلاحون - وهم السواد الأعظم من السكان - فلم يكن نصيبهم في عصر المماليك سوى الإهمال والاحتقار ، حتى أصبح لفظ « فلاح » في ذلك العصر مرادفا للشخص الضعيف المغلوب على أمره . وزاد من حال الفلاحين سوءا كثرة المغارم والمظالم التي حلت بهم من الولاة والحكام لياخذوا منهم « غير العادة أضعافاء » (٣) كذلك فرض الولاة على أهل القرية نظام المسؤولية المشتركة في دفع الضرائب ، حتى في حالة توزيع زمام القرية الواحدة بين عدة ملاك أو مقطعين اعتبر كل فلاح بالنسبة لزملائه شريكا . ثم إن الفلاحين لم يسلطوا من أذى العربان وبطشهم ، فتعرضت القرى والمزارع لإغارات العربان بين حين وآخر ، وفي كل مرة ينهب العربان محصولات الأرض ومواشي الفلاحين ، فضلا عما يفرضونه عليهم من إتاوات والوافع إن حركات العربان في مصر في عصر المماليك تسترعى انتباه الباحث نظرا لما كان لها من أثر واضح في أحوال مصر الداخلية في ذلك العصر .

(١) سعيد عاشور : المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك ص ٣٨ .

(٢) أبو الهاسن : النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٤٦٤ (طبعة كالجورنيا) .

(٣) ابن لمياس : بدائع الزهور ج ٢ ص ٣٠٢ .

ثورات العربان :

وجدت في مصر في المصور الوسطى قبائل عديدة من العربان وهؤلاء انتشروا في أجزاء مختلفة من البلاد، وبخاصة الشرقية والبحيرة والمنوفية والفيوم والمنيا وأسيوط . وكان هؤلاء العربان دائما أهدام صدر قن ومتاعب للحكام والمحكومين سواء ، فارتبط تاريخهم في مصر المماليك بالثورات وحوادث النهب والسلب والاعتداء على الأمنيين من أهالي القرى والمدن، حتى أن المراجع المعاصرة لا تشير إليهم دائما إلا تحت عنوان « فساد العربان » .

وقد حاول السلطان المعز أيك أن يفيد من قوة العربان في إحباط المحاولة التي قام بها الناصر يوسف الأيوبي صاحب حلب ودمشق لغزو مصر سنة ١٢٥٠ ، ولكن العربان أنفوا من الخوض للمماليك، وثار قبيلة بني تغلب - وهي أقوى قبائل العربان في الصعيد - ونادى زعيمها حصن الدين بن تغلب « أنا أحق بالملك من المماليك ، وقد كفى أنا خدمنا بني أيوب وهم خوارج خراجنا عن البلاد » (١) . وهكذا أعلن حصن الدين بن تغلب نفسه ملكا على الصعيد، وأخذ يتصل بالناصر يوسف الأيوبي سنة ١٢٥٣ يمرض عليه حلفاء مشتركا ضد المعز أيك والمماليك ولم يكتف حصن الدين بالسيطرة على الصعيد، وإنما زحف على الوجه البحري ليستثير قبائل العربان ضد سلطنة المماليك ولكن السلطان أيك أرسل جيشا كبيرا ضده بقيادة الأمير فارس الدين أقطاي المستعرب ونجح هذا الجيش في إنزال الهزيمة بالعربان وإخضاعهم سنة ١٢٥٣ (٢) .

والمعروف أن العربان لم يكن لهم من النظام والمهارة الحربية وحسن

(١) المقريزي : السلوك ج ١ ص ٢٨٦ .

(٢) المقريزي : البيان والإعراب ص ٢٥ وما بعدها .

الاستعداد ما يناظر الممالك ؛ ولذلك لم يستطع العرب أن الثبات طويلا في وجه الممالك ، وفي كل مرة كانت الهزيمة تحل بالعربان ومع ذلك يعودوا إلى الثورة بعد قليل ، حتى سبوا كثيرا من الفوضى والمتاعب في ذلك العصر ، من ذلك أن حصن الدين بن نعلب هاد إلى الثورة سنة ١٢٦١ في عهد السلطان الظاهر بيبرس ، ولكن السلطان الظاهر استطاع أن يوقع به وشقه بالإسكندرية^(١) ، ويبدو أن شقيق حصن الدين بن نعلب أحدث استياء العربان بالصعيد ، فناروا دواكل طمعهم وهموا بتغيير الممالك ووثروا على الأمير عز الدين الطواش وإلى قوص وقتلوه^(٢) ، ولكن السلطان الظاهر بيبرس أرسل إليهم جيشاً بقيادة الأمير عز الدين الأفرم ، فأوقع بالعربان وبدد شملهم وأخضعهم .

ومن الواضح أن العربان في مصر كانت تراودهم في أوائل عصر الممالك فكرة إقامة سلطنة عربية يكون الحكم فيها لهم ، وإذا كان تطور الأحداث قد أثبت لهم استحالة تنفيذ هذه الفكرة بعد أن ثبتت دعائم سلطنة الممالك فإن ذلك لم يمنع العربان من المشاركة في الأحداث السياسية الجارية حسبما تطالبت مصالحهم ؛ وكانت معظم حركاتهم تظهر عند قيام سلطان جديد أو أثناء حكم سلطان قاصر ، وهي فترات الاضطراب عادة في تاريخ دولة الممالك .

وهكذا عاد العربان إلى الثورة في الصعيد سنة ١٢٩٠ عند قيام السلطان المنصور قلاوون في الحكم ، ولكن الأمير طرطاي نائب السلطنة أنزل بهم الهزيمة قرب قوص ، وعاد ومعه عدد كبير من زعمائهم رهائن ، فضلا عن

(١) ابن فضل الله العمري : التعريف من ١٨٨

المقريزي : البيان والإعراب ص ٤٤ .

(٢) المقريزي : السلوك ج ١ ص ٤٧١ .

مائة ألف رأس من الغنم ومائتي فرس وألف جمل ، غنمها منهم^(١) ، ولم يرتدع العربان في الصعيد بعد ذلك ، إذ انتهروا فرصة مرض السلطان قلاون سنة ١٢٩٠ وقاموا بثورة جديدة في منطقة قوص ولكن الأمير طر فطاي حاد إليهم ليؤدبهم من جديد^(٢) .

وفي عهد السلطان الناصر محمد بن قلاون انتهى العربان فرصة الخطر الذي حل بدولة المماليك من جهة غازان حاكم مغول فارس ، ومنعوا الخراج وأعلنوا الثورة على الحكومة سنة ١٣٠٠ ، ولكن الأمير شمس الدين سنقر الأعسر زحف عليهم في الصعيد وأزال بهم الهزيمة عند قوص وبطش بهم بظفراً شديداً^(٣) ، وعندما اشتد خطر العربان في الصعيد بعد ذلك حتى غدوا يسيطرون على الصعيد من أسيوط إلى منفوط ، تظاهر الأميران بيبرس وسار - أصحاب النفوذ في مصر في ذلك الوقت - بأنهما يمدان حملة لمحاربة المغول بالشام ، ثم حصلا على فتوى من القضاة والعلماء بمحاربة العربان ، وبعد أن اكتملت العدة اتجهت الجيوش إلى الصعيد حيث أحاطت بالعربان وصدرت الأوامر بأن يضع المماليك السيف في الكبير والصغير والجليل والحقير ولا يبقوا شيخاً ولا صبياً ومهتاطوا على سائر الأموال^(٤) . وكانت هزيمة العربان في تلك المرة ساحقة بحيث لم يمكن إحصاء عدد القتلى لكثرتهم وجافت الأرض بجثث القتلى ، في حين فر الباقون إلى المغاور والكموف ، ومن خلفهم المماليك يطاردونهم حتى هلك معظمهم (سنة ١٣٠١)^(٥) ، وقد

(١) أبو المعاسن : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٣٢٤ .

(٢) القرينى : السلوك ج ١ ص ٧٥٤ .

(٣) بيبرس الهوادار : زبدة الفكرة ، ج ٩ ص ٣٩٠ .

(٤) القرينى : السلوك ج ١ ص ٩٢١ .

(٥) أبو المعاسن : النجوم الزاهرة ج ٨ ص ١٥٣ .

النويرى : نهاية الأرب ج ٣٠ ص ٢٠ .

أدى تطرف المماليك في الانتقام والقتل في تلك المرة إلى إفقار البلاد وخلوها من أهلها، بحيث أن الفرد كان يمشى في تلك الجهات دفلاً يجد في طريقه أحداً وينزل بالقرب فلا يرى إلا النساء والصبيان والصغار، (١).

ويبدو أن شوكة العربان قد كسرت بعد ما حل بهم سنة ١٣٠١ من بلاء على أيدي جيوش المماليك، دفعا من سلم من معتدى العرب فقيراً ورعاً صالحاً، وحمل أكثرهم المسووك والمسبحة هرواً عن حمل الرماح والأسلحة، (٢). وليس معنى ذلك أن حركات العربان ومتاعبهم وتوقفت بعد سنة ١٣٠١. وإنما المقصود أن تلك الحركات لم تعد تتخذ شكلاً سياسياً، وإنما اتخذت صورة اقتصادية، وهو ما نسميه المراجع هادة باسم فساد العربان وهكذا أخذ العربان في القرنين الرابع عشر والخامس عشر يتطرفون في نهب الغلال وسلب المواشي، وأحياناً يدفعهم الضيق الاقتصادي إلى الامتناع عن دفع الخراج والضرائب المقررة عليهم كما حدث سنة ١٣١٣، ١٣٣٠، ١٣٧٣، ١٣٧٣ (٥٧٣١) في عهد السلطان الناصر محمد (٣) ومن أخطر الحركات التي من هذا النوع والتي قام بها العربان، حركة ابن الأحمد شيخ قبيلة هرك سنة ١٣٥٣ (٥٧٥٤) في عهد السلطان الصالح صلاح الدين بن الناصر محمد (٤).

وفي نفس الوقت لم تسلم المدن الكبرى في عصر المماليك مثل أسيوط والاسكندرية — بل القاهرة — من عبث العربان وإغاراتهم عليها أو على أطرافها بغية السلب والنهب (٥)، حتى الحجاج وعم في طريقهم إلى بيت الله

(١) القرطبي: السلوك ج ١ ص ٩٢٢.

(٢) بيريوس الدواهد: زبدة الفكرة ج ٩ ص ٤٠٨.

(٣) القرطبي: السلوك ج ٢ ص ١٢٩، ٣٣٥.

ابن حجر: إنباء الفهر ج ٤ ص ٣٥٧.

(٤) ابن أبياس: بدائع الزهور ج ١ ص ٢٠٠.

(٥) أبو المحاسن: النجوم ج ٨ ص ١٤٩.

العيني: عقد الجمان حوادث سنة ٨٠١.

الحرام هجر الصحراء الشرقية تعرضوا لعدوان الأعراب عليهم بالنهب والقتل (١). وهكذا ظل العربان طوال عصر المماليك مصدرًا هامًا من مصادر الفتنة والقتال وعدم الاستقرار (٢).

الحياة في القرية :

انصفت المدن المصرية في عصر المماليك - مثل القاهرة والإسكندرية ودمياط ورشيد - بتلاصق منازلها وضيق حاراتها واكتظاظ طرقاتها بالمارة والسوق والدواب . وقد أشاد الرحالة الذين زاروا مصر في عصر المماليك بعظمة المدن المصرية وكثرة سكانها إذا قيست بغيرها من المدن الأوروبية المعاصرة مثل روما وفلورنسا وباريس . وكان أهم ما استرعى انتباه أولئك الرحالة كثرة الباعة الجائلين في الطرقات ، فضلاً عن كثرة الدواب . فالخيول يركبها المماليك يركضون بها وسط الدروب والأسواق المزدحمة وهم يضربون الناس بمنّة ويسرة ليشقوا طريقهم ، غير مباليين إذا سقط بعضهم المارة تحت حوافر الخيل . والجمال العديدة يظوف بها السقاءون وهي تحمل القرب لإمداد المنازل والأسواق بحاجاتهم من الماء . وقد روى المغربي عدد الجمال في القاهرة بما يتراوح بين خمسين ألفاً ومائتي ألف جمل ، وعدد السقائين بين خمسة آلاف وستين ألف سقاء سجلوا أنفسهم عند المحتسب وقاموا بدفع ضريبة معينة للحكومة مقابل ما يأخذونه من ماء النيل (٣). أما الخيول التي قامت بدور سيارات الأجرة في أيامنا فقد بلغت عدداً كبيراً ، وعنى أصحابها بتطعيمها ليستأجرها الناس في قضاء حاجاتهم وسفرياتهم .

(١) المقرئى : السلوك ج ٤ ص ٨٥٨ - ٨٥٩ .

(٢) سعيد عاشور : المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك ص ٥٢ - ٥٤ .

(٣) رحلة البلوى المقرئى ص ٥٥ (مخطوط) .

ووصف التاجر الروسى باسل القاهرة في عصر المماليك بأن بها أربعة آلاف شارع ودرب ، كل منها له بابان وحارسان ، وبكل شارع منها عدد كبير من المنازل فضلا عن سوق كبير لصد الحاجات اليومية للسكان . وفي الليل تضاء تلك الشوارع بالمصابيح بعد أن تغلق أبوابها وتشد الحراسة عليها ، فيرتب لها جماعة من الطواف لتكشف الأزقة وخلق الدروب وتمهد أحساب الأرباع وتأديب المخالف ، ومن سار في الليل لغير سبب قبض عليه . وعينت السلطات بالقاهرة بنظافة الشوارع بالكفس والرش بالماء ، وهي المهمة التي قام بها الباعة وأحساب الحوانيت . كذلك وضعت آنية ملوثة بالماء عند أبواب الحوانيت لتسهيل إطفاء ما يقع من حرائق . وأمر بعض السلاطين - مثل بيبرس - بإخراج البرصاء والمجذومين من القاهرة ، وإلذار من يبقى منهم داخل أسوارها بالقتل^(١)

وزخرت المدن المصرية عامة والقاهرة خاصة في عصر المماليك بكثير من المنشآت العامة من الوكالات المعدة لاستقبال التجار وبضائعهم ، والمارستانات أو المستشفيات لعلاج المرضى ، والأسبلة لتبشير حصول الناس والدواب على ماء الشرب ، والحمامات التي اختص بعضها بالرجال والبعض الآخر بالنساء ، فضلا عن عديد المساجد والمدارس . أما سجون ذلك العصر فكانت على أنواع منها ما هو خاص بالأمراء والمماليك والجند ، ومنها ما هو خاص بأرباب الجرائم من اللصوص وقطاع الطرق وغيرهم ، ومنها ما هو خاص بالنساء المذنبات . ويفهم من المراجع المعاصرة أن هذه السجون بلغت درجة مخيفة من الخطية والقدارة وسوء معاملة المسجونين فيها ، حتى أن الإعدام كان في كثير من الأحوال أهون من عقوبة السجن^(٢) .

(١) سعيد عاشور : المجتمع المصرى في عصر سلاطين المماليك ص ٨٢ وما بعدها .

(٢) السخاوى : التبر المسبوك ص ١٤٦ .

المريزى : السلوك ج ٤ ص ٧٦١ .

وعلى الرغم من المتاعب والأزمات التي تعرض لها عامة الناس في عصر المماليك ، فإن روح المرح والرغبة في التسلية ، والترويح عن النفس ظلت تسود حياة أهالي المدن . وقد اعتاد الناس في ذلك العصر الخروج إلى الحدائق والمتنزهات مثل بركة الرطلي وبركة الحبش وجزيرة الروضة ، أو إلى شاطئ النيل - حيث الحدائق والأشجار والزهور - طلباً للتسلية والترويح . وكثيراً ما كانوا يستأجرون القوارب في النيل ويصطحبون معهم المغاني وآلات الطرب لقضاء وقت سعيد بين أمواج النهر الخالد (١) . كذلك اشتهر من وسائل التسلية في عصر المماليك خيال الظل ، فضلا عن ولع الناس بالتمسك بتطهير الحمام ونطاح الكباش ومناقرة الديوك والمصارعة وغيرها من الألعاب التي كانت تتم عن طريق الرهان (٢) .

واشتهرت الحياة في المدن في عصر المماليك بالحفلات الصاخبة التي انقسمت إلى أنواع منها ما هو خاص طائلي ومنها ما هو عام شعبي ، وأشهر الحفلات العائلية ما اختص بالزواج ، إذ جرت العادة عندئذ على إقامة الولائم الحافلة واستحضار المغنيات وضاربات الدفوف ، مما يجعل الحفل صاخبا كبيرا . ومثل ذلك يقال عن الحفلات الخاصة بالولادة - وبخاصة إذا كان المولود ذكرا - وختان الطفل وغيرها من المناسبات السعيدة التي تستحق مشاركة الأهل والأحباب في إحيائها (٣) .

أما الاحتفالات العامة فمنها ما هو ديني يرتبط بمناسبات إسلامية ، ومنها ما هو قومي حرص جميع المواطنين من مسلمين وغير مسلمين على إحيائها وأول الأعياد الدينية هو عيد رأس السنة الهجرية ، وفيه كان السلطان يصرف أرزاقا

(١) ابن الحاج : المدخل ج ١ ص ٢٤٦ .

(٢) المقريزي : السلوك ج ٢ ص ٦٤٢ ، ص ٧٥٤ .

(٣) ابن حجر : إنباء النمر ج ١ ص ٥٦٠ ، ج ٢ ص ٣٧٦ .

إضافية ، ويطلع الخليفة والقضاء الأربعة إلى القلعة لينضموا السلطان بالعام الجديد^(١). وفي طائر الحرم يكون الاحتفال بعاشوراء فيوسع القادرون على الأهل ، والأقارب واليتامى والمساكين ، كما يتمسكون في هذا اليوم بطبخ الحبوب وزيارة القبور وطلائق البخور . أما طائفة الشيعة فكانوا يحرسون على إقامة عزاء الحسين في ذلك اليوم فيشهد شعراؤهم القصائد وفق ما جرت به العادة في مصر الفاطمية ، في حين يناظرهم شعراء السنة ويردون عليهم^(٢) ثم يأتي بعد ذلك الاحتفال بالمولد النبوي في شهر ربيع الأول فيقيم السلطان خيمة المولد بالقلعة ، وتملأ الأحواض بعصير السكر والليمون ليقدّم منها للوافدين دون تفرقة بين كبير وصغير . ويبدأ الاحتفال بعد الظهر وينتهي عند ثلث الليل فيتماقب القارئون والمشدون والوطاظ ، كما تمد الأسعطة بأنواع الحلوى والمأكولات الشهية^(٣). وعند ثلث الليل يبدأ السماع الذي يستمر حتى الفجر ، فتأتى طوائف الصوفية طائفة بعد أخرى ويستمرّون في الذكر والسلطان يجالس في صدر الخيمة . كذلك يترقب عامة الناس موعد المولد ليقیموا الولائم ويتصدقوا على الفقراء ويظهروا السرور . وكانت بعض حفلات المولد النبوي خاصة بالنساء وعندئذ تكثر البدع والمخالفات^(٤).

وكان الاحتفال بدوران المحمل يتم مرتين في السنة في عصر المماليك الأولى في النصف الأخير من شهر رجب وقد استحدثها السلطان بيبرس لإعلام الناس أن الطريق من مصر إلى الحج آمن ، وأن من شاء فلا يتأخر ولا يتخوف ،

(١) السخاوي : التبر المسبوك ص ١٤٥ ، ٢٥٤ .

(٢) ابن الحاج : المدخل ج ١ ص ٢٩٠ — ٢٩١

(٣) سميد عاشور : المهتم المصري في عصر سلاطين المماليك ص ١٢٩ .

(٤) ابن الحاج : المدخل ج ٢ ص ١١٠ .

وبذلك تتهيج الغزوات وتتحرك البواعث فيأخذ من يشاء في التأهب للحج^(١)، وتكون الدورة الثانية في شوال وهي دورة خروج المحمل ويحتفل فيها بإحراق النفط وعمل الصواريخ ، على حين يخرج الناس من كل مكان للفرجة ويتغالون في زينة الحوانيت والأسواق ، ولا تكون دورة خروج المحمل غالباً إلا يوم اثنين أو خميس ، فتوضع الكسوة - وهي من الحرير الثمين المطرز بالذهب والفضة - على جمل ، ويطوف المحمل بشوارع القاهرة حتى يصل إلى الفسطاط في يوم مشهور^(٢) .

أما شهر رمضان فكانته معروفة عند المسلمين في كل زمان ومكان ، وقد وصف الرحالة ابن بطوطة طريقة احتفال المصريين برؤية هلال رمضان في عصر المماليك ، كما وصف غيره من الرحالة الأوروبيين الذين زاروا مصر في ذلك العصر كيفية إحياء الأهلالي ليالي رمضان بإضاءة الفوانيس والمشاغل في العارقات والبيوت والحوانيت . هذا فضلاً عن الاحتفالات بالقلعة حيث يقرأ صحيح البخاري وتوزع الصدقات على المستحقين^(٣) ، وفي نهاية رمضان يحل عيد الفطر ليستعد له الناس بعمل الكحك والحلوى ، وإعداد الملابس الجديدة ، وكانت معالم القاهرة تكتظ بالناس سواء في عيد الفطر أو عيد الأضحى ، فتخرج جموعهم إلى شاطئ النيل لاستمتاع المراكب أو إلى القرافة للرقص والغناء ، وفي جميع هذه الأحوال تكشف المفاصل الخلقية^(٤) ، ومثل ذلك يقال عن عيد الأضحى .

أما الأعياد القومية في عصر المماليك فكانت كثيرة ومتنوعة ، منها ما ارتبط بالسلطين مثل الاحتفال بتولية سلطان جديد أو لإبلال السلطان

(١) رحلة ابن بطوطة ج ١ ص ٩٣ .

(٢) المقرئى : السلوك ج ٣ ص ١٥ ، ٤٢٤ .

(٣) أبو الحسن : النجوم ج ٦ ص ٥٧٩ (طبعة كاليفورنيا) ٩
مورد الاطاعة ص ٩٩ .

(٤) سعيد عاشور : المجتمع المصرى فى عصر سلطين المماليك ص ١٨٩ .

من مرض أو عودته سالماً من سفر أو ظافراً من حرب ، وفي جميع هذه الأحوال تزين القاهرة ومصر بالزيينات الفاخرة ، ويخرج السلطان في موكب حافل فيهرع الناس للفرجة وسط قرع الطبول وزغاريد النساء (١) ، وئمة مناسبة سعيدة حرص المصريون منذ أقدم العصور على إحيائها والاحتفال بها كل عام هي عيد وفاء النيل ، وعندئذ يحتفل بكسر الخليج في موكب قدير فيه الخراويق والسفن المزينة بالأعلام ، وعند وصول السلطان أو نائبه إلى مقهاى الروضة يد سماء كبير من الشواء والحلى والفاكهة وسط ابتهاج الناس وفرحهم (٢) .

الثورات والفن السياسية :

على أن المدن والقاهرة لم تظل على حال واحد من الهدوء والسكينة والأعياد والاحتفالات طوال عصر المماليك ؛ وإنما كثيراً ما كانت تشتعل الثورات المفاجئة في العاصمة ؛ ولانلبث أن تمتد أحياناً إلى بعض أنحاء البلاد والمدن الكبرى فتعول تلك الصورة الهادئة المرحلة إلى صورة مضطربة قائمة .

ومعظم الثورات والفن السياسية التي شهدتها البلاد في عصر المماليك كان مصدرها طوائف المماليك أنفسهم . ذلك أن الحقيقة التاريخية الكبرى التي تحكم في تاريخ سلطنة المماليك من أوله إلى آخره ووجهت ذلك التاريخ في داخل دولتهم ؛ هي اعتقاد المماليك اعتقاداً راسخاً حقيقياً بأنهم جميعاً - بحكم أصلهم ونشأتهم وطبيعة التطور الذي مروا به - متساوون ، ولا فرق بين ملوك وآخر إلا بما حباه الله من صفات خاصة كالجهالة والذكاء والمهارة

(١) المرجع السابق ص ١٩٤ - ١٩٥ .

(٢) للوقوف على الحياة الاجتماعية في عصر المماليك في صورة مفصلة دقيقة أرجع إلى

كتاب :

المجتمع المصرى في عصر سلاطين المماليك - المؤلف .

في استخدام السلاح والقدرة على استغلال الظروف .

ومادام الأمر كذلك ، فإن جميع المماليك اعتقدوا أن لهم حقاً مشروعاً في السلطنة ، والملوك الطموح مهما تقل رتبته أو يصغر شأنه ، فإنه كان يتطلع دائماً إلى اليوم الذي يصبح فيه أميراً كبيراً ، وعندئذ يستطيع أن يستغل مواهبه في أن ينزع لنفسه دست السلطنة ، مثلما فعل غيره من السلاطين السابقين . ولا شك في أن عدم وجود نظام وراثي أو قاعدة معينة ثابتة لاختيار السلاطين في عصر المماليك ، وتطلع كبار الأمراء دائماً للوصول إلى منصب السلطنة ، أدى إلى كثير من الفتن والثورات والاضطرابات التي شهدتها ذلك العصر ، وبعبارة أخرى فإننا نستطيع أن نقرر أن معظم القلاقل والفتن التي شهدتها عصر المماليك في مصر والشام إنما كان مصدرها رغبة الطموحين من الأمراء في الوصول إلى قمة الهرم المماليكي الكبير واحتلال دست السلطنة ، وكان يكفي أن يرجف بوقاة سلطان أو مرضه أو هزيمة جنوده حتى تضطرب أحوال البلاد^(١) ، وكان يكفي أن يعلن قيام سلطان جديد في الحكم حتى يعلن منافسوه من كبار الأمراء - في الشام أو في مصر - عدم رضاهم عنه وثورتهم عليه ، مما ينذر بدور جديد من أدوار الشدة التي اعتادت أن تمر بها البلاد والعباد في ذلك العصر ، وفي جميع تلك الحالات كانت طوائف المماليك العديدة تهدد فرصتها سانحة ، فيثور المماليك ويوالوا الاجتماعات اليلية وتأسيس العصابات السرية للاميجان^(٢) ، ثم ينتشرون في الأسواق والطرق لنهب الحوائث وخطف العمائم وانتزاع الخيول من أصحابها ، بل كانوا يجمعون أحياناً على النساء في بيوتهن وفي الحمامات

(١) ابن لباس : بدائع الزهور ج ٢ ص ٢٣٥ .

المريزي : الملوك ج ١ ص ٥٠٧ - ٥٠٨ .

(٢) سيرة الظاهر بيبرس ج ٤٩ ص ٢٠ .

فيخطفوه من (١) .

ويضيق بنا المقام عن تتبع هذه الثورات طوال عصر المماليك ، فقد سبقتنا الإشارة إلى معظمها في صفحات الكتاب السابقة عند الكلام عن كل سلطان من سلاطين دولتي المماليك الأولى والثانية . وسواء كانت هذه الحركات مصدرها بعض كبار أمراء الدولة في الشام أو في مصر ، فإنها انفجرت جميعاً في نتائجها وهي إما انتصار السلطان الجديد على خصومه ، وإما مقتله أو نفيه ، وإما فراره واختفائه إلى أن تتاح له فرصة الظهور واسترداد عرشه . أما أثر هذه الحركات في مجرى تاريخ دولة المماليك فكان خطيراً ، إذ صبغ ذلك العصر بصبغة خاصة ليس لها نظير في تاريخ مصر والشام في العصور الوسطى ، وجعله يتجهف إلى حد ما بطابع معين من عدم الاستقرار السياسي والاقتصادي والاجتماعي . ويكفي أن نشير إلى ما كان يصحب تلك الفتن من إغلاق الأسواق والخرابات والأبواب التي تفصل بين أحياء المدينة ودروبها فتتعطل جميع مظاهر النشاط العمراني ، وربما استمرت الأوضاع على ذلك بضعة أسابيع يقامى النامى طوالها الجوع والفوضى والفرع (٢) ،

المجاهات والاضطرابات:

ولم تكن الاضطرابات التي تعرضت لها البلاد في عصر المماليك منشؤها التنافس بين كبار الأمراء حول منصب السلطنة أو غضب بعض المماليك بسبب سوء التوزيع الإقطاعي وقلة النفقة المعطاة لهم من السلطان لحسب ، بل وجدت أيضاً أسباب طبيعية كثيرة ما تسببت في إثارة الفتن ونشر الاضطرابات في

(١) المقرئى : السلوك ج ٣ ص ١٦٤

أبو المحاسن : النهوم ج ٥ ص ٤٠١ .

(٢) سعيد هاشور : المجتمع المصرى في عصر سلاطين المماليك ص ٨٩ .

(٢٢) - العصر المماليكى ٢

البلاد. ذلك أن عدم إمكان التحكم في مياه النيل في تلك العصور ، كان يترتب عليه انتشار المجاعات عندما ينخفض الفيضان ، مما يؤدي إلى فساد الزراعة وقلة المحصولات ، وكثيراً ما كانت تلك المجاعات مصحوبة بانتشار الأوبئة والطواعين ، الأمر الذي أفضى إلى موت الآلاف من الناس وقلة الأيدي العاملة ، وبذلك يتوقف معظم مظاهر النشاط العمراني في البلاد .

ويضيق بنا المقام عن تتبع كافة المجاعات والأوبئة التي تعرضت لها البلاد في عصر المماليك ، ولذلك نكتفي بالإشارة السريعة إلى أهمها لنأخذ فكرة عن قسوتها من ناحية وما كانت تعرض له البلاد والعباد بسببها من ناحية أخرى . من ذلك ما حدث سنة ٦٩٤ هـ - ٦٩٥ هـ (١٢٩٥ - ١٢٩٦ م) من توقف نزول الأمطار في الشام ، فاشتد الغلاء واضطر الناس إلى صلاة الاستسقاء^(١) . وفي نفس الوقت - وكان ذلك في عهد السلطان العادل كتبغا - انخفض فيضان النيل عن مستواه فتزايد الغلاء واشتد البلاء ، وجاء الغلاء مصحوباً بانتشار الطاعون فكان يموت بالقاهرة ومصر كل يوم بضعة ألوف . ويبقى الميت مطروحاً في الأزقة والشوارع ملقاً في الممرات اليوم واليومين لا يوجد من يدفنه ، لاشتغال الأصحاء بأموالهم والسقماء بأمر اضيقهم^(٢) .

أما وباء سنة ٧٤٩ هـ (١٣٤٩ م) ، فلم يكن له نظير في قسوته ومرعة انتشاره . ولم يكن هذا الوباء قاصراً على دولة المماليك في مصر والشام ، وإنما دهم أقاليم الأرض شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً ، جميع أجناس بني آدم وغيرهم ، حتى حيتان البحر وطير السماء ووحش البر^(٣) ، وقد عرف ذلك الوباء في أوروبا باسم الطاعون الأسود ، وحكى المقريزي الكثير عن البلاد

(١) المقريزي : السلوك ج ١ ص ٨٠٨ .

(٢) بيريوس الدوادار : زبدة الفكرة ج ٩ ورقة ١٨٩ .

(٣) المقريزي : السلوك - حوادث سنة ٨٤٩ هـ ج ٢ ص ١٧٣ .

التي انتشرت فيها ، في آسيا وأوروبا وأفريقية ، فضلا عن جزر البحر المتوسط كذلك يروى المقرئى أنه كان يموت بالقاهرة ومصر في اليوم الواحد بسبب ذلك الوباء ما بين عشرة آلاف وعشرين ألف ، وأن الفلاحين بأسرهم ماتوا فلم يوجد من يضم الروع ، وأن المواشى هلكت ، ومات صيادو السمك في دمياط وهم في سفنهم والشعياك بأيديهم مملوءة سمكا ميتا ، وهكذا أفقر الريف من الزراع وأفقرت المدن من سكانها ، بحيث غدت القاهرة خالية مقفرة ، لا يوجد في شوارعها مار ، بحيث يمر الإنسان من باب ذويلة إلى باب النصر فلا يرى من يزاحمه لكثرة الموتى والاشتغال بهم ، ومعنى ذلك توقف جميع ألوان النشاط العمراني ، فتمطلت أكثر الصنائع ... ، وصارت كتب العلم يتأدى عليها بالاحمال . . . وعمدت جميع الصنائع فلم يوجد سقاء ولا بابا ولا غلام ، حتى المساجد والزوايا أغلقت معظمها وتعتل الأذان من عدة مواضع (١) .

وفي عصر دولة المماليك الجراكسة انتشرت المجاعات والأوبئة أيضا عدة مرات ، مما سبب مصائب كثيرة للعباد والبلاد (٢) . وقد حدث في عهد الأشرف قايتباي وحده أن انتشر الطاعون ثلاث مرات ، أشهرها ما كان سنة ٨٩٧ هـ (١٤٩٢ م) . عندما هجم الطاعون بالقاهرة وفشى جملة واحدة ، وقتل في الناس فشيكا ذريعا ، واستمر الطاعون يفتك بأهل مصر والقاهرة بضعة أشهر حتى انتهى جملة واحدة ، ومشى نحو بلاد الصعيد (٣) . وقد جرت عادة سلاطين المماليك عند نفشى الطاعون في البلاد أن يخرجوا بعيدا عن العاصمة طلبا للنجاة فيقصدون مرياقوس أو غيرها من المواضع ؛ ولكنهم مع ذلك لم يسلموا أحيانا من الأذى . من ذلك ما يرويه ابن إياس من أن

(١) المقرئى : السالك ج ٢ ص ٧٧٢ - ٧٨٦ .

(٢) المقرئى : لغاية الأمة ص ٧ وما بعدها .

(٣) ابن إياس : بدائع الزهور ج ٣ ص ٢٨٧ - ٢٩٢ (نشر محمد مصطفى) .

السلطان برسباي أصيب في طاعون سنة ٨٤١ هـ (١٤٣٧ م) « فحصل له ما يؤول إلى أي ارتباك في قواه العقلية ، وصار يصدر أوامر غريبة مثل نفي الكلاب إلى الجيزة ومنع النساء من الخروج إلى الطرقات وغيرها » (١) .

في كثير من الأحيان نجد المعاصرين يفسرون تلك الأزمات التي كانت تحمل بهم في ضوء فساد الناس وخرابهم عن طاعة الله وإسرافهم في المعاصي مثل شرب الخمر وغير ذلك . لذلك نجد في المراجع المعاصرة أن الدعوة إلى التوبة إلى الله تعالى في أوقات الأزمات - من مجاعات وأوبئة - فيسارع الناس إلى إراقة الخمر ، والكف عن السيئات عسى أن يتوب الله عليهم ويكشف عنهم الغمة ، وقد لجأ سلاطين المماليك في أوقات الشدة - مثلما حدث سنة ٧٠٩ ، ٧٨١ ، ٨٣١ ، ٩٢٢ - إلى إصدار الأوامر بإراقة الخمر وتكريم دعاظيم في مختلف أنحاء البلاد إظهاراً للتوبة (٢) ، ولكن مفهوم هذه الأوامر كان لا يستمر طويلاً ، إذ لا يلبث أن يعود الناس إلى سابق منتهمهم ولم ينتهوا عما هم فيه ، (٣) .

(١) ابن أبياس : بدائع الزهور ج ٢ ص ٣١ - ٣٢ .

(٢) ابن حجر : لأنباء الفجر ج ٢ ورقة ٢٤٤ ، ٣١٤ ، ٢٤٩ ، ٢٤٩ .

المقرئى : السلوك ج ٢ ص ٥٣ - ٥٤ ، ج ٣ ص ٣٥٤ .

العيني : عقد الجمان ، حوادث سنة ٨٠٩ هـ .

(٣) ابن أبياس : بدائع الزهور ج ٣ ص ٨٥ .

الفصل الحادى عشر

الحياة العلمية والدينية

النشاط العلمى فى عصر المماليك :

زار مصر سنة ٧٣٧هـ الرحالة البلوى المغربى (١٢٣٦م) فأبدى إعجابه بالشديد بالنشاط العلمى فى البلاد وقال إن مصر منبع العلم^(١) . والحق إن مصر أصبحت على عصر سلاطين المماليك ميداناً للنشاط العلمى واسع ؛ يدل عليه ذلك التراث الضخم من موسوعات أدبية وكتب تاريخية ومؤلفات فى العلوم الدينية تركها علماء ذلك العصر . ويرى السيوطى بين هذا النشاط العلمى الواسع فى مصر بالذات على عصر المماليك وبين إحياء الخلافة العباسية فى القاهرة بعد أن سقطت فى بغداد، ويقول إنه منذ إحياء الخلافة العباسية فى مصر، خدت هذه البلاد دخل سكن العلماء وعظم رجال الفضلاء^(٢) . أما ابن حجر فيقول عن بعض علماء الشام وغيرها من البلاد الإسلامية أنهم قالوا عن بلادهم وهذا بلد ضيق عن علمى ، وهجروها إلى مصر^(٣) .

والواقع أنه ما كان لهذا النشاط العلمى أن يزدهر فى مصر فى عصر المماليك لو لا تشجيع بعض سلاطين المماليك للعلم والعلماء . وقد وصف أبو المحاسن السلطان الظاهر بيبرس بأنه كان يميل إلى التاريخ وأهله ميلاً زائداً ويقول سماع التاريخ أعظم من التجارب^(٤) . وهكذا عاد الجامع الأزهر فى عهد الظاهر بيبرس إلى

(١) رحلة البلوى المغربى ورقة ٥٤ .

(٢) السيوطى : حسن المحاضرة ج ٢ ص ٨٦ .

(٣) ابن حجر : رفع الأصر عن قضاة مصر ورقة ١٦٨ .

(٤) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ١٨٢ .

سابق عهده، قصة لطلاب العلم في مختلف أنحاء العالم الإسلامي؛ وظهر في عصر
بيبرس بعض أعلام الأدب والتاريخ أشهرهم يحيى الدين بن عبد الظاهر وابن
خليلكان وجمال الدين بن واصل (١).

كذلك وجد من سلاطين المماليك — كالسلطان الغوري — من حرص
على عقد المجالس العلمية والدينية بالقلعة مرة أو مرتين أو أكثر كل أسبوع. وقد
بحثت في تلك المجالس مختلف المسائل والمشاكل العلمية والدينية، التي تناقش
فيها الحاضرون من كبار العلماء والفقهاء (٢). كذلك نسمع عن بعض أمراء
المماليك وأبنائهم في مصر أنهم اشتغلوا بالتاريخ والفقه والحديث واللغة العربية،
بل تصدى بعضهم لإقراء الطلبة والتدريس لهم (٣).

المدارس والمكتبات :

ولا أدل على رعاية سلاطين المماليك للنشاط العلمي من حرصهم على إنشاء كثير
من المدارس، فضلاً عن المؤسسات الأخرى التي قامت أحياناً بوظيفة المدارس
مثل المساجد . والمعروف أن السلطان صلاح الدين عني عناية خاصة بإنشاء
المدارس وأنشأ بعض المدارس الشهيرة مثل المدرسة الناصرية والمدرسة الصلاحية
والمدرسة القمحية (٤). ولكن إذا كان صلاح الدين وخلفاؤه من بني أيوب قد
استثمروا من إنشاء المدارس أن تكون قبل كل شيء مراكن للنشر المذهب السني
ومحاربة العقيدة الشيعية في البلاد ؛ فإن سلاطين المماليك أكثروا من إنشاء
المدارس إظهاراً لشعور التقوى والزلفى من ناحية ولتخذوا من المدرسة أداة

(١) محمد جمال الدين سرور : دولة الظاهر بيبرس ص ١٥٥ .

(٢) عبد الوهاب عزام : مجالس الغوري ص ٤٩ .

(٣) السخاوي : التبر المسبوك ص ٢٢١ ، ٤١٥ .

(٤) المقرئى : المواقظ ج ٢ ص ٣٦٣ — ٣٦٤ (بولان) .

تضمن بقاء الحكم في أيديهم وتساعدهم على تدعيم مركزهم في أعين الشعب (١). ومن المدارس العديدة التي أسسها سلاطين المماليك المدرسة الظاهرية نسبة إلى السلطان الظاهر بيبرس الذي وضع أساسها سنة ١٢٦١؛ والمدرسة الناصرية التي شيدها السلطان الناصر محمد ١٣٠٣، ومدرسة السلطان برقوق التي أنشأها بين القصرين سنة ١٣٨٦. ولم تكن جميع المدارس التي شيدها سلاطين المماليك في المدن الكبرى، وإنما شيد في القرى والريف مثل مدرسة سرياقوس التي أنشأها السلطان برسباي. ومن جهة أخرى فإن سلاطين المماليك لم يقتصرُوا في إنشاء المدارس على مصر؛ وإنما أقاموا كثيراً منها في مختلف أنحاء دولتهم الواسعة. ومن ذلك ما نسمعه عن أن السلطان قايتباي أنشأ مدارس عديدة في مصر والشام والحجاز، كما أنشأ السلطان الغوري مدرسة في مكة. أما أمراء المماليك فلم يكونوا أقل حماسة لإنشاء المدارس من السلاطين. ومن أشهر المدارس التي أقامها أمراء المماليك المدرسة الجمالية أو الهمدانية التي بناها سنة ١٤٠٨ الأمير جمال الدين محمود، وهو أحد أمراء السلطان فرج بن برقوق. وقد تعرض المقرئ في هذه المدرسة فوصفها بقوله إنها من أحسن مدارس مصر (٢).

وجرت العادة عند الفراغ من إنشاء مدرسة في عصر المماليك أن يحتفل بافتتاحها احتفالاً كبيراً يحضره السلطان والأمراء والفقهاء والقضاة والأعيان، ويمد سباط فاخر في صحن المدرسة به ألوان الأطعمة والحلوى والفواكه. وبعد أن يخلع السلطان على كل من أسهم في بناء المدرسة من المعلمين والبنائين والمهندسين، يعين المدرسة موظفيها من المدرسين والفقهاء والموذنين والقراء

(1) Ibrahim Salama : L'Enseignement Islamique en Egypte, pp. 60 — 64 .

(٢) المقرئ : المواظ ج ٢ س ٣٩٥ — ٣٩٧ .

والفراسين ، غيرهم (١) .

وكانت وظيفة التدريس بالمدرسة جليلة القدر ، يخضع السلطان على صاحبها ويكتب له نوقعا من ديوان الإنشاء يختلف باختلاف المادة التي يدرسها المدرس تفسيراً كانت أو حديثاً ، وفي هذا التوقيع يقدم السلطان النصيح للمدرس بأن يظهر « مكنون علمه » للطلاب ، ويقبل على الدرس وهو طلق الوجه مفسر الصدر ليستميل إليه طلبته « وبريهم كما يرى الوالد ولده » (٢) . كذلك طلب من المدرس « أن ينظر في طلبته ويحتم كل وقت على الاشتغال » (٣) .

وجرت العادة على تعيين معيّد أو أكثر لكل مدرس ، لمعيّد للطلبة ما ألقاه عليهم المدرس ليفهموه ويحسنوه ، كما يشرح لهم ما يحتاج إلى الشرح (٤) أما الطلبة فقد تمتعوا بحرية اختيار المواد التي يدرسونها بحيث « لا يمنع فقيه أو عسقي من الطلبة ما يختاره من أنواع العلوم الشرعية » (٥) . وكثيراً ما اعتمد هذا الاختيار على مكانة المدرس وشهرته العلمية ، بحيث ينتقل طالب العلم من بلد بعيد ليتعلم على فقيه أو محدث مشهور (٦) فإذا أتم الطالب دراسته وتأهل للفتيا والتدريس ، أجاز له شيخه ذلك ، وكتب له إجازة يذكر فيها اسم الطالب وشيخه ومذهبه وتاريخ الإجازة وغير ذلك . ولا شك في أن قيمة هذه الإجازة كانت تتوقف على سمعة الشيخ الذي صدرت عنه ومكانته العلمية (٧) .

(١) ابن حجر : إنباء الفهر ج ١ ص ٧٧٢ .

المريزي : السلوك ج ٣ ص ٤٦٤ .

(٢) الفلقشندي : صبح الأعشى ج ١١ ص ٢٤٦ — ٢٤٧ .

(٣) النويري : نهاية الأرب ج ٣٠ ورقة ٣٤٩ .

(٤) المريزي : السلوك ج ١ ص ٧٠٠ .

(٥) النويري : نهاية الأرب ج ٣٠ ورقة ١٥ .

(٦) سعيد عاشور : المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك ص ١٤٥ .

(٧) الفلقشندي : صبح الأعشى ج ١٤ ص ٣٢٢ — ٣٢٦ .

والواقع أن المدارس في عصر المماليك تمتعت بدخل مالي ثابت مكنها من أداء رسالتها وتدعيم نظامها . أما هذا الدخل فكان مصدره الأوقاف — من أراض وبيوت وأموال ومعاصر وغيرها — ، وهي أوقاف كان ينفق من ريعها على المدرسة ومن فيها من مدرسين وطلاب علم وموظفين (١) .

المكتبات :

وإذا كانت الحياة العلمية قد نشطت في عصر المماليك ، فإنه يلاحظ أن الركن الأول للنشاط العلمي في أي زمان ومكان هو الكتب والمكتبات . فبدون الكتب والمكتبات لا تستطيع المدارس أن تؤدي مهمتها ، ولا يستطيع المتعلمون والمعلمون أن يواصلوا رسالتهم . لذلك لا عجب إذا شهد عصر المماليك نقاشاً منقطع النظير في التأليف من ناحية وفي جمع الكتب وإنشاء المكتبات والعناية بها من ناحية ثانية . وكان سلاطين المماليك أنفسهم أول من قدر أهمية الكتب فاحتفظوا في قلعة الجبل بخزانة كتب جليلة القدر ، حوت مجموعة ضخمة من الكتب الدينية وغير الدينية . وقد ظلت هذه المكتبة عامرة بالكتب بحفظها بأهميتها ، رغم الحريق الذي تعرضت له سنة ١٢٩٢ على عهد السلطان الأشرف خليل بن قلاوون (٢) .

أما مكتبات المدارس والجامع في عصر المماليك فكانت على درجة فائقة من الإعداد والنقى . فإذا كان السلطان الظاهر بيبرس قد أنشأ المدرسة الظاهرية ، فإن المراجع تشير إلى أنه ألحق بتلك المدرسة خزانة كتب جليلة تشتمل على مجموعة ضخمة من المراجع في مختلف العلوم (٣) . وكذلك حرص السلطان المنصور قلاوون

(١) سعيد هاشور : المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك ص ١٤٧ — ١٤٨ .

(٢) انقريزى : المواقف ج ٢ ص ٢١٢ .

أبو الحسن : النجوم ج ٨ ص ٣٣ .

(٣) عبد اللطيف إبراهيم على : المكتبة المملوكية ص ١٦ .

على أن يزود مكتبة المدرسة المنصورية بالكثير من كتب التفسير والحديث والفقه واللغة والطب والأدبيات ودواوين الشعراء^(١). وكذلك المدرسة الناصرية التي أقامها السلطان الناصر محمد، إذ أنشأ بها «خزانة كتب جليلة».

ولم يقل سلاطين المماليك الجراكسة عناية بالكتب عن سلاطين دولة المماليك الأولى أو الأتراك، فنسمع عن خزانة الكتب العامة التي ألحقها سلاطين الجراكسة مثل الظاهر برقوق والمؤبد شيخ والأشرف قايتباي والأشرف قانصوه الغوري بمدارسهم^(٢). هذا مع ملاحظة أن خزانات الكتب في عصر المماليك لم تلحق بالمدارس لحسب وإنما ألحقت أيضاً بالخانات والجوامع، وذلك تحقيقاً وتعميماً للفائدة العلمية المرجوة. وفي جميع الحالات قام بالإشراف على خزانة الكتب «خازن الكتب» ومهمة ترتيب الكتب وتنظيمها وحفظها وحجبها وترميمها بين حين وآخر؛ فضلاً عن إرشاد القراء إلى ما يلزمهم من مراجع لذلك كان يختار لخزانة الكتب عادة فقيهاً أو عالماً يراعى فيه سعة العلم والأمانة^(٣).

وكانت عملية تغذية المكتبات بالكتب مستمرة، فبالإضافة إلى مجموعة الكتب التي يهبها صاحب المدرسة على خزنتها، استمرت المكتبات تحصل على جديد من الكتب إما عن طريق الهدايا والهبات وإما عن طريق النسخ وإما عن طريق الشراء^(٤). ولعل صعوبة نسخ الكتب والحصول عليها في ذلك العصر، هي التي أطلبت تحريم إعارة الكتب خارجياً تحريماً يانا إلا في حالات نادرة خاصة. ومعنى ذلك أن الاستفادة من الكتب اقتصر على الاطلاع

(١) النويري: نهاية الأرب ج ٢٩ ورقة ٢٨٢.

(٢) عبد الطيف إبراهيم: المكتبة المملوكية ص ٢٤ — ٣٣.

(٣) سعيد عاشور: المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك ص ١٤٦.

(٤) عبد الطيف إبراهيم: المكتبة المملوكية ص ٤٩.

الداخلي وفق شروط خاصة تضمن المحافظة على المكتب وعدم استهلاكها (١).

المطاب:

وإذا كانت المدارس في عصر المماليك تمثل المهاد العليا أو الجامعات فإن المكتاب نهضت عندئذ بالمرحلة الأولى من مراحل التعليم. ويبدو أن الهدف الأساسي من إنشاء معظم المكتاب كان تعليم أيتام المسلمين، ولذلك أقبل الخيرون على إقامتها وحبس الأوقاف عليها رغبة في الثواب. وكان يقوم بتعليم الأطفال في المكتب « المؤدب » الذي أطلق عليه أحيانا اسم « الفقيه »؛ واشترط فيه أن يكون « خيراً ديناً أميناً على أطفال المسلمين، متين الخلق هفواً متزوجاً طارفاً بصناعته صالحاً للتعليم »، وساعد المؤدب في عمله « العريف » وهو أشبه بالمعيد في المدارس، إذ كان يعاون المتخلفين من الأطفال، ويعرضون عليه ألواحهم في غيبة المؤدب (٢). وربما كان في المكتب الواحد أكثر من مؤدب وعريف إذا تطلبت كثرة الأطفال ذلك، بحيث يكون لكل مؤدب عدد معين من الأطفال يقوم بالإشراف عليهم وتعليمهم. وقد ذكر النويري كيف أن السلطان المنصور قلاوون رتب في مكتب السبيل - الذي أنشأه - فقيهين - « يعلمان من كان صغيراً من أيتام المسلمين كتاب الله تعالى، ورتب لهما جامكية في كل شهر وجراية في كل يوم؛ وهما لكل منهما في كل شهر ثلاثون درهماً، وفي كل يوم من الخبز ثلاثة أرطال، وكسوة في الشتاء وكسوة في الصيف. ورتب للأيتام لكل منهم في كل يوم رحلان خبزاً، وكسوة في الشتاء وكسوة في الصيف » (٣).

(١) المرجع السابق ص ٦٥.

(٢) سميد هاشور: مصر في عصر دولة المماليك البحرية ص ١٩٠ - ١٩١.

(٣) النويري: نهاية الأرب ج ٢٩ ص ٢٨٢ - ٢٨٣.

وكانت مناهج التعليم في هذه المكاتب تدور حول القراءة والكتابة وتعليم القرآن والحديث وآداب الدين ، فضلا عن مبادئ الحساب وقواعد اللغة وبعض الشعر . ويبدأ الأطفال بالكتابة في ألواح ثم ينتقلون بعد ذلك إلى الكتابة بالمداد ، فإذا بلغ الطفل الحلم وزالت عنه صفة اليتم ، صرف من المكتب ليحل محله مستحق آخر ، وقد أوصى المؤدب بأن يحسن معاملة الأطفال ولا يقسو عليهم ولا يضربهم ، إلا إذا أساء صبي منهم الأدب وعندئذ يضربه المؤدب ضربا وسطا يؤلم ولا يؤذي (١) .

فإذا أتم الصبي حفظ القرآن في المكتب ، احتفل به احتمالا كبيرا يسمى « الاصرافه » فترين أرض المكتب وحيطانه وسقوفه بالحزير ، ويقوم أهل الصبي صاحب الاصرافه بزيئته بقلائد الذهب والعنبر ، ثم يركبونه على فرس أو بغلة مزينة ويحملون أمامه أطباقا فيها ثياب من حرير وعائم ، هلى حين يمشى بين يديه بقية صبيان المكتب ينشدون طوال الطريق حتى يوصلوه إلى بيته . وعند البيت يدخل المؤدب ويعطى اللوح لأم صاحب الاصرافه فتعطيه ما تقدر عليه من المال (٢) .

النشاط الدينى :

أما عن الحياة الدينية . فالملاحظ أن مصر شهدت في عصر المماليك نشاطا دينيا منقطع النظير . وقد يكون السر في هذا النشاط الدينى الكبير هو شعور المماليك أنفسهم بأنهم أغراب عن البلاد وأهلها ، مقتصبون للحكم والعرش من أصحاب الشرعيين ، ولذلك أرادوا أن يتخذوا من الدين ورجاله ستارا يخفى

(١) ابن الأخرى : معالم القرية في طلب الحسبة ص ١٧٠ — ١٧١ .

(٢) ابن الحاج : المدخل ج ٢ ص ٣٣١ — ٣٣٣ .

هذه الحقائق عن أعين المحكومين ، ويقربهم إلى قلوب الشعب . وما دام المماليك مسلمين ، يؤمنون بالله ورسوله . ويحرصون على إقامة شعائر الدين وإحياء سنن الأولين ، ويعمرون مساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ، فهم إذا حكموا صالحون ، ولا داعي للتفكير كثيراً في أصلهم وطريقة وصولهم إلى الحكم .

وثمة ملاحظة أخرى ، هي أن جزءاً كبيراً من النشاط الديني في عصر المماليك كان موجهاً لخدمة المذهب السني ومحاربة المذهب الشيعي . ذلك أنه على الرغم من الجهود الكبيرة التي بذلها صلاح الدين الأيوبي ومن خلفه من سلاطين بني أيوب لمحاربة الشيعة والتشيع في مصر ، إلا أن الكثير من آثار المذهب الشيعي ظلت قائمة في عصر المماليك . وقد لجأ سلاطين المماليك إلى استخدام العنف أحياناً لسكرت الشيعة ، حتى أن الناس في ذلك العصر كانوا إذا أرادوا أن يكيدوا لشخص «دسوا عليه من رماه بالتشيع» ، فتصادر أملاكه وتنال عليه العقوبات والإهانات « حتى يظهر التوبة من الرفض » (١) . وفي الوقت نفسه حارب سلاطين المماليك ظاهرة التشيع عن طريق غير مباشر ، فأمر السلطان الظاهر بيبرس ١٢٦٧ (٥٦٦٥هـ) باتباع المذاهب السنية الأربعة « وتحريم ما عداها » ، كما أمر بالأيولي قاضي ولا تقبل شهادة أحد ولا يرشح لإحدى وظائف الخطابة أو الإمامة أو التدريس « ما لم يكن مقلداً لأحد هذه المذاهب » (٢) .

وثمة وسيلة اتخذها سلاطين بني أيوب ، وانبهم فيها سلاطين المماليك ، لمحاربة المذهب الشيعي والحد من انتشاره في البلاد ، هي إنشاء المدارس . وقد سبق أن تكلمنا عن أهمية المدرسة من الناحية العلمية ، ولكن الحقيقة الكبرى التي لا ينبغي أن تغيب عن أذهاننا هي أن صلاح الدين عندما أنشأ أولى المدارس

(١) ابن حجر : الدرر الكامنة ج ٣ ص ٤٦ .

(٢) المقرئ : المواعظ ج ٤ ص ١٦١ .

فى مصر ، إنما استهدف أن تكون المدرسة - قبل أى اعتبار آخر - مركزاً لتدعيم الفقه السنى . وقد راعى هذا المبدأ خلفاء صلاح الدين ، فأقاموا المدارس واشترطوا أن تكون كل منها خاصة بتدريس مذهب أو مذهبين من مذاهب السنة الأربعة ، حتى كانت المدرسة التى أنشأها السلطان المصالح نجم الدين أيوب سنة ١٢٤٢ (٥٦٤٠ هـ) ، وهى أول مدرسة بنيت فى القاهرة على المذاهب الأربعة - الشافعى والمالكي والحنفى والحنبل - واستمرت هذه المدرسة تؤدى رسالتها فى خدمة السنة حتى القرن التاسع الهجرى - الخامس عشر الميلادى - على أيام المؤرخ نقي الدين المقرئى (١) . وهكذا سار المالكي على سنة الأيوبيين فى إنشاء المدارس ، فحرصوا على أن يجهلوا منها أداة لخدمة السنة ومذاهبها . من ذلك ما أورده النويرى من وصف للمدرسة الناصرية التى أقامها السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، إذ يقول أنه كان بها أربعة أواوين كل منها خاص بأحد مدرسى المذاهب الأربعة ، فالمدرس المالكي اختص بالإيوان القبلى والشافعى بالإيوان البحرى والحنفى بالإيوان الشرقى والحنبل بالإيوان الغربى (٢) .

ولم تكن المدارس هى المؤسسات الدينية الوحيدة التى أكتسبت عصر الماليك طابعه الدينى الخاص ؛ بل شهد ذلك العصر إقامة مؤسسات أخرى عديدة مثل المساجد والزوايا وغيرها ، والملاحظ أن كلامنا المدرسة والجامع فى ذلك العصر ، قامت بدور مزدوج فى خدمة الدين والعلم ، ولكن الفارق بين الحالتين هو أن المدرسة - كما يتضح من اسمها - استهدفت أولاً خدمة العلم وجاء نشاطها الدينى ضمناً عن طريق تدريس العلوم الدينية مثلاً ؛ وبالعكس كان الهدف الأول من الجامع أو المسجد خدمة الدين وإحياء شعائره وبعد ذلك جاء استخدام بعض المساجد فى التدريس ليحقق غرضاً آخر ثانوياً ، لأن

(١) المقرئى : المواظ ج ٢ ص ٣٧٤ (بولاق) .

(٢) النويرى : نهاية الأرب ج ٣٠ ورقة ٣٤١ وما بعدها .

العلوم الدينية — من فقه وحديث وتفسير — احتلت مكان الصدارة في دراسات ذلك العصر .

والواقع أن النشاط الدينى فى عصر المماليك تطلب إقامة دمالا يكاد يخصص، من المساجد ، وبخاصة فى مصر والشام . وقد قدر المقرئى عدد المساجد التى تقام بها الجمعة بمصر والقاهرة بمائة وثلاثين مسجداً ، فى حين قدرها خليل ابن شاهين الظاهرى بأكثر من ألف مسجد (١) . وفى عهد السلطان الناصر محمد ، شيد السلطان الناصر وأمرأؤه ثمانية وعشرين مسجداً وكان إذا تم بناء جامع أو مسجد رتب له خطيب وخدم واحتفل بالافتتاحه فى حفل كبير (٢) .

التصوف والزوايا :

وهناك ظاهرة واضحة اتصفت بها الحياة الدينية فى مصر على عصر سلاطين المماليك ، هى انتشار التصوف واتساع نطاقه . ويعمل الباحثون هذه الظاهرة بكثرة من وفد على مصر فى ذلك العصر من مشايخ الصوفية المغاربة والأندلسيين مثل السيد أحمد البدوى وأبى الحسن الشاذلى وأبى العباس المرسى وأبى القاسم القبارى ، وهؤلاء وغيرهم ضاقوا بالحالة التى وصل إليها المسلمون فى المغرب والأندلس فهجروا بلادهم إلى المشرق ، حيث صادف أسلوهم قبولاً كبيراً فى مصر بالدات . والمعروف فى التاريخ أن حركات الغزاة والانقطاع للعبادة تقوى دائماً نتيجة لعدم رضى الناس عن أوضاعهم وتآلمهم لسوء أحوالهم ، فينهجون نهجاً دينياً ويحاولون الابتعاد ما أمكن عن متاع الدنيا وزخرفها هسى أن يتوب الله عليهم ويبدل حالهم (٣) .

(١) المقرئى . الخطوط ج ٤ ص ١٩٠

خليل بن شاهين الظاهرى : زبدة كشف الممالك ص ٣١ .

(٢) سعيد عاشور : المجتمع المصرى ص ١٥٩ وما بعدها .

(٣) سعيد عاشور : المجتمع المصرى ص ١٦٢ .

وكان المسلمون في عصر بالذات في القرن السابع الهجري يشعرون بسوء أحوالهم نظرا للأخطار التي تعرضوا لها من جانب الصليبيين والتتار من ناحية فضلا عن تحكم المماليك فيهم واستئثارهم بخيرات البلاد وامتدادهم بأهلها ، وكثرة الفتن واختلال الأمن ؛ فضلا عن نهضة الجماعات والأوبئة بين حين وآخر . لذلك صادفت دعوة الصوفية استجابة قوية من المصريين ، فازدادت أعدادهم في سرعة وأطلقوا على أنفسهم اسم الفقراء ، إيماناً في لصق صفة الزهد بهم .

وانقسم الصوفية إلى فرق عديدة ، لكل منها شيخها وشعارها ، فالطائفة الإلهية مثلا نسبت إلى شيخها أحمد البدوي وشعارها اللون الأحمر ، والرفاعية نسبت إلى أبي العباس أحمد المعروف بابن الرفاعي وشعارها اللون الأسود وهكذا وأفادت كل طائفة شيخا لها ، وعند موت شيخ الطائفة يخلفه خليفة يخلع عليه السلطان في القلعة ثم يغادرها في حفل كبير وقد أحاط به أتباعه^(١) . فإذا ارتبط أحد الفقراء بشيخ من مشايخ الصوفية وأصبح من مريديه ، ألبسه الشيخ خرقة التصوف ، والتزم المريد بطاعة شيخه طاعة عمياء^(٢) ، وبالغ بعض شيوخ الصوفية في عصر المماليك ، فاشتراطوا في العهد الذي يأخذونه على مريدتهم ، ألا يبق للمريد تصرف في ماله ولا زوجته ولا نفسه .

ومن المعروف أن حياة الصوفية قامت على أساس التقشف في الملابس والمأكل حتى بالغ بعضهم في ذلك فلبسوا المرقع من الثياب وصبروا على الجوع والعطش بضعة أيام . ولكن بعض الصوفية بالغوا في التطرف ، فنشأت عن ذلك طائفة المجاذيب أو الدراويش . وقد اشتهر هؤلاء الدراويش في عصر المماليك بأفعالهم الغريبة التي زعموا أنها من الدين ، فخلق بعضهم رأسه ولحيته وحاجبيه ، وأزال

(١) ابن أبياس : بدائع الزهور ج ٣ ص ٧٨

(٢) الشعراني : لوائح الأوار ٣ ص ٢٤٢ .

رموش عينيه ، حتى بدوا في صورة مخيفة أثارت دهشة من رؤهم من الرحالة المعاصرين^(١) .

وقد استتبع انتشار التصوف وكثرة الصوفية في عصر المماليك انتشار البيوت الخاصة بالصوفية ، وهي التي أطلق عليها خانات ووراث وروايا . ذلك أن سلاطين المماليك وأمرأهم عنوا عناية فائقة بإنشاء بيوت الصوفية فشيّدوا الكثير منها ، وحبسوا عليها الأوقاف السخية . وكان الأفقر والاحوج يقدم للنزول بالخانقاه ، وبعد ذلك يأتي الفقراء المخترين ، كما كان يفضل الأعزب على المتزوج .

وجرت العادة أن يعين لكل خانقاه شيخ أو أكثر وعدد من الصوفية ، واشترط في شيخ الخانقاه أن يكون من جماعة الصوفية من عرف بصحبة المشايخ ، وألا يكون قد اتخذ من التصوف حرفة^(٢) ، وقد كرات كل خانقاه وحدة قائمة بنفسها ، بداخلها عدد معين من الخلوات خصصت كل منها لأحد الصوفية . وكان للصوفية في معيشتهم دخل زواياهم آداب خاصة وقواعد مرعية التزموا بها وأفاض المعاصرون في وصفها^(٣) . أما الربط الخاصة بالنساء فكان الغرض منها أن تكون كالمدع للنساء والأرامل ، أي ملاجئ لهن . غير أن حياة الصوفية لم تلبث أن تغيرت أو آخر عصر المماليك فتغير وضعهم من الصلاح إلى الفساد ، وتخلوا عن النظم والآداب التي عرفوا بها بين الناس بما أثار استنكار المعاصرين^(٤) .

(١) سعيد ماحور : المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك ص ١٩٩ .

(٢) حجة وقف بيبس الجاشنكير (المحسنة المرعية) .

(٣) المفريزي : المواعظ ج ٤ ص ٢٧٤ ، رحلة ابن بطوطة ج ١ ص ٧٣ .

(٤) سعيد ماحور : المجتمع المصري ص ١٧٤ - ١٧٥ ،

(٢٣ - العصر المماليكي)

الظروف العباسية :

وثمة عمل خطير تم في عصر المماليك وترتبت عليه نتائج هامة بالفسبة لتاريخ مصر والعالم الإسلامي ، هو إحياء الخلافة العباسية بمصر . ذلك أن العالم الإسلامي أخذ يحس إفراغ كبير بعد سقوط الخلافة العباسية في بغداد على أيدي المغول سنة ١٢٥٨ ، إذ أمسى المسلمون بدون خليفة ، وهو أمر لم يعتادوه منذ وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام .

وكان من المتعذر أو المستحيل بعد مقتل الخليفة المستنصر العباسي أن يخلفه أحد أبناء بيته في بغداد ، إذ غدت حاضرة العباسيين قاعدة للمغول الوثنيين الذين لم يكتفوا بقتال خليفة المسلمين وإنما أحرقوا جوامعهم وهدموا مساجدهم . لذلك أراد بعض حكام المسلمين في البلدان المجاورة أن يفتحوا الفرصة لإحياء الخلافة في بلادهم ، مما يعود على من ينجم في ذلك بالمحكمة السامية بوصفه حامى الخلافة العباسية المتمتع بمعظها ، ويعتبرها (١) .

من ذلك ما يقال من أن الناصر يوسف الأيوبي - صاحب حلب ودمشق عند قيام دولة المماليك - فكرة عقب سقوط الخلافة العباسية في بغداد في استمالة أحد أبناء البيت العباسي الفارين من وجه التتار إلى مقر إمارته ببلاد الشام ليعينه خليفة ، ويحظى من ذلك بعض المكاسب السياسية التي تمكنه من الصمود في وجه المماليك بمصر . ولكن سرعة تطور الأحداث إلى صحت قيام دولة المماليك لم تمكن الناصر يوسف من تحقيق غرضه . كذلك فذكر السلطان المظفر قطز في إحياء الخلافة العباسية ، ومن ذلك ما يذكره السيوطي من أن قطز علم وهو بدمشق - عقب انتصاره على المغول في عين جالوت - بوصول أحد أمراء بني العباس . فأمر بإرساله إلى مصر حتى يتخذ العدة لإعادته إلى

(١) سعيد عبد الفتاح هاشور : الظاهر بغير من ص ٤٧ .

بغداد (١). غير أن العمر لم يعمل فطر لينفذ مشروعه الخاص بإحياء الخلافة العباسية في بغداد .

وقد شاءت الظروف أن يكون السلطان الظاهر بيبرس هو صاحب فكرة إحياء الخلافة العباسية في مصر بالذات . ومما يقال من أن بعض الحكام المسلمين في بلاد الشام ومصر قد فكروا في إحياء الخلافة العباسية قبل بيبرس ، فإن هذه المشروعات لم تتحقق ، فضلا عن أن أحدها لم يتجه نحو التفكير في إحياء الخلافة العباسية في القاهرة بالذات ، مما ضمن للظاهر بيبرس في التاريخ فخر تنفيذ الفكرة عمليا من ناحية ، وفخر ربط الخلافة العباسية في ذلك الدور الجديد من أدوار تاريخها بمصر والقاهرة من ناحية أخرى (٢).

ذلك أن الأمير علاء الدين البندقدار نائب السلطان الظاهر في دمشق كتب إليه يخبره بأن أحد بنى العباس - وهو الأمير أبو القاسم أحمد ابن الخليفة الظاهر أبو ناصر محمد بن الناصر لدين الله أحمد بن المستضيء لدين الله العباسي - وصل إلى دمشق ومعه جماعة من عرب بنى مهنا يشهدون على صحة نسبه ، وأنه يريد أن يلحق بالسلطان الظاهر بيبرس بالقاهرة . وكان أن وجد بيبرس فرصته في مجيء ذلك الأمير ، فرد على الأمير البندقدار يأمره بالقيام في خدمته وتعظيم حرمة ، كما أمره أن يرسل معه حجاجا إلى مصر . وهكذا غادر الأمير العباسي دمشق وفسار بأوفر حرمة إلى جهة مصر ، وفي القاهرة استقبل الأمير أحمد استقبالا حافلا ، فخرج السلطان إلى لقائه ومعه الوزير وقاضى القضاة وجمهور كبير من أعيان القاهرة وأهلها ، كما خرجت اليهود بالتوراة والنصارى بالإنجيل ، لاستقباله . وكان يوم دخوله القاهرة من الأيام

(١) السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ٣١٨ .

(٢) سعيد عاشور : الظاهر بيبرس ص ٤٨ .

المشهودة ، إذ سار في شوارع القاهرة وقد لبس الشعار العباسي ، حتى صعد قلعة الجبل وهو راكب ، فأنزله السلطان في مكان جليل قد هيء له بها ، وبالع في إكرامه وإقامة ناموسه ،^(١) .

ولم يمض على وصول الأمير أحمد العباسي ثلاثة أيام حتى عقد السلطان بيبرس مجلساً بقاءة الأعمدة في القلعة لمبايعة الأمير العباسي بالخلافة . وقد حضر ذلك المجلس جمع حافل من القضاة ونواب الحكيم والعلماء والفقهاء وأكابر المشايخ وأعيان الصوفية والتجار ووجوه الناس ، في حين جلس السلطان متأدباً ، إلى جانب الأمير أحمد ، فلم يستخدم كرسيًا أو مرتبة أو مسنداً ولما اكتمل الجمع شهد العربان وخدام من البغادة بصحة نسب الأمير أحمد العباسي ، وأقر هذه الشهادة أيضاً بعض القضاة والفقهاء ، قبل قاضي القضاة تاج الدين تلك الشهادات وسجلها ، ثم بايعه بالخلافة .

ولم يكن قاضي القضاة يفعل ذلك حتى تقدم السلطان بيبرس وبايعه أيضاً . على كتاب الله وسنة رسوله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد في سبيل الله وأخذ أموال الله بحقها وصرفها في مستحقها^(٢) . وبعد السلطان بايع جميع الناس على اختلاف طبقاتهم الخليفة الجديد ، كما كتب بيبرس إلى سائر الملوك والنواب خارج مصر لكي يأخذوا البيعة للخليفة العباسي الجديد الذي لقب بـ «المستنصر بالله» ، وأمرهم بأن يدعى له على المنابر ، ثم يدعى للسلطان بعده وأن تنقش السكة باسمهما . أما الخليفة العباسي الجديد ، فقد قام بدووه بتقليد السلطان الظاهر بيبرس البلاد الإسلامية . ومعنى ذلك أن

(١) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٤٤٨ — ٤٤٩ .

(٢) النويرى : نهاية الأرب ، ج ٢٨ ص ١٨ — ١٩ (مخطوط) .

المقرئى : السلوك ج ١ ص ٤٥٠ .

سلاطين المماليك أصبحوا في نظر المعاصرين منذ ذلك الوقت أصحاب حق شرعى في الحكم بعد أن غدوا متمتعين ببيعة الخلافة العباسية .

وقد تم ذلك كله يوم الاثنين ثالث عشر جمادى الأولى سنة ٦٥٩ هـ (١٢٦١ م) . وفي يوم الجمعة التالى مباشرة صلى الخليفة بالناس في جامع القلعة ودعا في الخطبة الملك الظاهر بيبرس ، فسر الظاهر بذلك « وثر عليه جملا مستكشرة من الذهب والفضة » (١) . وهكذا قضى الخليفة المستنصر باقاه أيامه في هناء بين ربوع القاهرة ، فتارة يصحبه السلطان للزينة في النيل ومشاهدة السفن الحربية وهى تقوم بمناوراتها وألعابها على صفحة الماء ، وطورا يخرج مع السلطان إلى بعض البساتين خارج القاهرة . ثم إن الظاهر بيبرس لم يقنع بكل ذلك وإنما أراد أن يجمع جميع أمراء المملكة ويقرأ عليهم تقليد الخليفة الملك الظاهر في اجتماع هام وكان أن عقد ذلك الاجتماع في المطرية ، وسمع جميع الأمراء تقليد الخليفة للسلطان « الديار المصرية والبلاد الشامية والديار بكرية والحجازية واليمنية والفرائية وما يتجدد من الفتوحات غورا ونجدا » .

ولما فرغ القاضى فخر الدين بن لقمان « صاحب ديوان الإنشاء » من قراءة ذلك التقليد ، أحضر السلطان مظاهر خلعة السلطنة وهى حبة بنفسجية اللون وحمامة سوداء وطوق من ذهب وسيف ، فلبسها بيبرس وأنجه في مركب كبير نحو القاهرة ، فدخلها من باب النصر وشق القاهرة إلى القلعة وسط الزينات والأفراح ووضع الخلق بالدعاء بخلود أيامه وأعراس نصره (٢) . على أن هذه المظاهرة الضخمة التى صحبت لإحياء الخلافة العباسية في القاهرة ،

(١) المرجع السابق ص ٢

ابن لياس : بدائم الزهور ج ١ ص ١٠١ .

(٢) المغريزي : السلوك ، ج ١ ص ٤٥٧ .

لم تحمل دون تشكك بعض المؤرخين في صحة نسب الخليفة المستنصر بالله . من ذلك أن المؤرخ أبا الفدا يقول في حوادث سنة ٦٥٩ هـ « قدم إلى مصر جماعة من العرب ومعهم شخص أسود اسمه أحمد زعموا أن ابن الإمام الظاهر بالله . » كما يقول أبو الفدا في موضع آخر : « وبرز الملك الظاهر والخليفة الأسود . » أما مفضل بن أبي الفضائل فيسمى هذا الخليفة « المستنصر بالله الأسود » (١) .

وهكذا غدت القاهرة المركز الجديد للخلافة العباسية ، وظل الخلفاء العباسيون يتعاقبون واحداً بعد آخر في مصر حتى الفتح العثماني لهذه البلاد سنة ١٥١٧ . وجدير بالذكر أن السلطان الظاهر بيبرس وضع قواعد السياسة التي اتبعها سلاطين المماليك بمصر تجاه الخلافة العباسية ؛ إذ لم يلبث الخليفة العباسي أن أصبح شبه معجور عليه في القاهرة . فلا يتصل به أحد من المسؤولين في الدولة دون إذن السلطان . وبعبارة أخرى فإن الوضع الذي استقر عليه حال الخلفاء العباسيين في مصر ، صار أن يفوض الخليفة الأمور العامة إلى السلطان ويكتب له عنه عهداً بالسلطنة ، ويدعى له قبل السلطان على المنابر ، وفيما هذا ذلك يستبد السلطان بكافة شئون الدولة ، في حين يقنع الخلفاء بالتردد على أبواب السلاطين والأمراء لتهنئتهم بالشهور والأعياد (٢) . وقد هجر المقريني عن ذلك الوضع ، فقال عن الخليفة العباسي في القاهرة إن خلافته « ليس فيها أمر ولا نهي وحسبه أن يقال له أمير المؤمنين » (٣) .

على أنه يجدر بالذكر أن الخلفاء العباسيين حاولوا في عصر دولة المماليك الجراكة الخروج عن عزلتهم والمشاركة في الأحداث السياسية المحيطة بهم

(١) أبو الفدا : المختصر ج ٣ ص ٢١٣

مفضل بن أبي الفضائل : النج السديد ص ١٠٥ .

(٢) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٣ ص ٢٧٥ .

(٣) المقريني : المواعظ ج ٣ ص ٣٩٤ .

وربما كان للضغط الذى اقيه الخلفاء العباسيون منذ احياء الخلافة العباسية فى القاهرة على أيام بيمرس ، أثر فى تحريك الخلفاء فى الدولة الثانية للتنفيس عن أنفسهم عن طريق الاشتراك فى الثورات التى طفق بها عصر المماليك الجراكسة^(١) وكان أن تحققت. مطامع الخلفاء العباسيين فى ذلك العصر عندما ول الخليفة المستعين السلطنة سنة ١٤١٢ م (٨١٥ هـ) ؛ وهى حالة فريدة من نوعها فى عصر المماليك . ولكن تعيين الخليفة المستعين سلطانا لم يكن لإسداء للثغرة ، حتى ينجلى الموقف بين الأميرين المتنافسين حول السلطنة وهما نوروز وشيخ . وعندما انجلى الموقف استطاع الأمير شيخ أن يعزل المستعين من دست السلطنة بنفس السهولة التى وضعه بها فيه .

(١) إبراهيم طوخان : مصر فى عصر دولة المماليك الجراكسة ص ٥٣ .

الفصل الثاني عشر

نظام الحكم والقضاء

النظام الإقطاعي:

كانت دولة المماليك دولة إقطاعية بكل معاني الكلمة ؛ فقسمت أراضي مصر إلى أربعة وعشرين قيراطا ، اختص السلطان منها بأربعة قراريط للكلف والرواتب ، واختص الأمراء بعشرة ، والعشرة الباقية كانت من نصيب الأمراء . وكان من الطبيعي أن يستأثر السلطان وكبار الأمراء بأجود الأراضي وأكثرها خصوبة ، في حين أخذ المماليك السلطانية الأراضي الأقل خصوبة ؛ أما أراضي الدرجة الثالثة فكانت من نصيب أجناد الحلقة والعربان والزركان (١) .

وكان الإقطاع أمراً شخصياً بحيث لا دخل لحقوق الملكية أو لأحكام الوراثة فيه بمعنى أنه كان مفروضاً في المقطع أن يحل محل السلطان في أن يتمتع بغلات الإقطاع وإيراده ونصيب ، فإذا مات المقطع أو أخل بشروط الإقطاع ، جاز للسلطان أن يمتولى على إقطاعه فوراً (٢) . أما المناسبات التي تجرى فيها عملية توزيع الإقطاعات فكانت عديدة ، أهمها قيام سلطان جديد في الحكم ، فيجرى حركة لإعادة توزيع الإقطاعات - بين منح وزيادة وإنقاص - لمكافأة الأنصار ومعاقبة الخصوم . كذلك اعتاد سلاطين المماليك أن يوزعوا الإقطاعات عند عرض الجنود ، فيستعرض السلطان الجنود أكثر من مرة خلال سلطنته ليستوثق من القادرين على الخدمة العسكرية ،

(١) الفلشندي : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٥٨ .

(٢) القرينى : السلوك ج ١ ص ٥٠٩ حاشية ٣ للدكتور زيادة .

ويستبعد غير القادرين ويوفر لإقطاعاتهم ليوزعها على الأكفأ القادرين . فإذا توافرت للدولة أراضى جديدة عن طريق الفتح أو استصلاح الأرض البور أوشق قناة أو ترعة ؛ قام السلطان بتوزيع هذه الأراضى على هيئة إقطاعات (١) . على أنه حدث أكثر من مرة في عصر المماليك أن مسحت أراضى مصر مسحا شاملا قياسا وحصرها في سجلات ، وتقدير قيمتها وخصوبتها . وتشبه هذه العملية في الوقت الحاضر فك الزمام ، وكان يستتبعها في عصر المماليك لإعادة توزيع الإقطاعات . وقد سميت تلك العملية في عصر المماليك (الروك) ، وأشهرها الروك الحسامى نسبة إلى السلطان حسام الدين لاجين ، والروك الناصرى نسبة إلى السلطان الناصر محمد بن قلاوون أما الروك الحسامى فقد فقدتم سنة ١٢٩٧ م (٩٦٧ هـ) واستغرق لإجراؤه مجهود ثمانية وخمسين يوما ولكن الأمراء والجنود لم يرضوا عن التغيير الجديد الذى تعرضت له لإقطاعاتهم نتيجة لروك الحسامى ، «وبان في وجوههم التغيير لقلعة العبرة» (٢) . وهكذا ظل الأمراء والجنود في حالة قلق حتى أجرى السلطان الناصر محمد الروك الناصرى سنة ١٣١٥ م (٧١٥ هـ) ، فاستغرق لإجراؤه خمسة وسبعين يوما ، وترتب عليه زيادة أنصبة الأمراء والأجناد ، فصارت أربعة عشر قيراطاً بعد أن كانت أحد عشر في الروك الحسامى (٣) .

وفي جميع الحالات السابقة كان السلطان هو الذى يتولى بنفسه غالباً توزيع الإقطاعات ، فإذا تقدم إليه المملوك سأله عن اسمه وأصله وتاريخ قدومه إلى الديار المصرية وأستاذة الذى اشتراه من تاجره ، وعن حياته التعليمية من الكتاب في الطباق إلى ميدان الفروسية (٤) . فإذا وقع اختياره عليه

(١) إبراهيم طوخان : مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة ص ٢١٨-٢١٩ .

(٢) المرزى : السلوك ج ١ ص ٨٤٥ .

(٣) العيني : مقاد الجان ج ٢٣ ق ١ ص ٥٤ .

المرزى : المواظ ج ١ ص ٨٨ .

(٤) أبو الحسن : النجوم ج ٩ ص ٥١ - ٥٢ .

ليمنحه إقطاعاً أمر ناظر الجيش بأن يكتب له ورقة مختصرة تسمى « المثال » مضمونها حين فلان كذا ، ويكتب اسم المقطع ثم يناولها للسلطان . وبعد أن يرفع عليها السلطان يعطيها الحاجب لمن رسم له ، فيقبل الأرض ثم يعاد المثال إلى ديوان الجيش فيحفظ فيه . وقد احتص السلطان بإصدار مناشير الأمراء وأجداد الحلقة ، أما أجناد الأمراء فصدرت مناشيرهم عن أسرائهم . كذلك روى أن يعين في منشور الأمير ثلث الإقطاع للأمير نفسه ولاجناده الثلثان (١)

أما الأمراء والمماليك المسنون الدين لايقوون على تحمل تبعات الإقطاع ، فاعتاد سلاطين المماليك أن يمنحهم بدل الإقطاع رواتب نقدية تخصص لها جهات معينة يتناول المقطع نصيبه منها . ويذكر المقرئى أنه جاء وقت أصبحت فيه معظم الضرائب والمسكوس المفروضة في مصر « عليها إقطاعات الأمراء والأجناد » . فلما رآك الناصر محمد البلاد ، أبطل هذا النوع من الرواتب التي تحمل صفة الإقطاع ، وصارت الإقطاعات كلها أراضى وبلاداً (٢) . كذلك أصبح من القواعد المستقرة منذ الروك الناصرى ألا يكون الإقطاع وحدة متماسكة من الأرض ، بل يوزع إقطاع الفرد الواحد بين عدة جهات مختلفة . وهكذا أصبح زمام القرية الواحدة مقسماً بين عدة مقطعين ، لكل منهم أتباعه الذين يدفعون المستحق عليهم لسيدهم مباشرة أو لمنذوبه المسعى « القاصد » . وفي جميع هذه الأحوال لم يمتد المقطع حدوده المرسومة له ، ولم يأخذ من إقطاعه إلا ما جرت به العادة ، فإذا ظلم أحد حاز المظلوم أن يرفع أمره إلى الديوان السلطانى أو إلى السلطان في دار العدل (٣) .

(١) المقرئى : المواظ ج ٣ ص ٣٥٠ - ٣٥٣ .

(٢) أبو المحاسن : النجوم ج ٩ ص ٥٢ .

المقرئى : المواظ ج ٣ ص ٣٥٣ .

(٣) سعيد ماهر : المجتمع المصرى ص ٢٠ - ٢١ .

على أن النظام الإقطاعي لم يظل على حاله من الثبات والإحكام طوال عصر المماليك ، إذا لم يلبث أن تطرق إليه الفساد والخلل - مما يعتبر مظهراً أو سبباً - للفساد العام الذي اعتري الدولة وأجهزتها في أواخر عصر المماليك . وكان أبرز مظاهر ذلك الخلل تصرف الأمراء والأجناد في إقطاعاتهم عن طريق البيع والتنازل والمقايضة . فمن أراد النزول عن إقطاعه حمل ما لا إلى بيت المال بحسب ما يقرر عليه ، الأمر الذي أدى إلى دخول كثير من الكتّاب وأرباب الوظائف الدينية وأرباب الصنائع والحرف ضمن أجناد الجيش . ولما كان الجيش في عصر المماليك يعتمد في نظامه على الإقطاع ، فقد أدى فساد النظام الإقطاعية إلى ضعف الجيش وانحيار دعائمه (١) .

السلطان :

وكان سلطان المماليك على رأس الهرم الإقطاعي ، وهو في الوقت نفسه رئيس الجهاز الحكومي في البلاد وصاحب أعلى سلطة فيها . وقد تلقب سلاطين المماليك بألقاب عديدة منها « سلطان الإسلام والمسلمين » و « قسيم أمير المؤمنين » . ويشير اللقب الأول إلى حرص سلاطين المماليك على التمسك بالإسلام ومحاولة إضفاء صفة شرعية على حكمهم ، في حين يلقى اللقب الثاني ضوئاً على العلاقة الصورية بين سلطان المماليك والخليفة العباسي في القاهرة ، بوصفهما شريكان في حكم المسلمين ، أحدهما يمثل الجانب السياسي والحربي ، والآخر يمثل الجانب الديني . على أنه لا ينبغي أن يفهم من ذلك أن جميع سلاطين المماليك اشتركوا في ألقاب واحدة ، وإنما اختلفت الألقاب التي اتخذها كل سلطان عن الآخرين ؛ فهذا السلطان الأعظم العالم العادل ، وذاك « السيد الأجل الكبير » وهكذا .

(١) السيد الباز العري : الإقطاع الحربي بمصر ص ٢٢ .

والمعروف أن السلطان في عصر المماليك كان أميراً من الأمراء وزعيماً
ممكنه قوته وشخصيته وكثرة مماليكه من التفوق على أقرانه والوصول إلى
منصب السلطنة ، فإذا وصل أمير إلى السلطنة أصبح صاحب الحق في الهيمنة
على بقية الأمراء ومماليكهم بوصفه زعيمهم ورأس دولتهم ، فيرفع من يختار
من المماليك إلى مرتبة الإمارة ويمنح الإقطاعات حسب ترتيب معين ،
ويباشر سلطاته الواسعة في توزيع المناصب وتعيين كبار الموظفين (١) .

ولكن ليس معنى هذه السلطة المطلقة التي تمتع بها سلطان المماليك أنه
استغنى عن رأى كبار الأمراء ورجال الدولة ، إذ الواقع أن سلاطين المماليك
استشاروهم قبل الإقدام على أية خطوة خطيرة ، وكانت هذه الاستشارة تتم
في مشور - أى مجلس المشورة - الذي تألف برياسة السلطان وعضوية أنابك
العسكر والخليفة العباسي والوزير وقضاة المذاهب الأربعة وأمراء المؤمنين
وعدد من أربعة وعشرون أميراً . فإذا كان للسلطان قاصراً تولى رئاسة هذا
المجلس الوصى عليه أو نائب السلطنة ، وجرت العادة أن السلطان لا يتكلم
بنفسه في هذا المجلس خوفاً من أن ينقض الأمراء رأيه فينقص ذلك من هيئته
وجلال مركزه ، ولذلك قام المشير بالكلام عن السلطان ، وقد تعددت
اختصاصات مجلس المشورة في عصر المماليك ، فنظر في شئون الحرب
والصلح ، وناقش شغل مناصب النيابات والوظائف الكبرى في الدولة .
على أن السلطان لم يكن ملزماً بدعوة مجلس المشورة أو الأخذ برأيه ،
أى أن السلطان كان صاحب الرأى الأخير في جميع الأمور بوصفه حاكماً
مطلقاً (٢) .

(١) سعيد عاشور : مصر في عصر دولة المماليك البحرية ص ١٣٨ .

(٢) خليل بن شاهين : زبدة كشف الممالك ص ١٠٦ .

الغافندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ١٦ - ١٧ .

وكان السلطان يقيم ومعه أسرته وحاشيته ورجال بلاطه في قلعة الجبل والواقع إن هذه القلعة في عصر المماليك لم تكن مركز الحكم ودار السلطان لحسب ، بل كانت بمثابة مدينة صغيرة تضم طباق المماليك السلطانية ، ودور الخواص الأمراء ونسائهم وأولادهم وماليكهم ودواوينهم ، فضلا عن دار الوزارة التي اشتملت على قاعة الإنشاء وديوان الجيش وبيت المال وخزانة الخصاص (١) . وكانت قلعة الجبل موضع عناية سلاطين المماليك دائماً فأقاموا فيها العمارات الكثيرة والقصور والمساجد العديدة ، مما جعلها مشار دة شهرة الرسل والسفراء الأجانب .

وأشرف على أعمال الصيانة العامة بالقلعة ديوان الدولة الشريفة الذي تولى ناظره الإنفاق على قصور السلاطين من عمارات وأسبلة وصداقات وكل ما تحتاج إليه البيوت السلطانية . أما هذه البيوت فكانت عديدة لكل منها مباشر من أمراء المشين له مساعدون وغللمان عديدون (٢) . ومن هذه البيوت الشرا بخاناه - أي بيت الشراب - ويحوى مختلف أنواع الأشربة والأدوية التي يحتاج إليها السلطان ؛ والطبقت خاناه وفيه أنواع الآواني والطشوت والآباريق اللازمة لغسل الأيدي والوضوء والاستحمام ، والفراش خاناه وفيه أنواع الفرش والبسط والحياض والتخوت والوسائد وغيرها ، والسلاح خاناه وبه جميع أنواع الأسلحة من سيوف وقسي ورماح ودروع ونشاب ، والركاب خاناه وبه آلات الخيل من سروج وغيرها ، والطب خاناه وبه الطبول والآبواق وتوابعها ، والخوانج خاناه ويختص بالأسبلة السلطانية كما يشرف على المطبخ السلطاني (٣) .

(١) المقرئى : المواظ ج ٣ ص ٣٣٣ .

(٢) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ١٠ .

(٣) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ٩ - ١٣ .

المقرئى : نهاية الأربع ج ٨ ص ٢٢٢ - ٢٢٦ .

النظام الإدارى :

بلغت النظم الإدارية فى دولة المماليك درجة كبيرة من الدقة والاحكام فوجدت إدارة مركزية مقرها القاهرة وعمادها مجموعة من الدواوين وكبار الموظفين ؛ ووجدت إدارة محلية تشرف على الأقاليم وعلى رأسها مجموعة من النواب والولاة وعلى رأس هذا الجهاز الضخم وجد سلطان المماليك يوجه أمور البلاد والعباد ، ويتلقى الأخبار ويرسل تعليماته عن طريق شبكة محكمة من خطوط البريد .

وأول الموظفين الكبار الذين ساعدوا السلطان فى شئون الحكم والإدارة هو نائب السلطنة ، ويتضح من اسم هذه الوظيفة أن صاحبها كان بمثابة الوكيل عن السلطان وساعده الأيمن فى تصريف شئون الدولة ، بل كان « السلطان الثانى » على قول القلقشندى^(١) ذلك أنه اشترك مع السلطان فى إصدار القرارات ومنح ألقاب الإمارة وتوزيع الإقطاعات ، فضلا عن تعيين كبار الموظفين لذلك تلقب نائب السلطنة بلقب « كاهل الممالك الشريفة الإسلامية الأميرى »^(٢) ، لأنه تكفل بكثير من أمور الدولة . وكانت نيابة السلطنة على نوعين فى عصر المماليك ، فهناك النائب الكافل أو نائب الحضرة ، وهو الذى ينوب عن السلطان أثناء وجوده وإقامته فى مصر ، وهناك نائب الغيبة وهو أقل درجة وينوب عن السلطان أثناء غيبته فقط ، فى حرب أو حج أو غير ذلك .

أما نواب السلطنة فى نيايات الشام — وهى دمشق وحلب وطرابلس وحماه وصفد والكرك — فتأب كل منهم عن السلطان فى وحدته الإدارية ،

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ١٩ — ١٧ .

(٢) العمرى : التصريف بالمصطلح الشريف ص ٦٥ — ٩٩ .

واعتبر مثالا له في إدارتها . وكان على نواب الشام أن يرجعوا إلى السلطان - أو نائبه في مصر - في المسائل التي لا يستطيعون الانفراد بالبت فيها ، ولما كان هؤلاء النواب مسئولين عن الدفاع عن إماراتهم ضد الأخطار الخارجية والداخلية ، حرص السلاطين على اختيارهم دائما من كبار الأمراء أرباب السيوف المعروفين بشجاعتهم الحربية ومهارتهم الإدارية (١) .

وبعد نائب السلطنة يأتي الأتابك ، وهو القائد العام للجيش المماليكي ، وكان لقب أتابك يطلق عنده السلاجقة على المؤدب أو المربي أو الوصي ، ثم أصبح من ألقاب التشريف التي تطلق على كبار الأمراء ، حتى غدا في عصر المماليك لا يطلق إلا على قائد العسكر ، ومن الواضح أن صاحب هذه الوظيفة تتمتع بنفوذ كبير وكلمة عالية في الدولة ، بوصفه رأس الجيش وصاحب القوة الضاربة بين كبار الأمراء (٢) . ولا أدل على نفوذ الأتابك وقوتهم من أن كثيرا منهم وصلوا إلى دست السلطنة إما عن طريق الاغتصاب أو بفضل قوتهم . أما إذا ولي الحكيم سلطان قاصر . فإنه كان يصبح العوبة في يد أتابك الجيش يتحكم فيه كيفما شاء ، كما فعل الأمير زين الدين كتبغا المنصوري عندما استبد بالسلطان الفاضل محمد في سلطنته الأولى ، حتى انتهى الأمر بالأتابك إلى إعلان نفسه سلطانا سنة ١٢٩٤م (٣) .

أما الوزير فكان هو الآخر يلي نائب السلطنة في المرتبة ، ومن الواضح أن نفوذ الوزير في دولة المماليك ضاؤل عما كان عليه زمن العباسيين بالعراق

(١) الخالدي : كتاب المقصد الرفيع ص ٩٠ — ٩٣ (مخطوط) .

القلقيشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٧٢ وما بعدها .

Wiet : L'Egypte Arabe pp . 366—398 .

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ١٨ .

(٣) علي إبراهيم حسن : دراسات في تاريخ المماليك البحرية ص ٢٢٣ — ٢٢٤ .

أو الفاطميين بمصر . ذلك أن نائب السلطنة في دولة المماليك أصبح الرجل الثاني في الدولة وبذلك لم يترك للوزير شيئاً من ذلك النفوذ الواسع الذي تمتع به في العهود السابقة . ويعبر ابن خلدون عن انحطاط وظيفة الوزير في عصر المماليك ، فيقول إنها غدت « مرموسة ناقصة »^(١) ، بحيث لم يتعد نفوذ الوزير عندئذ تنفيذ تعليمات السلطان ونائبه ، والإشراف على شئون الدولة المالية بالاشتراك مع ناظر الدولة ، وفي بعض الأحيان عين سلطان المماليك وزيرين في وقت واحد أحدهما من أرباب الأقاليم أو المعتمدين وأطلق عليه وزير الصحة ، والثاني من أرباب السيوف أو الأمراء وأطلق عليه الوزير فقط^(٢) . ولا أدل على تناقص أهمية الوزارة في عصر المماليك ، من أن هذه الوظيفة كانت تلغى في بعض الأحيان ، أو تظل شاغرة دون أن يحدث خلل في الجهاز الإداري للدولة ، بل لقد حدث أن ألغيت وظيفة الوزارة سنة ٧٢٧ هـ (١٣٢٧ م) ، وظل منصب الوزير شاغراً سبعة عشر سنة إلى أن أعيد سنة ٧٤٤ هـ (١٣٤٣ م) .

وهناك فريق آخر من كبار الموظفين قاموا بدور هام في إدارة جهاز دولة المماليك ، هي فئة الولاة التي كان أفرادها يختارون دائماً من بين الأمراء ليقوموا بوظيفة المحافظ اليوم في الأقسام الإدارية . وكان أكبر هؤلاء الولاة شائناً ، وإلى القاهرة الذي عهد إليه بالإشراف على العاصمة توصيائها ، وحماية أهلها من عبث المفسدين واللصوص ومثيري الفتن فإذا شب حريق في العاصمة ، بادر الوالي على رأس رجاله لإطفائه ، وإذا كثرت مناسر اللصوص تعقبهم الوالي للقضاء عليهم ، وإذا تفتش شرب الخمر أمرع الوالي إلى مناطق عصر الخمر في القاهرة لمعاينة أصحابها ومصادرة خمرهم ، وإذا فشا تعاظم الحشيش كافح

(١) مقدمة ابن خلدون : ص ٢٠٨ .

(٢) الخالدي : المقصد الرابع ص ١٩٦ .

والى مزارع الخدشات بحجة باب الموق وأحرق منتجاتها^(١) . وهكذا تصور لنا المراجع المعاصرة والى القاهرة ورجاله فى صورة حرك دائمة ، فى الهاريطوف منهم الأسواق والدروب لمنع الغش ومكافئته ، وفى الليل يتصيد السكارى والصوص والعابثين للنقض عليهم ومحاكمهم . هذا كله فضلا عن مراقبة أبواب القاهرة والإشراف على إغلاقها ليلا حتى لا يتسرب إلى المدينة عدو أو مفسد . ونظراً لأهمية وظيفة والى وخطورة مسؤولياته ، فإنه كان لا يستطيع النوم خارج المدينة إلا بمسوم خوفاً من حريق أو منسر أو كسر حاصل أو فتح وغير ذلك^(٢) . وقد ساعد والى القاهرة ولاية آخرون ، أهمهم والى النمسطاط ويشرف على مصر (النمسطاط والمسكر والقطائع) ؛ ثم والى القرافة والإشراف على شئون القرافة ومنع المساخر فيها ، وأخيراً والى القلعة أو نائبها للإشراف على فتح أبوابها فى الصباح وإغلاقها فى المساء^(٣) .

وثمة مدينة واحدة فى البلاد المصرية عين لها نائب وصارت نيابة مثل النيابات الشامية ؛ هى مدينة الإسكندرية التى ازدادت أهميتها منذ سنة ١٣٦٥ وأصبحت نغم مصر الأول على البحر المتوسط ، فكثر عدد الجاليات الأجنبية بها مما تطلب إعطاءها قسماً خاصاً من العناية الإدارية . لذلك تمتع نائب الإسكندرية بمكانة سامية فناسب ما لا نفر من أهمية فى ذلك العصر ، حتى جاء وقت أصبح يعادل فى مكانته نائب السلطنة فى دولة المماليك . على أن تحويل مدينة الإسكندرية سنة ١٣٦٥ بالذات من ولاية يحكمها والى إلى نيابة يحكمها نائب أمر يدعو إلى الانتباه ؛ وربما كان ازدياد نشاطها التجارى فضلاً عما حدث فى هذه السنة من قيام ملك قبرس بحملته الصليبية الشهيرة على الإسكندرية ،

(١) المرفى ٢ : المواقف ج ٢ ص ١٤٨ .

(٢) الخالدي : المقصد الرفيع ص ١٧٨ .

(٣) سعيد عاشور : مصر فى عصر دولة المماليك البحرية ص ١٤٧ .

أثر في هذا التحول (١).

لما الإدارة الإقليمية في أعمال الوجهين البحرى والقبلى — خارج القاهرة والإسكندرية — فأشرف عليها مجموعة من الولاة . وكان الوجه البحرى مقسما إلى عشرة أعمال هى القليوبية والشرقية والدقهلية (المرتاحية) ودمياط والفرية والمنوفية وأبارو البحيرة وفود والفسراوية، وحكم كل منها والى ماعدا البحيرة فكان يحكمها نائب ، ولعل السبب في زيادة عناية السلاطين بأمر البحيرة، هو تخوفهم من كثرة الأعراب وما يقومون به فيها من فتن وثورات بين حين وآخر . أما أعمال الوجه القبلى فكانت ثمانية ، لكل منها واليا هى الجيزة والفيومية والأشمونية والأخميمية والاطفيحية والهضماوية والاسيوطية والقوصية . وكانت أسوان تابعة لعمل قوص ، ولكنها استقلت وصارت عملاقا بنفسه منذ عهد الناصر محمد (٢) . ويلاحظ أنه لم يوجد نائب لكل من الوجهين البحرى والقبلى إلا في عصر دولة المماليك أنجز أكسة أو الثانية، أما في دولة المماليك البحرية فوجد كشف للوجه البحرى يمتد نفوذه على جميع أقاليم الدلتا . وآخر للوجه القبلى يمتد نفوذه على جميع أقاليم الصعيد . وجرى الاصطلاح بتسمية هذا الكشف والى الولاة ، وتمتع بنفوذ كبير على الأقاليم التابعة له (٣) .

ومما يمكن من أمر ، فإن دولة المماليك شهدت نظاما إداريا بالغ الدقة ، ونهض بذلك النظام مجموعة كبيرة من الموظفين . وقد انقسم الموظفون إلى قسمين كبيرين : أرباب السيوف وأرباب القلم . أما أرباب السيوف فكانوا من طبقة المماليك ، أى أنهم لم يختاروا من المصريين ، فى حين كان أرباب القلم

(١) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٠٤ ج ٤ ص ٢٤ ج ٩ ص ١١ ص ٤٠٥ .

(٢) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٣ ص ٣٩٢ — ٣٩٨ .

(٣) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ٦٤ .

من طائفة المعممين أى من المصريين المشتغلين بالكتابة والعلم . ويبدو أن الموظفين — كبارهم وصغارهم — لم يتمتعوا بقدر كبير من الاستقرار في عصر المماليك ؛ وهذا في الواقع لا يعدو أن يكون جزءاً من الطابع العام الذي انصفت به دولة المماليك . وكثيراً ما كان يتعرض الموظف للعزل أو الحبس أو الإعدام لمجرد ظنون أو أهام ، أو لعدم قدرته على إرضاء أولى الأمر . فإذا أعفى الموظف من عمله فرضت عليه رقابة وربما ألزم بالإقامة في مدينة بعيدة مثل القدس أو قوص أو مكة ، وذلك خشية أن يسبب متاعب للحكام (١) .

الدواوين :

وكان من الطبيعي أن يعتمد هذا الجهاز الإداري الضخم الذي شهدته دولة المماليك على مجموعة من الدواوين الكبيرة لإدارة مرافق الدولة العديدة . أما أهم هذه الدواوين الحكومية في عصر المماليك ، فكانت ديوان الجيش وديوان الإنشاء وديوان الأحباس وديوان النظر وديوان الخاوص .

وقد تمتع ديوان الجيش بأهمية كبرى في دولة المماليك ، وهى الدولة ذات الصبغة الحربية ، والتي اعتمدت في قيامها وبقائها على فكرة الحرب والقتال . والفهم الطبيعية عمل ديوان الجيش يصح أن نشير إلى أن الجيش المماليكى تألف من ثلاثة طوائف أساسية هى المماليك السلطانية وأجناد الحلقة ومماليك الأمراء . أما المماليك السلطانية فهم مماليك السلطان القائم ، ووصفهم التلقيندى بأنهم « أعظم الأجناد شأناً وأرفعهم قدراً وأشدهم قرباً وأوفرهم إقطاعاً ، ومنهم يؤمر الأمراء رتبة بمدرتبة » (٢) . أما أجناد الحلقة فهم مماليك السلاطين والأمراء

(1) Wiet : Les Mosquées du Caire, p. 86 .

(٢) التلقيندى : سيج الأعشى ج ٤ ص ٩٥ .

السابقين وأولادهم ، وهؤلاء احتترفوا الجندية وأصبحوا بمثابة جيش ثابت للدولة . وأخيراً تأتي الطائفة الثالثة التي تشمل ممالك الأمراء ، وهم المماليك الذين اشترام أمراء المماليك - كل حسب سمعته ورتبته وإقطاعه - وتمهدوهم بالتربية والعناية (١) .

وأشرف ديوان الجيش في دولة المماليك على هذه الطوائف الثلاث التي تألف منها الجيش المماليكي ففيه تحفظ الأوراق الخاصة بجميع الجنود والأمراء وبخصوص أجناد الأمراء ، فقد جرت العادة أول الأمر بإدراج أجناد كل أمير في ديوان الجيش ، ثم تغير هذا النظام زمن القلاشندى ، وصار لكل أمير ديوان خاص ويحمل يحرى أسماء أجناده ترسل منه صورة إلى ديوان الجيش . ولا يستطيع الأمير أن يدخل في خدمته ممالك جدد إلا بسبب وفاة أو مقتل أو طرد أحد أجناده من الخدمة (٢) .

ومن أهم اختصاصات ديوان الجيش في دولة المماليك المسائل المتعلقة بالإقطاعات ، ففيه سجل خاص لكل إقطاع يمنحه السلطان ، واسم المقطع ومساحة إقطاعه ونوعه . أما ناظر هذا الديوان - الذي عرف باسم ناظر الجيش - فكانت وظيفته أهم الوظائف في الدولة ، وكان يعاونه بعض كبار الموظفين مثل صاحب ديوان الجيش وينوب عن الناظر في تصريف شؤون الديوان ، ومستوفى الجيش ويقوم بتحديد الرواتب التي تصرف للجنود وتسجيلها في كشوف خاصة بمساعدة مستوفى الإقطاعات ، ومستوفى الرزق وأشرف على صرف مرتبات الأجناد وأرزاقهم العينية . واشترط في هؤلاء الموظفين جميعاً الأمانة العامة والكفاية المطلقة (٣) .

(١) سميح عاشور : مصر في عصر دولة المماليك البحرية ص ١٤٥ .

(٢) السيد البار العريفي : الإقطاع الحربي بمصر زمن سلاطين المماليك ص ٦ .

(٣) الخالدي : المقصد الرفيع ص ١٣٦ .

أما ديوان الإنشاء فوظيفته تبادل المكاتبات الرسمية الخاصة بالدولة، وهي المكاتبات التي ترد إلى السلطان من مختلف الدول وإعداد الردود عليها؛ فضلاً عن إعداد الرسائل التي يبعث بها السلطان إلى مختلف الملوك والأمراء وتلقب صاحب ديوان الإنشاء في عصر المماليك بنظر الإنشاء الشريف، كما أضيفت عليه عدة ألقاب أخرى تشير كلها إلى خطورة مهمته بوصفه الأمين على أسرار الدولة ودخائل السلطان، حتى أن السلاطين كانوا يطلعونه على ما لا يطلعون عليه أولادهم ولا أخص الأخصاء من الأمراء والوزراء وغيرهم^(١)، وروى في اختيار صاحب هذا الديوان أن يكون «فصيح اللفاظ طالق اللسان أصيلاً في قومه وقوراً حليماً...»^(٢).

ولم تلبث أن اتسعت أعمال صاحب ديوان الإنشاء، إذ كان عليه أن يبلغ السلطان عما يصله من الأخبار الداخلية أولاً فأول، ويحضره بمحكم منصبه — الذين التي يؤديها الولاة والحكام والأمراء عند تعيينهم في مناصبهم، ويكتب المراسيم الخاصة بتولي هذه المناصب. ولم تكن هذه المهمة الأخيرة بالسهولة التي قد يتصورها البعض في عصر مثل عصر المماليك الذي عرف برعاية قواعد البروتوكول والتسلك هذه القواعد. فلكل مقام مقال، ولكل موظف أو أمير أو حاكم تقليد خاص وأسلوب خاص يخاطب به حسب درجته ومرتبه. بل إن الرسائل التي صدرت عن ديوان الإنشاء باسم السلطان اختلفت في نوع الورق المدونة عليه وحجم هذا الورق ونوع الخط، وذلك كله باختلاف مكانه الشخصي المرسل إليه، وهو ما أفرد له القلقشندي صفحات كثيرة في كتابه صبح الأعشى. ولما كان من الصعب على فرد واحد أن يقوم بكل هذا العبء الثقيل، وجد لصاحب ديوان الإنشاء أعوان لهم «نائب كاتب السر»، الذي ينوب

(١) المرجع السابق ص ١٢٠.

(٢) القلقشندي: صبح الأعشى ج ١ ص ١٠٤ — ١٠٥.

هن ناظر الديوان في الرد عن المكاتبات الواردة في حالة تغيب الناظر أو تخلفه بحضور مجالس السلطان (١). ويل نائب كاتب السر في المرتبة «كتاب الدست الشريف»، وهم كتاب ديوان الإنشاء الذين أطلق عليهم اسم «الموقعين» لأنهم كانوا يجلسون مع رئيسهم كاتب السر بمجلس السلطان بدار العدل، ويوقعون على الشكاوى والقصص المرفوعة إليه (٢).

وتوزعت أعمال ديوان الإنشاء على كتاب الدست، فكان منهم من يقوم بصياغة الرسائل الموجهة إلى ملوك المسلمين وأمرائهم، واشترط فيه الدارية الخاصة بألقابهم، ومنهم من يقوم بصياغة المكاتبات الموجهة إلى ملوك الفرنجة أو ترجمة الرسائل الموجهة من هؤلاء الملوك إلى السلطان. ويشترط في هذا النوع من المكاتبات دراية باللغات الأجنبية، ومنهم من اشتهر بحسن الخط على أنواعه. وارتبط بكتاب السر في عمله موظف كبير اسمه الدوادار، وهو الذي يقوم بتبليغ الرسائل عن السلطان وإليه ولما كان صاحب هذه الوظيفة يطلع على كل ما يصدر من ديوان الإنشاء وما يرد عليه من مكاتبات، لأنه هو الذي يختتمها بخاتم الدولة ويقيدها في سجلات خاصة (أرشف)، فإن وظيفته كانت من الوظائف الخطيرة في عصر المماليك، وكان اختياره دائماً من كبار الأمراء (٣).

وهناك إدارة تمتعت بقسط كبير من الأهمية في عصر المماليك وكانت تتبع ديوان الإنشاء، هي إدارة البريد التي تولت ربط مختلف أطراف الدولة بعضها ببعض. وكان البريد على نوعين: برى وجوى، فالبريد كان بواسطة الخيل

(١) الخالدي: المقصد الرفيع ص ١٣٤.

(٢) القلقشندي: صبح الأعشى ج ١ ص ١٣٨.

(٣) العمري: التعريف بالمصطلح الشريف ص ٢٥٠.

الخالدي: المقصد الرفيع ص ١٢١.

القلقشندي: صبح الأعشى ج ٥ ص ٤٦٢.

وله عدة طرق تتفرع من قلعة الجبل إلى قوص وعيذاب والإسكندرية ودمياط وغزة وعلى امتداد هذه الطرق جميعا أقيمت محطات متقاربة تزود البريديين وخيولهم بما يحتاجون إليه من طعام وعلف وماء وماوى. ومن الواضح أن مهمة هؤلاء البريديين كانت جسيمة ، إذ صار عليهم توصيل التعليمات من السلطان إلى النواب والأمراء ، وحمل أخبار هؤلاء السلاطين. وربما كانت هذه التعليمات شفوية ، ولذلك روعى في البريدى ، أن يكون بصيرا بمخارج الكلام وأجوبته مؤديا للألفاظ عن الملك بما فيها ، صدوقا بريثا من الطمع ،^(١) أما البريد الجوى فيرجع الفضل الأول في تنظيمه إلى السلطان الظاهر بيبرس ، فاستخدم فيه حمام الزاجل الذى كانت قلعة الجبل المركز الرئيسى لأبراجه وقد روعى في الرسائل التى يحملها الحمام الزاجل أن تكون على نوع خاص من الورق الخفيف وأن تكون مختصرة تحوى ما قل ودل حتى لا تعوق الحمامة عن الطيران السريع . وكانت الرسالة توضح تحت جناح الحمامة أو ذيلها بطريقة خاصة ، فإذا كانت الرسالة هامة كتبت من نسختين وأرسلت مع حمامتين ، حتى إذا ضلت إحدهما الطريق أو قتلت أو افرستها الجوارح ، أمكن الاعتماد على وصول الرسالة الأخرى ومن الواضح أن الحمام الزاجل كان يخصص لنقل الرسائل العاجلة الخطيرة ، بحيث إذا وصلت رسالة مع حمامة إلى القلعة حملت الرسالة مباشرة إلى السلطان وعرضت عليه^(٢) . وقد شيدت للحمام الزاجل أبراج على امتداد طرق البريد لتكون بمثابة محطات ، ولطه الأبراج موظفون مدربون بحيث إذا وصلت حمامة من هذا النوع إلى البرج عفوا بأمرها وتسلموا منها الرسالة ليبعثوا بها إلى البرج التالى ، فى حين تستريح الحمامة الأولى قبل أن يسمح لها بالعودة إلى قاعدتها .

أما الديوان الثالث فى الإدارة المالية فهدى ديوان الأجصاص (الأوقاف)؛

(١) اللاندى : صبح الأعشى ج ٢ ص ١١٥ .

(٢) نظير حسان سعداوى : نظام البريد فى الدولة الإسلامية ص ١٤٣ .

و يقوم صاحبه برعاية شئون المؤسسات الدينية والخيرية من جوامع ومساجد ومدارس وربط وزوايا وغيرها ؛ كما يشرف على الأراضى والعقارات المحبوسة عليها . وكانت شئون الاحباس فى العصر الأيوبى من اختصاص القاضى ، ولكن المماليك قسموا هذه الشئون إلى عدة أقسام : منها قسم للأوقاف المحبوسة على الحرمين وفداء أسرى المسلمين ، وتسمى الأوقاف الحكيمية ويقال لمن يتولاها ناظر الأوقاف - وهو غالبا قاضى قضاة الشافعية - ؛ ومنها ما اختصاص بالأوقاف الأهلية ، ولكل وقف منها ناظر خاص يوليه السلطان أو القاضى ويختار غالبا من أولاد الواقف ؛ ومنها الاحباس الخاصة بالمساجد والزوايا وكان ينفق من ريعها على هذه المؤسسات الدينية ، ثم يوزع الفائض على شكل صدقات وعطايا على المحتاجين ، وأشرف على هذا القسم الدواوير وناظر الخاص (١) .

ولم تقتصر الأوقاف فى عصر المماليك على الحوائط والمخانات والفنادق والأراضى الزراعية الواسعة - كما كان الحال فى العصور السابقة - وإنما اتسعت الأوقاف فى ذلك العصر حتى شملت كثير من الأعيان الموقوفة مثل معاصر الزيت والقصب والحمامات والطواحين والأفران والمسابن ومصانع النسيج ومخازن الغلال ومعامل ترقيد الفروج وغيرها (٢) .

أما ديوان النظر فاختص بمراقبة حسابات الدولة والإشراف على إيراداتها ومصروفاتها ، وما يتبع ذلك من القيام بصرف مرتبات الموظفين . وكان بجانب من هذه المرتبات أو الأرزاق يصرف نقدا ، على حين صرف الجانب الآخر عينا من غلات ولحوم وتوابل وسكر وشمع عدا الكسوة . ومن الواضح أن

(١) المقرئى : المواقظ والاعتبار ج ٢ ص ٢٩٦ (بولاى) ٩

المالدى : المقصد ص ١٣٢ .

(٢) عبد اللطيف ابراهيم : دراسات تاريخية وأثرية فى وثائق من عصر المماليك ، ص ١٣٤ - ١٣٥ .

أصنافاً مثل الخبز واللحوم كانت توزع على الموظفين والمستحقين يومياً ، في حين كان السكر والزيت والشمع ونحوها توزع شهرياً ؛ أما الكسوة فكانت سنوية . ووصف المقرئى ناظر هذا الديوان بأنه من أكبر موظفي الدولة وأهمهم عملاً وأعلام قدراً ؛ إذ صار له أمر ونهى وحال جلية ، لكثرة الحول الواردة ، وخروج الأموال المصروفة في الرواتب لأهل الدولة ، وكانت أمراً عظيماً (١) ، لذلك قام بمساعدته جملة من الموظفين أهمهم مستوفى الصلحة - وهو بمثابة وكيل الديوان - وشهود بيت المال ، وصير في بيت المال ، وأولئك عدا الكتبة (٢) .

وتفرع على ديوان الناظر منذ القرن الرابع عشر ديوان خاص بالسلطين ذلك أن السلطان الناصر محمد أنشأ سنة ١٣٢٧ ديواناً أطلق عليه « ديوان الخاص » ، للإشراف على شئون السلطان المالية ، ومراقبة الخزائن السلطانية ، وعهد بالإشراف على هذا الديوان إلى موظف كبير أطلق عليه « ناظر الخاص » وهو القب الذي حور إلى « ناظر الخاصة » في الدول الملكية (٣) .

وهناك دواوين أخرى كثيرة نظمت سير الحكم في دولة المماليك ، وذكرها الكتاب المعاصرون - وبخاصة القلقشندي والمقرئى - ، مثل ديوان الطواحين ويشرف صاحبه على طحن الغلال ، وديوان الأهرام ويشرف على مخازن الغلال السلطانية ، وديوان المرتجعات وينظر في كل ما يتعلق بتركات الأمراء (٤) . ولكن هذه الدواوين كانت أقل أهمية . كذلك

(١) المقرئى : المواظ ج ٢ ص ٢٢٤ (بولاق) .

(٢) العمري : القمص ، بالمصطلح الشريف ص ١١٥ .

القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ٢٩ - ٣٠ .

(٣) سعيد طاشور : مصر في عصر دولة المماليك البحرية ص ١٥١ .

(٤) الخالدي : المقصد الرفيع ص ١٣٥ .

المقرئى : المخطوط ج ٢ ص ٢٣٧ .

القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ٣٣ .

أطلق لفظ « دواوين » في عصر المماليك على إدارات صغيرة ، مثل ديوان الاصطبلات وديوان العماير وديوان المواريث الحشرية ، ويشرف الديوان الأخير على أموال من يموت دون وراث له .

القضاء والمظالم :

أما شئون القضاء والعدالة فقد أولاها سلاطين المماليك جانبا كبيرا من اهتمامهم وعنايتهم وكان أهم تغيير أدخله السلطان الظاهر بيبرس في النظام القضائي هو أنه لم يشأ أن يترك قاضي القضاة الشافعية يتحكم وحده في جميع الشئون القضائية لما في ذلك من إجحاف ببقية المذاهب . لذلك عين سنة ١٢٦٥ أربعة من قضاة القضاة يمثلون المذاهب الأربعة ، على أن يحتفظ قاضي القضاة الشافعي بالإشراف على أحوال اليتامى والأوقاف والقضايا الخاصة ببيت المال .

كذلك يفهم مما ذكره المقرئ أن قاضي القضاة الشافعي كان بيده عزل بعض موظفي الدولة عن وظائفهم ، فضلا عما كان يتمتع به من نفوذ على نواب الحكم التابعين له (١) . وهكذا ظل قاضي القضاة الشافعية أرفع درجة من زملائه ؛ ثم يليه الحنفى فالمالكي فالحنبلي .

أما الجيش المماليكي فكان له « قضاة العسكر » ، وهم مختصون بشئون الجند وليس لهم ولاية على غيرهم ؛ كما كانوا يفصلون في القضايا القائمة بين العسكر والمدنيين . ويلاحظ أن قضاة العسكر كانوا ثلاثة يمثلون المذاهب الشافعي والحنفي والمالكي ، وأحيانا كان يوجد قاضي حنبلي . وكان قضاة العسكر يحضرون

(١) المقرئ : السلوك ج ٢ ص ٤٤٣ .

مع القضاة الأربعة بدار العدل ولكن مجلسهم كان دون هؤلاء القضاة ، كما
جرت العادة بأن يصحبوا السلطان في أسفاره (١).

والواقع إن القضاة قاموا في ذلك العصر بدور هام في المجتمع ، أملت
كثرة اختصاصاتهم وتنوع مسؤولياتهم التي لم تقف عند حد الفصل في قضايا
الأحوال الشخصية ، وإنما امتدت إلى جميع أنواع القضايا من مدنية وجنائية
هذا فضلا عن إمامة المسلمين ونظر الوصايا والأحباس وشئون البيات
والمحجور عليهم والتدريس بالمدارس (٢).

أما جلسات المحاكم فكانت تعقد أحيانا في المساجد وأحيانا في دور
القضاء إذا وجدت . وعند افتتاح جلسة القضاء ، يتقدم المتقاضون أمام القاضي
وفق ترتيب خاص مع مراعاة النظام وحرمة القضاء . وكان يساعد القاضي عدة
موظفين منهم الجلوازالذي يقوم بحفظ النظام أثناء انعقاد المحكمة ، كما يقوم
بتقديم المتقاضين حسب دورهم ؛ وربما حمل في يده عصا أو سوطا يضرب به كل
من يحاول الإخلال بنظام الجلسة . أما الحاجب فكانت مهمته الوقوف على باب
القاضي واستئذانه في دخول الزائرين عليه ، في حين قام الأعوان بإحضار
الخصوم إلى المحكمة (٣) . وأدى ازدياد المتقاضين في ذلك العصر إلى صعوبة
مهمة القاضي ، فاستعان بالعدول الذين يقدمون شهاداتهم للقاضي ويراجعون
السجلات والعقود ويذكرون الشهود . وأخيرا قام كاتب المجلس بتحرير الدعاوى
والأحكام ، كما قام الترجمان بمهمة الترجمة بين القاضي والمتقاضين ، إذا كان
هؤلاء لا يعرفون العربية (٤) .

(١) القلاشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٣٦ .

(٢) المقرئى : المواظ ج ٢ ص ٩٢ (بولاق) ٩ .

القلاشندى : صبح الأعشى ج ٩ ص ٣٤ — ٣٥ .

(٣) السبكي : معية النعم ص ٨٦ .

(٤) محمود عن نوس : تاريخ القضاء في الإسلام ص ١٢٩ — ١٣٥ .

وكانت هناك محكمة عليا في عصر المماليك عرفت بمحكمة المظالم ، نفهم من المراجع المعاصرة أنها كانت بمثابة محكمة استئناف عليا تنظر في المظالم ؛ أى القضايا التى اختص السلطان بالنظر فيها مباشرة ، أولئك التى تنشأ بين الحكام والمحكومين . وترجع أهمية هذه المحكمة إلى أنها كانت تعقد برئاسة السلطان نفسه في يومى الاثنين والخميس غالباً من كل أسبوع . وكان السلطان في الوقت المحدد للنظر في المظالم يجلس في دار العدل - أو بعد ذلك في الإيوان - على كرسي من الخشب المغشى بالحرير ، وعن يمينه قاضيان من القضاة الأربعة هما الشافعي والمالكي ، وعن يساره قاضيان هما الحنفي والحنبلي . ويل القاضى المالكي من الجانب الأيمن قضاة العسكر الثلاثة الشافعي والحنفي فالمالكي ، ثم يليهم مفتو دار العدل فوكيل بيت المال ثم ناظر الخصة (١) . ومن الجانب الأيسر يجلس بعد القاضى الحنبلي الوزير ثم كاتب السر . وهكذا تستدير الحلقة ويقف وراء السلطان مماليك صفار من السلاحدارية والجدارية ، على حين يجلس على بعد خمسة عشر ذراعاً تقريباً ذوو السن من أكابر المئين ، وهم أمراء المشورة . أما أرباب الوظائف وسائر الأمراء فيظلون وقفاً . وخلف هذه الحلقة المحيطة بالسلطان يقف الحجاب والدوادرية لعرض أوراق القضايا المطلوب النظر فيها ثم تقرأ الشكاوى والتقصص على السلطان ، فما احتاج منها إلى مراجعة القضاة مشاورهم السلطان فيها دور جمع إلى ما يقولون (٢) ، وما نفاق منها بالعسكر تحدث السلطان فيه مع قضاة العسكر وناظر الجيش ، ثم يأمر في الباقي بما يراه . وعلى مر الزمن اقتصر جلوس ملاطين المماليك بالإيوان على مدة قصيرة بصفة شكلية لالتى سوى لإقامة رسوم المملكة وإحياء مظاهرها ، لاسيما بعد أن نودى أن أحداً لا يتقدم بشكاياته إلى السلطان إلا بعد أن يرفع أمره إلى القضاة أولاً ، فإذا

(١) سعيد عاشور : المجتمع المصرى ص ٧٨ .

(٢) ابن قاضي شعبة : الإعلام بتاريخ أهل الإسلام ج ١ ص ١٢ .

لم ينصفوه ذهب إلى السلطان ومن خالف ذلك عوقب (٤١).

وكانت وظيفة الحسبة قوية الصلة بالسلطة القضائية في تلك العصور حتى أنه كان يحدث في كثير من الأحيان أن يسند القضاء والحسبة إلى فرد واحد والواقع أنه إذا كان عمل القاضي ينصف بشيء من البطء لآلته يقرم على انووية والآفة والنتيجة من جهة الرقابة ، فإن عمل المحاسب قام على أساس سرعة البت في المخالفات التي تتعلق بالآداب العامة ونظام الأسواق ومراعاة الأمانة في المعاملات التجارية وآداب الطريق ونحوها (٤٢). لذلك دأب المحاسب - ونوابه - على المرور بطرقات المدينة وأسواقها لمراقبة الموالين والمساكين والمقاييس والتفتيش على نظافة الحوانيت وسلامة ما يقدمه الباعة من طعام للجمهور ، هذا فضلا عن مراقبة الخانات والفنادق والحمامات ، فن وجد المحاسب قد غش مسلما أو أكل بباطل درهما أو أخبر مشترا بزيادة ، أو خرج من معهود العوائد شهره بالبلد وأركب تلك الآلة ففاه حتى يضعف منه الجلد ، (٤٣).

وتؤدي بنا العبارة الأخيرة إلى الإشارة إلى العقوبات التي كانت توقع على المذنبين في عصر المماليك . وأولى هذه العقوبات السجن في أحد سجون ذلك العصر التي وصف المقرئ بعقوبتها بالظلام وكثرة الوطايط والروائح

(١) ابن أبياس : بدائع الزهور ج ٢ ص ١٢٩

تاريخ ابن الفرات : ج ١ ص ١٧

(٢) الفيلسوفندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ٣٦

(٣) العمري : التعريف بالمصطلح الشريف ص ١٢٤ - ١٢٥

وجهير بالذکر أنه كان بالديار المصرية ثلاثة محسبين هم محاسب القاهرة وله التصرف بالحكم في القاهرة والوجه البحري كله ؛ ومحاسب مصر (القساط) وله التصرف بمصر والوجه القبلي كله ؛ ومحاسب الاسكندرية ونقوده قاصر على النهر .

انظر الفيلسوفندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ٣٧

المقرئ : السلوك ، ج ٢ ص ٤١٥

السكينة والقبائح الممولة» (١) ، وبعد ذلك تأتي عقوبة التشهير والتجريس وهي أن يطاف بالمذنب على حمار أو ثور ويضرب الجرس على رأسه وينفخ المنادون ليجتمع الناس حوله ، وفي نهاية المطاف يضرب بالسياط أمام الناس هذا عدا عقوبات أخرى متنوعة مثل عصر أعضاء المذنب بين خشبتين حتى تنكسر عظامه ، أو خلع بعض أضراس المذنب وأسنانه ودقها في رأسه أو تسخين طاسة من المعدن وإلباسها له في رأسه ، أو لإجلالته على مقعد معدني محي بالنار وغير ذلك من العقوبات (٢) .

(١) المقرئى : المواظ ج ٣ ص ٣٠٥ — ٣٠٦ .

(٢) سعيد عاشور : المجتمع المصري ص ٩٨ — ١٠٠ .

الباب الثالث عشر

الفنون

تنقسم الفنون إلى مجموعتين ، المجموعة الأولى تشمل العمارة والتصوير والنحت وهى التى يطلق عليها اسم الفنون الكبرى ؛ والمجموعة الثانية تشمل الصناعات اليدوية الصغيرة التى تتطلب دقة فائقة وعبقريّة راقية ومهارة كبيرة ويطلق عليها اسم الفنون الصغرى .

والمعروف أن رقى الفنون فى أى زمان ومكان إنما يرتبط ارتباطاً شديداً باقتصاد الحياة الاقتصادية وتوافر المال . فالمجتمع الفقير - مثله مثل الرجل الفقير - يفكر أولاً فى أسباب الحياة ، ويعتبر الفنون نوعاً من الكماليات لا فائض لها من المال والجمود ؛ وإذا اضطرت له ظروف الحياة الاجتماعية أو الدينية إلى إقامة بعض المآثر والأدوات وغيرها من مطالب الحياة ، فإنه يجتنب دائماً للبساطة وعدم التعقيد ، لأنه يستهدف دائماً تحقيق فرضه بأقل نفقات ممكنة . أما المجتمع الغنى - فمثلته مثل الفرد الثرى - يبحث عن المتعة وعن أوجه يستغل فيها جزءاً من فائض أمواله فيتفنن فى ابتكار الكماليات ؛ وإذا أقام شيئاً من الأساسيات بالغ فى الإنفاق عليه والعناية به والحرص على جمال صورته . هذا إلى أن الفنان أو الصانع يجهد نفسه فى هذه الحالة ومطمئن تماماً إلى أنه سيجد الجزاء الأول ، وسيكافئ مادياً بما يتناسب مع جهوده ، الأمر الذى يترتب عليه رقى الفنون وسموها .

وقد سبق أن رأينا فى صفحات هذا الكتاب أن أكبر صفة انصافها



دولة الممالك هي الغنى والثروة وكثرة المال . فدولة الممالك كانت همزة الوصل بين تجار الشرق وتجار الغرب ، والمعبر الرئيسى بين تجارة الشرق وتجارة الغرب ؛ الامر الذى عاد على المجتمع المصرى — حكاما ومحكومين — بالثروة الطائلة والمال الوفير . وإذا قيل إن جزءا كبيرا من هذا المال كان سلاطين الممالك مضطرين إلى إنفاقه في شئون الحرب والجهاد ، فإن حقيقة هامة ينبغي ألا تغيب عن بالنا هي أن معظم حروب الممالك كانت حروبا رابحة تغطى ما أنفق عليها عن طريق الغنائم الوفيرة . ونفيض المراجع المعاصرة في شرح الاموال والغنائم التي غنمها الممالك من أعدائهم سواء كانوا الصليبيين في الشام — وفي قبرص — أو الارمن أو النوبيين أو التركمان وغيرهم . وقد ذكر المقرئى عن بعض هذه الغنائم أنه بلغ من كثرتها أن د قسمت النقود بالطامسات ،^(١) ومهما يكن في هذه الآراء من مبالغات فهي تفيدنا أن الحروب الواسعة التي قام بها الممالك لم تكن عملية خامرة على طول الخط وأنها لم تستنزف جزءا كبيرا من الموارد الضخمة التي نعمت بها الدولة .

وخير شاهد على الثروة الدافقة التي نعمت بها دولة الممالك، هورق الفنون في ذلك العصر . فالحقيقة الواضحة التي يخرج بها دارس تاريخ مصر في العصور الوسطى ، هي أن الحياة الفنية بلغت في عصر الممالك بالذات أسنى درجات الرق والروعة . وما زالت التحف الفنية الرائعة التي تزخر بها دور الآثار في العالم والتي ترجع إلى عصر الممالك، فضلا عن المآثر المايكينة الفائقة الحسن — من مساجد وقصور ومدارس وقباب وغيرها — تشهد برقى الحياة الفنية في عصر الممالك ومقدار ما أنفق على تلك المنشآت من مال وجهد . ولا أقل من أن نلقى نظرة عامة سريعة على أركان الحياة الفنية في عصر الممالك لنذكر مدى أهمية ذلك

(١) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٥٩٨ هـ

العصر في تاريخ الفن الإسلامي بوجه عام (١).

العمارة:

يقول الدكتور زكي محمد حسن: «لاريب في أن عصر دولتي المماليك (١٢٥٠ - ١٥١٧) هو العصر الذهبي في تاريخ العمارة الإسلامية في مصر، فقد كان الإقبال عظيماً على تشييد للمباني، من جوامع ومدارس وأضرحة وحمامات ووكالات وأسبلة. كما ظهر التنوع والإتقان والأناقة في شتى العناصر المعمارية من وجهات ومنازل وقباب وزخارف جصية ورخامية» (٢).

ونستطيع تقسيم العمائر في عصر المماليك إلى دينية ومدنية، فالدينية أهمها المساجد والمدافن والقباب والمدارس. وكان الجامع مربع الشكل عادة، يتألف من صحن يحيط به أربعة إيوانات تبدو كأنها حنيات في الجدران، وأكبرها إيوان القبلة. وفي عصر المماليك الجراكسة ظهر تصميم جديد للجامع أهم معالمه صحن مساحة المبنى واختفاء الصحن المكشوف. ومن أجمل المباني الإسلامية في مصر والشام إطلاقاً جامع السلطان الناصر حسن ابن الناصر محمد بن قلاوون، الذي استغرق عمارته ثلاثة أعوام انتهت سنة ١٣٦٣ أي بعد وفاة صاحبه بعامين. وقد جاء هذا الجامع في الساحة مساحته وروعة تصميمه وجمال زخارفه. آية فنية يفخر بها الفن الإسلامي إطلاقاً. وقد أشرف على عمارة هذا المسجد المهندس محمد ابن بيليك المحسني (٣)، الذي استطاع أن يجمع فيه بين الأساليب الثلاثة في فن

(١) اعتمدنا في العرض التالي بصفة رئيسية على مؤلفات المرحوم الأستاذ الدكتور زكي محمد حسن مؤسس مدرسة الآثار الإسلامية في جامعة القاهرة ورئيس قسم الآثار الإسلامية بجامعة القاهرة، وأستاذ الآثار الإسلامية بجامعة بغداد سابقاً.

(٢) زكي محمد حسن: فنون الإسلام ص ٧١.

(٣) حسن عبد الوهاب: تاريخ المساجد الأثرية ج ١ ص ١٢٦ - ١٨٠.

(٢٥ - العصر المماليكي)

العمارة والزخرفة في عصره، ويعزى لها على نخط جميل المسجد يبدو من الناحية الفنية وحدة جمالية متماسكة . ولهذا المسجد منارتان عظيمتان في الجانب القبلي الشرقى، وكان المفروض أن يكون المسجد أربعة مآذن، ولكن اكتفى باثنتين فقط بعد أن امارت المئذنة الثالثة عقب إنشائها . وامتازت المآذن في جوامع ذلك العصر بوجه عام بانسجامها ورشاققتها وتوسط ارتفاعها .

ومن المائر المالكية الجميلة قبة ومدرسة وبجارتان السلطان قلاون، وهي المجموعة التي تمت عمارتها سنة ١٢٨٥ . وأجل ما في هذه المجموعة القبة التي دفن فيها السلطان المنصور قلاون وابنه الناصر محمد، وهي تعتبر آية من آيات الفن الإسلامى ، إذ أنها محمولة على أعمدة من الجرانيت ذات تيجان مذهبة وعلى أكتاف ، أحزواها السفلية مغطاة بالنسيفساء الجليل (١) .

ومن أهم المائر ذات الصبغة الدينية في عصر المماليك الجراكسة ، مدفن السلطان الظاهر برقوق الذى تمت عمارته في عهد ابنه الناصر فرج سنة ١٤١٠ ، وقد روعى في تصميمه أن يكون على هيئة مجمع يضم مسجدا كبيرا وحضريعا للظاهر برقوق وأفراد أسرته وعائقاه للوفية ، ولذلك اجتمعت فيه مختلف الظاهر العمارة الدينية . ويتألف المسجد في هذا البناء من محض يحف به أربعة إيوانات أكبرها إيوان القبلة الذى ينتهى طرفه بقبتين من خمرتين بارتفاع بارزة تتوسطهما قبة ثالثة فوق المحراب . وسقف الإيوانات الأربعة مغطاة بقبوات نصف كرية من الآجر، ومحمولة على عقود مرفوعة مدببة، أما خرف الخائقاء فهي كثيرة ومعظما فوق الإيوانات البصرى والقبلى (٢) .

كذلك يعتبر مدفن قايتباى بالصمصراء الشرقية بالقاهرة من أهم المائر

(١) زكى محمد حسن : فنون الإسلام ص ٧٩ .

(٢) المرجع السابق ص ٧٧ .

الباقية من عصر المماليك الجراكمة . وهذا المدفن أيضاً عبارة عن مجمع يضم مدرسة وسبيل ومكتب وثبة . وصحن هذا المدفن مغطى بسقف ذي شخصيئة جميلة وحوله أربعة أيونات أكبرها إيوان القبلة الذي يقع المدفن قبله ، وقبته منقوشة برسوم هندسية ونباتية جميلة (١) .

أما السائر المدنية في عصر المماليك ، فلم يبق منها إلا مداخل بعضها وأجزاء من البعض الآخر . ومن أهم هذه البقايا قصر الأمير بشتاك الذي يرجع إلى سنة ١٣٣٤ ، ولم يبق منه سوى جزء من الواجهة ثم المدخل والقاعة الكبرى وما يحف بها من حجرات ، وتمتاز هذه القاعة بجمال سقفها المذهبة وبالفسقية الرخامية التي تتوسطها ؛ فضلاً عن وزرتها الرخامية الدقيقة وإبداع ما فيها من التصف والأدوات الخشبية ذات الإخارف المخروطة أو المحفورة أو المطعمة . كذلك هناك بقايا قصر الأمير قوصون خلف مدرسة السلطان حسن ويرجع إلى القرن الثامن الهجري ، وبقايا قصر الأمير طاز بشارع السيوفية بالقاهرة وتشمل المدخل والقاعة الكبيرة ذات السقف الجميلة والمتعددة الأنواع .

وفيما هذا القصور هناك بقايا وكالة الأمير قوصون ومدخل وكالة قايتباي بباب النصر ، فضلاً عن بقايا حمام الأمير بشتاك الذي لم يبق منه سوى مدخله المكسو بالرخام الملون وجميع هذه البقايا وغيرها — مع قلنها — إلا أنها تشهد بسمو الذوق الفني وروعة البناء (٢) .

الرسم والتصوير :

أما عن الرسم والتصوير فالمعروف أنهما من الأشياء المكروهة في الإسلام

(١) المرجع السابق ج ٤ ص ٧٨ .

(٢) زكي محمد حسن : فنون الإسلام ص ٨٠ — ٨٤ .

لما فيها من اتجاه وثنى يرتبط بعبادة الأوثان . ولعل هذه الحقيقة هي التي دفعت الفنانين المسلمين يتجهون منذ وقت مبكر إلى الإعراض عن تصوير الحيوان والإنسان ، واستغلال مواهبهم الفنية في تصوير بعض الأشكال الهندسية ، أو عمل زخارف من النباتات وأوراق الشجر . هذا إلى أن الخط العربي صالح للزينة والرخرفة بطبيعته ، فاستعمل الفنانون المسلمون ذلك الخط في كتابة عبارات بالخط السكوفي الجميل على الجدران أو الأواني أو غيرها . ومع ذلك فإن الفنانين المسلمين في العصور الوسطى لم ينصرفوا تماماً عن تصوير الكائنات الحية ، مما جعلهم يتركون مجموعة ضخمة من الزخارف والتصوير والرسوم التي تشهد جميعها بمدى رقي هذا الجانب من الفنون عندهم .

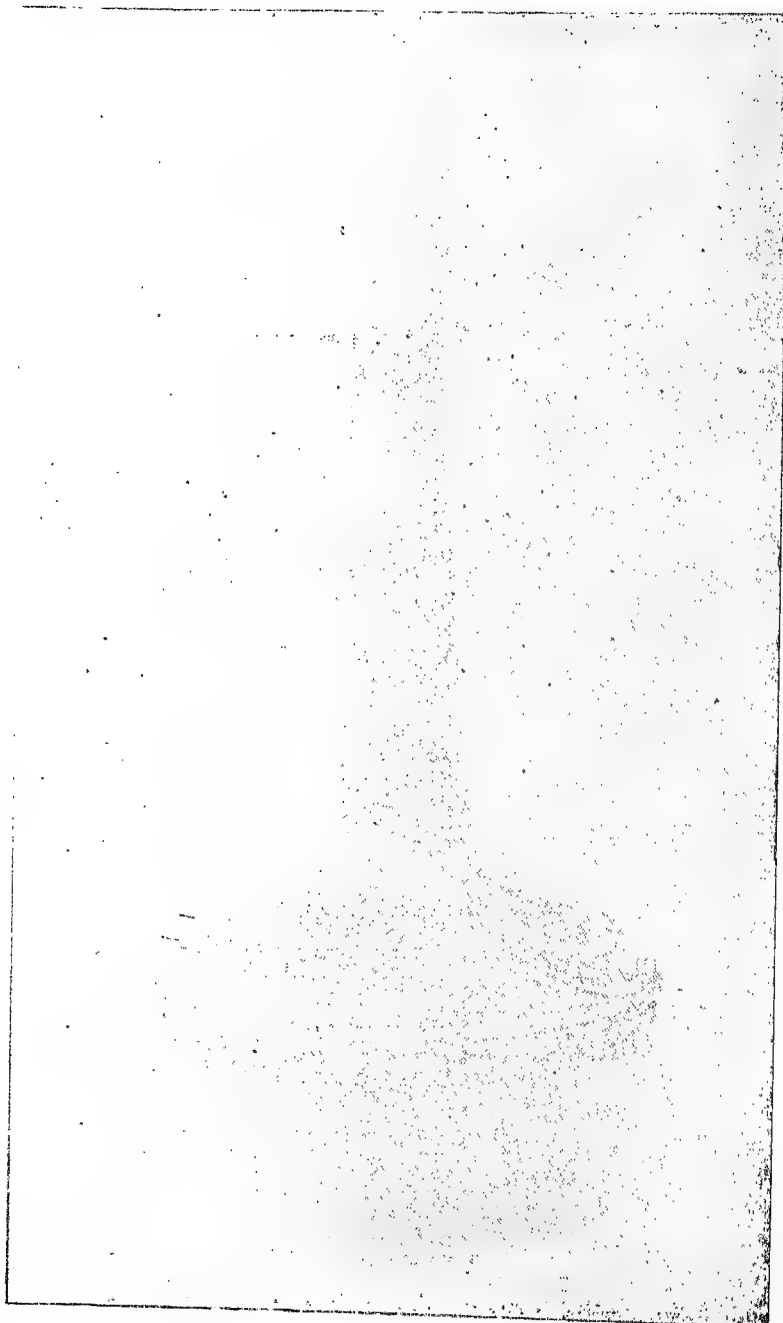
وامتاز عصر المماليك بالذات بكثرة الرسوم والزخارف ورقياً ، فضلاً عن أن هذه الرسوم انصفت بالطابع العربي الواضح . ويؤكد الباحثون أن تعرض بلاد العراق لغزو التتار في القرن الثالث عشر للميلاد، ساعد على انتقال المدرسة العربية في التصوير إلى أراضى دولة المماليك في الشام ومصر ، بعد أن هاجر إلى هذه الأراضى كثير من فنانى العراق فراراً من خطر التتار هذا فضلاً عن أن إحياء الخلافة العباسية في مصر، جعل دولة المماليك قبة المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها ؛ ومن ثم امتازت التصوير التى أنتجتها مصر والشام في عصر المماليك ، بمحافظتها - إلى حد كبير - على التقاليد العربية ؛ وخلوها - إلى حد كبير أيضاً - من المؤثرات المغولية التى ظهرت في البلاد الأخرى التى حكمها التتار (١) .

ففي العمارة المماليكية نجد إيوافاً المساجد وقد كسيت بالرخام وزخرفت
زخارف جميلة، من وحدات نباتية أو رسوم هندسية، فضلاً عن بعض الآيات

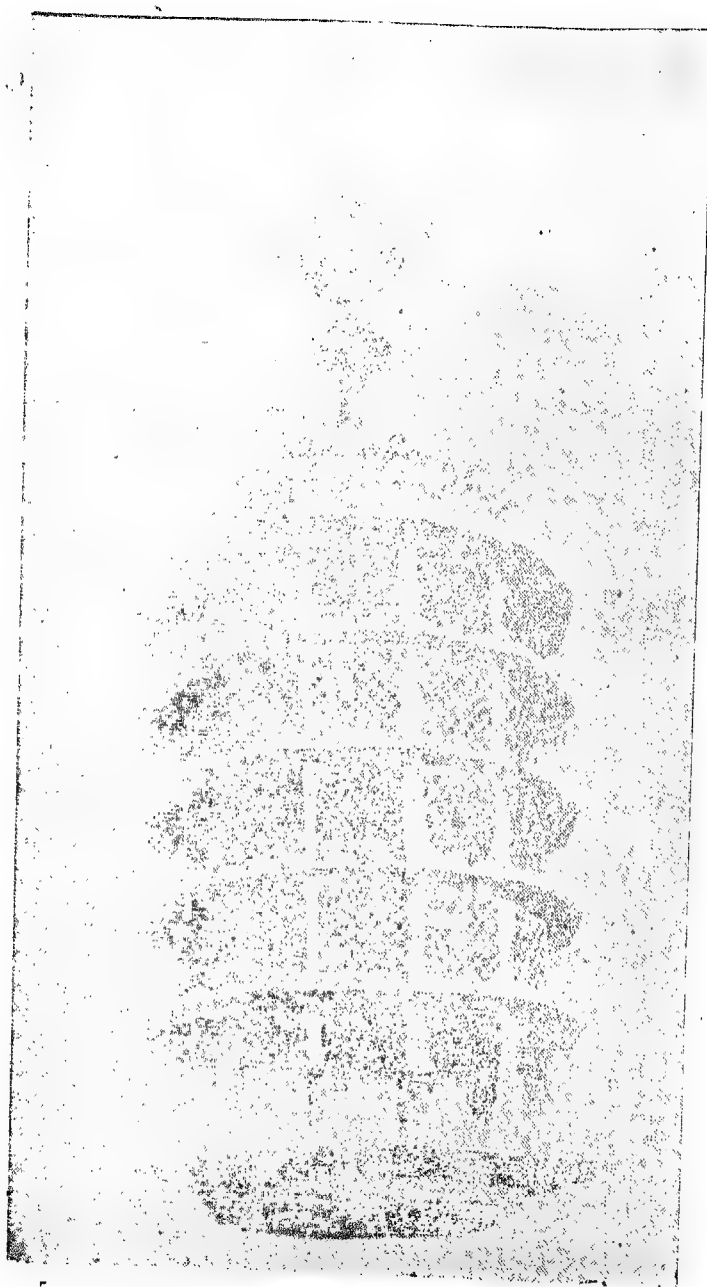
(١) حسن الباشا : التصوير الإسلامى في العصور الوسطى ص ١٦٥ .



قطعة من إناء من الخزف يرجع إلى عصر الماليك .
مرسوم عليه صورة غزال يأكل الحشائش



إناء جميل صنع في الشام في عصر المماليك وهو من الزجاج المسوه
بألوان المتعددة الألوان



تريا من النحاس باسم أحد أمراء الممالك وعليها اسم الصانع الذي
ذكر أنه أنعم في أربعة عشر يوما.

القرآنية المكتوبة بالخط الكوفي الجليل المزخرف . كذلك على المباليك بزخرفة سقفوف مبانيهم بالرسوم المذهبة وجدرانها بالفسيفساء الدقيقة أو تنكس بالرخام الملون وكذلك الأرضيات أما واجهات المباني من الخارج فكانت تزخرف على هيئة طبقات أو مداميك أفقية بحيث تكون طبقة منها صفراء فاتحة ، تعقبها أخرى حمراء داكنة .

ولم يقتصر التفوق في مجال الرسم والزخرفة في عصر المباليك على المعمار وإنما شمل الخزف والمنسوجات والتحف المعدنية والزجاج والبرق ، فضلاً عن أغلفة الكتب . أما الزخرفة على الخزف فقد بلغت شأواً بعيداً في الشام ومصر في عصر المباليك ، وتشهد على ذلك كثرة الألوان التي لدينا والتي تمتاز برسوم الحيوانات والطيور فضلاً عن الرسوم النباتية والأشكال الهندسية الجميلة (١) . وبعض هذه الألوان عليها زخارف خطية بخط الثلث ، وتحتل بهذه الكتابات رسوم فروع نباتية ووريقات وزهور باللونين الأبيض والأزرق على مهاد أسود ، مما جعل منها آية فنية رائعة . كذلك توجد لدينا بعض قطع من الخزف ، أو الفخار ترجع إلى عصر المباليك ومزخرفة بالمينا البارزة عن سطح الطلاء ، وبعض هذه الزخارف قوامها عبارات دعاء بخط النسخ أو رونك مختلفة الأشكال كالنمر أو السبع أو النسر (٢) .

أما زخرفة النسيج في عصر المباليك فقد بلغت هي الأخرى درجة فائقة من الروعة في عصر المباليك وأجل قطع النسيج المحفوظة بدار الآثار العربية والتي ترجع إلى عصر المباليك مصنوعة من الحرير ، وانخذت زخرفتها شكل عبارات مثل « العز الدائم والإقبال » و « سعادة مؤبدة ولعمة مخلدة »

(1) Hobson : A Guide to the Islamic Pottery of the Near East, p. 65 . (1944) .

(٢) زي محمد حسن : أطلس الفنون الزخرفية والتصاوير الإسلامية ص ١٢٣ - ١٢٤

و «السلطان العام» و «وعز مولانا السلطان الملك الناصر» و «دقة» . وكانت هذه العبارات في النسيج تحيط بها زخارف أخرى تمثل أوراق الشجر أو خطوطاً حلزونية أو رسوم بعض الحيوانات مثل فهد يطارد غزالاً أو بعض السباع (١) . كذلك يوجد بمختلف الفن الإسلامي بالقاهرة بعض قطع من القماش ترجع إلى عصر المماليك . كتبت عليها عقود زواج ، والقماش مصنوع من القطن ومكتوب عليه بمداد أسود (٢) .

والمعروف أن صناعة المعادن ارتقت في عصر المماليك ؛ فصنعت في ذلك العصر كثير من الصناديق والثريات والطاسات والأواني والكراسي المعدنية وغيرها . وجميع هذه المصنوعات كانت تزخرف برسوم جميلة رائعة . وهنا أيضاً نجد أن جزءاً كبيراً من الرسوم والزخارف الموجودة على التحف المعدنية الباقية من عصر المماليك اتخذت شكل عبارات وكتابات بالخط الكوفي أو خط النسخ ، مثل «عز مولانا السلطان . . .» و «المقر العالي المولوى الأميرى الكبيرى الفارى . . .» و «الملك الأشرف قايتباى عن نصره» . وهذه الكتابة الزخرفية كانت توجد عادة في مناطق تتخللها وتحيط بها رسوم هندسية متعددة الأضلاع ، أو فروع وأوراق نباتية مألوفة ، أو رسوم حيوانات وطيور وأسماك ، أو رسوم آدمية كرسوم صياد يستخدم الباز (٣) .

وأخيراً فإننا نجد أن فن الرسم والتصوير عبر عن رقيه في عصر المماليك في ناحيتين ، الناحية الأولى هي ناحية الزجاج والبلور ، والناحية الثانية هي أعلافة

(١) انرجع السابق ص ٤٧٣ - ٤٧٤

فنون الإسلام ص ٣٦٥ - ٣٦٨ .

(٢) سعاد ماهر : عقود الزواج على المنسوجات الأثرية ص ٤ وما بعدها .

(٣) Wiet : Objets en Cuivres, p . 272 &

زكى محمد حسن : أطلس الفنون الزخرفية ص ٤٦٢ - ٤٦٥ .



سيفان احد اعداء باسم السلطان فاتنوره القوري والأشرف باسم السلطان مولانا باي
وهما من الذهب الزين بخارقه وكتابات مسكاته بالذهب



مشكاة تحمل اسم السلطان الناصر محمد وهي من الزجاج المموه بالينا
وعليها كتابات من القراءات الكريم بالخط النسخ

السكتب أما عن الزجاج والبلور . فمعظم المشكاوات الباقية لدينا من عصر الممالك مدهونة بالمينا الحمراء أو الزرقاء أو الخضراء أو البيضاء ، ومن خرفة بأشرطة فيها كتابات مثل « عن لمولانا السلطان الناصر ناصر الدنيا والدين عن نصرة » أو آية قرآنية مثل « قل الحمد لله الذي لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن له ولي من الدن » أو « الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح » وحول هذه السكتابات توجد زخارف من أشكال نباتية من أوراق النبات وزهر اللؤلؤ والزنبق ، أو أشكال هندسية تمثل دوائر وحلقات قد تضم رنوكا وقد تضم صور بعض الحيوانات والطيور^(١) .

وأما عن زخارف أغلفة السكتب ، فمعظمها في عصر الممالك كانت تذهب وتزين برسوم دقيقة بارزة . ذلك أن جلدة السكتاب في عصر الممالك امتازت بزخارف هندسية متشابهة ، زاد من جمال شكلها بعض أجزاء مضبوطة من الغلاف ، وهذه الأجزاء المضبوطة كانت تذهب وتزخرف على شكل وريقات وخطوط مجدولة . وبالإضافة إلى هذا النوع من الزخارف الذي نهج منه عدة نماذج في متحف المتروبوليتان ، نجد بعض جلود أخرى من عصر الممالك تتوسطها جامات مزخرفة بقطع رقيقة من الجلد على شكل زخرفة نباتية فوق أرضية ملونة . وكثيراً ما اتبعت طريقة الضغط لتزيين بواطن جلود السكتب بزخارف نباتية ، يضاف إليها أحياناً أشكال أزهار مختلفة ، وأصبحت هذه الطريقة الزخرفية محببة إلى رجال الفن في أوائل القرن الرابع عشر^(٢) .

وكان من الطبيعي أن يختص القرآن الكريم بحجز كبير من عناية الفنانين في ذلك العصر ، فعنوا بتهذيب المصاحف وتفننوا في زخرفة أغلفتها ، الأمر الذي

(1) Wiet : Lampes en Verre émaillé, pp. 67—100 & .

زى محمد حسن : أطلس الفنون الزخرفية من ٤٩٦ — ٤٩٧ .

(٢) ديماوند : الفنون الإسلامية ص ٨٧

(٢٦ — العصر المماليكي)

تشهد عليه مجموعة المصاحف الثمينة المحفوظة بدار الكتب المصرية ، والتي يرجع جزء كبير منها إلى عصر المماليك الذات . والملاحظ على هذه المصاحف أن الأساليب الفنية لا تبدو في غلاف المصحف أو فاتحته فحسب ، وإنما تظهر كذلك في سائر صفحاته ولا سيما في فواصل الآيات . ومن أمثلة المصاحف الجميلة المحفوظة بدار الكتب المصرية مصحف يرجع إلى سنة ١٣٦٩م (٨٧٧٠) باسم السلطان شعبان . وقوام الزخرفة في غرة هذا المصحف ساحة من مربع ، فوقه وتحتة مستطيل ، ويحيط بهذه الساحة ، إطار ضيق ثم إطار أعرض منه . أما الشريطان العلوي والسفلي في الساحة ، ففيهما رسوم وريقات وسيقان نباتية دقيقة تقوم فوقها أربع جامات مفصصة المحيط ، وتضم هذه الجوامت كتابات بالخط الكوفي من سورة الشعراء . وفي المربع الأوسط في الساحة إطار يضم ثمان مناطق فيها آيات أخرى من القرآن الكريم مكتوبة بالخط الكوفي . وبعد الإطار مربع داخلي قوام الزخرفة فيه طبق نجمي كامل الشكل ، غنى بالرسوم النباتية الدقيقة في النجمة التي تتوسطه ، وفي الحشوات السداسية الاضلاع المورعة في نظام إشعاعي ودائري حول النجمة . وفي الإطار الخارجي فروع نباتية ووريقات تؤلف رسوما جميلة من الزخرفة العربية .

على أن تزيين المخطوطات بالرسوم الجميلة وتذهيبها لم يكن وقفا على المصاحف ، وكتب المسلمين فحسب ، بل وجدت مخطوطات من الإنجيل والتوراة مكتوبة بخط عربي جميل ، وذهبت صفحاتها وزينت برسوم هندسية ونباتية وفق الطراز العربي . ومن هذه المخطوطات نسخة من الإنجيل محفوظة في المتحف القبطي ونسخت في دمشق سنة ١٣٤٠ ، أي في عصر المماليك وغرة هذا المخطوط عليها منطقتان مفصصتان فيهما زخارف من فروع نباتية ووريقات فوقها في المنطقة العليا بالخط الكوفي « الإنجيل الطاهر » ، وفي المنطقة السفلى « والمصباح الزاهر ينبوع ... » وبين هاتين المنطقتين مربع قوام زخرفته أربعة

أشكال ثمانية الأضلاع . وفي وسط كل منها رسم صليب اتخذت عنصرا زخرفيا فوق مهاد من الفروع النباتية والورقات الدقيقة ، وتحصر هذه الأشكال بينها شكلا نجميا مؤلفا من معينين متداخلين وفي وسطه رسم وردة . وحول هذه الأشكال جميعا وفي الإطارات المحيطة بها رسوم خطوط مجدولة ورسوم زهور ، فضلا عن الوريقات والسيقان الواقعة في الإطار الخارجي والتي تؤلف رسوما جميلة . على أنه يلاحظ أن هذه الزخارف وسائر الرسوم المذهبة في ذلك المخطوط لا تختلف في أسلوبها الفني عن زخارف الصفحات المذهبة التي ترجع إلى عصر المماليك ، كما يلاحظ أن شارة الصليب اتخذت عنصرا زخرفيا في الرسوم المذهبة ولسكنها مع ذلك لم تخرجها عن الطراز الإسلامي^(١).

النحت والحفر :

أما فن النحت في الحجر والرخام والجص فقد بلغ درجة كبيرة من التقدم في عصر المماليك . والواقع أنه إذا كان عصر المماليك قد امتاز بازدهار الفن وكثرة المنشآت الفخمة ؛ فإن أهم ما تتصف به هذه المنشآت هي الزخارف والنقوش الفنية التي تحلى جدرانها وسقوفها ، فضلا عن المقر نصات وصنجات العقود المعشقة ، والألواح الرخامية والفسيفساء ، والمنحوتات الجصية والحجرية في الزخرفة الداخلية . وقد نحتت تلك الزخارف نحتا غائرا ، واقتصرت في أغلب الأحيان على الأشرطة والألواح المنقوشة التي زين بها المبنى حسب التصميم . وتعتبر الزخارف الجصية التي ما زالت موجودة في مسجد الطاهر ببيرس ، من الأمثلة الواضحة لروعة هذا النوع من الزخارف في عصر المماليك ؛ كما أن النقوش الحجرية التي تزين مدخل مدرسة السلطان حسن ، تعتبر مثلا

(١) زكي محمد حسن : أطلس الفنون الزخرفية ص ٥٠٧ - ٥٠٨

رائعاً لما بلغه فن الحفر في ذلك العصر^(١).

ويتضح تقدم فن النحت والحفر في عصر المماليك في الألواح الرخامية الكثيرة المحفوظة بدور الآثار العالمية ، والتي عليها أشكال جميلة لنباتات وطيور وحيوانات وزخارف منجوتة نحتاً دقيقاً ، ويوجد مدار الآثار العربية زير من الرخام يرجع إلى القرن الرابع عشر للميلاد ، وسطح الزير مزين بزخارف شديدة البروز قوامها رسوم فروع نباتية ووريقات ، وفي أعلاه كتابة بالخط السكوفي وفي أسفله عصابة من رسوم السمك . كذلك من أمثلة النحت البارزة في عصر المماليك ، الإفريز الذي راه فوق عقد قناطر أبي المنجا . وتمثل هذه النقوش سباًها متجهة إلى الجنوب الشرقي ورؤوسها منظورة من الأمام ، ولكل منها شارب وأذان دقيقة تان ومدببتان وعينان ملوستان وذنب مرفوع على ظهره ، وترمز هذه السباع إلى السلطان الظاهر بيبرس ، لأنه اختار رسم السبع رنكاً له^(٢). كذلك تجلى فن النحت في عصر المماليك في المنابر الرخامية الجميلة الخشبية بزخارفها النباتية ، فضلاً عن الشبائيك الداخلية في جوامع ذلك العصر ، وهي مصنوعة من الجص وتمتاز بزخارفها الجصية البديعة .

أما الحفر في الخشب فقد بلغ درجة فائقة من الإبداع في عصر المماليك ، فأقبل الفنانون المشتغلون في هذه المهنة على إنتاج التحف الخشبية الدقيقة لاسيما المنابر والخزانات والكراسي والدكك . وامتازت رسوم الحشوات في ذلك العصر بأنواع المرواح النخيلية والفروع النباتية والوريقات ، فضلاً عن تطعيم الحشوات بخيوط أو أشرطة رفيعة من نوع آخر من الخشب ، أغلى ثمناً وأندر وجوداً كالآبنوس أو بالعاج والعظم . وعندما استخدم الخشب في إنشاء السقوف كان يزخرف بالرسوم الجميلة المنقوشة أو المحفورة . كذلك ازدهرت

(١) دجماند : الفنون الإسلامية ص ١٣٢ - ١٣٣

(٢) زى محمد حسن : فنون الإسلام ص ١٣٢ - ١٣٣ ،

في عصر المماليك صناعة مشربيات العرافة من الخشب المنحروط ، ولدينا نماذج منها تشهد على براعة الفنان المصري في ذلك العصر . أما الخزانات والدكاك والمكراسي ؛ فيوجد منها عدد كبير بدار الآثار العربية وكلها تشهد بدقة الصناعة وجمال الزخرفة وصهو الذوق الفني^(١).

كذلك ارتقى الحفر على العاج والعظم زمن المماليك ، واستخدمت رقائق العظم فيما بين القرنين الثالث عشر والخامس عشر في زخرفة الأبواب والمنابر . وتحتوى المتاحف الكبرى في أوروبا - فضلا عن المتحف الإسلامي بالقاهرة - على نماذج كثيرة من التحف العاجية التي ترجع إلى عصر المماليك^(٢).

الفنون الصغرى :

أما الفنون الصغرى فتشمل الصناعات الصغيرة التي يبدو فيها تفوق الصانع ومهارته الفنية وذوقه الجليل ودقة عمله ، وقد سبق أن تكلمنا عن رقي الصناعة في عصر المماليك ، ولا بأس من أن نشير هنا إشارة أخرى سريعة إلى أهم الصناعات التي ظهرت فيها مهارة الصانع وصهو ذوقه الفني في ذلك العصر .

ففي صناعة الخزف بلغ الصانع في عصر المماليك درجة كبيرة من المهارة والدقة تدل عليها البقايا الخزفية من ذلك العصر ، ومن ذلك الخزف نوع ذو زخارف منقوشة تحت دهان شفاف باللون الأزرق أو الأخضر . وقد كتب بعض الخزفيين الذين أنتجوا لنا أنواعاً رائعة من الخزف أسماءهم على الوجه الخارجى من قاع الإناء ، ومن هذه الأسماء غيبي وغزال ودعين والاستاذ المصري وغيرهم ، كذلك امتاز عصر المماليك بصناعة نوع خاص

(١) زكى محمد حسن : فنون الاسلام س ٤٦٧ - ٤٧٤

(٢) ديمانده : الفنون الاسلامية من ١٣٢ - ١٣٣

من الفخار المطلي بالميّنا ؛ وعجينة هذا الفخار ماثلة إلى الحمرة وفوقها قشرة بيضاء يعلوها دهان بالميّنا الصفراء أو الخضراء أو ذات اللون البنى ، وكان هذا النوع من الفخار يستعمل بكثرة في بيوت الأسراء .

وفي صناعة النسيج أنتج عصر المماليك منسوجات راقية من الحرير ، امتازت برقتها وجمال رسومها ورقة نسيجها ، ومثل ذلك يقال عن صناعة السجاد التي أشار إليها الرحالة الأوروبيون الذين زاروا مصر في عصر المماليك . وانصف السجاد المصري في ذلك العصر بجمال ألوانه ومناة صناعته وجمال زخارفه الهندسية ، أما في صناعة الخشب فقد أبدع النجارون في صناعة التحف الدقيقة مثل المنابر والدكك والكراسي والحوامل والصناديق والخانات وغيرها ، وظهرت مهارة النجارين في ذلك العصر في خراط الخشب وتطعيم مشواته بالعاج والعظم وغير ذلك ؛ فضلا عن كسوة الخشب أحيانا بطبقة دقيقة من الفسيفساء تتألف غالبا من قطع صغيرة من الأنوس والسن ، وهو ما يسمى الترصيع ، على استخدام العاج والعظم لم يقتصروا في عصر المماليك على التطعيم والترصيع ؛ وإنما صنعت في ذلك العصر بعض تحف نادرة من العاج ، معظمها علب صغيرة عليها زخارف نباتية وهندسية رائعة .

أما صناعة المعادن فقد بلغت في الأخرى درجة فائقة من الدقة تعد عليها مختلفات ذلك العصر من أبواب وشهدانات وكراسي وطاسات وآنية وأسلحة وغيرها ، وجميعها استعملت فيها مختلف الأساليب الفنية في صناعة المعادن من حفر وتكفيت وتصفيح وتخريم ، ومثل ذلك يقال عن صناعة الزجاج لخصت المشكيات من الزجاج الأبيض المائل إلى الصفرة أو الخضرة ، وموهة بالميّنا . وأبدع نماذج لهذه المشكيات صنعت في الشام ومصر حوالي منتصف القرن الرابع عشر الميلادي ، وبالإضافة إلى المشكيات العديدة صنعت

— ٤٠٧ —

في ذلك العصر كؤوس وقنينات وآنية جميلة من الزجاج ، تشهد كلها على مهارة الصناعة ودقتها في ذلك العصر .

وهكذا يبدو لنا أن عصر الممالك كان عصر نشاط فني ضخم ، وأن الحياة الفنية بجميع أوجهها ومظاهرها ، ارتفعت في ذلك العصر إلى أسى درجات الرقي والاتقان .

والحمد لله رب العالمين

كشاف

شرح أم المصطلحات الواردة في مراجع العصر المملوكي

(١)

الآبازرة :

تجار البدور .

(المقرئى : السلوك ج ٢ ص ٤١٤)

أنا بك (أطابك) :

مقدم المسكر والقائد العام للجيش المملوكي .

(القلعة هندی : صبح الاعشى ج ٤ ص ١٨)

أجناد الحلقة :

محترفو الجندية من ماليك السلاطين السابقين وأولادهم ، وهم أقرب
فئات الممالك إلى الجيوش النظامية في المعصور الحديثة ، ومرباتهم
من ديوان الجيش .

إخوان سلاز :

وظيفة بالمطبخ السلطاني يقوم صاحبها بتقديم الخوان بالطعام إلى
السلطان . ويبدو أن صاحب هذه الوظيفة كان كبير رجال المطبخ
السلطاني ، وهو يقوم مقام المنار في غير المطبخ من البيوت
السلطانية .

(القلعة هندی : صبح الاعشى ج ٥ ص ٤٧١) .

آدر :

جمع دار ، وآدر الضرب هي دور سك العملة ، والآدر الشريفة
يقصد بها الحرم السلطاني . والآدر كذلك من ألقاب التشريف التي
تستعمل للإشارة إلى الخوندات أو صاحبات العصمة من عليّة النساء
دون ذكر أسمائهن .

(الفلقشندي : صبح الأعشى ج ٣ ص ٢٧١ — ٢٧٢ ،
خليل بن شاهين : زبدة كشف الممالك ص ١٢١ — ١٢٢)

الادعاء في الصيد :

الانتساب : بمعنى أن المبتدئ في الصيد لا يصير في زمرة هواة الفن
إلا بعد أن ينتسب لأحد رماة الصيد القدماء ، فإذا تم ذلك يقال أنه
ادعى لفلان أي انتسب إليه .
(زيادة : السلوك ج ١ ص ٥٢٣)

أرباب الخيال :

(انظر الخيال)

أرباب الضوء (الضوية) :

الأشخاص المكلفون بأعمال الإضاءة .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

أرباب الملعوب :

أصحاب الملاهي المعروفة من المناطقين بالكباش والمناقيرين
بالديوك ، والمعالجين والمصارعين والمناققين والملاكمين والمشاكين ..
والقرادة والدبابّة الذين يلعبون بالقروود والدب ... ،
(المقرئ : السلوك ج ٢ ص ٦٤٢) .

الارتفاع :

ما يتحصل من الدواوين عامة ، ويقال ارتفاع الديوان الخاص أى
ما يتحصل من الديوان الخاص بأموال السلطان .
(المقرئى : السلوك ج ١ ص ٥٢ ، ١١١)

امباسلار (اسفهرسلار) :

لقب من الألقاب الخاصة بأمرأء الطليخاناه فى عصر المماليك ، على
أن هؤلاء الأمراء لم يلبسوا أن أهرضوا عن هذا اللقب عندما وجدوا
أن العامة يطلقونه على بعض من يقف بباب السلطان من الاعوان .
(القلقشندى : صبح الأعشى ج ٦ ص ٧ - ٨)

الاستادار :

وظيفة من وظائف أرباب السيوف يتولى صاحبها شئون بيوت
السلطان كلها من المطابخ والشراب خااناه والحاشية والفنان . وله
مطلق التصرف فى استدعاء ما يحتاجه كل من فى بيت السلطان من
النفقات والكساوى وما يجرى بجرى ذلك من المماليك وغيرهم .
(القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٢٠ ، ج ٥ ص ٤٥٧ ،
أبو الحاسن : النجوم ج ٨ ص ٢٢٢ حاشية ١) .

أستاذ :

معلم ، وأطلقت فى المصطلح الممالكى على السيد الذى اشترى المملوك
بالمال وتعهده بالتربية حتى كبر وأعتقه . وكانت رابطة الأستاذية
— التى تربط المملوك بأستاذه — من أقوى الروابط فى نظام المماليك ،
حتى أن كثيراً منهم نسبوا إلى أستاذتهم ، فيقال مثلاً يبير من البندقدارى
نسبة إلى أستاذه الأمير علاء الدين البندقدار .

— ٤١٢ —

استيفاء الصعبة :

(انظر مستوفى الصعبة) .

الاستيوار :

السجل الحكومي ، الذي يشتمل على أرزاق ذوى الأقاليم وغيرهم ،
مياومة ومشاهدة ومسانة من الرواتب ...
(المقريزى : المواقف ج ٢ ص ٢٢٦)

الأسطول :

بجوهه مراكب حربية مجتمعة ، وأطلق أحياناً على مركب واحد
فقط . والأسطول هو المسكرى الذى يعمل فى البحر .
(زيادة : السلوك ج ١ ص ٤٥٧) .

أسلى :

وجعه أسامة . ويقال أيضاً مسلمانى وجعه مسامة أو مسامة . ويقصد
به كل من دخل الإسلام حديثاً من أهل الديانات الأخرى .
(زيادة : السلوك ج ١ ص ٨٤٣) .

الإشارة :

وظيفة من الوظائف الكبرى فى الدولة المملوكية ، جعلها الفقه شندى
فى الترتيب بعد نيابة السلطة والوزارة . ومع ذلك لا نجد تحديداً
ثابتاً لاختصاص صاحب هذه الوظيفة فى المراجع المعاصرة ، ولأن
كان من الثابت أنه تولاه عادة بعض كبار أمراء المماليك ، وأن
صاحبها كان يحضر مجلس المشورة .

(القلقشنندى : صبح الألهى ج ١١ ص ١٥٣ - ١٥٥ ،
المقريزى : السلوك ج ٢ ص ٨٩٠ حاشية ١)

- ٤١٣ -

أشكر لاط :

نوع من القماش أحمر اللون ، كان يرد من جزيرة أيرلند .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

أصحاب الارباع :

الارباع جمع ربع ، وهى أقسام أو أحياء المدينة الأهلة ، وأصحاب الارباع هم الحفراء الذين يقومون بحراسة تلك الأحياء ليلا .

اصطبل :

مجموعة من المباني يبنها الأمير المملوكى لسكنه وسكن أسرته وماليكه وخبوله .

الأطلاب :

الحرس الخاص لامراء الممالك ، ويحملون سلاحا كالاجناد .
(أبو المحاسن : النجوم ج ١ : ص ٢٩ حاشية ٢) .

الاطلس الخطافى :

فروع من الحرير ، أصل صناعته فى بلاد الخطا شمالى الصين .

(Dozy : Dict. Ar.)

إقامة :

وجمعها إقامات ، ما يلزم الجنود من المؤونة والعلف وغيرها . وربما قصد بها ما ينزل فيها المسافرين من الخيام ولوازمها وما يتبعها من أمتعة السفر .
(زيادة : السلوك ج ١ ص ١٥٠ حاشية ٣ ، أبو المحاسن : النجوم ج ٩ ص ٥٥ حاشية ٥) .

أكديشن :

وجمعها أكديشن ، الرجل الخليط الذى لا ينتسب إلى أصل واحد ، الحصان غير الأصيل المستخدم فى حمل الأثقال .

أمير آخور :

وظيفة يقوم صاحبها بالإشراف على اسطبل السلطان أو الأمير
ورعاية ما فيها من خيل وحيوانات .
زيادة : السلوك ج ١ ص ٤٢٨ حاشية ٣) .

أمير جاندار :

(انظر الجاندار) .

أمير خمسة :

أصغر مرتبة من مراتب الأمراء ، ويعتبر أصحابها من كبار الأجناد .
كذلك كانت تمنح هذه الرتبة لأولاد الأمراء المتوفين من باب
القشريف .

(القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ١٤ - ١٨) .

أمير شكار :

موظف يقوم برعاية الجوارح السلطانية من الطيور وغيرها . وكذلك
كل ما يتعلق بالصيد وحيواناته .

(القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ٢٢ ج ٥ ص ٤٦١) .

أمير طبلخاناه :

مرتبة حربية من مراتب أرباب الصيوف في مصر المملوكية . صاحبها
يلى أمير مائة مقدم ألف في الدرجة . وسمى أمير طبلخاناه لاحقيته
في دق الطبول على أبوابه كما يفعل السلاطين وأمراء المؤمنين . ويطلق
على أمير طبلخاناه أيضا أمير أربعين ، بمعنى أن يكون في خدمته
أربعين مملوك ، وقد يزيد هذا العدد إلى سبعين أو ثمانين .

(زيادة : السلوك ج ١ ص ٢٣٩ حاشية ١) .

أمير عشرة :

مرتبة حرية يكون في خدمة صاحبها عشرة ماليك . ويكون صفار
الولاية من طبقة أمراء العشرات .

أمير علم :

هو الذي يتولى أمر الأعلام والسماجق والرايات السلطانية، ويشترط
فيه الدراية بنوع الأعلام اللازمة لكل موكب من الركب السلطانية.
(القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ٨ ، ج ٥ ص ٤٥٦ - ٤٥٨)

أمير مائة مقدم ألف :

أعلى مراتب الأمراء في عصر الماليك ، وهذه المرتبة خاصة بأرباب
السيوف ويكون في خدمة صاحبها مائة مملوك ، وهو في نفس الوقت
مقدم على ألف جندي من أجناد الخليفة في وقت الحرب .
(زيادة : السلوك ج ١ ص ٢٣٩ حاشية ١) .

أمير مجلس :

يتولى صاحب هذه الوظيفة أمر مجلس السلطان أو الأمير ، كما كان
يتحدث على الأطباء والكهالين ومن شاكلهم .
(القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ١٨ ، ج ٥ ص ٤٥٥)

الأمراء السلطانية :

الخازن والشمس التي تخزن فيها الفلال الخاصة بالسلطان ولا تفتح
إلا في حالات الشدة والمجاعات .
(خليل بن شاهين : زبدة كشف الممالك ص ١٤٢ - ١٤٣) .

الأوشاقية (أو الأوجاقية) :

مفردها أوشاق أو أوجاقى ، وهى فرقة من خدم السلطان عملها ركوب الخيل للتسيير والرياضة .
(القلقشندى : صبح الأعشى ج ٥ ص ٤٥٤)

إبلجى :

وجمعها إبلجية ، السفير أو المبعوث .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

(ب)

باب سر لطيف :

هو الباب الذى يوجد بمكان غير ظاهر من العمارة الإسلامية ، ويدخل منه السلطان أو غيره من الشخصيات الكبرى فى حالة الزحام فى الحفلات مثلا أو عند التختفى فى حالة وجود حريم . والمقصود بباب لطيف أى صغير .

(عبد اللطيف إبراهيم على : دراسات تاريخية وأثرية مجلد ٢ تحقيق ٢٤٦) .

بابا :

وجمعها بابية ، وهو لقب عام لجميع رجال العاقلات خاياه ممن يتعاطى الغسل والصقل وغير ذلك . وهو لفظ رومى معناه أبو الآباء ... وكانه لقب بذلك لأنه لما تعاطى ما فيه ترفيه مخدومه من تنظيف قماشه وتحسين هيئته ، أشبه بالآب الشفيق .

(القلقشندى : صبح الأعشى ج ٥ ص ٤٧٠)

البادهنج (باداهنج أو بادنج) :

جمعه بادهنجات ، وهو المنفذ الذى يوجد وسط المبنى للتهوية (المنور أو الشخصينة) . وقد ورد اللفظ بالذال أيضاً .

(Dozy ; Dict. Ar.)

البازدار :

هو الذى يحمل الجوارح والطيور المعدة للصيد على يده .

(الفقهى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٤٦٩) .

بازهر (بازهر) :

حجر خفيف هش ينسب إليه قوى غريبة فى مقاومة السموم .

(Dozy ; Supp. Dict. Ar.)

الباشورة :

وجمها بواشير ، وهى سد من القراب لمنع وصول الخيالة والرجال

والسهم إلى موضع المعارك .

(زيادة : السلوك ج ١ ص ١٥٠ حاشية ٤)

البراية (المالك ...) :

المالك والأمراء الذين ليسوا من الخاصكية ، ويقال لهم الخرجية

أيضاً . أما الخاصكية فكانوا يسمون باسم الجوانية .

(الفقهى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٢٧٦ ، ج ٤ ص ٥٦ ،

المقرئى : المواظ ج ٢ ص ٢١٧) .

البره دار :

هو الذى يكون فى خدمة مباشرى الديوان فى الجمل ، متحدثاً على

أهوانه والمتصرفين فيه ...

(الفقهى : صبح الأعشى ج ٥ ص ٤٦٨) .

(٢٧ — العصر المالىكى)

الوك :

نقل المسافر ومتاعه .

(كتر ميرج ١ ص ٢٥٣ ، أبو المحاسن : النجوم ج ٨ ص ٨٧)

بركستوان (بر كسطوان) :

ما يوضع حول بدن الفرس كالدرع .

(زيادة : السلوك ج ١ ص ١٧٧ حاشية هـ) .

الهر كبل :

من تاد البحار من التجار والمغامرين ، والبراكبة نوع من السفن .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

البشت :

بكسر الباء أو ضمها وجمعها بشت ، العباءة من الصوف بلونه الطبيعي .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

البشتكي :

نوع من الخمر نسبة إلى الأمير بشتك .

البشخاناه :

وجمعها بشاخين ، وهي ما يطلق عليها اليوم الناموسية المزركشة

أو دابر السرير ، أى الحلية التى توضع فوق السرير ، وقد تكون
حول الغرفة كلها .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

البهمة دار (البهمة دار) :

هو الذى يحمل نعل السلطان أو الأمير .

(القلقشندي : صبح الأعشى ج ٥ ص ٤٥٩) .

بطلان :

وجمعها بطلون ، أى الأجناد والأمراء العاطلون من أعمال الدولة
ووظائفها وإقطاعاتها نتيجة غضب السلطان أو كبر السن ، أو اضطراباً
إلى الاعتكاف والاختفاء ، أو لمجرد حب الإنزواء والابتعاد .
(زيادة : السلوك ج ١ ص ٧٣ حاشية ٤) .

البغلة :

نوع من السفن الحربية ، ويفهم من عبارة ذكرها النويرى أن السفينة
من هذا النوع كانت تسمح لعدد كبير من الجنود يصل إلى نحو
سبعائة .
(النويرى : نهاية الأرب ج ٢٩ ص ١٣٢٣) .

البغلة :

قباء بلا أكمام أو بأكمام قصيرة جداً يلبس تحت الفرجية . وكان
يصنع من القطن البعلبكي الأبيض أو من السنجاب .
(Dozy : Dict. Vet. Ar.)

البغلة :

المال الذى فرضه المسلمون على النوبة بعد فتحهم لها ، وظل يحمل
إلى مصر كل سنة .
(المقرئى : المواعظ ج ١ ص ١٩٩)

بختيار :

بجادة سوداء مصنوعة من وبر البغل ، نوع من العمام السكار كان
يلبسها الوزراء أصحاب القلم .
(زيادة : السلوك ج ١ ص ٥٥ حاشية ٤) .

البكة :

المشبك الذى يشبك فى الثياب للزينة ، وقد يكون من ذهب .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

بليق :

وجمعه بلاليق ، نوع من النظم الخاص بالأغاني الشعبية .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

البندق :

كرات تصنع من الطين أو الحجارة أو الرصاص يستخدمها الرماة فى تطيير الحمام . وكان البندق يرمى بالاقواس ثم صار يرمى بالبنادق والآنابيب عن طريق مضغط الهواء من مؤخر الأنبوب. والبندقائيرفة هم صانعو البندق .

(ريدان : تاريخ التمدن الإسلامى ج ٥ ص ١٥٣) .

البندقدار :

حامل كيس البندق خلف السلطان أو الأمير .

(القلقشندى : صبح الأعشى ج ٢ ص ١٣٧ ، ج ٥ ص ٤٥٨)

السلوك ج ١ ص ٣٥٠ حاشية ٢ ، النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٩٤)

البواردى :

وجمعه بوارديون ، تاجر الطيور المحفوظة بالتبريد أو التليح .

(زيادة : السلوك ج ٢ ص ٦١٣ حاشية ١) . ويفهم من بعض كتب

الحسبة المعاصرة أن اللفظ أطلق أيضاً على تاجر الخضروات المحفوظة

بالصق وإضافة الخل والزيت والتوابل والملح إليها .

(ابن الأخوة : معالم القربة فى أحكام الحسبة ص ٩٦) .

البواقي :

ما يتأخر كل سنة عند الضبان والمتقبلين من مال الحراج .
(المقرري : المواظ ج ١ ص ٨٢)

بيدر :

وجمعها بيدار ، الموضع الذي تدوس فيه الغلال .

بيضة :

وجمعها بيض ، خورقة من الحديد يلبسها الجندي لوقاية رأسه ، وسميت
كذلك لأن شكلها يشبه البيضة .

البيكار :

وجمعها بياكه ، الحرب عامة .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

بياوستان :

(انظر مارستان)

(ت)

التشريس :

هو أن يهزم المذنب في طرقات المدينة ، ويضرب الجرس على رأسه
ليجتمع الناس حوله ، ثم يضرب أو يوسط علناً في نهاية المطاف .
(انظر التشهير والتوسيط)

التمحنائية :

القميص الذي يلبس تحت الملابس ، وعكسه القوقائية .

(Dozy : Dict. Vet. . .)

تفتت :

مقعد : وتخت الملك (سرير الملك) منبر من رخام يصدر إيران
السلطان الذى يجلس فيه .

تفريج (الجوارح) :

تدريب الجوارح .

(زيادة : السلوك ج ١ ص ٧٠٠ حاشية ٢) .

تخليق (المقياس) :

التخليق هو التعطير بالرائحة العطرية المسماة (خلو ق) ، ومعنى تخليق

المقياس تعطيره ومسحه بالزعفران عند وفاة النيل .

(القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ٤٧) .

التذرع بالسخام :

تطليخ الأذرع بالسخام ؛ وهو الفحم وسواد القدر ، وذلك إظهاراً
للحزن .

(زيادة : السلوك ج ١ ص ٧٩٦ حاشية ٤) .

تذكرة :

وجمعها تذاكر ، مكتوب يصدر من السلطان إلى نوابه وقصاده

لتذكيرهم بتفاصيل ما يوكل إليهم ، وليكون بمثابة ورقة اعتماد عند
الجهات التى يقصدونها .

(زيادة : السلوك ج ١ ص ٤٨٠ حاشية ٥) .

التراى :

الأطفال من أسرى الحروب .

(المقرئى : المواظ ج ٢ ص ١٩٤) .

التريسيم :

وجمعه تراسيم ، وهو الأمر الذي يصدر من الجهة المختصة لعقوبة
شخص بوضعه تحت المراقبة .
(زيادة : السلوك ج ١ ص ٧٤ : حاشية ه) .

التركاش :

الكنانة أو الجمعة التي توضع فيها الثياب .
(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

التسمير :

عقوبة تقضى بتعمرية المحكوم عليه من الثياب ، ثم يربط إلى خشبتين على
شكل صليب ، وتندق أعضاؤه في الخشب بواسطة مسامير غلاظ .

التشريف :

الحلقة أو الملابس المهداة من السلطان إلى كبار الأمراء في مناسبات
خاصة أهمها التعيين في الوظائف الكبرى كالنيابات .

التشهير :

عقوبة تقضى بأن يطرح المذنب على ظهر جمل ثم يطاف به في
المدينة ليظهر ، وقد تزفه المغاني وهو على هذه الصورة ليجمع الناس
حول ، وفي نهاية المطاف يضرب أو يوسط أمام الناس .

تشهير :

وجمعه تشاهير ، وهي الأشرطة التي توضع حول صدر الحصان .
(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

التصقيع :

إحصاء البيوت والعقارات لأجل فرض ضريبة عليها ، والتفويض
تقدير قيمة كل من البيوت المحصاة من أجل الفرض نفسه .
(زيادة : السلوك ج ١ ص ٣٨٤ حاشية ٢) .

تعبية :

وجهما تعابى ، أى ثياب أر قطع من قماش .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

تفصيلة :

ثوب .

التقليد :

المرسوم الموقع من السلطان لتعيين شخص في وظيفة كبيرة .

التفويض :

(انظر التصقيع) .

التكلاوات :

نوع من الملابس كان يلبسه الأمراء في العصر المملوكى ، غير معروف
وصفه بالضبط . واللفظ على صيغة الجمع .

(Dozy : Dict. Vet. Ar. p. 29.)

التمر بغاوى :

نوع من الخمور نسبة إلى الأمير تمر بغا .

التوسيط :

عقوبة تقضى بضرب المحكوم عليه بواسطة السياف ، على أن تكون
الضربة قوية تحت المرة ، فتقسم الجسم نصفين من وسطه وتنهال
أعضاء المحكوم عليه إلى الأرض .

تومان (طومان) :

الفرقة التي يبلغ عددها عشرة آلاف مقاتل .
(زيادة : المقرري ج ١ ص ٩٣٣ حاشية ١)

(ج)

الجامشكير :

الامير الذي يقوم بذوق المأكول والمشروب قبل السلطان أو الامير
خوفاً من أن يدم عليه فيه سم أو نحوه .
(القلقيشندي : صبيح الاعشى ج ٥ ص ٤٦٠)

الجمالية :

وجمهم اجوالى ، وهى ما يؤخذ من أهل الذمة من الجزية المقررة عليهم
كل سنة .
(القلقيشندي : صبيح الاعشى ج ٣ ص ٤٦٢ ، النويرى : نهاية الأرب
ج ٨ ص ٢٢٦)

الجاليش :

راية عظيمة في رأسها خصلة من الشعر تحمل في مواكب السلطان ،
لا سيما المواكب الخاصة بالحرب . وكان الممالك يطلقون اللفظ أيضاً
على الطليعة من الجيش .
(زيادة : السلوك ج ١ ص ٦٢٨ ، أبو المحاسن : النجوم ج ٧
ص ١٠١) .

الجامكية :

وجمعها جوامك ، الرائب المربوط لشهر أو أكثر .

(Dozy : Spp. Dict, Ar.)

الجاندار :

الأمير الذى يستأذن على دخول الأمراء للخدمة السلطانية ويدخل أمامهم إلى الديوان .

(القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٢٠ ، ج ٥ ص ٤٥٩)

الجتز :

مظلة أو قبة من حرير أصفر مزركش بالذهب على أعلاها طائر من فضة مظلية بالذهب ، وتحمل على رأس السلطان في موكب الصيد .

(القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٧ - ٨) .

جرانعى (جارحى) :

طبيب الجراحة .

جرخ :

جمعها جروخ ، وهى آلة حربية تستعمل لرمى السهام والنفط والحجارة ويقال لمستخدمها من الجنود جرخى .

(زيادة : السلوك ج ١ ص ١٠٠٣ حاشية ١) .

جريدة :

فرقة من المسكر الخيالة لإرجالة فيها . ويقال ركب السلطان جريدة .. أى ركب على وجه الممرعة دون أن يصطحب معه أثقالا أو حمدا .

(زيادة : السلوك ج ١ ص ١٠٦ حاشية ٨) .

جفت :

وجده جفوت ، وهو الزخرفة البارزة المنحوتة في الحجر على شكل
إطارات أو سلسلة حول فتحات النوافذ والأبواب والإبرانات .
(عبد اللطيف إبراهيم على : دراسات تاريخية وأثرية مجلد ٢
تحقيق ٥٨)

الجفت :

وجدهما جفتاوات ، اثنان من أوشاقية اصطبل السلطان ، قريبان
في السن ، يركبان أمام السلطان في بعض الموكب السلطانية ،
ويلبسان قباءان أصفران من حرير وتحتهما فرسان أشهبان .
(القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ٧ - ٨) .

جفت :

جمجمة من جلود لاخشب فيها ، أو من خشب لا جلود فيها .
(أبو المحاسن : المجموع ج ٧ ص ٣١٣ حاشية ٦) .

المجدار :

الموظف الذي يتصدى لإلباس السلطان أو الأمير ثيابه .
(القلقشندي : صبح الأعشى ج ٥ ص ٤٥٩) .

المجدار :

هو الذي يمشي في الموكب السلطانية عن يمين السلطان حاملاً
دبوساً له رأس منخم مذهب ، على أن يتجه نظره إلى السلطان من
أول خروج الموكب حتى انقضاؤه .

جنابة :

وجمعها جنابات ، وهى ما يفرضه السلطان من ضرائب وغرامات
تأديبية على رعيته .

(زيادة : السلوك ج ١ ص ٤٨٨ حاشية ١) .

جنب :

وجمعها جنبات ، وهى الخيول التى تسير وراء السلطان فى الحروب
لاحتمال الحاجة إليها .

(زيادة : السلوك ج ١ ص ٣٤١ حاشية ٣) .

جنك :

آلة من آلات الطرب ، والمضغيات الجوارى اللاتى يلعبن على
الجنك .

الجنكى :

لاعب آلة الجنك ، وكذلك رقص الأفراح . واتمنى معظم هذه
الفئة من الرقاصين إلى شباب الأرمن واليهود واليونان والترك .

(زيادة : السلوك ج ١ ص ٢٧٥ حاشية ٣) .

الجنوبة :

النقالة التى تستخدم لنقل الموتى .

الجوسق :

وجمه جواسق ، أى القصر والقصور .

الجوشن :

الدرع .

الجوك :

الركوع على الركبتين (في حضرة عظيم) .

الجوكان :

عضو مدهونة طولها نحو أربعة أذرع ، برامها خشبة مخروطية
معموفة تزيد عن نصف ذراع ، تستخدم في لعب الكرة (برلو) .
(القلقشندي : صبح الاعشى ج ٥ ص ٤٥٨ ، زيادة : السلوك ج ١ :
ص ٤٣٥) .

الجوكندار :

هو الذي يحمل جوكان السلطان أثناء لعبة الكرة .
(القلقشندي : صبح الاعشى ج ٥ ص ٤٥٨) .

(ج)

الحاجب :

أمير وظيفته أن ينصف بين الأمراء والجند ، تارة بنفسه وتارة
بمراجعة النائب إن كان ، وإليه تقديم من يعرض ومن يرد ،
وعرض الجند وما ناسب ذلك ، .
(القلقشندي : صبح الاعشى ج ٤ ص ١٩) .

حاجب الحجاب :

تسمى وظيفته الحجبوية الكبرى ، وهو يقوم بالنظر في مخاصمات
الاجناد واختلافهم في أمور الإقطاعات ونحو ذلك ، .
(المقرئ : المواعظ ج ٢ ص ٢١٩) .

حراسة الطير :

وظيفة يقوم صاحبها برعاية طيور الصيد وحراستها في الأماكن التي ينزل فيها السلطان لمباشرة رياضة الصيد .
(القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ، ص ٢٢ ، ج ٥ ص ٤٦١) .

حرافقه :

وجمعها حراريق : نوع من السفن الحربية استخدمت لحمل الأسلحة النارية (كالنار الآفريقية) ، وكان بها مرام تلقى منها النيران على العدو . واستخدم نوع منها في النيل أثناء الاستعراضات التي تقام في الحفلات العامة مثل الاحتفال بكسر الخليج .
(قاموس محيط المحيط ، المقريزي : السلوك ج ١ ص ٣٠٦) .

حرمى :

وجمعها الحرمية ، وهم الجنود المكلفون بحراسة مكان من الأماكن .

حرفوش :

وجمعها حرافيش أو حرافشة ، أى الرعاع والدهماء وضفاف الخلق .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

الحرمدان :

حقيبة السفر ، المحفظة الخاصة التي يحمل فيها الفرد أوراقه ونقوده ، ويطلق اللفظ أيضاً على حقيبة الخلاق .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

الشمسية :

قاعة خاصة بالحريم في عمارة القصر أو البيت الإسلامي، وهي تشتمل على إيوان أو أكثر ودور ومرافق وحقوق من مطبخ وخزانات ومرحاض وغيرها، وهي التي عرفت بعد ذلك في العصر العثماني بالحرم ملك .
(عبد اللطيف إبراهيم هلى : دراسات ، مجلد ٢ تحقيق ٢٢٤) .

حبر خبار :

هو الثوب أو القماش الذى يبدى أكثر من لون واحد .
(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

الحماية :

وجمعها حمايات ، وهي مكس يعرضه الأمير أو السلطان على بعض الأراضى والمتاجر والمراكب والأرذاق ، ويقوم الأمير بحماية الشخص الذى يدفع ذلك المكس المقرر .
(زيادة : السلوك ج ١ ص ٨٧٥ حاشية ٣) .

الحمل :

وجمعهم حمل ، ما يحمل إلى السلطان من محصول إقليم نوعاً أو عيناً ، وكذلك ما يحمله المحكوم عليه عدلاً أو ظلماً من الأموال إلى خزائن السلطان .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

الخوانج خاناء :

ومعناها بيت الخوانج : وهي الجهة التى منها يصرف اللحم الرائب للمطبخ السلطانى والدور السلطانية ، ورواتب الأمراء والماليك السلطانية وسائر الجند والمتعممين وغيرهم من أرباب الرواتب الذين تملأ أسماؤهم الدفاتر ، وكذلك توابل الطعام ...
(القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ١٢) .

الحواصل السلطانية :

يطلق هذا الاسم على ثمانية بيوت هي الشرا بجاناه ، والطشيت خاناه ،
والفر اش خاناه ، والملاح خاناه ، والركاب خاناه ، والحو انج خاناه ،
والمطبخ ، والطبلخاناه . وكان لكل منها موظفون يقومون بالعمل
فيها وتديرها .

حوندار :

وجمعه حوندارية ، وهم المكلفون بخدمة طيور الصيد من الكراكي
والبلشونات وحملها إلى موضع تعليم الطيور ، وأصل اللفظ حيوان دار .
(القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ٤٧٠) .

حباسة :

وجمها حوائص ؛ وهي الحزام أو المنطقة .

(Dozy : Dict, Vet. Ar. p.p. 146 — 147)

(خ)

خانون :

لقب لقبت به الملكات والأميرات .

الخازندار :

المشرف على خزائن السلطان من نقد وأمتعة .

الخاصكية :

جماعة من حاشية السلطان يأتون في ترتيب البروتوكول المملوكي بعد
الأمراء المقدمين . كان عددهم في أول الأمر أربعة وعشرين ثم زادوا

على الأربعمئة . وقد تمتع الحاصكية بمكانة كبيرة فكانوا يدخلون
على السلطان في أوقات فراغه وفي خلواته بغير إذن ، وخصص لهم
السلطين الأرزاق الواسعة والعطايا الجزيلة ، وامتازوا بحسن المظهر
وأفافة الركوب والملبس .

(كتر مير ج ٢ ص ١٥٩ ، خليل بن شاهين : زبدة كشف الممالك
ص ١١٥ - ١١٦ ، أبو المحاسن : النجوم ج ٧ ص ١٧٩ - ١٨٠) .

حاطية :

وجمعها خواطى ، المرأة الداعرة .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

الحان :

وجمعه خانات ، وهى الوكالات أو الفنادق المعدة لاستقبال التجار
وبضائهم ودوابهم ، وغيرهم من المسافرين والحجاج . ويوجد به
اصطبل للدواب وفي أعلاه طباق ومساكن للنازلين به تطل على
حوش أو ساحة تتوسط الحان . كذلك يوجد بالحان إرمياه وميضأة
ومسجد صغير .

(عبد اللطيف إبراهيم : دراسات ، المجلد الأول تحقيق ٧٨)

خان :

وجمعه خانات ، أماكن العبث واللهو .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

خانقاه :

وجمعها خوانات وخانقاوات ، بيت ينقطع فيه الصوفية للعبادة
والذكر .

(٢٨ - العصر المملوكى)

نجد :

وجمعه أخبار . من معاني هذا اللفظ. في هصر الممالك إقطاع من الأرض ، فيقال أخبار الأجداد أى إقطاعاتهم .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

الحزب القار :

أو المقر بالنار ، وهو الحزب المقدد الذى يمكنه مدة أطول في النار حتى يمكن حفظه أو تخزينه مدة طويلة دون أن يتلف . وكان الصوفية بالخوانق يفضلون هذا النوع من الحزب على غيره .
(عبد اللطيف إبراهيم : دراسات ، المجلد الأول تحقيق ١٩٩٩) .

الخرستان :

وجمعا خرستانات ، وهى حجرة تشبه الخلوة أو الحاصل (خزانة) ، تفرش بالبلاط وتسقف ، وقد يكون بها منفذ أو بادهنج ، ولكن الغالب أن تكون حبيسة بدون فتحات .
(عبد اللطيف إبراهيم : دراسات ، مجلد ١ تحقيق ٢٠٠٣) .

الحركاه :

بيت من خشب ، مصنوع على هيئة مخصوصة وينشئ بالجوخ ونحوه ، تحمل في السفر لتكون في الخيمة للمبيت في الشتاء لوقاية البرد .
(القلقشندي : صبح الأعشى ج ٢ ص ١٣٨) .

الغروبة :

قطعة صغيرة من النقود النحاسية ، قيمتها عشر درهم . والغروبة أيضاً مكبال .

(زيادة : السلوك ج ١ ص ٨٩٩ حاشية ١) .

الخزان :

الشخص الذي يوكل إليه مراقبة خزانة السلطان في الأسفار والحروب .
(زيادة : السلوك ج ١ ص ٩٣٧ حاشية ١) .

خمشداش :

زميل في الخدمة ، والخمشداشية هي رابطة الزمالة بين الأمراء الذين
نفاوا ممالكهم عند استأذ أو سيد واحد .
(زيادة : السلوك ج ١ ص ٢٨٨) .

الخطاة :

لعبة تلعب ببعض البندق والحلوى والماء وما شابهها ، وهي تقوم
على أساس القرعة فن وقع له الحلوى أو البندق أكل وشرب الذي
يجواره وقد تكون الحلوى من نصيب فرد واحد مرتين أو ثلاثة ،
فيضطر من يجواره إلى الشرب مرتين أو ثلاثة مما يسبب ضحك
المجموعة .

(زيادة : السلوك ج ١ ص ٧٢٥ حاشية ٥) .

الخواجا (الخوجة) :

المعلم ، التاجر ، المكاتب .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

الخوانيق :

المرض المسمى بالذبح

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

الخوخة :

باب صغير في بوابة كبرى لسور أو حصن ، وجرت العادة أن
يخصص هذا الباب الصغير للاستعمال اليومي ، فلا تكون حاجة

إلى فتح البوابة الكبرى إلا عند الاقتضاء أو الضرورة . وقد يقصد
بالخوخة فتحة في السور نفسه دون أن تكون هناك بوابة كبرى .
(زيادة : السلوك ج ٢ ص ٢١٥ حاشية ٢) .

خوشطاشة :

وجمعها خوشطاشية ، وهي امرأة من موظفات القصر السلطاني .
(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

خونجة :

وجمعها خونجات ، خوان صغير أو صينية من الخشب أو المعدن .
(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

خوند :

لقب يفيد معنى الاحترام ، ويخاطب به الذكور والإناث سواء ،
(سيد ، سيدة) .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

خيل النوبة :

الخيل التي تربط قرب قصر السلطان ليركب منها حين يريد الركوب ،
وتسمى أيضاً فرس النوبة .

(د)

دبابة :

وجمعها دبابات ، وهي آلة حربية تشبه البرج المتحرك على عجلات ،
وتكون من عدة أذوار تصمد إليها الجند لمهاجمة الحصون وتسلق
الأسوار .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

الدبندار :

الذى يضرب على الطبل .

الدبوس :

وجعه دبائيس : آلة من آلات الحرب فى العصور الوسطى تشبه
الإبرة . كانت تصنع من هود طوله نحو قدمين من الخشب الغليظ
فى أحد طرفيه رأس من حديد أطرها ثلاث بوصات تقريباً .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

درابة :

جمعها دراريب ، إحدى مصرعى الباب .

(Dozy : Sopp. Dict. Ar.)

الدراعة :

جمعها دراريع ، جبة مشقوقة المقدم ولا تكون إلا من صوف .
ويطلق الاسم أيضاً على صدرية تلبسها البنات .
(زيادة : السلوك ج ١ ص ٤٥٢ حاشية ٢) .

الدرب :

وجعه دراب : باب السكة الواسع .

درج :

وجعه دروج ، ورق خاص بالدواوين ، وهو كما عرفه القلقشندى
« الورق المستطيل المركب من عدة أوصال وهو فى عرف الزمان
عبارة عن عشرين وصلاً متلاصقة لا غير » .
(القلقشندى : صبح الأعشى ج ١ ص ١٢٨) .

الدركاه :

وجمعها دركاوات ، الفضاء أو الممر المؤدى لمدخل بناء كبير .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

الدستور :

الإذن : فيقال أعطى السلطان الأمر أو دستوراً ، أى أعطاهم إذناً بكذا .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

الدلق :

بكسر الدال وسكون اللام ، أو بفتح الدال وكسر اللام ، رداء يتكون من عدة قطع من القماش على ألوان مختلفة يشبه العباءة وكان يرتديه المتصوفة والقضاة والعلماء .

(Dozy : Dict. Vet. Ar.)

الدليل :

وهو الشخص من أهل الناحية يقوم بتعيين أسماء المزارعين للأراضي المزروعة التي يمسحها السلطان من المساحين ، ويلزمه أن يعمل القناديق والقوانين والسجلات ، ويفصل الأرض ببقاعها وأصناف مروحاتها وقطائعها وأسماء المزارعين .
(ابن عاتق : قوانين الدواوين ص ١٠) .

منة :

وجمعها مدن ، قطعة الأرض من القرية ، وما عليها من دور الفلاحين والجامع والمقبرة وغيرها من المنافع العامة .
(عبد اللطيف إبراهيم : دراسات مجلد ٢ تحقيق ٥٩٩) .

الدوادر :

أى عسك الدواة ، والوظيفة اسمها الدوادرية وصاحبها يحمل دواة السلطان أو الأمير ويقوم بإبلاغ الرسائل عنه وتقديم القصص والشكاوى إليه .

دولاب :

وجمها دولاب ، وهى الآلات العجلىة المستعملة فى الزراعة والصناعة
عموماً ، سواء صناعة السكر أو النسيج أو غيرها .
(زيادة : السلوك ج ٢ ص ٤٠٨ حاشية ٤) .

الدينار الديوانى :

الدينار الشرعى الصادر عن الديوان أو دار الحرب السلطانية ، فهو
مضروب حسب قوانين الدولة القائمة بورثه معين وعيار معين من
الذهب ، ولذلك يكون مقبولا فى المعاملة لدى الناس فى الأسواق .
(القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٦٥ - ٤٦٨) .

الدينار الصورى (المخصص) :

تطلق الدنانير الصورية أو المخصصة على الدنانير الإفرنجية ، وسميت
كذلك لنقش صور أصحابها من ملوك الإفرنج على وجوها .
(القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٤١) .

الديوان الخاص :

هو الديوان السلطان الخاص بالنظر فى أموال السلطان والتحدث
فى جهاته ومضائقه .
(القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٥٦)

ديوان المفرد :

الديوان الذى يتولى نفقة الممالك السلطانية من جانيكات وعلقب
وكسوة ، وإيراده من البلاد المفردة له .
(القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٥٧)

ديوان المواريث الحضرية :

(انظر المواريث الحضرية) .

(ر)

رأس المبصرة :

كبير الأمراء المتقدمين في السن من أكابر أمراء المائة ، وهم أمراء المشورة .

(أبو المحاسن : النجوم ج ١٢ ص ٢٤٧) .

رأس النوبة :

وظيفة يقوم أصحابها بالحكم على الممالك السلطانية والأخذ على أيديهم ، وقد جرت العادة أن يكونوا أربعة أمراء ، واحد منهم مقدم ألف وثلاثة طبلخاناه .

(القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ١٨) .

الرباط :

وجمه ربط ورباطات ، وهو في الأصل مكان إقامة الحامية الرباطية عند نفور العدو ، ثم صار اللفظ يطلق على بيت الصوفية حيث يربطون للزهد والعبادة .

الربع :

عدة مساكن علوية تحتها حوانيت ووكائل للتجارة ، ولكل ربع باب يتصل مباشرة بسلم داخل وجهة البناء المشرفة على الطريق العام ، وبواسطته يصعد السكان إلى مساكن الربع المخصصة لسكنى العامة بأجور شهرية زهيدة .

(أبو المحاسن : النجوم ج ١٠ ص ٣٠٣ حاشية ٣) .

الرخمت :

كلمة فارسية تفيد عدة معان منها المتاع والبضائع والمناشية والحيل والرياش ، والرختوانية هم الذين يتولون العناية بمتاع السلطان أو الأمير في الأسفار .

(زيادة : السلوك ج ١ ص ١٩٠ حاشية ٤ ، أبو المحاسن : النجوم ج ٨ ص ٦٠ حاشية ٦) .

الرزق :

وجمه أرزاق ، وهي المرتبات سواء كانت يومية أو شهرية .

الرزقة :

وجمها الرزق ، وهي الأطينان التي كان يعطيها الخلفاء والسلاطين ، بمقتضى حجاج شرعية أو تقاضي ديوانية إلى بعض الناس على سبيل الإحسان والإناعام رزقه بلا مال . ومن تلك الأراضي ما هو موقوف صرف ريعه على المساجد والخوانق والربط وغيرها من الجهات الخيرية للقيام بمصالحها والوفاء بمطالبها . ومنها غير الموقوف فيصرف ريعه إلى مستحقه ، والرزق التي من النوع الأخير تفعل بانقراض أصحابها . (أبو المحاسن : النجوم ج ٩ ص ٥٣ حاشية ٦) .

رستاق :

وجمه رسانيق ، وهي القرى أو البلاد أو الأعمال . واللفظ فارسي ومنه بالعربية رزداق وجمعه رزاديق . (زيادة : السلوك ج ١ ص ٣١٠ حاشية ٢) .

الرفرف :

سقف خشبي مائل ، يحمل على كباش (كوابيل) خشبية مثبتة في

الخوائط فوق المقاعد أو المصاطب أو مكاتب الأيتام ، للوقاية من
المطر وأشعة الشمس ، كما يستعمل في تغطية الميضاء وسط الصحن
المكشوف في المدارس والمساجد لحماية المتوضئين .
(عبد اللطيف إبراهيم : دراسات ، مجلد ٢ تحقيق ١٣٠) .

رفيعة :

وجمعهما رقايع ، وهي الرقعة ترفع إلى السلطان لتبليغ ظلامة أو غيرها .
(زيادة : السلوك ج ١ ص ١٣٨ حاشية ٣) .

الرقبة :

رقبة من أطلس أصفر موزقة بالذهب ، تحمل على رقبة الفرس
السلطان في موكب العيدين ، وتكون من تحت أذني الفرس إلى
نهاية عرقة .
(القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ٨) .

ركاب :

وجمعه ركابون وركابية ، وهم الذين يركبون خيول السلطان والأمراء
لترويضها وتدريبها (سائس) .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

الركاب خاناه :

أى بيت الركاب الذى تكون به السروج واللجم وغيرها من معدات
ركوب الخيل ، وله موظف موكل بحواصله يعبر عنه بمهتار الركاب خاناه .
(القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ٧ ، ١٢) .

الركابدارية :

هم الذين يحملون الفاشية بين يدي السلطان في المواكب ، وهم تابعون
للكاب خاناه .

(القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ٧ ، ١٢) .

الرنك :

وجمعه رنوك ، وهو الشعار الذى يتخذه الأمير لنفسه عند تأمير السلطان له . ويقول القلقشندى : ومن عادة كل أمير كبير أو صغير أن يكون له رنك يخصه ... بحسب ما يختاره ويؤثره ، ويجعل ذلك دهنًا على أبواب بيوتهم والأماكن المنسوبة إليهم كطابخ السكر وشن الغلال والأمالك والمراكب وغير ذلك . .
(القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٦١ - ٦٢) .

روشن :

وجمعهما رواشن ، وهى النافذة أو السكة للإضاءة وقد يقصد بها الخرجات فى العمار .
(عبد اللطيف ابراهيم : دراسات ، مجلد ٢ تحقيق ١٧٨) .

الروك :

وفعله راك ، وهى عملية مسح الأراضى الزراعية وفك الزمام وتعديل الخراج . وقد تمت هذه العملية فى مصر الإسلامية عدة مرات ، أشهرها فى عصر المماليك الروك الحسامى الذى أجراه حسام الدين لاجين والروك الناصرى الذى أجراه الناصر محمد .
(زيادة : السلوك ج ١ ص ٨٤١ - ٨٤٢) .

(ز)

زاوية :

وجمعهما زاويا ، اسم أطلق قديماً على كل مسجد صغير ، فيه أحد الرجال .

المعروفين بالتقوى والزهد ، ويقوم بوعظ وإرشاد من يتردد على
زاويته من الناس . وقد تطور معنى زاوية في العصر المماليكى فأصبح
يقصد به الخانقاه أو منزل الصوفية .
(انظر مادة زاوية فى دائرة المعارف الإسلامية — بروفنسال) .

فيديّة :

وجمعها زبادى ، وعاء للشرب أو للطعام .

الزحافة :

وجمعها زحافات ، آلة من آلات الحرب والحصار .

الزراق :

وجمعها زراقون ، أى رامى النفط من الزرافة وهى الأنوبة التى
يزرق بها النفط .

(زيادة : السلوك ج ١ ص ٥٩٨ حاشية ٢) .

الزردخاناه :

بيت الزرد أى بيت السلاح ، وبها دمن السيوف والقسي العربية
والنشاب والرماح والدروع المتخذة من الزرد المسانع ... وفى كل
سنة يحمل إليها ما يعمل بخزائن السلاح من الأسلحة ، يجعل على
رءوس الحمالين ويؤف إلى القلعة ويكون يوماً مشهوداً . وفى هذه
السلاح خاناه من الصناع المقيمين بها لإصلاح العدد وتجديده
المستعملات جماعة كثيرة ... ،

(القلقة شندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ١١ - ١٢) .

الزردخاناه :

أطلق اللفظ أحياناً على السلاح نفسه ، أو على السجن المخصص
للمجرمين من الأمراء وأصحاب الرقب .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

الوردكاش :

الصانع الذى يعمل فى السلاح خاناه، فى صنع السلاح وإصلاحه وتجديده.
(القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ١٢) .

الزهر :

انظر حرفوش والشلاق .

الزغل :

النقود المزيقة ، ويطلق اسم الزغلية على من ينفيا .
(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

زكاة الدولة :

ضريبة على الآلات المستعملة ، بمعنى أن هذه الزكاة كانت تفرض
على من يستخدم الدواليب (أى الآلات والمعدات) فى الرى أو
الغزل أو صناعة السكر أو غيرها .
(زيادة : السلوك ج ١ ص ٦٦٤ حاشية ١) .

زكاة العداة :

زكاة مفروضة للسلطان سنوياً على قطمان القبائل العربية والتركية ،
وكانت تصل فى كل سنة إلى عشرات الآلاف من الغنم .

زمام دار (زنان دار) :

الموكل بحفظ الحرم : أى الذى يتحدث على باب ستارة السلطان أو
الأمير من الخدام والمحصيان .
(القلقشندي : صبح الأعشى ج ٥ ص ٤٥٩ - ٤٦٠)

زئار :

جمعه زانير، وهو حزام أو وشاح تميز بلبسه أهل الذمة في العصور الوسطى .

(Dozy : Dict. Vet. Ar.)

الزئارى :

كسوة للحصان تكون مفتوحة فوق صدره ومسدولة على الكفل بحيث لا يرى الذيل ، وكان الزئارى يعطى بدل الكنبوش لمن عظمت قدرته ومقامه عند السلطان ، ويصنع من الأتلس الأحمر أو الجوخ .

(زيادة : السلوك ج ١ ص ٨٥١ حاشية ٥) .

زفير :

سلسلة .

الزبار (أو الزيارة) :

جمعها زيارات ، وهى آلة حربية كالقوس الذى يرمى به البندق .

(م)

الساق :

الأمير الذى يتولى سقى السلطان على الموائد ، والإشراف على مد السباط وتقطيع اللحم ، وسقى المشروب بعد رفع السباط .

(القلقشندى : صبح الأعشى ج ٥ ص ٤٥٤) .

ستارة :

وجمعها ستائر ، حائط أو حاجز خارجى يهتمى خلفه المدافعون عن حصن أو سور ، ويستخدم المهاجمون الستائر كذلك للوقاية من قذائف العدو .

(Dozy : Supp. Dict. Are.)

السراخور :

وجمعهما سراخورية : كبير الجماعة الذين يتولون علف الدواب ،
وتحرف أحياناً إلى سلاخور وسلاخورية .

(القلقشندي : صبح الأعشى ج ٥ ص ٤٦٠ - ٤٦١ .
أبو المحاسن : النجوم ج ١٠ ص ١٢ حاشية ٢) .

صيرير الملك :

هو تخت الملك : وهو عبارة عن د منبر من رخام يصدر إبران السلطان
الذى يجلس فيه ، وهو على هيئة منابر الجوامع إلا أنه مسند إلى
الحائط ، وهذا المنبر يجلس عليه السلطان في يوم مهم كقدوم رسل
عليه ونحو ذلك ...

(القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ٦ - ٧) .

سقرق :

وعاء خاص بشرب الخمر ، ويوجد نوع من النبيذ الحبشي اسمه
سقرقة .

(زيادة : السلوك ج ١ ص ٥٥)

سقمان :

خف ثان يلبس في القدمين فوق خف آخر ، إعتاد أن يلبسه
السلطان والأمراء والجنود والحريم في عصر المماليك .
(أبو المحاسن : النجوم ج ٧ ص ٣٣١ حاشية ٥) .

سكرجة :

وجمعهما سكارج ، وهي الألوان .

السمط :

المائدة : ما يثبت على الأرض لوضع الأطعمة وجلس الآكسين .

السمط :

الثوب الذى ليست له بطانة ، طيلسان .

السنجق :

وجعه سناجق ، وهى وايات صفر صفار تربط بطرف الرماح ويحملها السنجقدار .

(القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ٨ ، ج ٥ ص ٤٥٦-٤٥٨) .

السنجقدار :

حامل السناجق .

السواق :

وجعه السواقون ، الشخص المكلف بإدارة سانية الماء فى جامع أو غيره .

(زيادة : السلوك ج ٢ ص ٧٥٩ - حاشية ١) .

سوسى :

نوع من الملابس أو الأقبشة المزخرفة أو المطرودة بالزخارف ، يرجح أنها كانت من الحرير أو الكتان الرقيق ، واستخدمت فى حمل القمصان (السوامى) .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

(ش)

شاد (أو مشد) :

مفتش ، فيقال شاد الدواوين أى الذى يفتش على الدواوين ويراجع

— ٤٤٩ —

حساباتها ، ومثله شاد الجوالى وشاد الزكاة .. وتسمى العملية شد ،
فيقال شد الدواوين أى التفتيش عليها .
(زيادة : السلوك ج ١ ص ١٠٥ حاشية ٢) .

شاد العماير :

يكون صاحب هذه الوظيفة د متكلما فى العماير السلطانية مما يختار
السلطان إحداها أو تجديده من القصور والمنازل والأسوار ،
(القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٢٢) .

الشاش :

ما يلف حول غطاء الرأس من قماش رقيق .

(Dozy : Dict. Vet. Ar.)

الشحنة :

الشرطة ، وصاحب الشحنة هو متولى رئاسة الشرطة ، ويقال للوظيفة
الشحنكية .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

البشراجاناه :

بيت الشراب ، ويحوى مختلف أنواع الأشربة — ومنها الأدوية —
التي يحتاج إليها السلطان ، فضلا عن الأواني النفيسة المصنوعة من
الصينى الفاخر .

(القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ١٠ ، النويرى : نهاية الأرب

ج ٨ ص ٢٢٤) .

(٢٩ — المضرمات)

الشراب :

هو الذى يصنع الاثربة والادوية ، وهو أحد رجال الشرا بخاناه ،
مثل الشربدار .

(القلقشندى : صبح الاعشى ج ٥ ص ٤٦٩) .

الشرب :

وجعه شرابى ، قمش رفيع من الكتان كان يستعمل فى معظم
الاحيان للعائم .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

الشربدار :

هو الذى يقوم بالخدمة فى شرا بخاناه السلطان أو الامير ، وكانت
هذه الوظيفة من وظائف الخدم أو الحرف الصناعية . أما الامير
الذى يتولى سقى السلطان على الموائد فاسمه الساقى .

(القلقشندى : صبح الاعشى ج ٥ ص ٤٦٩ ، ٤٥٤)

الشربوش :

قلنسوة طويلة تلبس بدل العمامة وكانت شارة الأمراء فلا يلبسها
المعممون ، وقد ألغى استعمالها بمصر زمن المماليك البرجية .

(Dozy : Dict. Vet. Ar.)

الشش :

لوح من الخور ،

(أبو المحاسن : النجوم - طبعة كاليفورنيا ج ٩ ص ٧٩٨ - ٧٩٩)

شعار السلطنة :

مظاهر السلطنة ، أى أنواع الملابس والأدوات والترنيمات التى
كان يظهر بها السلطان فى المواكب سواء داخل القلعة أو خارجها .
(القاموس العربى : ص ٤ ج ٤ ص ٧ - ٨ ، ٤٤ - ٤٩) .

شكارة :

وجمعها شكائر . وهو الكيس للنقود أو غيرها

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

الشلاق :

الوعر والرماع الذين يضايقون الناس فى الطرقات ويدخلون الخوف
فى قلوبهم ، والشلاق الضرب بالسوط .
(زيادة : السلوك ج ١ ص ٦٩٥ حاشية ١) .

شمسة :

سماعة الباب أو المدق من الحديد أو النحاس الأصفر ، وجمعها شماسات .
(عبد اللطيف إبراهيم : دراسات ، مجلد ٢ تحقيق ٦٥) .

شمعة :

وجمعها شميرع وهى الأعمدة الخشبية الدقيقة .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

شمبر :

وجمعها شمبر ، شريط من الحرير الأسود أو الأحمر الفاتح ، عرضه
شهران وطوله نحو سبعة أذرع ، تلفه النساء على رؤوسهن فوق
الغطاءة بحيث يتدل أحد طرفيه من مقدم الرأس والثانى من مؤخرها .
(زيادة : السلوك ج ٢ ص ٥٢٨ حاشية ١) .

شبن (شبنية) :

وجمه شوائى . أكبر نوع من السفن الحربية عرفته مصر فى العصر
المائىكى ، وكان يحذف بمائة وأربعين مجدافاً وتركب فيه المقاتلة
والجدافون

(ابن مأتى : كتاب قوانين الدواوين ص ٣٣٩ - ٣٤٠ ، المقرئى :
المواعظ ج ٢ ص ١٩٤ - ١٩٥) .

(ص)

الصاع :

مكيال للحبوب يساوى نصف وية ، والوية ثلاث كيلات .
(زيادة : السلوك ج ١ ص ٤٠٩ حاشية ١) .

الصبر :

البيع إلى أجل مسمى ، أو بغير ثمن معين .
(المقرئى : السلوك ج ٢ ص ٧٧٦ حاشية ٤) .

صفه :

مسطبة ، أريكه ، مقعد .

صولق :

وجمه صوائق ، وهو جراب أو كيس من جلد توضع به حاجات
السفر من الزاد ، ويضعه الشخص فى حزامه من الجهة اليمنى .
(الخطط التوثيقية ج ١٠ ص ٣٥ ، زيادة : السلوك ج ١ ص ٧٨٩ ،
حاشية ٩ ، أبو المحاسن : النجوم ج ٧ ص ٧٨) .

— ٤٥٣ —

(ط)

الطارمة :

وجمه طارمات ، بيت من خشب يبنى سقفه على هيئة قبة لجلوس السلطان .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

الطارىء :

ثالث سماط سلطانى يمد فى أول النهار ، ويكون منه ما كول السلطان .
(المقرئى : المواعظ ج ٢ ص ٢١٠ - ٢١١) .

الطبائى :

طبيب الامراض الباطنية .

طبر :

وجمه أطبار ، وهو الفأس من السلاح ، معرب تبر .

الطبردار :

هو الذى يحمل طبر السلطان — أى فأسه — عند ركوبه فى المراكب .
وأمر طبر هو الذى يتحدث على الطبردارية الذين يحملون الأطبار .
(القلقشندى : صبح الأعشى ج ٥ ص ٤٥٨ ، ٤٦٢) .

طبقة :

وجمها طباق ، وهى ثكنات الممالك بقلعة الجبل ، وكانت كل طبقة تضم الممايك المجلوين من لد واحد .
(المقرئى : المواعظ ج ٢ ص ٢١٣ - ٢١٤) .

الطراحة :

وجمها طرايح ، مرتبة يفترشها السلطان إذا جلس .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

طراد (طريدة) :

وجمه طرائد ، وهو نوع من المراكب الجارية يستعمل غالباً في حمل الحبول والفرسان .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

(ابن ماتي : كتاب قوانين الدواوين ص ٣٣٩) .

الطراز :

هو الشريط من الكتابة على الحجر أو الرخام أو الخشب ، ويكتب عليه عادة اسم المنشئ وتاريخ الإنشاء . ويوجد على جانبي المدخل الرئيسي للمبارة أو على فتحات الأبواب والنوافذ والإيوانات أو على واجهة المارة .

(عبد اللطيف ابراهيم : دراسات تاريخية ، مجلد ٢ تحقيق ١١٨)

طارخان :

الأمير المتقاعد دون أن يكون مفضولاً عليه ، وإذا كان له أن يقيم حيث شاء .

طرد وحش :

نوع من قماش حرير منقوش بمناظر الصيد والطرود ، وكانت تصنع منه بعض الخلع السلطانية

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

طريدة :

(انظر طراد) .

الطشت خاناه :

أى بيت الطشت ، وفيه يكون أنواع الطشوت اللازمة لغسل الأيدي والقماش وغيرها ، فضلاً عن المقاعد والمخاد والمجادات التى تلزم السلطان ، وللطشت خاناه مهتار يشرف عليه .

(القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ١٠-١١) .

الطشت دارية :

هم غلمان الطشت خاناه .

(القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ١٠ - ١١) .

طلب :

لفظ كردى معناه الأمير الذى يقود مائتى فارس فى ميدان القتال ، ويطلق أيضاً على قائد المائة أو السبعين . وقد عدل مدلول اللفظ فأصبح يطلق على المكتيبة من الجيش .

(زيادة : السلوك ج ١ ص ٢٤٨ حاشية ٢) .

الطمغا (تمغا) :

البراءة التى تصدر من قبل السلطان أو الملك بالعمو عن مجرم أو تأمين خائف والطمغا أيضاً شعار السلطان أو الأمير .

(زيادة : السلوك ج ١ ص ٣٧٩ حاشية ٤ ، ص ٨٧٢ حاشية ١) .

الطواشى :

وجمه طواشية ، وهم الحصيان الذين استخدموا فى الطباق المملوكية ، وفى الحريم السلطانى ، وكانت لهم حرمة وافرة وكلمة نافذة ، وبعد شيخهم من أعيان الناس .

(المقرئى : المواعظ ج ٤ ص ٢١٩) .

— ٤٥٦ —

الطومار :

نوع من أنواع الخط ، أو من أنواع الكتابة .
(القلقشندي : صبح الأعشى ج ٣ ص ٥٢) .

(ظ)

الظرف :

وجمه ظروف ، وهو الوعاء وكل ما يستقر فيه غيره .

(ع)

الماقد :

هو الذى يتولى تحرير العقود وكتابتها ، كعهود البيع والزواج ،
وهو دون القاضى فى الرتبة .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

العامل :

وجمه عاملون ، وهو من يتولى تنظيم الحسابات الدوائية وكتابتها .
(القلقشندي : صبح الأعشى ج ٥ ص ٤٦٦) .

المهرة :

مقدار المساحة ، وهى فى الإصطلاح المالى القديم مقدار المربوط
من الخراج أو الأموال على كل إقطاع من الأرض ، وما يتحصل
عن كل قرية من عين أو غلة .

(عبد اللطيف إبراهيم : دراسات ، مجلد ٢ تحقيق ١٠٥١) .

عرادة :

وجمعها عرادات ؛ وهى آلة حربية أصغر من المنجنيق ، ترمى بالحجارة إلى المرمى البعيد .
(زيادة : السلوك ج ١ ص ٦٢ ، حاشية ٤) .

العريف :

مساعد المؤدب فى الإشراف على الأيتام المسجلين بالمكتب ، ويكون بالمكتب طادة عدة عرفاء يختص كل منهم بالإشراف على بضعة صبيان .

العصاية :

وجمعها عصائب ، وهى راية عظيمة من حرير أصفر مطرزة بالذهب ، عليها ألقاب السلطان ، تحمل فى المواكب السلطانية .

العلامة السلطانية :

هى ما يكتب السلطان بخطه على صورة اصطلاحية خاصة ، وكان لكل سلطان علامة وتوقيع .
(زيادة : السلوك ج ١ ص ٣٤٤ حاشية ١) .

علم دار :

هو الذى يحمل العلم فى ركاب السلطان .
(القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٢٢ ، ج ٥ ص ٤٥٦ ، ٤٦٣)

العنبرينه :

نوع من الخلى المعنبر تلبسه النساء حول الرقبة ، والعنبريون هم تجار العنبر المستخدم فى الخلى وكان لهم سوق كبير بالقاهرة .
(المقرئى : المواعظ ج ٢ ص ١٠٢ - ١٠٣)

(غ)

الغاشية :

قبة د من أديم مخروزة بالذهب ، يحاطها الناظر جميعها مصنوعة من الذهب ، تحمل بين يديه (السلطان) عند الركوب في المواكب الحفلة كالبيادين والأعياد ونحوها ، يحملها الركاب دارية .
(الفلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ٧)

غراب :

وجمه أغربة ؛ نوع من السفن الحربية تركب فيه المقاومة والجدا فون .
(ابن عاتى : قوانين الدواوين ص ٢٣٩ - ٢٤٠) .

الغفار :

وجمه غفائر ، المعطف :

(Dozy : Supp. Dict, Ar.)

غلام :

وجمه غلمان ؛ وهو من يقوم بخدمة الخيل ، وهذا اللفظ . د في أصل اللغة مخصوص بالصبي الصغير والمملوك ، ثم غلب على هذا النوع من أرباب الخدم .

(الفلقشندي : صبح الأعشى ج ٥ ص ٤٧١) .

الغلاميات :

الجوارى يلبسن لباس الغلمان .

(Dozy : Supp Dict. Ar.)

الغيار :

نوع من الملبوس تميز به أهل الذمة عن المسلمين في العصور الوسطى .

(Dozy : Supp. Dict, Ar.)

(خ)

فانوسية :

وجمعها فانوسيات ؛ كمية معينة من شمع الفوانيس .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

الفراش خاناء :

بيت الفراش ، وكانت تشتمل على أنواع الفرش من البسط والخيام
اللازمة للسلطان في أسفاره وإقامته خارج القلعة .
(القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ١١) .

فرس النوبة :

فرس مجرب بالمرج والغاشية ، يحفظ بقرب حضرة السلطان
لاستخدامه في الطوارئ أو للركوب إعلانياً بقيام سلطان جديد .
(ابن أبي الفضايل : كتاب النهج السديد ، ص ٤٣٢) .

الفرمان :

وجمعهم فرمانات ، ما يصدره السلطان أو الملك من الكتب للولاية
والوكلاء والقصاص يعلن فيها تقليد مناصبهم أو تعيينهم فيها .

الفضة النقرة :

سبيكة من الفضة والنحاس الأحمر بنسبة ثلثين من الفضة وثلث من
النحاس الأحمر ، ومنها كانت تضرب الدراهم النقرة .
(القلقشندي : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٤٣ ، ٤٦٦) .

الفلس :

وجعه فلوس ، عملة صغيرة ، وكانت في مصر على نوعين أحدهما المطبوع بالسكة وثانيهما غير المطبوع . وكان الصنف الثاني عبارة عن قطع مكسرة من النحاس الأحمر أو الأصفر ويعبر عنها بالمتقى . (الفلقشندي : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٤٣ - ٤٤٤) .

فهاد :

وجعه فهاده ، وهم الأشخاص الموكول إليهم حراسة الفهود . (زيادة : السلوك ج ١ ص ٤٩٤ حاشية ٤) .

فوطه :

مرادف البقجة ، وهي قطعة من قماش من الحرير السكندري تحمل فيها الأوراق الرسمية مرتبة إلى حضرة السلطان . (زيادة : السلوك ج ١ ص ٥٧٨ حاشية ١) .

الفوقانية :

وجعهما الفوقانيات ، الرداء الذي يلبس فوق الملابس ، وعكسها التحتانية . (Dozy : Diet. Vet. Ar.)

(ق)

القباء :

ملبوس (فرجية - قفطان) وقد وصف المقریزی الآقية على عصر المماليك بأنها إما بيض أو مشهرة أحمر وأزرق ، وهي ضيقة الأكمام على هيئة ملابس الإفرنج اليوم .

(Dozy : Supp. Vet. Ar.)

القبر :

آلة موسيقية .

قبع :

وجعه أقباع ، غطاء للرأس يشبه الطاقية ، ويصنع من الحرير أحياناً .
وكان يوضع تحت الطربوش الذى تلف حوله العمامة . وجاء فى خطط
المقرئى ذكر سوق الإقباعين .

(ابن الحاج : المدخل ج ٤ ص ٢٤) .

القبق (القباقي) :

القرعة العمالية ، وأطلق فى عصر المماليك على الهدف المستعمل فى
لهب الرماية المعروف بالقبق أيضاً ، وكان هذا الهدف يصنع على
شكل قرعة عمالية من ذهب أو فضة .

(زيادة : السلوك ج ١ ص ١٨٨ حاشية ٦) .

قرباص :

وجعها قرايىص ، وهى الحجارة .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

القرط :

البرسيم .

(زيادة : السلوك ج ١ ص ٥٠٦ حاشية ٤) .

قرطاس :

وجعها قراطيس ، وهى نوع من الفلوس النحاسية أو الدرام الملقوفة
على شكل أصبع .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

- ٤٦٢ -

القرقل :

قيص النساء ، أو الثوب الذى لا يكامله ، والقرقل كذلك سلاح يشبه
الدرع يتخذ من صفائح الحديد وبغشى بالدياج الأحمر والأصفر .
(زيادة : السلوك ج ١ ص ٧٤٧ حاشية ٤)
عبد اللطيف إبراهيم : دراسات ، مجلد ٢ تحقيق (٣٠٠) .

القصّة :

الطلب ، الإلتباس ، الشكوى ، ويرفعها صاحب الحاجة إلى حضرة
السلطان عن طريق موظف خاص اسمه قصه دار .
(القلقشندى : صبح الأعشى ج ١٣ ص ١٥٤) .

القطاعة :

وجمعها قطاعيع ، المطرقة تستعمل لقطع الصخر أو هدم البناء .

قطيعة :

وجمعها قطائع ، وهى الفئة من الجند .

القلمة :

وجمعها قلاع ، قصد بها — فضلا عن معناها الأصلى وهو الحصن —
قوس النصر أو الزينة التى تقام بعرض الطريق على ألواح من الخشب
ليمر من تحتها موكب السلطان .

فلنصورة (أو فلنسية) :

وجمعها فلانس ، لباس للرأس (طاقيّة — طربوش) تصنع من جلد
الماعز أو الصوف أو الحرير ، وربما لبست تحت العمامة .

القلوبات :

اللون والجوز والبندق والفسق وسائر أنواع المكسرات المفشورة .

(Dozy ; Supp. Dict. Ar.)

القمن :

نوع من الخمور يصنع من لبن الخيل ، واللفظ: ترى لأصل .

(زيادة : السلوك ص ٦٧ حاشية ٢) .

القند :

وجمعها قنود ، عصارة قصب السكر إذا جمد

القود :

ما يبعث به العرب إلى السلاطين من هدايا الخيل والإبل والحجوانا .

النادرة

القياسة :

وجمعها قيايس ، سفينة تستعمل في الإبحار في المياه القليلة العمق كشواطئ

البحار ، وتكون عادة عريضة المساحة قليلة الارتفاع بطينة السير .

(Dozy ; Supp. Dict. Ar.)

القياسية :

وجمعها قياسر ، السوق المسقوفة ، وأطلقت أيضاً على الخان أو الوكالة ،

أى البناء الذى يحتوى على غرف ومخازن للتجار ، ويعلوه طباق

للسكنى بارتفاع دورين أو ثلاثة .

(Dozy ; Supp. Dict. Ar.)

القيطون :

والجمع قباطين وقباطن ، الحجرة الصغيرة في لغة أهل مصر ، والحجيمة

في لغة المغرب ،

(Dozy ; Supp. Dict. Ar.)

(ك)

كارمى :

وجمعه كارمية وأكارم ، أى تجار الكارم ، وهم تجار البهار والتوابل
الواردة إلى مصر من الهند عن طريق نفورالين ، وهم كذلك
أرباب المال والأعمال المصرفية في الشرق الأوسط في العصور الوسطى .
وكان معظمهم من بلاد الكانم الإسلامية (بالسودان الغربى)
فنسبوا إلى أصلهم بعد تحريف اللفظ إلى الكارم .

(زيادة : الملوك ج ١ ص ٨٩٩ حاشية ٢ ، ج ٢ ص ٨٢٧ حاشية ٣) .

كاملية :

وجمعه كوامل ، نوع من الملابس الخارجية كالعباءة .

(Dozy : Supp. Vet. Ar.) .

كبش :

وجمعه كبوش وأكبش ، آلة حربية لها رأس ضخم وقرنان
تدفعها الجنود نحو أسوار الحصون لتهدمها .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

كجاجة :

هودج النساء (فارسية) .

(أبو المحاسن : النجوم ج ١٠ ص ٧٠) .

كحال :

طبيب العيون .

الكسراذ :

كود ضيق الرأس يستعمل لحفظ الماء صالحا للشرب .

(Dozy : Sopp. Dict. Ar.)

الكراع :

ذخيرة الحرب من الأطعمة والمؤونة .

(زيادة : السلوك ج ١ ص ٦٢٠ حاشية ٣) .

كردوس (كردوسة) :

وجعها كراديس ؛ وهى الفرقة الحربية الراكبة والقطعة العظيمة من الخيل .

(Dozy : Sopp. Dict. Ar.)

الكراخذ :

وجعها كراخديات ؛ وهو المعطف القصير يلبس فوق الزردية ويصنع من القطن أو الحرير المبطن

(زيادة : السلوك ج ١ ص ٢٥٣ حاشية ٤) .

الكسابه :

ثم الذين ينتهزون فرصة الفن للتهب ، أو فرصة الحروب لجمع الغنائم .

الكساره :

وجعها كسارات ؛ وهى من أدوات التعذيب .

(Dozy : Sopp. Dict. Ar.)

الكشاف :

وجعها الكشافة ؛ جماعة معينة من العسكر تقوم بكشف أخبار العدو .

(٣٠ - المصدر المتأخر)

الكلابى :

وجمه الكلابى والكلابىة ؛ ومعناه فى الأصل الشخص الذى يتولى تربية الكلاب ويبيعها ، ثم أصبح يطلق على الشخص الذى يركب بكلاب الصيد عند سلطان أو أمير وقد يقصد باللفظ أيضا الغوغاء والدهماء .
(زيادة : السلوك ج ٢ ص ٢٢٥ حاشية ١) .

الكلايب :

ومفردتها كلاب ؛ وهى المشابك المستخدمة فى تحلية الكلونه .
(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

الكابنده :

وجمها كابندات ؛ وهى لباس الرقبة أو الكوقية يلبسها النساء على رءوسهن وتربط تحت الذقن لحفظ ما فوق رءوسهن من اللباس .
(أبو الهاسن : النجوم ج ٧ ص ٣٣٠) . وهى كذلك جزء من غطاء الرأس سواء كان عمامة أو كلونه (زيادة : السلوك ج ١ ص ٩٤ حاشية ١) .

كفنه (كفتاه أو كفتته) :

انظر كلوته .

كاوتة :

وجمها كاوتات ، غطاء الرأس ، طاوية صغيرة تلبس وحدها أو بهمامة .
وتسمى أيضا كفنه وكفتاه وكفتته .
(أبو الهاسن : النجوم ج ٧ ص ٣٣٠ حاشية ١) .

كر :

وجمه كرات ، لفظ فارسى معناه الحزام المفرغ من وسطه لوضع النقود والأشياء الثمينة فيه .
(أبو الهاسن : النجوم ج ٧ ص ٣٣١) .

كنفوش :

وجمه كنفابيش ، وهو خمار لتغطية الوجه . وأطلق اللفظ أيضا على البرذعة توضع تحت سرج الفرس . وقد حرف اللفظ أحيانا إلى كنفوش وكنافيش .

كوسة :

وجمها كوسات ، وهي صنوجات من نحاس تشبه النرس الصغير ، يذق بأحدها على الآخر بإيقاع مخصوص . وتكومي هو الذي يضرب بالكوسات .

(القاموس الشدي : صبح الأعشى ج ٤ ص ٩ ، ١٣) .

(ل)

اللاطية (اللاطنة) :

وجمها لاطيات ، وهي القنادسة الصغيرة تعلق بالرأس أى تعلق بها .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

اللبخة :

لعبة استحدثت في عصر المماليك ، تشبه اللعبة المعروفة اليوم باسم التعطيب أو النبوت ، فكان الشخص د يخرج له عشرة من الشطار ويجمعون عليه بالضرب فيمسك عصاه من وسطها ويرد الجميع .

(زيادة : السلوك ج ٢ ص ٧٠٢ ، الشعراني : الطبقات الكبرى

ج ٢ ، ص ١٠٦ - ١٠٧) .

— ٤٦٨ —

(م)

المارستان (البيارستان) :

مستشفى للمعالجة المرضى وإقامتهم .

مباشر :

وجمه مباشرين ، وهم الموظفون الإداريون .

مباشرو الختم :

اعلى هذا القلب على موظفين أشبه بموظفي الجمارك في العصر الحالي ، يقومون بمراقبة الوارد والصادر من البضائع ، ويفرضون عليه مكوسا تختلف باختلاف الأحوال ، ثم يختمون البضاعة بخاتم خاص دلالة على استيفاء المكس .

(زيادة : السالك ج ٢ ص ٤٣٩ حاشية ١) .

المتجر :

ما يتجر فيه السلطان من البضائع لحسابه الخاص ، وكان يقوم بذلك موظف من موظفي السلطان .

(مقدمة ابن خلدون ج ١ ص ٢٤٤ — ٢٤٥) .

مثال :

وجمه مثالات ، وهو أول ما يكتب من الأوراق الرسمية لإيداعها بإعطاء أحد المالكين إقطاعات الخالية .

(الفلشندي : صبح الأمل ج ١٢ ص ١٥٣) .

محارة :

وجمعها محائر ، وهى صناديق تشبه إلى جانيب الرجل ، وكان للمحائر سوق خاص بالقاهرة اسمه سوق المحارين .
(المقرئى : المواقظ ج ٢ ص ١٠١) .

المخايل :

وجمعها المخايلون ، الرجل الذى يدير لعبة خيال الظل .

مخفية :

وجمعها مخافى ، طبق واسع هقيق يتسع لكمية كبيرة من اللحم والطعام فى الموائد الكبرى وللروائب المقررة للأمراء .
(زيادة : السلوك ج ٢ ص ٤٦٨ حاشية ٣) .

مدورة السلطان :

نخيمته الكبيرة الخاصة به والتي تنصب له فى الأسفار والحفلات .

مراوة :

وجمعها مراوات ، قطع من المعدن أو غيره يزان بها صرج الفرس وتقاط بقماش الصرج .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

مرمة :

وجمعها مرعات ، نوع من السفن الكبار .

المرملة :

ظرف يوضع به الرمل الذى كان الكتاب يستعملونه لتجفيف الكتاب .
(القلقشندي : صبح الأعشى ج ٢ ص ٤٧٨ - ٤٨٠) .

المروزي :

قماش سميك من الحرير الجيد أو القطن ينسب إلى مدينة مرو .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

المزملاني :

هو الذي يقوم بتسبيل الماء في السبيل ، ويتولى الخدمة في الأوقات

المحددة ليسهل الشرب على الناس والحيوان .

(عبد اللطيف إبراهيم : دراسات ، مجلد ٢ تحقيق ٦٦٨) .

المسألة :

(انظر أسلمى) ،

المسترفة :

حجرة صغيرة بمثابة خزانة بأعلى المنزل أو مجاورة للمطبخ عادة ،
وتكون حديدية غالباً .

(عبد اللطيف إبراهيم : دراسات ، مجلد ٢ تحقيق ٢١٧) .

المستوفي :

موظف من كتاب الأموال بالدواوين ، عمله ضبط الديوان التابع له
والتبليغ على ما فيه مصلحته من استخراج أمواله ونحو ذلك . ومن
المستوفين مستوفى الصحة وهو يشارك الوزير ويعاونه في الأمور
العامة مثل كتابة المراسيم وتسجيلها . ومثله في النفوذ مستوفى الدولة .
وكان لكل ديوان من دواوين الدولة ناظر وتحتته المستوفى والشاهد .

(القاموسى : صبح الأعشى ج ٥ ص ٤٦٦) .

منهجرة :

وجمعها مساحر : وهي ألعاب لإضحاك الناس .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

مسطبة :

الجزء الأمامي من الدكان ، وتمتد خارج إغلاق الدكان نفسه لعرض البضائع عليها أو الجلوس المترددين على المتجر .

مسطح :

وجهه مسطحات ، نوع من السفن له سطح .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

المسقفات الهلالية :

هي العقارات المسقفة الموقوفة من بيوت وحواليات ورباع وخانات وطواحين ومعاصر وغيرها ، والتي تدر دخلاً هلالياً أو شهرياً (مال هلالى) ، ويطلق عليها كذلك اسم المستغلات الهلالية .

(عبد اللطيف إبراهيم : دراسات ، مجلد ٢ تحقيق ٤٢)

المشارفة :

وظيفة يتولاها الموظفون الذين يشرفون على الأمور المالية ، وبخاصة فى الأوقاف .

(ابن عثمان : قوانين الدواوين ص ٣٠٢) .

المشتريات (المشتروات) :

هم المماليك الجلبان أو الأجلاب الذين كان السلطان يشتريهم لنفسه .

المشير :

(انظر الإشارة)

المصانعات :

أموال الرشوة والمدارة .

مطلق :

جمعه مطلقات ، وهي ما يرسله السلطان من رسائل خاصة إلى نوابه بمصر ونيابات الشام . وقد يكون فيها سر لا يراد إظهاره إلا عند الوقوف عليه ، وفي هذه الحالة تصدر محتومه .

(القلقة شندی : صبح الاغشى ج ٧ ص ٢١٨ - ٢٢١) .

المعادى :

المراكب التي استخدمت لتعديّة الناس عبر النيل ، وكان لها مواضع معينة لضبط رسوم التعديّة . ومن هذه المعادى في عصر المماليك معديّة ابابّة ومعديّة المقياس ومعديّة الجسر بالجيزة ومعادى جزيرة الذهب . (المقرئى : المواعظ ج ١ ص ١٠٤ زيادة : السلوك ج ٢ ص ٥١٨ . حاشية ١) .

المعالج :

وجمها المعالجون ، وهم الذين يلعبون برفع الأثقال . (زيادة : السلوك ج ٢ ص ٦٩٥ حاشية ١) .

المعامل :

وجمعه معاملون ، وهم المتعهدون الذين يمدون المطبخ السلطاني بما يلزمه من حوائج ومواد غذائية .

المعصرة :

آلة للتعذيب تتكون من خشبتين مربوطتين ببعضهما بوضع بينهما وجه المعاقب أو رأسه أو رجلاه أو عقباه ؛ ثم تعد الخشبتيان شداً وثيقاً حتى يؤدي ذلك - في كثير من الأحيان - إلى كسر نظم المصنوع بين الخشبتيين .

(زيادة : السلوك ج ١ ص ٧٤٠ حاشية ٣)

المعيد :

صاحب وظيفة بالمدرسة ، يأتي دون المدرس في الأهمية ، وعنده أن يعيد للطلبة ما ألقاه عليهم المدرس ليفهموه ويحفظوه .
(القلقشندي : صبح الأعشى ج ٥ ص ٤٦٤) .

المفرد :

هو الديوان الذي كانت تخرج منه في زمن الدولة المملوكية نفقة الممالك السلطانية من جامعيات وعليق وكسوة ؛ ويرجع تأسيسه إلى أيام الفاطميين .
(القلقشندي : صبح الأعشى ج ٣ ص ٣٥٧ ، خليل بن شاهين : زبدة كشف الممالك ص ١٠٧) .

المفرد :

غاية ارتفاع النيل .

المفرد :

يطلق اللفظ على الجندي أو المملوك ، فيقال وصل مفرد من اصعبد (على مبارك : الخطط التوفيقية ج ٩ ص ٢٥) .

مفردى :

وجمعه مفاردة ، نوع من عساكر حلقة السلطان كانوا يتبعون
ديوان المفرد مباشرة .
(زيادة : السلوك ج ١ ص ٤٨٠ حاشية ٢) .

المقام :

لقب من ألقاب كبار رجال الدولة في عصر المماليك ، فيقال المقام
السلطاني أو المقام العالي السلطاني للسلطان ، والمقام الملكي للملك
نفسه وأتباعه المنسوبين إليه من أمراء ووزراء . أما المقام العالي فقط
فكان من الألقاب التي اشترك فيها أرباب السيوف والأفلام .
(القلقشندي : صبح الأعشى ج ٥ ص ٤٩١ ، ج ٦ ص ٥) .

مقدم الدولة :

هو الذي يتحدث على الأعوان والمتصرفين لخدمة الوزير ، والمراد
المقدم على الدولة ، والدولة لفظ خصه العرف بمتملكات الوزارة
كما يقال لناظر الدواوين ناظر الدولة ...
(القلقشندي : صبح الأعشى ج ٥ ص ٤٦٨) .

مقدم المماليك :

هو أجل الطواشية وأقربهم إلى السلطان ويشغل رتبة أمير طبلخاناه
ويعاونه نائب برتبة عشرة . وكان الأمراء أيضاً مقدمون للقيام على
شئون ماليهم . وكان لمقدم المماليك أن يتحدث في شأنهم ويحكم
فيهم ، كما كان يحضر نفرة الجامكية عليهم .
(زيادة : السلوك ج ١ ص ٧٨٠ حاشية ٣ ، ابن إياس : بدائع
الزهور ج ٣ ص ١٥٥ ، ج ٤ ص ٢٩١) .

المقر نص :

وجمعها مقر نصات ، خلية مهارية استخدمت على نطاق واسع في
حصار الماليك في أجزاء مختلفة من العمارة مثل أركان القباب
والمنارات .

(عبد اللطيف ابراهيم : دراسات ، مجلد ٢ تحقيق ٦١) .

مقنع :

وجعه مقنع ، وهو منديل تغطي به المرأة رأسها ويكون أضيق من
القناع ، أو هو النصيف الذي تفضيه النساء فوق وجوههن .
(زيادة : السلوك ج ٢ ص ٤٢٣ حاشية ١) .

مكاحل البارود :

هي المدافع التي يرمى منها النفط . وهي أنواع .
(أبو المحاسن : النجوم ج ١٢ ص ٢٧٧) .

المكس :

وجعه مكوس ، وهي كل ما تحصل من الأموال لديوان السلطان
أو لأصحاب الإنطاكات أو لموظفي الدولة خارجا عن الخراج الشرعي .
(المقر بزي : المواظ ج ١ ص ١٠٣ - ١١١ ج ٢ ص ١٢١ - ١٢٤ ،
القاقشندي : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٦٨ - ٤٧١) .

مكوك :

وجعه مكاكيك ، وهو مكبال للحبوب يسع صاعاً ونصفاً ، والصاع
قدر نصف وية ، والوية ثلاث كيلات .

الملطافات :

رسائل كانت تكتب عادة إلى الأمراء للترضية والمدح أو التذير والتأمين ، تمهيداً لما يزمعه لهم السلطان من عقوبة أو قتل .
(زيادة : السلوك ج ١ ص ٨٥٢ حاشية ٢) .

الملوطة :

وجمها ملايط ، قباء واسع الكمين طويلهما يلبس فوق الفرجية ، وكانت تصنع أحياناً من الحرير الخالص أو السكتان الرقيق ، وكانت لباساً قومياً في عصر المماليك .

(Dozy : Dict. Vet. Ar.)

المماليك الأحداث :

هم المماليك الخديشو العهد بالخدمة ، وربما قصد باللفظ المماليك الأراذل أو السفلة .
(زيادة : السلوك ج ١ ص ٦٤٣ حاشية ١) .

ماليك الأمراء :

هم المماليك التابعون للأمراء مباشرة ، ومنهم تتألف الوحدات الحربية التي يذهب بها الأمراء مع السلطان في حروبه .

المماليك البرانية :

المماليك والأمراء الذين ليسوا من الخاصكية ، ويقال لهم أيضاً الخرجية .

(المقرئى : المواعظ ج ٢ ص ٢١٧) .

المماليك الجوانية :

المماليك الخاصكية .

الممالك الحرسية :

هم الممالك الذين يوكون بحراسة مكان من الامكنة .

الممالك الخاصة :

قسم من الممالك السلطانية يتميزون عن بقية الممالك السلطانية بانضوائهم وهم صغار في خدمة السلطان ؛ وهو الذى يتولون تربيتهم وعقوبتهم .

الممالك السلطانية :

مشتريات السلطان وجلبانه ، وما يتبقى عنده من ممالك من سبقه في السلطنة ، ومرتباهم جميعاً من ديوان المفرد .

المناخ :

وجمه مناخات ، وهى الامكنة المخصصة لأنواع الجمال السلطانية — كالاصطبلات لأنواع الخيل — وجميعها كانت تابعة لإدارة الاصطبلات السلطانية .

(خليل بن شاهين : زبدة كشف الممالك ص ١٢٥ ، المقرئى : المواظع ج ٢ ص ٢٢٤ — ٢٢٥) .

منجنيق :

وجمه مجانيق ، آلة من خشب لقذف الحجور على العدو إلى مسافات بعيدة .

(الفلقشندى : صبح الاعشى ج ٢ ص ١٢٧) .

منشور :

وجمه منشور ، وهى فى الأصل كل ما يصدر عن السلطان من مكاتبات لا تحتاج إلى ختم كالمكاتبات الخاصة بالولاية ومنح الإقطاعات .
(الفلقشندى : صبح الاعشى ج ١٣ ص ١٥٨) .

المنطقة ، المنطق) :

أخرج من الأحزمة التي توضع حول الوسط ، ويكون غالباً من الذهب
أو الفضة وأحياناً من الجلد أو القماش . وجاء في دوزي أنه لا يجهز
للرجال التحلي بالذهب والفضة إلا في ثلاثة مواضع هي الخاتم والمنطقة
وحلية السيف .

(Dozy : Dict. Vet_Ar. p. 420.)

المنفر :

الذي ينفخ البوق .

المهتار :

لقب يطلق على كبير كل طائفة من غلمان البيوت ، فيقال مهتار
الشرابخانة ومهتار الطشت خاناه ، ومهتار الركاب خاناه .
(الفلقشندي : ج ٥ ص ٤٧٠ . أبو الحسن : النجوم ج ٩ ص ٤٧ ،
حاشية ٣) .

المهندار :

هو الذي يتلقى الرسل والعربان الواردين على السلطان وينزلهم دار
الضيافة ويتحدث في القيام بأمرهم .
(الفلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ٢٢ ، ج ٥ ص ٤٥٩) .

المواريث الحشرية :

هي تركات من يموت ولا وارث له .

الموجب :

ما يدفعه التجار على متاجرهم وأموالهم بنسبة مقررة .
(زيادة : السلوك ج ١ ص ٩٥٥ حاشية ١) .

المودع :

وجمعه مودعات ، وهو صندوق لحفظ مال مخصوص لغرض معين ،
ومودع الحكم صندوق يوضع في عمدة قاضي انقضاء لحفظ احوال
اليتامى القصر وأموال الغائبين أيضا .
(زيادة : السلوك ج ١ ص ٨٦٤ حاشية ٣) .

المؤدب :

معلم المذاهب ، الذي يقوم بتعليم أيتام المسلمين ويشرف عليهم علميا
وخلقيا .

الميعاد :

درس ديني للوعظ والإرشاد والحث على التقوى . وكان أهم هذه
المواعيد ميعاد الرقائق (رقائق الحديث النبوي) .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

الميعات :

وظيفة من الوظائف الهامة في المؤسسات الدينية ، يتولاها مؤلف عارف
بالمواقيت والفلك وعلم الهيئة ، ويعرف من يباشر هذه الوظيفة
بالميعاتي . وكان يعتمد في تحديد الزمن وأوقات الصلاة على المرولة
والساعة الرملية وغيرها من الآلات .
(عبد اللطيف إبراهيم : دراسات ، مجلد ٢ تحقيق ١٩٦٦) .

(ن)

الناس :

استعمل هذا اللفظ في مصطلح مؤرخي عصر المماليك بمعنى الرؤساء

أو الزعماء أو الأمراء . وقد وجدت فرقة من فرق الجيش المالكي
سميت باسم أولاد الناس ، سميت أبناء أمراء المالكي فقط .
(زيادة : السلوك ج ١ ص ٦٩٠ حاشية ٢) .

ناظر :

وجمه نظار ، وم كبار الموظفين ورؤساء الدواوين الذين شاركوا
الوزير في تصريف أعماله . وقد تنوعت ألقاب النظار حسب الأعمال
التي قاموا بها ، فنظار الجيش يتحدث في أموال الجيوش وحساباتها ،
ونظار الخاوص ينظر في خاص أموال السلطان ، ونظار الدولة يشارك
الوزير في التصرف عامة ، ويسمى الأخير ناظر الدواوين أو ناظر
النظار أو صاحب الشريف ومقره ديوان النظر .
(القلقشندي : صبح الأعشى ج ٥ ص ٤٦٥ - ٤٦٦) .

ناظر الأهراء :

يقوم صاحب هذه الوظيفة بالإشراف على شئون الخلال السلطانية
وما يصل إليها من خلال وما يصرف منها .
(القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ٣٢) .

ناظر البيوت :

يتولى هذه الوظيفة عادة أحد أرباب القلم ، ليقوم بمشاركة الاستادار
— وهو من أرباب السيف — في إدارة البيوت السلطانية كلها من
المطابخ والشرايطخانه والحاشية والغلمان .
(القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ٢٠ ، ٢١) .

ناظر الدواوين الحشرية :

هو الذي يقوم بالتحدث على ديوان الموارث الحشرية ، بمن يموت

- ٤٨١ -

ولا وارث له ، أو له وارث لا يستغرق ميراثه ، مع التحدث في إطلاق
جميع الموتى من المسلمين وغيرهم .
(القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ٣٣) .

نَدَب :

وجمعه أنداب ، وهو كيس صغير يسع خمس بندقات .
(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

نَدَب :

نَدَب النشاب اللعب به ، يقال لعب أندابا في الميدان ، وكان عارفا
بأنداب الحرب .

(كتر مير ج ٢ مجلد ٢ ص ٩٨ أبو المحاسن : النجوم ج ٧ ص ٦٨٧
Dozy : Supp. Dict. Ar.)

النَصْفِيَّة :

وجمعهما نصافي ، قماش من نسيج الحرير والكتان . وربما أطلق اللفظ
على ثياب من القطن الخشن .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

النَقْرَة :

انظر الفضة .

نَقِيب :

وجمعهما نقباء ، وكان عمل صاحب هذه الوظيفة عند السلطان أو الأمير
تأدية الخدمات الصغيرة لميده .

(القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ٢١ - ٢٢) .
(٣١ - العصر المالكي)

نقيب الجيش :

هو الذى يتكفل بإحضار من يطلبه السلطان من الأسراء وأجناد
الحلقة ونحوهم .

(القلقشندى : صبح الاقشى ج ٤ ص ٢١ ، ج ٥ ص ٤٥٦)

نقيب الممالك :

يبدو أن المقصود بهذه الوظيفة مقدمة الممالك وموضوعها ، التحدث
على الممالك السلطانية والحكم فيهم ، .

(القلقشندى : صبح الاقشى ج ٤ ص ٢١ ، زيادة السلوك ج ٢ ،
ص ١٦٥ حاشية ١) .

النوبة :

الوقعة الحربية ، ويقال ضربت النوبة أى صدر الأمر للمسكر بالتهكير .
(زيادة : السلوك ج ١ ص ٤٦١ حاشية ٢) .

النوبة :

اسم لآلات الطرب إذا عزفت سويًا ، أو لمجموعة من المطربين إذا
اجتمعوا (أوركستر) .

النوبة :

فرق الجند التى تتناوب الوقوف لحراسة شخص السلطان ، وهى خمس
يكون تغييرها فى الظهر والعصر والعشاء ونصف الليل وعند الصباح .

النوبة :

انظر خيل النوبة .

النشابة :

يسمى صاحب هذه الوظيفة نائب السلطنة والنائب الكافل ، وكافل
الممالك الإسلامية . وهو يحكم في كل ما يحكم فيه السلطان ويعلم في
التقاليد والتواقيع والمناشير وغير ذلك مما يعلم عليه السلطان . وهناك
نواب أقل درجة أشبه بالحكام المحليين ، لا يختص الواحد منهم إلا بما
يتعلق بمحدوده نيابته .

(الفقه العندى : صبح الأهنى ج ٤ ص ١٦) .

(٨)

الهرجة :

هناك من يعمل خاصة في الحلى كالأساور والعقود وغيرها ، بأن يصاغ
في أطرافها حلقات صغيرة أو يجعل في جوانبها نقوب ، ومفرد هارج .
(زيادة : السلوك ج ٢ ص ٣٩٣ حاشية ٤)

الهناب :

قدح الشراب

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

(٩)

وافدى :

وجمعه وافدية ، ويقصد به الغريب الوافد إلى البلد جديد ، وأصلق هذا
اللفظ على الترك والتتر الذين وفدوا على دولة المماليك في مصر
والشام . واختص به — بوجه خاص — الأفراد الذين هاجر
معظمهم من بلاد المغول إلى مصر وافدين مستأمنين أحراراً لا أجلاً

— ٤٨٤ —

ملوكين . واندج كثير من أولئك الوافدية في فرق الممالك السلطانية
حتى وصلوا إلى أرفع مناصب الدولة ، غير أنهم ظلوا دون الممالك
الذين جلبوا رقيقا ، لأن الوافدية لم ينشأوا نشأة مالكية .
(زيادة : السلوك ج ٢ ص ٨ ، ص ٧٥٠) .

الورق :

الدراهم الورق — بفتح الواو أو ضمها — هي الدراهم المضروبة .

ورقة :

وجمعها أوراق ، استعملت في عصر المماليك بمعنى الصك الذي يكتبه
المدين للدائن .

وزير الصحبة :

يكون صاحب هذه الوظيفة وزيرا متنفذا ، يرافق السلطان في أسفار •
وحروبه ليقوم بوظيفة الوزير ويصرف القسئون ، وذلك ليتسنى
للوزير الأصلي أن يقيم بالقاهرة حيث مقر عمله .

(زيادة : السلوك ج ١ ص ٦٢٧ حاشية ٢) :

وطاء :

جمعها أوطية ، وهو الخداء .

(Dozy : Supp. Dict. Ar.)

الوطاق :

الحيمة الكبيرة التي تعد للعظماء .

الوكالة :

فندق لنزول التجار وبضائعهم ودوابهم للبيع والشراء .

— ٤٨٥ —

(ى)

أيرك :

رئيس المجلس ، ومن براقب من مضي فيقبعه .

(أبو المحاسن : النجوم ج ٧ ص ١٧٣) .

* * *

قائمة المراجع

التي ورد ذكرها في حواشي الكتاب

أولا : المراجع العربية :

— إبراهيم على طرخان :

مصر في عصر دولة المماليك الجراكمة

(القاهرة ١٩٦٠)

— ابن الأثير :

الكامل في التاريخ ١٢ جزءاً

(القاهرة ١٣٥٧ هـ)

— أحمد هزوت عبد الكريم :

التقسيم الإداري لسورية في العصر العثماني

(مقال نشر في حواشيه كلية الآداب)

— ابن الأخوة :

معالم القرية في أحكام الحسبة

(كبرج دج ١٩٣٧)

— آدم ميتز :

الخطابة الإسلامية

(القاهرة ١٩٥٧)

— ابن إلياس :

كتاب تاريخ مصر المعروف باسم بدائع الزهور

طبعة بولاق في ثلاثة أجزاء (١٣١١ - ١٣١٢ هـ) ، وكذلك

رجعنا في الأجزاء الأخيرة من المتن إلى طبعة جمعية

المستشرقين الألمانية التي قام بتحقيقها دكتور محمد مصطفى .

— ٤٨٨ —

— ابن أيك :

كنز الدرر أو الدرر المطلوب في أخبار بني أيوب

(مخطوط)

— ابن بطوطة :

رحلته ، المسماة نفحة النظر في غرائب الأقطار وعجائب الأسفار

(باريس ١٨٨٠)

— البلاذرى :

فتوح البلدان

(القاهرة ١٣١٨ هـ)

— البلوى المفرى :

رحلته ، المسماة تاج المفرق في تحلية علماء المشرق .

(مخطوط)

— بيهرس الدوادار :

زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة .

(مخطوط)

— توفيق اسكندر :

نظام المقايضة في تجارة مصر الخارجية .

(مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ١٩٥٧) .

— توماس أرنولد :

الدعوة إلى الإسلام

ترجمة حسن إبراهيم حسن وعبد المجيد طه الدين واسماعيل النحر اوى .

(القاهرة ١٩٥٧)

— ٤٨٩ —

ابن الحاج :

المدخل — أربعة أجزاء .

(القاهرة ١٩٢٩)

ابن حبيب :

درة الأسلاك في دولة الأتراك .

(مخطوط)

ابن حجر :

الدور السكينة في أعيان المائة الثامنة .

(الهند ١٩٢٩)

أربعة أجزاء

حسن أحمد محمود :

الإسلام والثقافة العربية في أفريقية .

(الطبعة الثانية — القاهرة ١٩٦٣)

حسن الباشا :

التصوير الإسلامي في العصور الوسطى

(القاهرة ١٩٥٩)

حسن عبد الوهاب :

تاريخ المساجد الأثرية

(القاهرة ١٩٤٦)

جزءان

الحالدي :

كتاب المقصد الرفيع للملها الحالدي لديوان الإنها

(مخطوط)

— ٤٩٠ —

— ابن خرداذبة :

الممالك والممالك

(لندن ١٨٨٩)

— الخطيب :

زهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان

(مخطوط)

— ابن خلدون :

العبر وديوان المبتدأ والخبر .

(يولاق ١٢٨٤ هـ)

— خليل بن شاهين الظاهري :

رعدة كشف الممالك وبيان الطرق والممالك .

(باريس ١٨٩١)

— ابن دقاق :

الجزهر الثمين في سير الملوك والملاطين

(مخطوط)

— ديمان :

الفنون الإسلامية ، ترجمة أحمد محمد عيسى .

(القاهرة ١٩٥٣)

— رشيد الدين الحمذاني :

جامع التواريخ

نقله إلى العربية محمد صادق نفحات ومحمد موسى هندواي

وفؤاد عبد المعطي الصياد .

(القاهرة ١٩٦٠)

— ٤٩١ —

— زكى محمد حسن :

١ - فنون الإسلام (القاهرة ١٩٤٨)

٢ - أطلس الفنون الزخرفية والتماوير الإسلامية .

(القاهرة ١٩٥٦)

— ابن زابل :

آخرة الممالك .

نشره عبد المنعم عامر

(القاهرة ١٩٦٢)

— ديتريش شتين :

تاريخ سلاطين الممالك

(لندن ١٩١٩)

— سبط بن الجوزى

مرآة الزمان

(الهند ١٣٥١ هـ)

— السبكي :

معهد الذمم ومبيد النقم

(لندن ١٩٠٨)

— السبكي :

طبقات الشافعية الكبرى ، ستة أجزاء

(القاهرة ١٣٢٤ هـ)

— السخاوى :

التبر المسبوك فى ذيل السلوك .

(القاهرة ١٨٩٦)

— السخاوى :

الضوء الالامع لأهل القرن التاسع .

(القاهرة ١٩٣٤-١٩٣٦)

— سعاد ماهر :

عقود الزواج على المنسوجات الاثرية

(القاهرة ١٩٦٠)

— سعيد عبد الفتاح عاشور :

١ — الحركة الصليبية (جزءان) (القاهرة ١٩٦٣)

٢ — قبرس والحروب الصليبية

(القاهرة ١٩٥٧)

٣ — المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك .

(القاهرة ١٩٦٢)

٤ — مصر فى عصر دولة المماليك البحرية .

(القاهرة ١٩٥٩)

(القاهرة ١٩٦٣)

٥ — الظاهر بيبرس

— أكسيد الباز العراني :

الإقطاع الحربى بمصر زمن سلاطين المماليك .

(القاهرة ١٩٥٦)

— مهدى الظاهر بيبرس (خمسون جزءاً) (القاهرة ١٩٢٦)

— السيوطى :

تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين القائمين بأمر الله .

(القاهرة ١٣٥١)

— ٤٩٣ —

— السيوطى :

حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة

(القاهرة ١٨٨١)

— السيوطى :

غزوات قبرص ورودمس .

(فينا ١٨٨٤)

— ابن شاكركى :
عيون التواريخ .

(مخطوط)

— ابن شاكركى :
غزوات الوفيات .

(بولاق ١٨٨١)

جزءان

— أبو شامة :

كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين

(القاهرة ١٢٨٧ هـ)

— ابن الهدى :

أخبار الأعيان فى جبل لبنان .

(بيروت ١٨٥٩)

— الشربى (يوسف بن محمد بن عبد الجواد) :

من القحوف فى شرح نصيدة أبى شادوف .

(بولاق ١٨٩٠)

— الدهرانى :

لوائح الأنوار فى طبقات السادة الأخبار

(القاهرة ١٨٨١)

جزءان

— ٤٩٤ —

- صالح بن يحيى :
تاريخ بيروت
(بيروت ١٩٢٧)
- عبد الرحمن فهمي :
النقود العربية ، ماضيها وحاضرها .
(القاهرة ١٩٦٤)
- عبد الطيف إبراهيم علي :
١ — المكتبة المملوكية
٢ — دراسات تاريخية وأثرية في وثائق من عصر المماليك
(رسالة تصنف الطبع)
(القاهرة ١٩٦٢)
- عبد الوهاب عزام :
محاسن السلطان الغوري .
(القاهرة ١٩٤١)
- ابن هريرة :
مجانب المقدور في أخبار تيمور .
(القاهرة ١٢٨٥ هـ)
- علي إبراهيم حسن :
دراسات في تاريخ المماليك البحرية .
(القاهرة ١٩٤٨)
- حماد الدين الكاتب :
الفتح القسوي في الفتح القدسي .
(القاهرة ١٣٢٢ هـ)

— العيني :

عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان

(مخطوط)

— العيني :

السيف المهند في تاريخ الملك المؤيد

(مخطوط)

— أبو الفدا :

المختصر في أخبار البشر

١٤ جزءاً

(القاهرة ١٣٢٥هـ)

— ابن الفرات :

تاريخ الدول والملوك

(بيروت ١٩٣٦-١٩٤٢)

— ابن فضل الله العمري :

التمريف بالمصطلح الشريف .

(القاهرة ١٣١٢هـ)

— ابن قاضي شهاب :

الإعلام بتاريخ أهل الإسلام

(قبل تاريخ الإسلام) .

(مخطوط)

— القلاشندى :

صبح الأعشى في صناعة الإنشا

١٤ جزءاً

(القاهرة ١٩١٣-١٩١٢)

— ٤٩٦ —

— القيروان :

المونس في أخبار إفريقية وتونس

(تونس ١٢٨٦ هـ)

— ابن كثير :

البداية والنهاية .

أربعة أجزاء

(القاهرة : ١٣٥٨ هـ)

— أبو المحاسن (ابن تفرى بردى) :

المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافى

ثلاثة أجزاء

(مخطوط)

— أبو المحاسن :

النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة .

رجعنا إلى طبعة دار الكتب المصرية حتى نهاية الجزء

الثاني عشر (٥٨٠٨) ، وبعد ذلك رجعنا إلى طبعة كاليفورنيا

لشر وليم بير (كاليفورنيا ١٩٣١) .

— أبو المحاسن :

مورد اللطافة فيمن ولى السلطنة والخلافة .

(كبردج ١٧٩٢)

— محمد جمال الدين سرور :

١ — دولة الظاهر بيبرس

(القاهرة ١٩٦٠)

الطبعة الثانية

٢ — دولة بني فلان في مصر

(القاهرة ١٩٤٧)

— أبو محمد عبد الله باخرمه :

تاريخ نغر عدن

(لندن ١٩٣٦)

— محمد كرد علي :

خطط الشام

(دمشق ١٩٢٥)

جزءان

— محمد كمت التنبكتي :

تاريخ القتاش في أخبار البلدان والجيش وأكابر الناس

(باريس ١٩١٢)

— محمد مصطفى :

١ — صفحات لم تنشر من بدائع الزهور لابن إياس

٢ — انظر ابن إياس .

— محمد مصطفى زيادة :

١ — نهاية السلاطين المماليك في مصر

(مجلة الجمعية المصرية لدراسات التاريخ ، ١٩٥١)

(٣٢ — المص المماليك)

— ٤٩٨ —

٢ — المحاولات الحربية للاستيلاء على جزيرة رودس .

(مجلة الجيش ١٩٤٦)

٣ — حملة لويس التاسع على مصر وهزيمته في المنصورة

(القاهرة ١٩٦١)

— محمود محمد عرناوس :

تاريخ القضاء في الإسلام

(القاهرة ١٩٣٤)

— يحيى الدين بن عبد الظاهر :

١ — اللطاف الخفية من المنصورة الشريفة السلطانية الملكية

(القاهرة ١٩٢٠) . الأشرفية .

٢ — تشریف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور

(القاهرة ١٩٦١) نشر مراد كامل

— المسعودي :

مروج الذهب (جزءان)

(باريس ١٨٦١ - ١٨٧٧)

— مصطفى محمد مسعد :

الإسلام والنوبة في العصور الوسطى .

(القاهرة ١٩٦٠)

— ٤٩٩ —

— مفضل بن أبي الفضائل :

النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد

(باريس ١٩١١)

— المقرئ :

١ — إغاثة الأمة بكشف الغمة ؛ نشره محمد مصطفى زيادة وجمال الدين محمد الشيال .

(القاهرة ١٩٤٠)

٢ — البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأهراب .

نشره ومثقفه (جوتنجن ١٨٤٧)

٣ — السلوك لمعرفة دول الملوك

نشره وحققه محمد مصطفى زيادة حتى نهاية سنة ٧٥٥ هـ ؛
ورقية المكتاب مخطوط بدار الكتب المصرية .

٤ — شذور المعقود في أخبار النفود .

(اسطنبول ١٢٩٨ هـ)

٥ — المواظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار .

طبعة بولاق في جزئين (١٢٧٠ هـ)

والطبعة الأهلية في أربعة أجزاء .

(القاهرة ١٩٠٧ م)

— نظير حسان معداوى :

نظام البريد في الدولة الإسلامية

(القاهرة ١٩٥٣)

— ٥٠٠ —

— النويرى : (أحمد بن عبد الوهاب)
نهاية الأرب في فنون الأدب .

(مخطوط)

— النويرى السكندرى (محمد بن قاسم بن محمد)
الإمام بالإعلام فيما جرت به الأحكام والأمور المتضمنة في واقعة
الاسكندرية (جزءان)

(مخطوط)

— ابن واصل :
مفرج الكروب في أخبار بني أيوب . نشره وحققه جمال الدين
الشبال حتى نهاية سنة ١٠٦٥ هـ . وبقية المكتاب مخطوط .

— ابن الوردى :
تاريخ ابن الوردى (جزءان)

(القاهرة ١٩٣٩)

— ٥٠١ —

تالياً : المراجع العربية :

— Allau :

The Cambridge Shorter Hist. of India.
(Cambridge, 1924)

— Alvarez :

Portuguese Embassy
(Glasgow, 1905)

— Arnold :

The Caliphate

— Atiya :

Egypt and Aragon
(Lepzig, 1938)

— Beazley :

Note Book of Med. History
(Oxford, 1917)

— Coulbeaux :

Hist. Politique et Religieuse de l'Abyssinie.
(Paris, 1929)

— Demombynes :

La Syrie a l'époque des Mamelouks
(2 vols.)
(Beirouth, 1921)

— Demombynes :

Masalik Alabsar
(Paris, 1927)

— Diehl :

Venice
(Paris 1916)

— ٥٠٧ —

- D'O Hsson :
Hist, des Mongols (4. Vol).
(Amsterdam, 1852)
- D'O Hsson :
Tableau de l'Empire Othman.
(Paris, 1824)
- Grousset :
Hist. des Croisades et du Royaume
Franc. de Jerusalem (3 vol.)
(Paris, 1934)
- Hauteccour, et Wiet :
Les Mosquées du Caire.
(Le Caire, 1932)
- Heyd :
Hist. du Commerce de Levant au
Moyen Age. (2 vols).
(Leipzig, 1885)
- Hobson (R. L.) :
A Guide to the Islamic Pottery of the
Near East.
(London 1944)
- Howorth :
The Hist. of the Mongols (4. vols.)
(London, 1885)
- Ibrahim Salamaï :
L'Enseignement Islamique en Egypte.
- Joinville :
Hist. de Saint Louis
(Paris, 1874)
- Kammerer :
Le Regime et le Status des Etrangers en
Egypte
(Memoires de la S. R. G. d'Egypte —
Tome 15 — Le Caire. 1929.

— ••• —

- King :
The Knights Hospitallers in the Holy
(London, 1931)
- Lane—Poole :
A Hist. of Egypt in the Middle Ages.
(London, 1936)
- Lane—Poole :
Med. India Under Mohammesian Rule.
(London, 1912)
- Machaut :
La Prise de l'Alexandrie
(Geneva 1877)
- Mac. Michael :
Hist. of the Arabs in the Sudan.
(London, 1922)
- Makhlaras :
Recital Concerning the the Sweet Land of
Cyprus. (Oxford, 1932)
- Marco Polo :
Travels. (2 vols)
(London, 1903)
- Piloti :
L'Egypte au Commencement du Quinzieme
Siecle.
(Le Caire, 1930)
- Quatremere :
Memoire sur l'Egypte. Hist. de Sultans
Mamlouks de l'Egypte — 2 vols.
(Paris, 1837—1845)
- Reinaud :
Traité de Commerce entre la republique
de Venice et les derniers sultans Mameloucs
d'Egypte.
(J. A. 2m Serie — Tome 4 — Paris, 1829)
- Ronciere :
La Decouverte de l'Afrique au Moyen Age.
(S. R. G. d'Egypte, 1925)

— 004 —

- Runciman :
A Hist. of the Crusades (3 vols.)
(Cambridge, 1957)
- Schefer :
Le Voyage d'Outremer de Jean Thonau.
(Paris, 1864)
- Schlumberger :
Prise de Saint Jean d'Acre En l'an 1291
Par l'armée de Soudan d'Egypte.
(Paris, 1914)
- Setton :
A Hist. of the Crusades
(Pennsylvania, 1958)
- Stevenson :
The Crusaders in the East.
(Cambridge, 1907)
- Van Berchem :
Titres Califiens
(J. A. 1907)
- Wiet :
L'Egypte Arabe
(Paris, 1928)
- Wiet :
Lampes et Bouteilles en Verre émaillé
Catalogue General du Musée Arabe du
Caire.
(Le Caire, 1929)
- Wiet :
Objets en Cuivres: Catalogue Genral du
Musée Arabe du Caire.
(Le Caire, 1932)
- Ziada :
Foreign Relations of Egypt in the 15 th
Century.
(Thesis).

فهرس الموضوعات

صفحة

مقدمة ج - د

الفصل الأول : قيام دولة المماليك في مصر ١

- نشأة نظام المماليك في الدولة الإسلامية (ص ١) - ازدياد نفوذ المماليك في عصر الأيوبيين (ص ٣) - المماليك البحرية (ص ٤) - المماليك البحرية وإنزال الهرمية بالفرسبين (ص ٧) - نهاية الدولة الأيوبية في مصر (ص ٩) - السلطنة شجر الدر (ص ١١) - السلطان المعز أيك (ص ١٥) - السلطان المنصور على بن أيك (ص ٢٢) .

الفصل الثاني : المماليك والتتار ٢٦

- سقوط الخلافة العباسية في بغداد (ص ٢٦) - التتار في الشام (ص ٢٨) - السلطان المظفر قطز (ص ٣٠) - موقعة عين جالوت (ص ٣٢) - توحيد مصر والشام (ص ٣٦) - السلطان الظاهر بيبرس (ص ٣٨) - علاقة المماليك بتتار فارس بعد بيبرس (ص ٤٦) .

الفصل الثالث : المماليك والصليبيون ٥٢

- الشرق الأدنى بين خطرين (ص ٥٢) - لويس التاسع في بلاد الشام (ص ٥٥) - الظاهر بيبرس والاستيلاء على أنطاكية (ص ٥٨) - أبناء الظاهر بيبرس (ص ٦٦) .

صفحة

السلطان المنصور قلاون والصليبيون (ص ٦٩) - السلطان
الأشرف خليل بن قلاون (ص ٧٣) - طرد البقايا الصليبية
من الشام (ص ٧٤) .

الفصل الرابع : المماليك والنوبة ٧٧

مصر والنوبة قبل قيام دولة المماليك (ص ٧٧) - السلطان
الظاهر بيبرس والنوبة (ص ٨٠) - السلطان المنصور
قلاون والنوبة (ص ٨٤) - السلطان الأشرف خليل
والنوبة (ص ٩٢) - السلطان الناصر محمد والنوبة
(ص ٩٨) - العلاقة بين دولة المماليك والنوبة في أواخر
العصور الوسطى (ص ١٠٠) .

الفصل الخامس : بيت قلاون ١٠٣

السلطان الأشرف خليل بن قلاون (ص ١٠٥) - السلطان
الناصر محمد بن قلاون (ص ١٠٧) - السلطان العادل كتبغا
(ص ١١٠) - السلطان المنصور لاجين (ص ١١٣) - سلطنة
الناصر محمد الثانية (ص ١١٥) - السلطان المظفر بيبرس
الجالشكير (ص ١١٨) - سلطنة الناصر محمد الثالثة
(ص ١٢٢) - عصر أولاد الناصر محمد (ص ١٢٥) -
الوباء الأسود (ص ١٣٢) - عصر أحفاد الناصر محمد
(ص ١٣٤) - حملة بطرس لزوجنان على الإسكندرية
(ص ١٣٥) .

صفحة

الفصل السادس : دولة المماليك الجراكسة ١٤٠

أصل المماليك البرجية وتكوينهم (ص ١٤٠) - ظهور
 المماليك البرجية على مسرح الحوادث (ص ١٤٣) - ازدياد
 نفوذ الجراكسة (ص ١٤٩) - برفوق وتأسيس دولة
 المماليك الجراكسة (١٥١) - خصائص دولة المماليك
 الجراكسة (ص ١٥٨) - السلطان الظاهر برفوق (ص ١٦٠) -
 تيمورلنك ودولة المماليك (ص ١٦٤) - عصر أبناء
 برفوق (ص ١٦٦) - السلطان المؤيد شيخ المحمودى
 (ص ١٦٢) - السلطان الأشرف برسبای وفتح قبرس
 (ص ١٦٩) - السلطان الظاهر جتق وغزو رودس
 (ص ١٧٧) - دولة المماليك فى أواخر أيامها
 (ص ١٨٠) - السلطان الأشرف قانصوه الغورى
 (ص ١٨٥) - سقوط دولة المماليك (ص ١٨٧) .

الفصل السابع : بلاد الشام فى عصر سلاطين المماليك ٢٠٠

امتداد نفوذ المماليك إلى الشام (ص ٢٠٠) - التقسيم
 الإدارى لبلاد الشام فى عصر المماليك (ص ٢٠٥) -
 المجتمع الشامى فى عصر المماليك (ص ٢١٣) - ثورات
 الشام فى عصر المماليك (ص ٢٢٠) أثر ليايات الشام
 فى أحوال دولة المماليك (ص ٢٣٠) .

صفحة

الفصل الثامن : العلاقات الخارجية ٢٢٣

الممالك ومغول القفجاق (ص ٢٣٤) - الممالك والدول
الإسلامية في آسيا (ص ٢٣٧) - سلطنة الممالك والدول
الإسلامية في شمال أفريقيا (ص ٢٤٣) - العلاقة بين
سلطنة الممالك والسودان الغربي (ص ٢٥٠) - العلاقة
بين سلطنة الممالك والحبيشة (ص ٢٥٣) - العلاقة بين
سلطنة الممالك ودول التركان (ص ٢٦١) - الممالك
والعثمانيون (ص ٢٦٦) - الممالك والدولة البيزنطية
(ص ٢٧١) - سلطنة الممالك والقوى الأوروبية (ص ٢٧٥) .

الفصل التاسع : النشاط الاقتصادي ٢٨٤

الزراعة (ص ٢٨٤) - الصناعة (ص ٢٨٨) - التجارة
الخارجية (ص ٢٩٢) - التجارة الداخلية (ص ٣٠٨) -
المالية العامة (ص ٣١٠) - السياسة النقدية (ص ٣١٥) .

الفصل العاشر : الأحوال الداخلية ٣٢٠

بناء المجتمع (ص ٣٢٠) - ثورات العربان (ص ٣٢٦) -
الحياة في المدن (ص ٣٣٠) - الثورات والفتن السياسية
(ص ٣٣٥) - المجاعات والأوبئة (ص ٣٣٧) .

الفصل الحادي عشر : الحياة العلمية والدينية ٣٤١

النشاط العلمي في عصر الممالك (ص ٣٤١) - المدارس
والمكتبات (ص ٣٤٢) - المكتبات (ص ٣٤٥) -
المباني (ص ٣٤٧) - النشاط الديني (ص ٣٤٨) -

ملحة

التصوف والروايا (ص ٣٥١) - الخلافة العباسية
(ص ٣٥٤)

الفصل الثاني عشر : نظم الحكم والقضاء ٣٦٠
النظام الإقطاعي (ص ٣٦٠) - السلطان (ص ٣٦٣) -
النظام الإداري (ص ٣٦٦) - الدواوين (ص ٣٧١) -
القضاء والمظالم (ص ٣٧٨) .

الفصل الثالث عشر : الفنون ٣٨٣
العمارة (ص ٣٨٥) - الرسم والتصوير (ص ٣٨٧) -
النحت والحفر (ص ٤٠٣) - الفنون الصغرى (ص ٤٠٥)

كشاف شرح أم المصطلحات

الواردة في مراجع العصر المالكي ٤٠٩ - ٤٨٦
المراجع ٤٨٧ - ٥١٢

فهرس الخرائط

صفحة

- ١ - بلاد الشام والجزيرة في العصر المماليكى ٦١
- ٢ - ملكة النوبة المسيحية ٩٣
- ٣ - قبرس في العصور الوسطى ١٧١
- ٤ - دولة المماليك في أقصى اتساعها ٢٥٥

فهرس الصور

- ١ - جامع السلطان حسن بالقاهرة ١٢٩
- ٢ - سبخرة من عصر المماليك ٢٩٣
- ٣ - صورة غزال على إناء من خرف ٣٨٩
- ٤ - إناء من الزجاج المموه بالمينا ٢٩١
- ٥ - ثوبا من النحاس ٢٩٣
- ٦ - سيفان من الصلب المكففت بالذهب ٢٩٧
- ٧ - مشكاة من الزجاج ٣٩٩

للمؤلف

- ١ - قبرس والحروب الصليبية ١٩٥٧
 - ٢ - أوروبا العصور الوسطى ،
الجزء الأول - التاريخ السياسي
الطبعة الثالثة ١٩٦٤
 - ٣ - أوروبا العصور الوسطى .
الجزء الثاني - النظم والحضارة
الطبعة الثانية ١٩٦٣
 - ٤ - مصر في عصر دولة المماليك البحرية ١٩٥٩
 - ٥ - الجامعات الأوربية في العصور الوسطى . ١٩٥٩
 - ٦ - النهضة الأوربية في العصور الوسطى وبداية الحديثة ،
بالاشتراك
الطبعة الثانية ١٩٦٥
 - ٧ - المجتمع العربي
بالاشتراك مع مجموعة من أساتذة جامعة القاهرة ١٩٦٢
 - ٨ - الظاهر بيبرس . ١٩٦٣
 - ٩ - المذبة الإسماعيلية وأثرها في الحضارة الأوربية . ١٩٦٢
 - ١٠ - المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك . ١٩٦٣
 - ١١ - الحركة الصليبية -- جزءان : ١٩٦٣
 - ١٢ - ثورة شعب . ١٩٦٤
 - ١٣ - العصر المماليكي في مصر والشام . ١٩٦٥
- القائمة لسير . . .

